



الحركة الماركسية في مصر (1967 - 1981)

تأليف ومراجعة: جينارو جيرفازيو
ترجمة: بسمة محمد عبد الرحمن
كارميني كارتولانو

الحركة الماركسية فى مصر

(١٩٦٧-١٩٨١)

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

– العدد: 1604

– الحركة الماركسية في مصر

– جينارو جيرفازيو

– بسمه محمد عبد الرحمن

– كارميني كارتولانو

– الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

Intellettuali e marxismo in Egitto

Gennaro Gervasio

Copyright © Gennaro Gervasio

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-27354526 Fax: 27354554

الحركة الماركسية فى مصر (١٩٦٧-١٩٨١)

تأليف ومراجعة : جينارو جيرفازيو
ترجمة : بسمة محمد عبد الرحمن
وكارمينى كارتولانو



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جيرفازيو ، جينارو
الحركة الماركسية فى مصر (١٩٦٧ - ١٩٨١)
تأليف ومراجعة : جينارو جيرفازيو، ترجمة: بسمة محمد
عبد الرحمن وكارمينى كارتولاتو
ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠
٤٥٢ ص ، ٢٤ سم
١ - اليمين واليسار - أحزاب سياسية
٢ - الماركسية - مصر
٣ - مصر - تاريخ - العصر الحديث - ثور السادات
(١٩٧٠-١٩٨١)
(أ) عبد الرحمن ، بسمة محمد (مترجم)
(ب) كارتولاتو ، كارمينى (مترجم مشارك)
(ج) جيرفازيو، جينارو (مراجع)
(د) العنوان ٣٢٤,٢١٧

رقم الإيداع ٥٩٧٢ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى : 2 - 992 - 479 - 977 - 978 - I.S.B.N
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

9 مقدمة للطبعة العربية
13 مدخل
 الفصل الأول: مصر من عبد الناصر إلى السادات (١٩٦٧-١٩٨١)
29 ١- أزمة النظام بعد الهزيمة
38 ٢- رد فعل النظام
38 أ- إدارة الأزمة الداخلية وإعلان بيان ٣٠ مارس
 ب- دبلوماسية "المعايير المزدوجة" بين حرب الاستنزاف
43 وخطة روجرز
53 ٣- مصر السادات
53 أ- من القيادة الجماعية إلى الانقلاب
60 ب- في البحث عن الشرعية
75 ٤- بطل العبور. مصر السادات الجديدة
78 أ- الانفتاح الاقتصادي
84 ب- "صديقي كيسنجر" إعادة هيكلة السياسة الخارجية
 ج- تصفية الناصرية و"الديموقراطية الموجهة" انتخابات
97 ١٩٧٦
112 ٥- الأزمة والسقوط
 أ- انتفاضة يناير ١٩٧٧ ونتائجها المنطقية على السياسة
112 الداخلية
122 ب- التصالح مع إسرائيل: من القدس إلى كامب ديفيد
135 ج: إضفاء الشرعية على الديكتاتورية

الفصل الثانى: المثقف المعاصر ومولد الماركسية فى مصر

- 149 ١- المثقف العربى: تعريف صعب
- 154 ٢- مولد المثقف المعاصر
- 154 أ- اللقاء مع الغرب
- ب- التيارات الثقافية فى مصر بين القرن التاسع عشر
- 157 والعشرين
- 164 ٣- نشأة الاشتراكية والماركسية فى مصر
- 166 أ- المسائل الخاصة بالتعريف وتقسيم المراحل
- 168 ب- دور الأقليات: نشأة وقمع "الحركة الشيوعية الأولى"
- 178 ج- مصادر الماركسية المصرية: تعريب وترجمات
- 182 ٤- بين الاستعمار والتحرير: الحركة الشيوعية الثانية
- 182 أ- من نشأة الحلقات الثقافية حتى تأسيس المنظمات الماركسية
- 189 ب- نحو الوحدة: حركة طلابية وحركة عمالية

الفصل الثالث: الماركسية والنظام الناصرى

- 198 ١- المثقفون والماركسية والسلطة الناصرية حتى ١٩٦٥
- 217 ٢- اليسار المصرى بعد ١٩٦٥
- 226 ٣- اليسار المصرى فى مواجهة النكسة

الفصل الرابع: الماركسية فى عهد الثورة المضادة

- 240 ١- السادات واليسار والمثقفون قبل حرب أكتوبر
- 240 أ- اليسار الرسمى بين السلطة والمعارضة
- 252 ب- الحركة الطلابية وإحياء اليسار الراديكالى
- 267 ٢- اليسار الرسمى والسلطة: تقييم لفجوة

267	أ- السياسة الثقافية الجديدة للسادات و"الطلبة" بعد حرب ١٩٧٣
278	ب- للجل الداخلي والقطيعة مع السلطة وميلاد حزب التجمع.....
297	ج- بين القمع والمقاومة
315	٣- الحركة الشيوعية الثالثة: الميلاد الجديد والقمع والأزمة
316	أ- تطور اليسار الراديكالي: مولد وأزمة الأحزاب
317	أ-١: الحزب الشيوعي المصري
332	أ-٢: الحزب الشيوعي المصري "٨ يناير"
337	أ-٣: حزب العمال الشيوعي المصري
348	أ-٤: الحزب الشيوعي المصري "المؤتمر"، "ح. ش. م. م".....
352	أ-٥: عصابة التروتسكيين
355	ب- أيديولوجية الحركة الشيوعية الثالثة: نظرة عامة
365	استنتاجات
377	بيلوجرافيا

مقدمة الطبعة العربية

مرت أربعة أعوام على مناقشة رسالتى للدكتوراة بجامعة نابولى "الأورينتالى"، وأكثر من ستة أعوام من البحث الميدانى اللازم لتأليف هذا الكتاب الذى أسعد بتقديمه الآن إلى القراء العرب وخاصة المصريين.

والحقيقة أننى، رغم أن الفترة التى استغرقتها ترجمة ومراجعة النص كانت طويلة ومرهقة، استفدت فى هذه السنوات بالكثير من المناقشات، مع بعض أبطال هذا الكتاب الذين كان بوسعى أن أقدم إليهم الاستنتاجات التى توصلت إليها.

ورغم مرور زمن بين الممسودة الأولى والشكل الحالى، فأنا مقتنع باختيار تقديم طبعة مراجعة ومحدثة ومنقحة للنص فى الطبعة العربية. وأعتقد أن الفكرة المبدئية للنص - وهى تقديم تاريخ "محاط بالتعتيم" سواء من جانب التاريخ الرسمى أو الجزء الأكبر من الأكاديميين فى الغرب وفى مصر - هى فكرة لا غنى عنها إذا أردنا أن نفهم تجربة المتقنين العرب والمصريين بصورة مكتملة وبوجه خاص بعد هزيمة ١٩٦٧. والحقيقة أن تاريخ اليسار المصرى بأقسامه واتجاهاته المختلفة يمثل جزءًا لا يتجزأ من تاريخ مصر الحديث وليس مجرد "تاريخ بديل" ولا غنى عنه إذا أردنا إعادة تفسير تاريخ مصر منذ النكسة وحتى وفاة السادات (١٩٨١) بدقة.

بعد هذا التوضيح، ينبغى أن أحدد ومن الآن أن هذا الكتاب المقدم للقراء المصريين والعرب لا يدعى أنه الرؤية النهائية لتاريخ اليسار المصرى فى أعوام السبعينيات فما هو إلا محاولة لفتح مساحة للجدل بعد مرور ثلاثين عاما على انتهاء التجربة التى يتناولها هذا البحث. ويمكننا أن نقول، بمعنى ما، إن هذا الكتاب

هو محاولة لتتويج التلوج على أمل أن تتمخض المناقشات والمجادلات التي تلي نشره عن نسج خيوط قصة منسية منذ زمان سواء من خلال الرقابة المفروضة من أعلى أو حتى الرقابة الذاتية لأبطالها أنفسهم في بعض الأحيان.

ولهذا، فإذا كنت واثقا من قدرتي على طرح بعض استنتاجاتي كمحاولة لفتح الجدل فمن الضروري بالنسبة لي من جانب آخر أن أرحب ببعض الإضافات التي طرحت على سواء أثناء المناقشات التي ذكرتها آنفا مع المناضلين أو من خلال الندوة التي لا تنسى التي عقدت في مركز الدراسات العربية والأفريقية في الجزيرة في نوفمبر ٢٠٠٥ بدعوة من الأستاذ حلمي شعراوي.

أولا، من الواجب توضيح أنه حين يتحدث النص عن "حدود" اليسار فإنه يتحدث عن حدود "برامجية" وليس عن حدود "نظرية". فمن الواضح كما لاحظ بعض المناضلين الذين ناقشوا دراستي أن "القضية الوطنية" ينبغي أن تكون القضية الرئيسية التي تفرض نفسها داخل البلاد التي تشهد احتلالا لجزء من أراضيها، ذلك أن التراث الماركسي كذلك، بدءا من لينين إن لم يكن من ماركس نفسه، يعطي أهمية أساسية للصراع الوطني من أجل التحرير" وللدور الذي ينبغي للماركسيين أن يلعبوه في هذا الصراع. وعلى أي حال، فإذا تراءى لي أنه ينبغي أن أسلم بهذه التتقيقات، فإنه يبدو لي أن من الضروري، وكمساهمة شخصية في الجدل، تكرار استنتاجاتي التي ترى أن التركيز على موضوع "الخيانة الوطنية" حتى حين أتم الرئيس تقريبا الخطوات الحاسمة تجاه الصلح مع إسرائيل (١٩٧٨-١٩٧٩) سواء في الصحافة الماركسية "الرسمية" أو "السرية" يمثل عنصرا أساسيا إذا أردنا البحث عن تفسير لاغتراب الجماهير المتزايد عن اليسار، وعن تفسير الأزمة الداخلية للمنظمات الماركسية الراديكالية ثم حلها وربما أيضا النمو السريع للمنظمات الإسلامية في السياسة والمجتمع المصري.

وقبل الانتهاء من هذه المقدمة الموجزة وتسجيل أنني أتحمل المسؤولية كاملة عن المحتوى، أرغب في أن أسجل أن هذا العمل الطويل لم يكن ممكنا دون الوجود الكريم، الذي تحول إلى صداقة في كثير من الأحيان، لأبطال هذا النص أي

المتقنين والمناضلين الماركسيين المصريين. وقبل أى شيء أشكر "عائلة محمد عبد الرحمن المر" التى ساعدتني على البدء فى المسيرة المتشابكة والساحرة والمثيرة للجدل لليسار المصرى الراديكالى، حيث أعادت خلق أجواء السبعينيات لى. وبالإضافة إلى ذلك وفيما يخص المساهمة فى البحث، من حيث المصادر ومن حيث تواجدهم الشخصى لا أستطيع أن أنسى هاتى شكر الله و أحمد بهاء الدين شعبان و حسنين كشك و أحمد كامل رغم علمى أننى أظلم آخرين هكذا بعدم ذكر أسمائهم. وكذلك أشكر محمد عبد المنعم شلبي "لمصاحبتة" لى فى حوارات لا تنتهى لعمل تعديلات على المسودة الأولى للنص وعلى صداقته الحاضرة دوما.

يطيب لى كذلك أن أنكر الحوارات "اللامعة" مع خليل كلفت، فى پيزا ٢٠٠٧ وبعدها فى القاهرة، والتى منحتنى مفاتيح لتأملات لا تحصى.

ولا يفوتنى أن أشكر المترجمين الصديقين بسمة محمد عبد الرحمن و كارمينى كارتولانو لمجهودهما الكبير فى نقل نثرى المعقد أحيانا إلى العربية؛ فلهما الشكر الجزيل! كما أشكر جزيل الشكر الأستاذة الدكتورة أماتى فوزى حبشى التى قدمت لنا المسودة الأولى لترجمة المدخل.

وأخيرا وليس آخرا، أحب أن أنكر بمحبة أولئك المناضلين والأصدقاء الذين لم يتسنّ لهم رؤية عملى منشورا. وأشير بالتحديد إلى أحمد عبد الله الذى شاركنى فى أرشيفه الشخصى و محمود أمين العالم الذى "أهدانى" مذكراته النقدية وأخص بالشكر "الشيخ" يوسف درويش على مكالمات الصباح الباكر والحوارات للطويلة التى لا تنسى فى بيته؛ فإليهم جميعا وإلى المشرف على الرسالة المرحوم الأستاذ بيير جوفاتى دونينى ولكل مناضلى اليسار المصرى فى الماضى والحاضر أهدى كتابى هذا عارفا أنه إذا كان الأشخاص يموتون والمنظمات تنتهى فإن أفكار العدالة التى عاشوا وتناضلوا فى سبيلها لا تموت أبدا.

چينارو چيرقازيو

القاهرة، ديسمبر ٢٠٠٩

مداخل

لا شك في أن الانقلاب الذي قام به الضباط الأحرار في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وأطاح بالنظام الملكي، وشكل حكومة جديدة "ثورية"، يمثل لحظة حاسمة في تاريخ مصر المعاصر. والواقع أن "ثورة يوليو" مثلت خطأ فاصلاً، واضحاً وعميقاً، ليس فقط من وجهة النظر المؤسسية، بل أيضاً مع النظام الليبرالي الذي ولد عام ١٩٢٢، نتيجة للاستقلال الرسمي عن البوالة الاستعمارية: بريطانيا.

وبالإضافة إلى هذا، كان بروز البكباشي جمال عبد الناصر كـ "رجل قوى" في الطغمة العسكرية بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٤ - في نظر العديد من المؤرخين - بمثابة "بداية ثانية" للتاريخ الحديث للبلاد، الذي يتوافق، ليس فقط مع نزول نابليون في بر مصر ١٧٩٨، بل بصورة أعمق مع الوصول الحاسم للضباط العثماني محمد علي، رأس الأسرة المالكة المصرية، إلى السلطة (١٨٠٥)^(١).

وهكذا فإنه كما ألفت ديناميات إقليمية ودولية الضوء على أهمية مصر الخديوية في الصراع بين القوى الكبرى الأوروبية في عصر الإمبريالية، فقد حدث بصورة مماثلة أن المنطق الحديدي للاستقطاب الذي فرضته الحرب الباردة،

(١) فيما يتعلق بتحديد الفترات الزمنية للتاريخ المصري الحديث، تم الرجوع إلى الدراسة الحديثة والواقعية التي كتبها Roussillion, Alain, "Republican Egypt interpreted: revolution and beyond" in The Cambridge History of Egypt, vol. 2, "From 1517 to the end of 20th century", ed. Daly, M. W. , Cambridge, CUP, 1998, p. 334-335.

بالإضافة إلى مسألة "محلية" في الأصل كالقضية الفلسطينية، وضع النظام الجديد "الناصرى"، بالطبع في تلك الفترة، تحت أضواء السياسة الدولية.

والواقع أن الحجم الهائل من الدراسات والأبحاث والمطبوعات من كل نوع المخصصة لتجربة مصر الناصرية (١٩٥٤-١٩٧٠)، سواء في الغرب أو في البلدان الأفروآسيوية، يفوق الاهتمام الذي حظى به أى بلد عربى آخر في نفس الفترة، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار المطبوعات التى ظهرت بينما كانت التجربة ما تزال جارية.

ولا يعود هذا الاهتمام إلى الأهمية "التقليدية" لمصر على رقعة الشطرنج السياسية للشرق الأوسط، بقدر ما يعود إلى دور "الفارس" في الصراع ضد الإمبريالية والصهيونية، هذا الدور الذى لعبه عبد الناصر منذ مؤتمر باندونج في ١٩٥٥. ومنذ تلك اللحظة، "خرجت مصر من حدودها الخاصة"، كما أوضح فؤاد عجمي عن حق، لتصبح رمزاً للاستقلال والمقاومة في نظر الشعوب النامية، وفي مقدمتها، دون شك، الشعوب العربية، التى وجدت رمزها الملهم بصورة متزايدة في بطل السويس، الذى استطاع مقاومة العدوان الثلاثى من جانب قوى الإمبريالية القديمة والجديدة في ١٩٥٦^(١).

ومع أن عبد الناصر لم يكن "مبتكر" الوحدة العربية أو "القومية العربية"، التى كانت قد تبلورت في دوائر المثقفين في سوريا الكبرى (الشام)، فقد كان دون شك، وفقاً للمؤرخ المغربى عبدالله العروى، "بطل المرحلة الوحيدة" (١٩٥٨-١٩٦٧) في التاريخ العربى المعاصر^(٢).

(١) Ajami, Fouad, The Arab Predicament: Arab Political Thought and Practice Since 1967, Cambridge, CUP, 1992 (II edition), p. 90-ss

(٢) Laroui, Abdallah, The Crisis of the Arab intellectual: Traditionalism or historicism?, Berkeley, University of California Press, 1976, p. VII

ويمكننا بالتالي، مقتفين أثر عجمي مرة أخرى، أن نؤكد أنه منذ عام ١٩٥٢ فصاعدا كانت توجد إلى جانب "مصر المصريين"، مصر أخرى على الأقل هي "مصر، مرآة العرب"، ومصر ثالثة، لـ "استعمال واستهلاك" المراقبين، والدارسين، والصحفيين، والسياسيين الغربيين، ملوثة وفقا لوجهة نظر المراقب، بمعانٍ بالغة التنوع، من "الطليعة الاشتراكية في العالم الثالث" إلى "المركز المستقبلي لنشر الشيوعية"^(١).

والواقع أن هزيمة ١٩٦٧، التي تُشكل بالفعل نهاية "التجربة الناصرية"، كانت علامة الخط الفاصل الحقيقي للنظام الثوري، لكنها لم تضعف، إلا جزئياً، هبة هذا البلد والدور الرمزي الذي كان يمثلته. والحقيقة أن وصول السادات إلى السلطة، على نحو شكلي في البداية ثم بصورة فعلية بعد ذلك نتيجة للانقلاب، أو "ثورة التصحيح"، في ١٩٧١، وبسياسته التي قادت إلى إعادة مصر إلى المعسكر الغربي، مضحياً حتى بـ "القضية المقدسة"، القضية الفلسطينية، كان من شأنه أن يعيد هذا البلد من الناحية الفعلية، وليس على سبيل المجاز فقط، إلى "الحدود الصغيرة" لدولة مندمجة في المجتمع الدولي.

غير أننا، إذا أخذنا في الاعتبار وجهة نظر الخارج في النظام فإنه لا مناص من إبراز حدث مبادرة السلام التي قام بها السادات، والتي تم تشييدها بالرحلة الشهيرة إلى القدس في نوفمبر ١٩٧٧، باعتبارها اللحظة التي تمت فيها "القطيعة الكبرى" مع الفترة الثورية السابقة، وذلك من وجهة نظر الجانب الأكبر من المراقبين، ومن بينهم نشطاء سياسيون محليون تم تهميش أدوارهم من قبل النظام.

(١) ونجد مثالا حياً على ذلك في دراسة كل من: Pajetta, G. Carlo, Socialismo e mondo arabo, Roma, Editori Riuniti, 1970 e Laqueur, Walter Z. , Comunismo e nazionalismo nel Medio Oriente, Roma, Opere Nuove, 1959.

ومنذ بداية عملية السلام، وحتى توقيع المعاهدة في ١٩٧٩ وما تلاها، تركز الجدل التاريخي والسياسي والصحفي، على الطريقة التي يجب أن نقرأ بها العلاقة أو الانتقال بين النظامين، باعتبار أن مبارك الذي تولى الحكم بعد رحيل السادات في ١٩٨١ قد اقتفى أثر من سبقه. وباختصار، وكما أوضح آلان روسيون Alain Roussillion، في كتابه الرائع، جرى فرض "نموذج" الاستمرار-الانقطاع الذي تم وضعه بدوره في إطار تفسيري آخر، إطار "ثورات التاريخ" التي تبدأ من محمد علي^(١).

والحقيقة أن التركيز الشديد المكرس للأحداث المصرية المعاصرة والذي استمر على الأقل حتى نهاية الفترة الأولى التي أعقبت اغتيال السادات، سواء في الصحافة كما في المؤسسات الأكاديمية، كان الدافع وراء ثراء نادر على مستوى الدراسات، بعمق متفاوت بالتأكيد، غير أنه كان يشكل، بمعنى ما، حدًا له. والواقع أن "الأثر الجانبي" لهذا الاهتمام قد تجسد في واقع أن أبحاث الدارسين الأجانب ولكن حتى العرب، عن مصر الثورية نادرا ما اختلفت عن تحليلات المؤسسة السياسية-العسكرية الحاكمة منذ يوليو ١٩٥٢. وجرى، بالتالي، تخصيص الجانب الأكبر من الدراسات، العلمية أو الصحفية على السواء، لشخصيات الرؤساء والنظام الأوتوقراطي والشمولي الذي أقاموه للاحتفاظ بالسلطة. وكثيرًا ما أكد تحليل كهذا عدم أهمية الجماعات المعارضة للحكم، باستثناء الإخوان المسلمين ومنظمات أخرى تنتمي إلى الإسلام السياسي الراديكالي، الموضوع الرئيسي للأبحاث في السنوات الأخيرة^(٢). والحقيقة أن الدراسات عن البلاد "النامية" كانت

(١) Roussillion, Alain, Republican Egypt interpreted. . . , cit. , p. 336-337

(٢) وهنا لا يجب أن ننسى أن من المؤكد أن اهتمام الدارسين بالإسلام السياسي في مصر كان قد سبق ظاهرة "الأصوليين الجدد" التي بدأت في السبعينيات وكان السادات أشهر ضحاياها. وبالنظر فقط إلى الدراسات التي كتبت بلغات أوروبية، يكفي هنا أن نذكر الدراسة الكلاسيكية لريتشارد ب. ميتشل، Mitchell, Richard P. , The Society of =the Muslim Brothers, London - New York, Oxford University Press, 1969

تركز في أكثر الأحيان على "الدولة" كموضوع وحيد للتحليلات، فكانت لا تأخذ في اعتبارها المجموعات "البديلة" أو "الهامشية"، إلا عندما تشكل تلك الأخيرة تهديدًا فعليًا لوجود النظام، كما حدث، تمامًا، مع الحركات التي كانت تهدف إلى أسلمة المجتمع، منذ أوائل الثمانينيات فصاعدًا^(١).

ويتوخى هذا البحث، في المحل الأول، تجاوز "الحدود" المذكورة، كما أكد المؤرخ والباحث السياسي الأمريكي رايموند بيكر Raymond Baker، الذي يجب، وفقًا له، في سبيل إعادة تفسير شاملة ومتوازنة للتاريخ المصري المعاصر، أو في أي بلدان أخرى، أن نكتب "التاريخ من الهامش" أكثر مما من "المركز"^(٢). وهذه العملية يبررها، قبل كل شيء، واقع أنه رغم أن النظام العسكري حاول منذ البداية القضاء على كل أشكال المعارضة، عن طريق قمع المعارضين أو استمالتهم

=ولكن مما لا شك فيه أن من بدأ الدراسات حول الاتجاه "الأصولي الجديد" هو الفرنسي جيل كيبيل في Gilles Kepel, *Le prophète et pharaon: les mouvements islamistes dans l'Égypte contemporaine*. Paris, La Découverte, 1984.

(١) Baker, Raymond W. , *Sadat and After. Struggles for Egypt's Political* (١) .Soul, London, Tauris, 1990, p. 289-290.

(٢) المصدر نفسه. لم يتم بعد استكشاف إمكانية تطبيق منهج مدرسة Subaltern Studies [دراسات للتابع]، والتي تكونت بين المؤرخين الاجتماعيين في الهند في الثمانينيات، على دراسات الشرق الأوسط والمغرب. وحول الموضوع نفسه تشير إلى إسهامات أبو الحاج رفعت Abou-El-Haj, Rif'at A. , "Historiography in West Asian and North African Studies since Sa'id's Orientalism", in Dirlik, Arif - Bahl, Vinay - Gran, Peter (eds), *History after the Three Worlds: post-Eurocentric Historiographies*, Lanham, Rowman & Littlefield, 2000, p. 67-84 و Heristchi, Claire, "Postcolonial Studies and Research on the Politics of the Middle East and North Africa", in *Journal of Mediterranean Studies*, vol. XIII, n. 1-2 (in stampa) ومقدمة عن الموضوعات والنظريات لدراسات التابع بوجه عام يمكن الإطلاع أيضًا على Guha, Ranajit – Spivak, Gayatri Chakravorty (a cura di), *Subaltern Studies. Modernità e (post) colonialismo*, Verona, Ombre Corte, 2002.

بتعيينهم في المناصب الحكومية، فإنه لا يمكن أيضاً إنكار أنه لم ينجح في أن يستولى على كل الحيز العام^(١).

ومن هذا التفكير الذي يطرحه بيكر تتبع ضرورة تخلص دراسة النظرية والممارسة السياسية لمجموعات المعارضة، أي المتقنين الماركسيين في حالة هذه الدراسة، من "قدر التهميش" بالنسبة إلى النظام، سواء بالتركيز على الكيان السياسي المطروح للبحث أو بفك شفرته، من خلال النصوص التي أنتجها ونظرته إلى العالم *Weltanschauung*، أو يبحث قوته وقدرته على فرض نفسه "كبديل مطروح" للسلطة الأحادية الموجودة.

ويرجع تركيز اهتمام هذه الدراسة حول تطور الحركة الماركسية في مصر، والتي قادها المتقنون في فترة ما بين النكسة واغتيال السادات، ليس فقط إلى محاولة وضع "رؤية بديلة" لـ "كتابة التاريخ" لفترة السادات، بل يهدف أيضاً إلى إظهار حدث تم تجاهله بل "تسيانه" أو يمكن القول إنه تم حصره في إطار أبحاث متخصصة، ظل يمثل حدوداً من نوع آخر. ولإثبات هذا، تكفي نظرة إجمالية على أفضل التحليلات التاريخية لفترة السادات^(٢) ذلك أنها تظهر كيف أن الباحثين قاموا، بطريقة أو بأخرى، بنقل وجهة نظر السلطة تماماً. وبالتالي ظهرت الحركات "الهامشية"، وخاصة المعارضة العلمانية، بمكوناتها الماركسي والليبرالي فقط من خلال أحداث معينة في تلك الدراسات كمجموعات تخضع للقمع، من وقت لآخر، من قبل النظام، دون أن تظهر تلك الدراسات بطريقة واضحة أن تلك المجموعات لديها رؤية بديلة للسلطة، رؤية معدة جيداً جداً وتحليلية وخاصة في حالة اليسار الماركسي.

(١) انظر: Baker, R. W. , Sadat. . . , cit. , p.

(٢) أكمل الكتب التاريخية عن مصر الساداتية هي: Hinnebusch, Raymond, Egyptian Polics under Sadat, Cambridge, Cambridge University Press, 1985; Mirel, Pierre, L'Egypte des ruptures: l'ère Sadate, de Nasser à Moubarak, Paris, Sindbad, 1982; Beattie, Kirk J. , Egypt During the Sadat Years, New York, Palgrave, 2000.

وفي هذا الإطار، تمثل هذه الدراسة محاولة أولى لإدخال "التاريخ الخاص" بالحركة الماركسية ضمن التطور التاريخي للمجتمع المصري في الفترة موضوع الدراسة، وذلك من خلال إعادة قراءة السياق العام للإنتاج الثقافي والمواقف السياسية للجماعات والأحزاب المختلفة موضوع الدراسة، أو بكلمات أخرى لاشتراكها، من الپامش، في "الحوار" السياسي الثقافي لمصر المعاصرة.

وبالإضافة إلى ذلك "الحاجز" التاريخي العام، يحاول هذا البحث أيضاً أن يجتاز "الحاجز الزمني" لتاريخ الحركة الماركسية في مصر، موضوع هذا البحث. وفيما يتعلق بالأبحاث الغربية المنشورة، فإن الدراسة الأولى المخصصة للحركات الماركسية في مصر وفي الشرق الأدنى كانت هي الدراسة "الرائدة" التي قام بها والتر لاكور Walter Laqueur، والتي كان لها محل الصدارة أثناء الحرب الباردة والتي كانت تبرز دور الأحزاب الشيوعية من خلال زعم أنها تمثل التغلغل السوفييتي في ذلك البلد. غير أنه منذ عدة أعوام فقط فإنه باستثناء المجموعة المشهورة من المقالات النقدية لـ ماكسيم رودنسون Maxime Rodinson، وهي مرتبطة بالنظرية أكثر منها بالنشاط السياسي^(١)، ظهر كتاب للمؤرخين اليساريين الأمريكيين جويل بينين Joel Beinin و زاكري لوكمان Lockman Zachary، وقد لفت هذا الكتاب أنظار الأكاديميين بمنهجية البحث الدقيقة إلى تاريخ اليسار المصري من خلال تاريخ الحركة العمالية التي لعبت الحركة الماركسية فيها دوراً من أهم الأدوار، منذ الاحتلال البريطاني (١٨٨٢) إلى إعلان الجمهورية (١٩٥٤)^(٢). وبعد أن نُشرت هذه الدراسة ظهرت دراسة للمؤرخة الأمريكية سلمى بوتمان Selma Botman، خصصتها لتاريخ الحركة الشيوعية

(١) انظر Rodinson, Maxime, *Marxisme et monde musulman*, Paris, Seuil, 1972.

(٢) انظر

Beinin, Joel – Lockman, Zachary, *Workers on the Nile: Nationalism, Communism, Islam and the Egyptian Working Class*, Princeton, Princeton University Press, 1987.

حتى عام ١٩٦٥^(١)، وتلتها دراسة أخرى قام بها رويل ميير Roel Meijer حول "الفكر العلماني" في مصر، سواء الليبرالي أو الماركسي، حتى عام ١٩٥٨^(٢).

ويمكن أن يساهم إلقاء نظرة على الإنتاج المصري في توضيح أفضل لأسباب هذا الاختيار لعدم تجاوز المرحلة الناصرية. وكان عام ١٩٦٥ هو الحد الفاصل الحقيقي والفعلى للدراسات حول الماركسية المصرية، نظرًا لأنه في ذلك العام قرر الكيانان الماركسيان؛ الحزب الشيوعي المصري والحركة الديمقراطية للتحرر الوطني "حدثوا"، حل نفسيهما لينضمّا إلى التنظيم الناصري الوحيد (الاتحاد الاشتراكي). ومنذ تلك اللحظة أنكرت الروايات "الرسمية" للنظام وجود أى تنظيم ماركسي مستقل، بالرغم من أنه كان هناك "يسار جديد"، أكثر راديكالية من السابق، قد بدأ في التشكل في أعوام ما بعد النكسة.

على أنه فيما يتعلق بالإنتاج التاريخي المصري، بما في ذلك الإنتاج الذي يغلب عليه طابع السيرة الذاتية، يجب أن نشير إلى وجود نوع من الرقابة، رقابة ذاتية في بعض الحالات، ربما تكون قد منعت حتى الآن إمكانية تحليل تطور ما يسمّى بـ "الحركة الشيوعية الثالثة".

وتقودنا صعوبة وصف أوضاع التنظيمات غير الشرعية، سواء لقربها الزمني من الأحداث أو لصعوبة العثور على إنتاجها التنظيمي-السياسي، إلى الإشارة إلى أن هناك نقصا كبيرا في الدراسات المخصصة لتجربة ما يطلق عليه لقب "اليسار الرسمي"، والتي تجمعت حول المجلة الشهرية "الطلیعة" ١٩٦٥-

(١) Botman, Selma, The Rise of Egyptian Communism 1939-1970, Syracuse, University Press, 1988. Syracuse رغم تاريخ العنوان، تتوقف الدراسة عند حل الأحزاب الشيوعية في ١٩٦٥.

(٢) Meijer, Roel, The Quest for Modernity. Secular Liberal and Left-Wing Political Thought in Egypt, 1945-1958, London, RoutledgeCurzon, 2002

١٩٧٧، وبعد ذلك فى حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى، الذى تم تأسيسه فى ١٩٧٦ من "تجمع" من المناضلين الماركسيين، واليسار الناصرى^(١).

ويجدر بنا أن تشير إلى عنصر آخر لهذا الاختيار الموضوعى والتاريخى لهذا العمل هو شبه احتكار أعمال رفعت السعيد، فى المجال التاريخى المصرى، للحركة الشيوعية. و رفعت السعيد، وهو "مؤرخ غير أكاديمى" توضع أعماله فى مكان الصدارة، حيث إنه ناشط وباحث فى الوقت ذاته، نظرًا لأنه كان منذ البداية من المناضلين الماركسيين، وهو حاليًا رئيس حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى و"قريب" من قيادة "الحزب الشيوعى المصرى"^(٢).

وإذا كان تأريخه للحركة الماركسية بين الأربعينيات والستينيات موضوع نقد ضمنى فى الأعوام الأخيرة، نظرًا لميل المؤلف الواضح إلى الحديث عن "حزبه"، على العكس من مؤلفات أخرى متعلقة بتلك الفترة^(٣)، فإن الصفحات التى خصصها

(١) أكمل دراسة تم نشرها حتى الآن عن حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى هى دراسة إيمان محمد حسن، وظائف الأحزاب السياسية فى نظام التعددية. دراسة حالات التجمع فى مصر ١٩٧٦-١٩٩١، القاهرة، الأهالى، ١٩٩٣. وحول خبرة "الطليعة" يمكن الرجوع إلى دراسة Ginat, Rami, Egypt's Incomplete Revolution: Lutfi al-Khuli and Nasser's Socialism in the 1960s, London, Cass, 1997 التى تتبع أحداث المجلة الماركسية حتى نهاية السبعينيات فقط، ومقال صلاح عيسى "لطفى الخولى والطليعة والماركسيون، محاولة فى تفسير وإنصاف للتاريخ" الذى نشر فى "الطليعة" فى العدد التذكارى (٢٠٠٠)، ص ٦٣-٨٥، ولذى يغطى التجربة بأكملها تقريبًا.

(٢) حول العمل التاريخى لهذا المؤلف وتأريخه "غير الأكاديمى" فى مصر، يمكن الرجوع إلى Gorman, Anthony, Historians, State and Politics in Twentieth Century Egypt. Contesting the Nation, London, RoutledgeCurzon, 2003 .p. 93-96

(٣) انظر أبو سيف يوسف، وثائق ومواقف من تاريخ اليسار المصرى، ١٩٤٢-١٩٥٧، القاهرة، دار الأمل، ٢٠٠٠. وينبغى أن تشير هنا إلى العمل القيم لنشر الشهادات والآراء الخاصة بالحركة الشيوعية المصرية الذى قامت به لجنة التوثيق للحركة=

السبعينيات والثمانينيات والتي نشرت في طبعة بالإنجليزية بالتعاون مع طارق إسماعيل، تبقى حتى الآن التأريخ الوحيد اليسار الراديكالي بعد عام ١٩٦٥. ويمكن أن تشير على الفور إلى أنه لا يمكن الثقة تمامًا بهذه الطبعة ليس فقط لأنها لا تتحرى الدقة في بعض المعلومات، بل لأن أكثر ما يعيبها هو كونها غير متوازنة وتميل بوضوح لصالح الحزب الذي كان رفعت السعيد قريباً منه، إلى حد أن المؤلفين لا يخصصان القليل أو حتى سطراً واحداً للحديث عن بعض المجموعات الراديكالية الأخرى^(١).

وما إن يوضع هذا العمل في بانوراما التأريخ وتتضح أهمية السردية الأصلية للحدث الماركسي في السبعينيات بدقة أكبر، فإنه يبقى أن نطرح الفرضية التحليلية للعمل. وفي الحالة التي نتعرض لها، تتبغى الإجابة - وإن بطريقة مبدئية - على سؤال لماذا اختفت تقريباً حركة مثل الحركة الماركسية في أقل من عشرة أعوام، رغم ثرائها ونشاطها في بدايات السبعينيات حتى كادت تسيطر على النشاط السياسي في الجامعات. إن التفسير العام والتقريبي الذي طُرح حتى الآن كإجابة على هذا الاختفاء؛ هو أن المثقفين والمناضلين الماركسيين انتهى بهم الأمر إلى الاستسلام أمام ضربات القمع التي وجهها إليهم النظام وإلى المنافسة القوية من جانب المنظمات الإسلامية الأصولية، التي دعمها النظام نفسه كطريقة لمواجهة الماركسية، وهو في الواقع ليس تفسيراً مقنعاً بالدرجة الكافية، أو على الأقل لا يمكن قبوله إلا كسبب من الأسباب، وبالتالي يجب تعميق ومناقشة هذا الطرح.

وإذا اعتبرنا، كما سبق وذكرنا، أن مبادرة السلام التي قام بها السادات في ١٩٧٧ كانت "لحظة الحقيقة" للمعارضة الماركسية، يكون من المستحيل التأكيد

=الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، بالتعاون مع مركز الدراسات العربية في القاهرة والذي شهد حتى الآن نشر ٤ أعداد (١٩٩٨-٢٠٠١) من إعداد عاصم الدسوقي.

(١) للاطلاع على تفاصيل ذلك، انظر الفصل الرابع، ٣.

على أن سبب "انهزام" اليسار، والذي يبدو من هذا المنظور وكأنه قام بعملية "اختفاء أو إخفاء ذاتي"، يعود إلى أنهم ضحوا بالقضية الاجتماعية في سبيل القضية الوطنية. ويبدو أن هذه الفرضية التي تُعدّ نقطة انطلاق لا بد من مناقشتها، يعززها تحليلي لصحافة المنظمات السرية ولكن أيضاً لمنشورات اليسار الرسمي، والتي يتجلى فيها "تسطيح" الماركسيين لتهمة ما أطلقوا عليه "الخيانة الوطنية" التي قام بها السادات "للقضية العربية". وبمتابعة هذا المنطق، يبقى أن نتحقق من الطريقة التي أثر بها إصرار اليسار على القضية الوطنية كشكل وحيد للتعبئة الشعبية، حتى عندما أظهرت الجماهير وحدها تلقائياً استياءها من السياسة الاقتصادية المسماة بالانفتاح، على خسارة اليسار الاتصال بالجماهير المصرية، وذلك لصالح تحركات الجماعات الإسلامية. وقد أثبتت تلك الجماعات بلا شك أنها كانت الأسرع في إدراك تطلعات المجتمع للتحويل واستطاعت أن تستتج احتياجاته، فاهتمت بأن تقدم للمجتمع بعض الخدمات الاجتماعية الأساسية التي لم تكن الدولة قادرة على تقديمها للشعب، وبالتالي فتحت لنفسها ثغرة بين الجماهير التي كانت تنن بالفعل تحت ضغط الأزمة الاقتصادية التي أدت إليها خسائر الانفتاح.

وفي هذا العمل لا تظهر هذه المنافسة إلا في الخلفية، ولا أتوى من خلال بحثي هذا تركيز تحليلي عليها، وهو الأمر الذي سيصبح في كل الأحوال سابقاً لأوانه، نظراً لقلة الدراسات وعدم توفر الوثائق، لكنني أثرت أن أشير قبل كل شيء إلى "التربة" التي مهتت لنمو وتطور الحركة الماركسية المصرية القوية والتميزة، كظاهرة تستجيب للمنطق الداخلي للتطورات قبل أن تكون رداً على ظروف خارجية محددة، رغم عدم إنكار أهمية هذا العامل الأخير. ثانياً، وفي هذا الجزء يتركز "قلب" البحث، أتوخي المساهمة في إعادة تفسير بعض الأحداث، والأفكار والمصادر الإنسانية لذلك القطاع المهم من المعارضة العلمانية، حتى بداية الثمانينيات، وذلك بطريقة تتحرى أقصى دقة ممكنة، انطلاقاً من مصادر لم ينشر أغلبها أو حصلت عليها مباشرة، من خلال سلسلة من الحوارات مع الأطراف الرئيسية.

وفيما يتعلق بالمصادر يجب أن أشير هنا إلى أنه في محاولة لتخطي الندرة الشديدة للدراسات المتعلقة بالموضوع، والتي تسبب فيها كما سبق ونكرت، تأثير كل من رقابة النظام، والرقابة الذاتية للمؤلفين والتأريخ المحلي وأيضًا بسبب قلة اهتمام "التأريخ الغربي بالمجموعات الهامشية غير الإسلامية، ولكل هذا كان لا مناص من اللجوء إلى حوارات مع "الشخصيات الرئيسية" سواء تُلحصول على معلومات مفيدة، أو لإعادة تفسير تاريخ الحركة، سواء لبناء جدال، أو للبدء في حوار مثالي بين الشخصيات بفضل الإجابات التي حصلت عليها. وبالنسبة للقاءات والحوارات حاولت أن أتصل بأكبر عدد ممكن من المناضلين، سواء الشخصيات البارزة من اليسار "العتى"، أو من المتقنين والمناضلين الذين ينتمون إلى التكوينات السرية. وفي الحالة الأخيرة يجب أن أشير إلى الصعوبة المبدئية التي قابلتني للحصول على معلومات وخاصة للتعرف على الهوية الحقيقية للمؤلفين، نظرًا لأن أسماء المؤلفين في الصحافة و(المؤلفات) السرية كانت، في حالة ظهورها، أسماء أقلام، لأسباب أمنية واضحة. إلا أنه يجب الإشارة بكل ارتياح إلى واقع أن أغلب هؤلاء المناضلين في تلك الجماعات قد وافقوا على فتح "مخزن الذاكرة"، مع إضافة، أنها كانت المرة الأولى التي يفعل فيها بعضهم ذلك، في بعض الأحيان.

وإلى جانب تلك الحوارات، فيما يتعلق بالمنظمات السرية، كانت هناك إمكانية الحصول على عدد محدود ولكن كافٍ من المطبوعات السرية - مجلات وبيانات، منشورات ونشرات - التي شكلت، بالتكامل مع كلمات المناضلين، الشبكة الخاصة بالجدل الذي حاولت إعادة تفسيره وإن بصورة جزئية. ومع ملاحظة أن الجزء الأكبر من هذه المصادر لم يتم نشره إلا بصورة سرية، فلم يستختم إلا جزء ضئيل منها، سواء بهدف أبحاث في مصر أو في مناطق أخرى، إلا أنه يجب ملاحظة أنه نظرًا للطبيعة الحرة لتلك المصادر وعدم اكتمالها، فإن العمل المقدم لا يمكن أن يقدم سوى نتائج مؤقتة من الناحية التاريخية.

فالأمر يتعلق فى الواقع بإعادة تفسير تستلزم تأكيدات بل العثور على مصادر أخرى، وهو الشيء الذى يمكن أن يعتل بصورة جزئية، خاصة فى حالة توفر الإنتاج المكتوب للمنظمات الماركسية المختلفة موضوع الدراسة والتحليل. ومن جهة أخرى، فمن خلال محاولة الخوض فى موضوع لم ينشر عنه شئ حتى الآن، بالاستناد إلى بعض المصادر التى لم تنشر بعد أيضاً، فهى محاولة للتأمل فى أحوال مصر قبل كل شئ وحول التجربة الماركسية فى السبعينيات، وذلك على أمل الشروع فى جدل تأريخى عن جزئية "منسية"، مع أنها تبدو على قدر كبير من الأهمية فى تاريخ المعارضة العلمانية فى أهم بلد من البلدان العربية وأكثرها سكاناً.

والخطة التى تم اتباعها لبناء هذا العمل تعكس للهدف المزيج الذى سبق ونكرته. فالرسالة تتكون من جزئين، ينقسمان إلى "موضوع" و "وظيفة"، وليس على أساس تعاقب زمنى. وهكذا فإن الجزء الأول يرتبط بفصل أول "طويل" يتم فيه تقديم إعادة تفسير لتاريخ المجتمع المصرى من ١٩٦٧ إلى ١٩٨١. وحول وضع هذا الفصل، فقد وجدت أنه من الأفضل ألا أقيد نفسى بتطور زمنى بسيط للأحداث، بل تمت الإشارة أيضاً إلى أحداث أخرى هى موضع تحليل فى الفصول التالية بالإضافة إلى العديد من الموضوعات التى يعتمد عليها الجزء الرئيسى فى البحث، وذلك من خلال دراسة مراجع وفيرة تم استكمالها ببعض الوثائق. وهذا الاختيار يرتبط بضرورة مزدوجة، فقد أرلت أن أزود القارئ، فى البداية، بإطار تاريخى-سياسى عميق إلى أقصى درجة، يتم فيه عرض القراءات التاريخية المختلفة للأحداث التى تم تناولها، نظراً لأن قريها التاريخى ما يزال يثير نوعاً من الجدل لا ينتهى. بالإضافة إلى ذلك ففى مجال بناء البحث يستجيب ذلك الاختيار لضرورة تحرير تناول حالة اليسار فى الفترة نفسها، موضوع الفصل الأخير، من "الإطار" التاريخى والتقسيم الزمنى "الرسمى".

أما الجزء الثانى من الدراسة فقد تم تنظيمه تبعاً لخطة تأريخية تعاقبية، ويشمل فصلين تاريخيين مختصرين لتاريخ الحركة الماركسية منذ نشأتها إلى نهاية التجربة الناصرية، يليها الفصل الرابع، والمخصص للسبعينيات. وعلى كل حال، فإن الفصلين الثانى والثالث والذين يُعدّان أقل حجماً من الفصل الأول والرابع، لا يحاولان فقط تلخيص الحالة الماركسية بل يحددان أيضاً نقاطاً أخرى على قدر من الأهمية فى التحليل المقدم. وفى الفصل الثانى بصفة خاصة، يسبق استطراد سريع حول نشأة ووظيفة المثقف العربى الحديث، بالضرورة، التناول التاريخى الفعلى. ويستجيب هذا من البداية للهدف من وضع التقليد الثقافى الاجتماعى والماركسى فى الإطار الإجمالى للفكر العربى الحديث. بالإضافة إلى ذلك فإننا نقوم، فى ذلك الفصل، بمواجهة وتوضيح مشكلات خاصة بالتعريف وتحديد فترات موضوع البحث. وفى النهاية أتعرض للتاريخ الخاص بالمراحل الأولى للحركة الماركسية ابتداءً من العشرينيات حتى الأربعينيات. وفى هذا الجزء، لا يمكن الاستغناء عن توضيح السمة الثقافية والمدنية لهذه الحركة، وهى السمة التى احتفظت بها الحركة حتى وقت كتابة هذا البحث.

أما الفصل الثالث فهو مخصص لتاريخ الحركة الماركسية أثناء الفترة الناصرية، ليس فقط لتقديم إعادة تفسير مركبة، ولكن لأن حركة السبعينيات مرتبطة بشكل كبير، من حيث أعضائها ونظرياتها وإستراتيجياتها بالفترة السابقة. وكما سبق ونكرت، فإن عام ١٩٦٥ يُعدّ بمثابة مفتاح لتاريخ الحركة الماركسية المصرية، لأنه يعتبر "النهاية الرسمية" لها، بعد قرار أعضائها الدخول فى "التيار الاشتراكى الموحد"، الذى كان يمثله "حزب" أغلبية النظام الناصرى. والجزء الأخير من الفصل الثالث، والمخصص لرد فعل الماركسيين، الذين سنطلق عليهم لقب "الرسميين"، على هزيمة ٦٧، هو رد الفعل الذى سيستخدم كتقديم للمادة المكثفة موضوع الجزء الأخير من البحث.

والفصل الرابع والمخصص للماركسية في حقبة "الثورة المضادة"^(١) هو الجزء الذي أقدم فيه النتائج التجريبية للبحث. ويمكن على الفور ملاحظة أن اختيار البداية بفصل تاريخي تمهيدى تتم فيه إعادة تفسير "التاريخ من المركز" من ١٩٦٧ إلى ١٩٨١ يشكل "الأثر الجانبى" الضرورى للجوء المستمر إلى الفلاش باك بين الفصل الأول والفصل الرابع، الذى أشير فيه إلى أحداث تم بالفعل تناولها ونقدها فى بداية البحث. وبالرغم من أن طريقة العرض هذه يمكن أن تبدو مجهدة للقارئ، إلا أنها تسمح بتركيز كل الانتباه على الحركة الماركسية، موضوع هذا البحث، ومن خلال رؤيتها الخاصة "تعايش مرة أخرى" أحداثا سبق وسمعناها تروى لنا، من خلال تلك الذى عرفناه على أنه "رؤية من الهامش".

وينبغى أن أشير إلى أن الفصل الأخير ينقسم إلى "يسارين" كانا موجودين فى مصر وذلك لسهولة العرض بطريقة دقيقة، فى محاولة لتوضيح ليس فقط علاقتهما مع السلطة، ولكن أيضاً وبالأخص لتوضيح الفروق وعلاقات التماسّ سواء على المستوى النظرى أو من خلال الحراك السياسى.

وقد توخيت من خلال اتباع هذا المنطق، ألا أركز فقط على إنتاج المتقنين فى الاتجاهين اليساريين، بل أيضاً أن أعرض العمل السياسى الذى قام به الماركسيون على الساحة السياسية الوطنية وانتهى إلى تراجع متواصل.

(١) لا يعنى اختيار هذا المصطلح إضافة مفهوم "الثورة المضادة" كما طوّره تيار أغلبية الماركسية المصرية والتي تجد أفضل صياغة لها فى كتاب غالى شكرى، Shukri, Ghali, Egypt: Portrait of a President, 1971-1981, London, Zed, 1981 الطبعة الأولى باللغة العربية: الثورة المضادة فى مصر، بيروت، ١٩٧٨. والواقع أن هذا التفسير ينطلق من تقييم إيجابى للنظام الناصرى، والواقع أن هذا البحث لا يتفق مع ذلك التفسير.

وربما يبدو شيئاً غريباً في نظر القارئ الذي يعرف مصر في عهد السادات أنني خصصت مساحة هامشية فقط لتناول الحركات الأصولية الإسلامية في ذلك الجزء الأخير. إلا أن هذا يرجع إلى ما يكاد أن يكون قلة اهتمام من جانب المتقنين الماركسيين بظاهرة النشاط الإسلامي، إلى أن بدأت تلك الظاهرة تعلن عن نفسها بأكثر من طريقة وبقوة سواء في مصر أو في دول أخرى بدءاً بإيران.

الفصل الأول

مصر من عبد الناصر إلى السادات

(١٩٦٧-١٩٨١)

١- أزمة النظام بعد الهزيمة

تمثل هزيمة الدول العربية وعلى رأسها مصر في حرب الأيام الستة في يونيو ١٩٦٧ حدًا فاصلاً تمونجياً في التاريخ العربي المعاصر بعد حرب فلسطين في ١٩٤٨، وليس من باب المصادفة أن يتحدث السياسيون والمتقنون العرب عن النكسة للدلالة على هزيمة ٦٧ كما أطلقوا تسمية النكبة على الاحتلال الصهيوني لفلسطين في ١٩٤٨.

وقد تلت الهزيمة أزمة لم تتسبب فقط في صدمة للنظم السياسية للقابضة على مقاليد السلطة والتي كانت تسمى نفسها ثورية وخاصة النظام الناصري في مصر، بل ربما مثلت أكثر من أي شيء آخر أزمة ثقافية واضعة هوية المواطن العربي، كما تم تعريفها في فترة التحرير والاستقلال الوطني، محل تساؤل. وباختصار يمكننا تأكيد أن الأزمة كانت في آن واحد سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وأنها صدمت المجتمع العربي بأكمله^(١).

(١) من بين "أدبيات الأزمة" الواسعة، انظر على سبيل المثال Laroui, Abdallah; The Crisis of the Arab Intellectual: Traditionalism or Historicism?, Berkley, University of California Press, 1976؛ صديق جلال العظم، "النقد الذاتي بعد الهزيمة"، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٨؛ تركي الربيعو "أزمة الخطاب التقني"

وكانت أزمة النظام الثوري الناصري أزمة شرعية بصورة أساسية، وكانت على مستوى أعمق أزمة "هيمنة"^(١). فقد كانت الدعاية الملحة للنظام تطرق أسماع الجماهير المصرية والعربية على مدى حوالى عقد من الزمان بشعارات الاشتراكية العربية والحياد الإيجابي والصراع ضد الإمبريالية والصهيونية التي كانت تمثل المصالح الإمبريالية في الشرق الأوسط وبقدر ارتفاع طنين البلاغة الناصرية المضادة لإسرائيل والولايات المتحدة كانت شدة الصدمة والإحساس بالضيق بالنسبة للشعب في الأيام التي تلت الهزيمة.

كانت الهزيمة عسكرية أساسا حيث تم تدمير الطيران المصري بأكمله في ساعات قليلة. وهكذا صار الجيش للمرة الأولى موضوعا خاضعا للمناقشة؛ وهو الذى كان أكثر المؤسسات احتراماً - تقريبا - باعتباره صانع ثورة ١٩٥٢ والمقاومة ضد العدوان الثلاثى فى السويس فى عام ١٩٥٦. وبالتالي فعندما انفجر الغضب الجماهيرى فى فبراير ١٩٦٨ لأول مرة، كان موجّها ضد الضباط المتهمين بالتسبب فى الهزيمة العسكرية باعتبار أنه حكم عليهم بأحكام خفيفة جدا فى رأى الطلاب والعمال.

ومن جانبه عرض عبد الناصر تنحيه عن منصبه على الشعب فى ليلة ٩ يونيو معترفا بشكل علنى بالهزيمة العسكرية موصيا بـ زكريا محيى الدين كخليفة

=العربى: الخطاب الماركسى نموذجا ١٩٦٧-١٩٩٢"، بيروت، دار المنتخب العربى، ١٩٩٥، و Ajami, Fouad, The Arab Predicament. Arab Political Thought and Practice Since 1967, Cambridge, Cambridge University Press, 1992, p. 29-88 (طبعة ثانية).

(١) للاطلاع على مناقشة حول أزمة الهيمنة، انظر Shukrallah, Hani, "Political Crisis and Political Conflict in post-1967 Egypt", in Owen, Roger-Tripp, Charles (eds), Egypt Under Mubarak, London, Routledge, 1989, pp. 63 e ss. انظر أيضا عبد العظيم رمضان "تحطيم الآلهة"، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٤.

قادر على التعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية. كان رد فعل الجماهير على الصدمة هو احتشاد مئات الآلاف في شوارع القاهرة ومصر كلها مطلقين صيحة تنادى برجوع عبد الناصر عن التّخّي، منقّنين "الريس" من السقوط ومانحين إيّاه تقويضا جماهيريا جديدا بإعادة بناء الجيش لتحرير الأراضي التي احتلتها إسرائيل. وقد مثلت مظاهرات ٩ و ١٠ يونيو أوّل مشاركة للجماهير في المشهد السياسى منذ "حريق القاهرة" فى يناير ١٩٥٢^(١).

من الواضح أن النظام خرج أقوى بفضل حركة الجماهير ولكن هذه الحركة دلت فى نفس الوقت على مطالبة الجماهير بعدم الاستسلام أمام العدو وبإشراكها بشكل أوسع فى حياة البلاد بوجه عام وفى الحرب بوجه خاص^(٢).

(١) اندلعت انتفاضة شعبية ضخمة فى القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ احتجاجًا على قيام القوات البريطانية فى الإسماعيلية بقتل عشرات من أفراد الشرطة المصرية. انظر Hussein, Mahmoud La lotta di classe in Egitto 1945-1970, Torino, Einaudi, 1973, p. 65-71 [صراع الطبقات فى مصر] (محمود حسين، اسم قلم للمتقّنين المصريين بهجت النادى و عادل رفعت)؛ Vatikiotis, Panayotis J., The History of Modern Egypt. From Muhammad Ali to Mubarak, London, OM, XXXII أيضا Weidenfeld & Nicolson, 1991, p. 371-372. انظر أيضا (1952), p. 46-47.

(٢) ماتزال أسباب المظاهرات الشعبية فى ٩ و ١٠ يناير حتى الآن أمرًا مثيرًا للجدل. ذلك أن النظام اعتقد أن هذه المظاهرات تلقائية شأنه فى ذلك شأن الماركسيين المصريين سواء المنتمين إلى التيار "الرسمى" (انظر المقالات الحديدة التى ظهرت فى الطليعة العدد السابع ، يوليو ١٩٦٧) أو أولئك الذين عرفوا فيما بعد "باليسار الجديد" (انظر تحليلات محمود حسين فى La lotta di classe in Egitto 1945-1970, p. 268-285؛ و صلاح العروسى فى مقابلة خاصة مع الكاتب، القاهرة ٩ مايو ٢٠٠١). وعلى العكس من ذلك يشكك بعض المؤرخين الأوروبيين فى تلقائية حركة الجماهير، معتقدين أنها كانت مدفوعة إلى النزول إلى الشارع من جانب جهاز القمع الناصرى (انظر على سبيل المثال Vatikiotis, The History..., p. 409-410). وقد شاركهم كذلك فى هذا التفسير بعض المتقّنين المصريين نوى للميول الإسلامية مثل محمد جلال كشك "النكسة والغزو الفكرى" الكويت، مكتبة الأمل، ١٩٦٩.

ورغم معجزة إنقاذ عبد الناصر بفعل حركة الجماهير المباشرة إلا أنه كان ينبغي عليه مواجهة الجوانب المختلفة لأزمة ما بعد الحرب بدءا بالجانب الاقتصادي. فقد كان الاقتصاد المصرى فى حالة صعبة للغاية منذ ما قبل الهزيمة، وذلك بعد فشل الخطة الخمسية الثانية ١٩٦٠-١٩٦٥. فقد توقع بيروقراطيو النظام معدل نمو يبلغ ٧% وميزانا تجاريا مع الخارج لصالح مصر يبلغ حوالى ٤٠ مليون جنيه مصرى، وهو ما توقعوا أنه إذا تحقق سيجعل من مصر "قوة اقتصادية إقليمية" ودولة مصنّرة. ويعود فشل هذه البرامج أساسا إلى نشأة "برجوازية وطنية" مكونة من بيروقراط وتكنوقراط عسكريين أو مدنيين موالين للنظام. وكانت هذه "الطبقة الجديدة"، كما تمت فورا تسميتها بشكل مثير للجدل، قد ركزت السلطة الاقتصادية فى يدها فى السنوات الأولى للسنوات مقبلة المصالح الفردية على تنمية الاقتصاد الوطنى. ورغم أن كوارر البرجوازية الحكومية كانت مكونة أساسا من عسكريين نوى أصول برجوازية صغيرة يدينون بصعودهم لثورة يوليو إلا أنهم سرعان ما سعوا إلى استغلال مراكز القمة التى احتلوها فى الشركات المؤممة فى ١٩٦١ فى تحقيق ثرائهم الشخصى. ومع الوصول إلى ثروات هائلة وبفضل سياسة تزواج مع الأرستقراطية القديمة المالكة للأراضى تخلق "الأغنياء الجدد" عن النقش الذى اتسمت به حياة للنخبة السياسية والرئيس وتشربوا بنمط حياة استهلاكى^(١). وفى هذا المجال كانت المفارقة صائمة بين الأهداف المعلنة للسياسة الاقتصادية الناصرية والطموحات الشخصية للطبقة التى كانت تستحوذ على السلطة الاقتصادية من الناحية الفعلية. وقد أدت عوامل أخرى إلى جانب فساد المديرين إلى إفلاس اقتصاد الدولة الناصرية؛ أولا، التناقض بين السياسة الشعبوية لدعم

(١) انظر Hinnebusch, Raymond A., "From Nasir to Sadat: Elite Transformation in Egypt", Journal of South Asian and Middle Eastern Studies, VII, 1 (1983), p. 45

الاحتياجات الأساسية للطبقات الفقيرة^(١) وبين ما أسماه هانى شكرالله "هوس التنمية"^(٢). هذه "العقيدة" التى حددت السياسة الاقتصادية للعديد من دول العالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانية مبلورة ما سمي "برأسمالية الدولة" التى قدمت من خلال إصلاح زراعى معتدل وتأميم الصناعات الرئيسية تنمية غير واضحة المعالم لاقتصاد دولة فى فترة ما بعد الاستعمار^(٣).

وقد أدى حدثان بالتحديد وقعا فى منتصف الستينيات إلى إضعاف اقتصاد الدولة الناصرية: فمن جانب أدى اشتراك الجيش المصرى فى حرب اليمن إلى اضطراب النظام لزيادة المصروفات العسكرية بشدة، ومن جانب آخر أدى قطع برنامج "الطعام من أجل السلام" Food For Peace فى ١٩٦٥ من جانب الولايات المتحدة الأمريكية والتى كانت تمدّ مصر بالجزء الأكبر من احتياجاتها من القمح، إلى زيادة عبء الاستمرار فى سياسة الدعم الأساسى^(٤) وفى نفس الوقت دفع عبد الناصر إلى اعتماد كبير ومستمر على الاتحاد السوفيتى.

فإذا أضفنا إلى هذا الوضع المزعزع النتائج المباشرة للهزيمة بداية بفقدان بترول سيناء ونقص موارد قناة السويس المغلقة فى وجه الملاحة بسبب الاحتلال الإسرائيلى لسيناء، يمكننا تأكيد أن طاقة التنمية قد تم استنفادها بعد عام ١٩٦٧

(١) يتمثل محور آخر للسياسة الشعبوية فى تأمين وظيفة فى القطاع العام لكل خريج جديد، وهو ما أسفر عن تضخم الجهاز البيروقراطى للدولة وانعدام كفاءته .

(٢) انظر Shukrallah, H., Political..., p. 55، انظر أيضا تحليل Cooper, Mark N., The Transformation of Egypt, London & Canberra, Croom Helm, 1982, cap. 1 e 2.

(٣) انظر Ivi, p. 16-17. Cfr. In oltre Hosseinzadeh, Esmail, Soviet Non-capitalist Development. The Case of Nasser's Egypt, New York, Praeger, 1989.

(٤) انظر Cooper, M. N., op. cit., 37.

نتيجة للركود الاقتصادى وزيادة الديموجرافية^(١) والنفقات الجديدة لاقتصاد الحرب التى كلفت البلاد حوالى ٧٠٠ مليون جنيه مصرى فى العام كتفقات عسكرية فقط^(٢).

يسلط تحليل أكثر عمقا للأزمة الاجتماعية الاقتصادية لفترة ما بعد الحرب الضوء على انتهاء الفترة التقدمية لبرجوازية الدولة^(٣)، وهى الفترة التى قبلت فيها "الطبقة الجديدة" باعتبارها "نتاجا" للسلطة السياسية نظاما داخليا قائما على الملكية العامة فى القطاعات الإستراتيجية للاقتصاد، وعلى التحالف مع الدول الاشتراكية والعزلة الناتجة عن ذلك عن النظام الرأسمالى العالمى. ولم يكن انتقال البرجوازية إلى الفترة "الرجعية" بعيدا أيضا عن أزمة الهيمنة الأيديولوجية للنظام الناصرى بعد الهزيمة فبناء على وجهة نظر هانى شكر الله انتهى "الجامع القومى" الذى وحد فى عام ١٩٥٢ غالبية شعبية ساحقة من المجتمع المصرى فى هوية ومصالح مشتركة^(٤). ورغم نزول الجماهير إلى الملعب وقتها؛ لـ "حماية" الرئيس من الحركة البرجوازية المضادة للثورة والتى جرى منحها حريات أوسع فى المبادرات الخاصة منذ عام ١٩٦٨^(٥)، إلا أن رغبتها فى الصعود السياسى جرى كبها بحسم، على الأقل حتى وصول السادات إلى السلطة وحتى حرب أكتوبر.

(١) فيما يتعلق بسياسة تنظيم الأسرة، انظر Baker, Raymond W., Egypt's Uncertain Revolution Under Nasser and Sadat, Cambridge, Mass. and London, Harvard University Press, 1978, p. 77-80

(٢) انظر Waterbury, John, Egypt: Burdens of the Past, Options for the Future, Bloomington, American Universities Field Staff, 1978, p. 16

(٣) انظر Shukrallah, H., Political..., cit. p. 63

(٤) نفس المصدر، فيما يتعلق بمفهوم الجامع القومى، انظر أيضا طارق البشرى "الحركة السياسية فى مصر ، ١٩٤٥ - ١٩٥٢"، القاهرة، دار المستقبل العربى، ١٩٧٢ .

(٥) انظر فى موضع لاحق فى هذا الفصل.

ترتبط أزمة النظام ارتباطا وثيقا بالصعوبات الاقتصادية والاجتماعية. وإذا صح أن غياب أيديولوجية محددة أو فكر سياسى خلف حركة الضباط الأحرار كان واضحا منذ البداية فقد أصبح أكثر وضوحا بعد تحقيق هدف الاستقلال الحقيقى من بريطانيا العظمى، إلا أنه أصبح خطيرا للغاية بعد فشل الاتحاد مع سوريا (١٩٦١). ولا يعود السبب الأساسى لهذا النقص فى وضوح إستراتيجيات وأهداف الثورة المصرية إلى الإعداد الناقص للنخبة العسكرية فى السلطة فقط ولكن أيضا إلى إعطاء الأفضلية من قبل النظام للبىروقراط والتكنوقراط "أهل الثقة" بدلا من "أهل الخبرة" المتقنين^(١).

والحقيقة أن ميثاق العمل الوطنى لمارس ١٩٦٢؛ وهو الوثيقة التى كان من المفترض أن تمثل فى رأى عبد الناصر أساس الحركة الثورية فى داخل وخارج البلاد، كان ملخصا "للإنجازات" التى تم تحقيقها بالفعل بدلا من أن يكون نقطة انطلاق "لتحول المجتمع بطريقة اشتراكية"^(٢). وكان يجب على الرئيس أن يفهم أنه إذا كان يمكنه أن يبقى على النخبة العسكرية، والتى كان ينتمى إليها، فى السلطة بخليط من الشعبوية والسلطوية اللتين استطاع توحيدهما بشخصيته الكاريزمية، إلا أنه لم يصل إلى درجة القدرة على تغيير البنية الاجتماعية والاقتصادية لمصر جذريا بنفس الوسائل، كما أن طبقة البىروقراط والتكنوقراط الموجودة على قمة الجهاز الإدارى ما كان يمكنها أن تفعل ذلك أيضا. وفى نفس الوقت ينبغي الاعتراف بأن عبد الناصر لم يسع أبدا إلى تحريك الجموع التى تم "تحييدها" وإيقاؤها فى مستوى الحشود المهلهلة دون أن تمتلك فرصة الاشتراك بفاعلية فى

(١) انظر عادل حمودة، "أزمة المتقنين وثورة يوليو"، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٢٤٩ وما يليها بخصوص العلاقات بين المتقنين والسلطة فى مصر الناصرية، انظر أيضا Gervasio, Gennaro, "Tra repressione e autocensura: intellettuali e politica in Egitto (1952-1967)", OM, XX, n. s.(2001), p. 329-349 (٢٠٠١).

(٢) انظر التحليل السابق Baker, R. W., Egypt's Uncertain.. , p. 103-110.

إنشاء "المجتمع الاشتراكي الجديد". وأفضل دليل على هذا هو وجود الحزب الواحد (الاتحاد الاشتراكي) الذي كان عاجزا تماما بحكم هيكله المتعلق بقيادة البيروقراطيين والعسكريين عن تحريك الجماهير، بل حتى ساعدت على منعه من التحرك حيث منح مجرد وجود هذا الحزب شرعية لقمع الأحزاب الشرعية الأخرى^(١).

على أي حال اكتسب عبد الناصر هيمنته الاقتصادية والأنيولوجية على الجماهير المصرية بفضل نجاحاته المتتالية خاصة في السياسة الخارجية في سنوات الخمسينات. وقد أنتجت هزيمة ٥ يونيو آثارها الأولى: ضرورة ملحة لتغيير الاتجاه خاصة في العلاقات بين العرب.

كانت مصر منشغلة منذ نهاية الخمسينيات حتى نهاية الستينيات بما سمي "بالحرب الباردة العربية" متخذة دور البطل الممثل للنظم "التقدمية الثورية" ضد الملكيات الرجعية المرتبطة بمصالح الإمبريالية الغربية بطرق مختلفة^(٢). وقد بلغت هذه الحرب الباردة أوجها باشتراك مصر في حرب اليمن ضد المملكة العربية السعودية التي ساندت الملكية اليمنية. في نفس الوقت كان على عبد الناصر أن يتشغل أيضا بالدفاع عن نفسه ضد الاتهامات بالاعتدال التي وُجّهت إليه من قبل المقاومة الفلسطينية والنظام الذي تولى السلطة في سوريا منذ ١٩٦٦.

جاء التحول الأول للنظام الناصري بعد الحرب بالتحديد في السياسة العربية في قمة الخرطوم في أغسطس - سبتمبر والتي تحققت فيها المصالحة مع الملكيات البترولية التي قبلت بتمويل إعادة بناء الجيش المصري مقابل انسحاب هذه الأخيرة

(١) انظر Shukrallah, H., Political..., cit. p. 62.

(٢) انظر Kerr, Malcolm H., The Arab Cold War. Gamal 'Abd al-Nasir and his Rivals, 1958-1970, London- New York, Oxford University Press, 1971 (III ed.) e Flory, Maurice et alii , Les régimes politiques arabes, Paris, Puf, 1991, p. 155-170.

من اليمن وتخلي الرئيس عن تصدير "الثورة العربية" والفكر الاشتراكي^(١). عبرت صيغة "لا للصالح، لا للتفاوض، لا للاعتراف" التي أعلنها مؤتمر القمة العربية بالخرطوم عن المعالجة العربية الجديدة في مواجهاتها مع الدولة اليهودية، ومن الواضح كانت من إملاء مطالب الأنظمة الملكية أكثر من الضرورة السياسية- الدبلوماسية للجمهورية العربية المتحدة التي عانت من الهزيمة مباشرة ووجدت نفسها في مواجهة أزمة داخلية عميقة^(٢). وقد طالب البند الأخير في الاتفاق بين عبد الناصر والملك السعودي فيصل بن عبد العزيز بأن يتم استخدام التأثير الناصري من أجل التحكم في منظمات المقاومة الفلسطينية التي تمثل رد فعلها تجاه الهزيمة في إعادة التنظيم وتكثيف حرب العصابات داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة.

ووجد عبد الناصر نفسه في مواجهة ظرف صعب حتى على المستوى العالمي، حيث لم يكن راضيا عن تعامل الحليف السوفييتي قبل وبعد الهزيمة، وعن العناد العسكري، إلا أنه كان مجبرا بسبب الاستقطاب الجارى في الحرب الباردة على طلب مساعدة تقنية وعسكرية إضافية من موسكو^(٣).

(١) وفقا للخبير السياسي بهجت قرني، دخل العالم العربي في مرحلة "النفط السياسي" بقمة الخرطوم وهي المرحلة التي بدا فيها أن الملكيات الخليجية تنتزع الهيمنة العربية من مصر، انظر: Korany, Bahgat, "La nation dans tous ses Etats: dialectique unité/ diversité" in Flory et alii, p. 173-177.

(٢) من أجل تقرير عن داخل المؤسسة المصرية في قمة الخرطوم انظر محمد حسنين هيكل، Heikal, Mohamed, The Road to Ramadan, London, Collins, 1975, p. 52-55.

(٣) انظر Rubinstein, A. Z., Red Star on the Nile.. The Soviet Egyptian Influence Relationship since the June War, Princeton, Princeton University Press, 1977. Dawisha, K., Soviet Foreign Policy Towards Egypt, London, MacMillan, 1979. Heikal, M., The Road...cit., p. 48-52.

٢: رد فعل النظام

من الضروري أن نوضح بادئ ذي بدء أن عبد الناصر رغم معرفته بفداحة الأزمة الاجتماعية الاقتصادية الداخلية، كرس نفسه تقريبا للسياسة الخارجية في السنوات الثلاث التي مرت بين النكسة وبين وفاته المبكرة في سبتمبر ١٩٧٠، أو لنقل في محاولة "إزالة آثار العدوان الإسرائيلي" مفوضا إدارة الشؤون الخارجية للنخبة البيروقراطية العسكرية.

أ- إدارة الأزمة الداخلية وإعلان بيان ٣٠ مارس

في محاولة لتقليص النكسة إلى حدث عسكري بحت اتهم عبد الناصر "القوى الإمبريالية العالمية" التي كانت متحالفة مع إسرائيل ضد العرب، واتهم مع ذلك وفي نفس الوقت الجيش وقياداته العليا، بالتقصير البين. ومن الجدير بالذكر أن قائد القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة عبد الحكيم عامر كان الشخص الأقرب للرئيس، مع أنه كان يمثل بالنسبة لعدة دوائر داخلية في النظام خصمه الرئيسي وتهديدا لاستقرار نظام الحكم واستقرار مصر بأكملها^(١). وفي نهاية المطاف، اتهم عبد الحكيم عامر بتنظيم انقلاب من أجل انتزاع السلطة بالتحالف مع ضباط آخرين في الجيش وتم اعتقاله بناء على ذلك، وأخيرا عثر عليه ميتا في زنزانه في ظروف غامضة^(٢). لم يُخلِ التخلص من رأس القوات المسلحة الساحة فقط من المنافسين المفترضين على منصب الرئيس بل جاء كذلك لصالح أعضاء النخبة

(١) أكد السادات في سيرته الذاتية أن عامر كان هو القابض على مقاليد السلطة في منتصف أعوام الستينيات، وأن سلوكه السياسي الفاسد والموالى لـ عبد الناصر حرم النظام من تعاطف الجماهير. انظر، al-Sadat, Anwar, In cerca di una identità, Milano, Mondadori, 1978, p. 160-186.

(٢) انظر OM, XLVII (1967), p. 747.

الآخرين سواء في "مجموعة على صبرى" الذى كان أمين الاتحاد الاشتراكي أو في مجموعة "يمين" النظام التى كان السادات أحد أفرادها^(١). وبالإضافة إلى هذا اعتبرت "حركة الجماهير الوليدة" المكوّنة أساسا من الطلبة والعمال، وبايعاز من عبد الناصر، أن الجيش هو المسئول الأساسى عن الهزيمة وطالبت بعقاب عادل للمسؤولين.

ولم يكن أمرا مفاجئا أن انفجر الغضب الجماهيرى من جديد، وبطريقة لم يسبق أن واجهها نظام يوليو، من أجل الاعتراض على الجزاءات الخفيفة التى حكمت بها المحكمة على الضباط الذين تمت إدانتهم. بدأت المظاهرات فى ٢٠ فبراير ١٩٦٨ فى أحد مصانع حلوان، الضاحية الصناعية بالقاهرة، حين حاول العمال الهجوم على قسم الشرطة^(٢). إلا أن الجامعة صارت مركز الاحتجاج بما حدث فيها من الإضرابات والاعتصامات والمظاهرات^(٣). ومما لا شك فيه أن

(١) رغم الاتفاق مع رأى القائل بعدم الانطباق التام بين مفهومى "اليمين" و "اليسار" على الأنظمة السياسية العربية (انظر Donini, Pier Giovanni, I paesi arabi, Roma, Editori Riuniti, 1983, p. 110-112)، يقسم المؤرخ الأمريكى النظام إلى "يسار" النظام متمثلا فى مجموعة المجلة الماركسية "الطلبة" بقيادة الصحفى لطفى الخولى والعضو المؤسس من الضباط الأحرار خالد محيى الدين و"الوسط" متمثلا فى الميول المؤيدة للسوفييت والمضادة للماركسية لدى الاتحاد الاشتراكي، و"اليمين" متمثلا فى المجموعة المختلطة من الضباط الأحرار المفضلين للتقارب مع المعسكر الرأسمالى وتجميد التحول الاشتراكي للدولة.

(٢) انظر Hussein, M., La lotta..., cit., p. 297-299، وانظر أيضا OM, XLVIII (1968), p. 231-235.

(٣) سيأتى فى الفصل الأخير من هذه الدراسة تحليل أعمق للخلفية الأيديولوجية والسياسية للحركة الطلابية. بالنسبة للحركة الطلابية المصرية، انظر على سبيل المثال 'Abdalla, Ahmad, The Student Movement and National Politics in Egypt 1923-1973, London, Al-Saqi Books, 1985; Erlich, Haggai, Students and University in 20th Century Egypt, London, Cass, 1989 الطلابية فى أعوام الستينيات والسبعينيات، انظر أحمد عبد الله، أحمد بهاء الدين "الحركة الطلابية الحديثة فى مصر: تجربة ربع قرن" القاهرة، مركز الجيل، ١٩٩٣؛ كشك المصدر السابق الذكر؛ هشام السلامونى "عبد الناصر والسادات" القاهرة، دار قباء.

الشباب والعمال أثناء معارضتهم لحكم المحكمة عارضوا أيضا شرعية النظام برغم أنهم لم يضعوا الشخصية الكاريزمية للرئيس، الذي طالبوه بإصلاحات ديموقراطية في الجامعة والمؤسسات بشكل عام، موضع نقاش واضح. كما طالب جزء كبير من المتظاهرين بأن يتمكنوا من التطوع في تشكيلات عسكرية شعبية والاشتراك بأنفسهم في حرب تحرير سيناء.

في هذا المطلب الأخير للحركة من السهل تتبع المصطلح الماركسي "الشعب المسلح" لكن من الواضح في نفس الوقت أن الصبغة الوطنية كانت سائدة في المظاهرات. ومن الناحية العملية لم يطالب الطلبة بتغيير النظام بل بالاشتراك بصورة نشيطة في إدارة الدولة. لكن الرئيس الذي خرج من الهزيمة والضغط العسكري الإسرائيلي في القناة أضعف عن ذي قبل، لم يستطع ولم يرد أن يفهم ذلك، أو أن يستقبل هذه المطالبات بالديموقراطية، بل فضل أن يعتبر التحركات الطلابية تعبيراً نموذجياً عن نزعة التمرد لدى الشباب" يجمع في نفس الوقت بينهم وبين الحركة العالمية الأوسع لعام ١٩٦٨^(١).

كان رد النظام على الاحتجاجات الطلابية هو "بيان ٣٠ مارس"^(٢)؛ الوثيقة المنوط بها تمثيل البرنامج الناصري بعد هزيمة يونيه. وفي هذا البيان خفف الرئيس من البلاغة الثورية في الميثاق من أجل التأكيد على أهمية العلم والكفاءة والإنتاجية "الأهداف الجديدة لمصر بعد الحرب"^(٣). واعترف البيان بوجود مراكز القوى داخل الدولة، وجعل من انشغالاته الأساسية أن يجعل النظام يعتمد سياسة مفتوحة بشكل كبير. وحتى إذا كان البيان قد وعد في الجزء الأخير من نصه بمشاركة أكبر للجماهير في الحياة العامة وإصلاح "الاتحاد الاشتراكي" من القاعدة

(١) انظر Ajami, F., op. cit., p. 101-102.

(٢) انظر النص الكامل في الأهرام ٣١ / ٣ / ١٩٦٨ ص ١ و ٣.

(٣) انظر Vatikiotis, P. J., The History..., cit., p. 410؛ Ajami, F., op. cit., p. 104.

إلى القمة، مستجيباً بهذا المعنى للمطالب الشعبية ومطالب اليسار الرسمي^(١)، فقد كان في الواقع يرمى إلى توسيع القاعدة الاجتماعية لليمين مانحاً حرية محدودة للمبادرة الاقتصادية الخاصة ومغلقاً عملياً باب الإصلاح الزراعي والتأميم. أراد عبد الناصر بهذه الحركة، إشراك رؤوس الأموال الخاصة، المجمدة حتى تلك اللحظة، في محاولة منه لمواجهة الأزمة الاقتصادية الناشئة بكل السبل^(٢).

وباختصار، في مواجهة الخيار بين عملية تجنير السمات الاشتراكية والتقدمية للدولة والتي تتطلب مشاركة مباشرة لجموع الجماهير، وبين انفتاح حتى وإن كان جزئياً بمفهوم ليبرالي؛ اختار النظام بحسم الخيار الثاني من أجل احتياجه المتجدد لتوسيع الإجماع عليه في وضع المجهود الحربي الدائم.

لم يلبث أن اتضح أن البيان كان فقط وسيلة لتهدئة التذمر الشعبي، ففي الشهور التالية لإعلانه لم يحدث أي تغيير ديموقراطي حقيقي ولم تستطع انتخابات الاتحاد الاشتراكي وحدها أن تحقق ما أعلنه الرئيس، بل على العكس أدت قوانين جديدة إلى تعزيز السلطة المطلقة للرئيس^(٣). وباء الإصلاح الاقتصادي للدولة بالفشل، لأن القطاع الخاص الذي كان يرمى إلى تنشيطه كان صغيراً للغاية كما أظهر المستثمرون عدم ثقتهم في دولة أوتوقراطية ما زالت العناصر الاشتراكية بها قوية^(٤).

(١) انظر موقف الماركسيين في الطليعة، في ملف "٣٠ مارس في التطبيق" في الطليعة العدد الخامس (١٩٦٨) ص ١٣-٥١. انظر أيضاً تحليل Ginat, Rami, Egypt's Incomplete Revolution. Lutfi al-Khuli and Nasser's Socialism in the 1960s, London, Cass, 1997.

(٢) انظر Cooper, M.N., The Transformation..., cit., p. 44-63.

(٣) انظر Meital, Yoram, Egypt's Struggle for Peace: Continuity and Change, 1967-1977, Gainesville, University Press of Florida, 1997, p. 20-21 ؛ انظر أيضاً حكم السادات (غير المحايد على الإطلاق) في كتابه "البحث عن الذات" In cerca di una identità, cit., p. 139-140.

(٤) انظر Cooper, M. N., op. cit., 62-63.

اندلعت مظاهرات التمر الشعبى فى مواجهة الترد الذى يتخذ به النظام خطواته فى السياسة الداخلية والخارجية فى نوفمبر ١٩٦٨، ثم صبت فيها مظاهرات شعبية جديدة أكثر عنفا فى موجات من العصيان المدنى فى العديد من المدن المصرية.

ومرة أخرى كان الحدث الملهب مرتبطا بالمسألة الوطنية حين جرى عنوان إسرائيلى على موقع صناعى فى نجع حمادى فى الصعيد مخلفا قتلى واحدا وعدة مصابين^(١). وعند وصول خبر الحادث إلى الشعب المصرى فى العديد من المدن بدءا بالمنصورة، بدأ الطلاب الذين كانوا قد تظاهروا قريبا من أجل المطالبة بديموقراطية أكبر فى الجامعة وفى المعاهد العليا، الاحتجاج مع العمال والمواطنين ضد عجز الجيش عن حماية المواطنين.

ولم يقمع الغضب الشعبى الذى صار عصيانا ضد الحكومة، خاصة فى الإسكندرية، إلا بقوة السلاح من قبل الشرطة تاركا وراءه عدة عشرات من القتلى بين المتظاهرين وقوات الأمن^(٢). ورغم تقليل النظام رسميا من أهمية الاحتجاج، وأرجعه من جديد بطريقة غامضة إلى "اضطراب الشباب العالمى"^(٣)، فقد كان من الواضح أن الشعب يحتج بوضوح على السياسة الخارجية التى منحت عبد الناصر كاريزميته. كان من الواضح أيضا أنه رغم أن الانفجار الشعبى كان ذا إلهام ماركسى بالأساس^(٤)، إلا أن الجماهير لم تطرح نفسها كبديل سياسى كما لم يكن هناك وجود لمنظمة قادرة على طرح نفسها بهذه الصفة، فبقيت هذه الجماهير محصورة فى المجال الوطنى المتمثل فى "المطالبة بالمشاركة فى العمليات على الجبهة" ويرفض الحل الدبلوماسى للقضية الفلسطينية.

(١) انظر OM, XLVIII (1968), p. 799.

(٢) انظر Hussein, M., La lotta., cit., p. 322-326.

(٣) انظر البيان الرسمى لوزارة الداخلية فى il comunicato ufficiale del Ministero degli Interni in OM, XLVIII (1968), p. 789.

(٤) انظر Hussein, M., La lotta., cit., p. 326 ؛ انظر أيضا مقابلتى مع أحمد بهاء الدين شعبان، الذى كان مناضلا فى الحركة الطلابية فى ذلك الحين، القاهرة، ١٢ مايو ٢٠٠١.

وعلى كل حال فإن من الضروري أن نلاحظ أن مظاهرات نوفمبر ١٩٦٨ كان لها دور مهم في التأثير على السياسة الخارجية للنظام، الذي فتح بعد قليل العمليات العسكرية ضد إسرائيل فيما سمي بحرب الاستنزاف على طول القناة، كما كان له دور في إعادة تأهيل الجيش النظامي على غرار نموذج حرب العصابات الذي ضربته منظمات المقاومة الفلسطينية التي نالت إجماعاً "هائلاً" لدى الجماهير المصرية والعربية^(١).

ب: دبلوماسية "المعايير المزدوجة" بين حرب الاستنزاف وخطة روجرز

وضعت اللاءات الثلاثة لقمة الخرطوم ومصالح القوتين العظميين في الحفاظ على جمود الموقف ورغبة إسرائيل في تعزيز موقعها باعتبارها منتصرة في الحرب؛ قيوداً كثيرة على الحركة الدبلوماسية للنظام المصري. وقد أوضح محمد حسنين هيكل، صديق عبد الناصر، والمتحدث شبه الرسمي باسمه على صفحات جريدة الأهرام اليومية، أن مصر أصبحت في موقف أصعب، مضيفاً أنها لا تستطيع الاعتماد على حليفها الرئيسى حتى من أجل الخروج من الأزمة السياسية والعسكرية، حيث كان ذلك للحليف راضياً ببقاء الوضع على ما هو عليه وعلى تزايد اعتماد هذا البلد الشمال-أفريقي عليه^(٢). وقد أدرك الرئيس على الفور أن من الضروري نقل الصراع من أبعاده المحلية إلى مستوى عالمي ساعياً إلى إشراك الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي بأقصى قدر ممكن. ولأن عبد الناصر كان واعياً بالتفوق العسكري الإسرائيلي وبالوقت الضروري لإعادة تسليح جيشه بالشكل المناسب لجأ إلى اتباع سيادة "المعايير المزدوجة". فمن ناحية لجأ إلى مقولة "الحل السياسي" رغم استمراره في اعتبار استئناف الحرب أمراً لا يمكن الاستغناء عنه، ومن ناحية أخرى بدأ أول اتصالات سرية مع الإدارة الأمريكية حتى وإن كان مضطراً إلى الاعتماد السياسي والاقتصادي الكلي على موسكو.

(١) هنا يجب أن نشير بهدف المقارنة إلى أنه حتى قرار السلاطات بالذهاب إلى القدس في نوفمبر ١٩٧٧ بدا متأثراً بالانتفاضة الشعبية في يناير الذي سبقه.

(٢) انظر Heikal, M., The Road to Ramadan, cit., p. 165-166.

وبهذا المعنى يمكننا أن نلاحظ التخلي عن الراديكالية النضالية التي ميزت السياسة الخارجية المصرية - في الفترة التي سبقت الهزيمة^(١) - وبصورة خاصة فيما يتعلق بسلوكها تجاه الدولة اليهودية. والواقع أن الرئيس احتفظ بموقف معتدل جدا في السنوات العشر بين ١٩٥٦ و ١٩٦٦ مقتصرًا على نوع من الدعاية الحربية التي وصفها المحلل السياسي رايموند بيكر Raymond Baker بـ "التراخي النضالي"^(٢). ففي حين صرح الرئيس في الخطاب المذاعة عبر الراديو في كل العالم العربي بأن الحرب صارت وشيكة، عبّر أثناء لقاءاته بالقادة للعرب عن ضرورة تحقيق الوحدة العربية أولاً حتى يمكن حل المسألة الفلسطينية بشكل حاسم^(٣). إلا أن هذا الموقف تم التخلي عنه في عام ١٩٦٦ لصالح التحالف مع النظام الراديكالي في سوريا، الذي أيد العمليات الفدائية الفلسطينية على إسرائيل، والذي أرغم الرئيس المصري بشكل ما على التخلي عن "التراخي النضالي" ليرفع من نغمة الصراع مع إسرائيل حتى هزيمة يونيو.

وهكذا يمكننا أن نؤكد أن النظام المصري عاد بعد مؤتمر القمة بالخرطوم إلى موقفه المعتدل في أوائل الستينيات ولكن مع فارق مهم، ذلك أن عبد الناصر لم يستطع في الحقيقة أن يثق في الاسترخاء العسكري حتى وإن لم يكن في حالة تسمح بالرد المناسب، وفي وقت قصير، على العدوان الإسرائيلي، بالإضافة إلى أن القيادة في القاهرة بدأت في التصريح بشكل خفي أولاً ثم بشكل أكثر وضوحاً باتباع إستراتيجية "الخطوة خطوة"^(٤) بالنسبة لاستعادة الأراضي المحتلة. ورغم إدانة النخبة الناصرية لحل سياسي قد يتوصل إلى سلام يتناقض مع الوحدة العربية إلا

(١) انظر Kerr, Malcolm, "Egyptian Foreign policy and the Revolution" in Vatikiotis, Panayotis J. (ed.), Egypt since the Revolution, London, Allen and Unwin, 1968, p. 114-134.

(٢) انظر Baker, R. W., Egypt's Uncertain..., cit., p. 118.

(٣) انظر Vatikiotis, Panayotis J., Nasser and His Generation, London, Croom Helm, 1978, p. 255.

(٤) انظر Meital, Y., op. cit., p. 26.

أنهم بدأوا في التمييز بين الهدف المباشر وهو تحرير الأراضي المحتلة من جانب إسرائيل في عام ١٩٦٧ والهدف البعيد وهو الحل المناسب للقضية الفلسطينية^(١). والبرهان على هذه التفرقة هو القبول المصري للقرار ٢٤٢ لمجلس الأمن للأمم المتحدة المقترح من الحكومة البريطانية والمصدق عليه في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧. صرح الرئيس في الخطبة الملقاة في اليوم التالي بأهمية اعتبار الحل السياسي أمرا عمليا إلى جانب الحل العسكري^(٢)، حتى وإن كان قبول التسوية يعنى بالنسبة للكثيرين في مصر والعالم العربي الاستسلام والتخلي عن الحقوق التاريخية لفلسطين العربية بالكامل والاعتراف في الوقت نفسه ببولة إسرائيل كأمر واقع^(٣). تمخضت عن إستراتيجية "الخطوة خطوة" من ناحية أخرى مقولة ترك احتمال تقرير المصير الخاص بالفلسطينيين للفلسطينيين أنفسهم، سواء بالمقاومة في الأراضي المحتلة أو بالعمليات الفدائية من الدول العربية المجاورة لإسرائيل. هذا الطرح الذي قدمه عبد الناصر بمناسبة القرار ٢٤٢ ترك مساحة لـ "عودة أولى" لشكل من أشكال القومية المحصورة في "الوطنية المصرية"، أي وضع مصالح البلد ومن بينها استعادة سيناء فوق المصالح العربية الأعم. وهذا التحول الذي أكمله السادات في السبعينيات، تم بمساندة وتشجيع من جانب يمين النظام وبرجوازية الدولة^(٤).

(١) Ibidem.

(٢) انظر الخطاب الذي ألقاه في ٢٣ نوفمبر ١٩٦٧ في خطب وتصاريح وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر، القاهرة، مصلحة الاستعلامات، الجزء الرابع.

(٣) الاتهام بالاستسلام الموجه لـ عبد الناصر يمكن العثور عليه في كثير من كتابات الماركسيين المصريين انظر على سبيل المثال محمد حسين Hussein, M., La lotta di classe..., وكذلك في الإنتاج الفلسطيني انظر منيف الرزاز، السبيل الى تحرير فلسطين ، بيروت، الحياة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤، بالنسبة للنظرة الفلسطينية للسياسة الناصرية قبل وبعد الهزيمة في عام ١٩٦٧ انظر Sanbar, Elias, "La stella di Nasser nelle speranze frustrate dei palestinesi", Medio Oriente 1967-1987, Dossier di Politica Internazionale, n. 6-7 (1987), p. 61-64.

(٤) انظر المصدر سابق للذكر Meital, Y., op. cit., p. 27.

وقد بدأ هذا الموقف ضمن أشياء أخرى فى فقدان الرئيس لمساندة وتعاطف المتقنين للماركسيين والقوميين الذين رأوا فى الحرب ضد "الكيان الصهيونى"^(١) مقاومة ضد الاختراق الإمبريالى للشرق الأوسط أو "العامل الموحد" للدول العربية فى "ميلها الطبيعى" نحو الوحدة السياسية^(٢).

وفى ظل سياسة المعايير المزدوجة للقوتين العظميين، فهم الرئيس ومعه قادة الجيش أن الولايات المتحدة الأمريكية وحدها هى القادرة على بذل ضغط حاسم على إسرائيل، ولهذا فرغم أن العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين كانت مقطوعة رسمياً^(٣)، أبقت الحكومة المصرية على قناة دبلوماسية مفتوحة مع واشنطن، واستقبلت بترحاب تنصيب الرئيس الأمريكى الجديد نيكسون فى عام ١٩٦٨، وكذلك رغبته فى الحصول على "حل أكثر توازناً للقضية العربية الإسرائيلية"^(٤). والحقيقة أن الحلول السلمية التى طرحتها الإدارة الأمريكية كانت قريبة للغاية من الموقف الإسرائيلى الذى طالب بالاعتراف الرسمى بالدولة اليهودية من جانب الدول العربية وتوقيع معاهدات سلام منفصلة بين إسرائيل وكل دولة عربية محاربة، متجاهلة تماماً مشكلة اللاجئين الفلسطينيين. وبوضع ما سبق فى الاعتبار يتضح أن مهمة مبعوث الأمم المتحدة جونار يارنج Gunnar Jarring الذى قام بالجولات المكوكية بين القاهرة وتل أبيب بين نهاية ١٩٦٧ وبداية ١٩٦٨

(١) يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى دولة إسرائيل فى الغالبية العظمى من المنشورات العربية كما هو الحال فى العديد من الوثائق الرسمية، وذلك للإشارة إلى الطبيعة المؤقتة للدولة العبرية، وانعدام شرعيتها المزعومة فى الانتماس داخل حدود الأمة العربية.

(٢) انظر نديم البيطار، عالم الاجتماع السورى، "نظرية التكامل العربى"، فى Flory, M. et alii, op. cit., pp. 155-157.

(٣) قامت الجمهورية العربية المتحدة بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة الأمريكية من طرف واحد فى يونيو ١٩٦٧ معتبرة أن الحكومة الأمريكية متورطة بشكل مباشر فى العدوان الإسرائيلى على الدول العربية، انظر الإعلان فى OM, XLVII (1967), p. 267.

(٤) انظر "Baker, R., Egypt's Uncertain..., cit., p. 120.

قد كتب لها الفشل، رغم "الاستعداد الجديد" للحوار من جانب عبد الناصر. غير أن مصر استمرت في الحفاظ على صلات مع الولايات المتحدة الأمريكية عبر مبعوث الأمم المتحدة معلنة أن الإمكانية متاحة للاعتراف بإسرائيل في الحدود التي حددتها الأمم المتحدة في ١٩٤٧^(١).

وكان للفشل الذريع "الحل السياسي" والانقسامات الدائمة على المستوى العربي والضغط العسكري الإسرائيلي المستمر في منطقة القناة، مع تصاعد التمرر الشعبي داخل البلاد، والذي تفجر بشكل واضح في فبراير ١٩٦٨، هي العوامل التي أقنعت الرئيس باستئناف الحرب مع العدو وإن بشكل محدود. وهكذا بدأ الجيش المصري في ٨ مارس ١٩٦٩ ما سمي "بحرب الاستنزاف" في القناة.

وإذا كانت التعليمات قد أعطيت حتى هذا الوقت للقوات بعدم الاستجابة مع استفزازات العدو، فقد صار عليها من ذلك الحين فصاعدا ضرب التحصينات الإسرائيلية على ضفة القناة الشرقية مع استئناف الأنشطة العسكرية. حيث سعى النظام إلى كسر الوضع القائم، مستعيدا الاهتمام الدولي إلى الصراع العربي الإسرائيلي، ومستهدفا في الوقت نفسه الاستجابة للرفض الشعبي المتنامي في الداخل، ورغم أنه لا شك في أن التصعيد أدى إلى تهينة احتجاج الجماهير المصرية، واستعداد اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي بقضية الشرق الأوسط من جديد، إلا أن من الثابت أن حرب الاستنزاف كانت فشلا عسكريا، ليس فقط لأنها كلفت عددا هائلا من الخسائر في الأرواح البشرية والبنية التحتية المدنية والعسكرية، بالإضافة إلى إخلاء مدن القناة ووصول مهاجرين جدد إلى القاهرة؛ فالأهم من كل ذلك هو أن الطيران الإسرائيلي كثف من غاراته راميا إلى "عرض تفوقه العسكري الساحق"، وتدمير آليات الدفاع التي أشرفت على

(١) انظر Meital, Y., op. cit., p. 62.

الدمار التام في نهاية عام ١٩٦٩^(١). ونتيجة لعنف الاعتداءات الإسرائيلية، أعاد عبد الناصر تنشيط القناة الدبلوماسية الأمريكية فيما كان يسعى إلى الحصول على مزيد من شحنات السلاح من الحكومة السوفيتية^(٢).

وكما تتبأ الرئيس فقد دفع تقاوم الوضع الإدارة الأمريكية إلى اتخاذ مبادرات دبلوماسية جديدة تجسدت في "مبادرة سيسكو" و"مبادرة روجرز"^(٣) اللتين تم طرحهما في خريف ١٩٦٩. وكانت هاتان المبادرتان مبنيتين على أساس القرار ٢٤٢ وكانتا تهدفان إلى جعل وقف إطلاق النار مقدمة لاتفاقيات السلام بين مصر وإسرائيل، وقد رفض المؤتمر العام للاتحاد الاشتراكي العربي المبادرتين الأمريكيتين معلنا أنهما قريبتان للغاية من المطالب الإسرائيلية، غير أن حكومة تل أبيب رفضت أيضا نفس المبادرتين معلنة أنهما غير كافيتين لأمنها^(٤).

عندما بدأ سلاح الطيران الإسرائيلي في ديسمبر ١٩٦٩ "الضربات في العمق" التي أصابت المدن المصرية الرئيسية دون تجنب الأهداف المدنية^(٥)، بهدف إحباط الروح المعنوية للخصم ودفع الشعب إلى التمرد على زعيمه، قام هذا الأخير بزيارة سرية إلى موسكو في ٢٢ يونيو ١٩٧٠ من أجل التعجيل بتدخل مباشر للجيش السوفيتي في الدفاع عن الأرض المصرية. ومن الناحية العملية لم يطلب عبد الناصر فقط أسلحة دفاع جوي جديدة (سام ٣) بل طلب أيضا فنيين يقومون

(١) انظر عبد العظيم رمضان، حرب أكتوبر في محكمة التاريخ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧، ص ٢٦-٢٧.

(٢) قصة الاتفاقية المصرية السوفيتية الصعبة لزيادة إرسال المواد الحربية بعد ١٩٦٧ رواها بالتفصيل Rubinstein, A. Z., Red Star..., cit., p. 90-128.

(٣) كان جوزيف سيسكو مساعد المستشار القومي لشئون الشرق الأوسط وآسيا الصغرى، بينما كان ويليام روجرز المستشار القومي لإدارة نيكسون.

(٤) انظر Meital, Y., op. cit., p. 67.

(٥) كانت الغارات الجوية الإسرائيلية التي أوقعت أكبر عدد من الضحايا هي قصف مصنع أبو زعبل في ١٢ فبراير ١٩٧٠ وتدمير مدرسة بحر البقر غير البعيدة عن العاصمة في ٨ أبريل ١٩٧٠.

باستخدامها وطيارين سوفيت من أجل إبعاد الاعتداءات الإسرائيلية عن الخطوط
الأممية للجبهة. وبعد قليل من التردد^(١) وافقت حكومة الاتحاد السوفيتي على
الطلبات المصرية مدركا أن هذا يعنى إساءة إلى العلاقات مع الولايات المتحدة
الأمريكية رغم أن الاتفاقية كانت سرية إلى ذلك الحين.

فى رأى الرئيس المصرى كان من شأن التدخل المباشر للقوة العظمى
السوفيتية فى الصراع أن يدفع إدارة الولايات المتحدة الأمريكية إلى ممارسة
ضغط أكبر على حليفتها نحو السلوك بشكل أكثر اعتدالا^(٢). ومن الجانب السوفيتي
تعنى الاتفاقية وجودا مباشرا فى شرق البحر المتوسط مع قدرة كبيرة على اجتذاب
دول عربية أخرى وإمكانية التحكم فى الوصول إلى قناة السويس عندما يتم إعادة
لفتتاحها للملاحة^(٣).

على أى حال حصل الرئيس على النتائج المرجوة عندما واجه طيارون
سوفيت فى أبريل مجموعة من الطائرات الحربية الإسرائيلية وأجبروها على
الهرب واضعين حدا للغارات الإسرائيلية فى العمق ومجبرين جيش الدولة اليهودية
على اقتصار أنشطته على منطقة القناة^(٤). ومخلصا لسياسة المعايير المزوجة أعاد
عبد الناصر مباشرة الاتصالات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة الأمريكية^(٥)،
والتي انتهت إلى قبول مبادرة روجرز فى يوليو ١٩٧٠ وهنة لمدة ثلاثة أشهر
ابتداءً من ٧ أغسطس.

(١) وصف هيكال الذى كان فى ذلك الوقت وزيرا للإعلام بالتفصيل "الخطبة الدرامية"
لـ عبد الناصر فى The Road to Ramadan, cit., p. 87.

(٢) انظر Meital, Y., op. cit., p. 69.

(٣) انظر Rubinstein, A. Z., Red Star., cit., p. 109 e ss.

(٤) انظر Heikal, M., The Road to Ramadan, cit., p. 90; Meital, Y., op. cit., p. 69.

(٥) انظر النداء إلى نيكسون، خطاب ١٥ مايو، فى OM, L (1970), p. 359-360.

وقد صدمت هذه الخطوة كلا من الحليف السوفييتي و"الإخوة العرب" وأولهم منظمة التحرير الفلسطينية التي انتخب على قمتها زعيم منظمة فتح (حركة تحرير فلسطين) ياسر عرفات. وفي الوقت الذي مثل فيه الفلسطينيون جزءًا من الحكومات العربية التي أدانت "الخيانة المصرية" ذهب الرئيس إلى موسكو ليشرح الدوافع التي أدت به إلى قبول المبادرة الأمريكية^(١). وبالنسبة للمؤيدين الناصريين، تمثل هدف هذه الحركة الدبلوماسية في إعطاء الجيش المصري وقتًا من أجل استكمال نشر الأسلحة الجديدة وتدريب القوات من أجل الحرب الحاسمة والتي من المتوقع أن تبدأ في غضون فترة قصيرة^(٢).

ورغم إعلان عبد الناصر على الملأ بأن وقف إطلاق النار لا يعنى الخيانة أو الاستسلام على الطريق من أجل تحرير فلسطين إلا أنه ووجه باتهامات وانتقادات عنيفة من قبل حكومة الجزائر والعراق و"ليبيا الثورية" الوليدة للقذافي. وإذا كانت دعاية النظام التي قادها هيكل بكفاءة على صفحات الأهرام قد استطاعت صد اتهامات الحكومات العربية مستخدمة عدة مرات النعمة الجديدة للقومية المصرية شبه الشوفينية^(٣)، فقد كان من الصعب صد الاتهامات الثقيلة التي كانت

(١) نكر هيكل أن بريجينيف "بدا متفهما للمبررات المصرية، رغم عدم اقتناعه مطلقاً بقيادة قبول شيء فوقه العلم الأمريكي" انظر: Heikal, Mohamed (sic), *Sphinx and the Commissar: the Rise and the Fall of Soviet Influence in the Arab World*, London, Collins, 1978, p. 50. انظر أيضا عبد العظيم رمضان "تخطيط...."، المصدر السابق الذكر، ص ٢٥٩ - ٢٦٢.

(٢) بناء على تقارير هيكل، اعتبر المؤرخ الإسرائيلي ميتال يورام قبول خطة روجرز "طريقة مشرفة للخروج من حرب الاستنزاف" انظر: Egypt's Struggle..., cit., p. 73. انظر أيضا Rubinstein, A. Z., *Red Star*., cit., p. 118-121.

(٣) من الجدير بالذكر أنه في المناخ السياسي الثقافي لفترة ما بعد النكسة، نشر المؤرخ والجغرافي المصري جمال حمدان مقالا مهما أكد فيه الخصوصية المصرية في الأمة العربية التي مثلت مصر داخلها "بلا شك الدولة الرئيسية والأكثر عروبة بشكل متكامل لأنها كانت أقل عرضة للتأثيرات التركية-الإيرانية" انظر: جمال حمدان، شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، =

تأتى من إذاعة منظمة التحرير الفلسطينية "صوت فلسطين" التى كانت تذاع من القاهرة. وعندما بدأت الانتقادات الفلسطينية تصل إلى شخصية الرئيس للمصرى وعلاقاته مع موسكو، أمر الرئيس بإغلاق الإذاعة وطرده مئات من الطلاب والنشطاء الفلسطينيين موهنا من العلاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية التى كانت أكثر من صديقة حتى ذلك الوقت^(١).

ولا يعتبر الربط بين الأزمة المصرية الفلسطينية والحرب الأهلية الأردنية الفلسطينية فى "أيلول الأسود" ١٩٧٠ أمرا غير منطقي. فكما أكد محمود حسين "لم يعد عبد الناصر حكما بالنسبة للعلاقات العربية بعد قبوله مبادرة روجرز ولهذا أيضا استطاع الملك الهاشمى استخدام الهجوم العسكرى ضد المقاتلين الفلسطينيين فى الأردن"^(٢).

لكن حتى فى هذا الموقف استطاع عبد الناصر تأكيد دوره كوسيط فى الشئون العربية، مفاوضا من القاهرة على هدنة بين الملك الأردنى ومنظمة التحرير الفلسطينية فى سياق قمة عربية استثنائية^(٣). وبعد انتهاء القمة مات عبد الناصر فجأة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠.

١٩٧٠؛ وعن هذا العمل انظر محمد علام، جمال حمدان: عبقرية ضد الانحضاء، القاهرة، دار الغد العربى، ١٩٩٧. انظر أيضا هذه النصوص بخصوص العلاقة بين العروبة والمصرية Tradizione e modernizzazione Branca, Paolo (a cura di), in Egitto, Milano, Franco Angeli, 2000, p. 131- 145; Scarcia Amoretti, Biancamaria, "Problemi storiografici. Qualche osservazione a proposito dell'«egizianità»", in Ivi, p. 56- 71.

(١) انظر Rubinstein, A. Z., Red Star..., cit., p. 121 أيضا, OM, L (1970), p. 466.

(٢) انظر محمود حسين La lotta di classe., cit., p. 346-350. من أجل إعادة بناء أحداث "أيلول الأسود" انظر على سبيل المثال Kimmerling, Baruch- Migdal, Joel, I Palestinesi: la genesi di un popolo, Firenze, La Nuova Italia, 1994, p. 223 e ss. انظر أيضا OM, L (1970), p. 558-565.

(٣) يصف هيكل بدقة أعمال قمة الصلح الأردنية الفلسطينية ووفاء عبد الناصر فى The Road to Ramadan, cit., p. 98-105.

ومن المناسب الآن الإشارة إلى أن بعض الدراسات سواء المعاصرة للأحداث أو التي أتت بعدها رأت في القبول الناصري لمبادرة روجرز بدليات واضحة لسياسة السادات المعتدلة ولانتقاله إلى معسكر الولايات المتحدة. ومن وجهة النظر هذه يعتبر هذا القبول الدليل على رغبة الرئيس في قبول حل سلمي للصراع والنظر إلى وجود إسرائيل على أنه أمر واقع والنظر إلى الخيار العسكري على أنه عنصر زائد وعرضي في إستراتيجية استعادة سيناء والأراضي العربية الأخرى المحتلة^(١).

(١) ساند عدد من الدارسين الماركسيين ذكرنا منهم بالفعل محمود حسين و هاني شكر الله نظرية "الاستمرار" بين الرئيسين في الموقف من الصراع مع إسرائيل، وكذلك رأى عبد العظيم رمضان الذي كان من أوائل المؤرخين المصريين للحقبة الساداتية رغم انطلاقه من منظور مختلف، في خطة روجرز عنصرا يستشرف إستراتيجية السادات (انظر المصدر سابق الذكر تحطيم الآلهة... والجزء الأول من "مصر في عصر السادات"، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٦). ومن بين الدراسات التي تعارض هذا التقييم انظر المقال القصير ولكن الموثق بشكل جيد Giuseppe Contu, "La situazione politica nell'Egitto degli anni '70 (uno schema di lettura)", Annali della Facoltà di Scienze Politiche dell'Università di Cagliari, vol. IX, 1983, pp. 233-249. انظر أيضا مقدمة جامبيرو كالكي نوقاتي Giampiero Calchi Novati ومداخلات محمود حسين و ميشيل كامل في L'Egitto da Nasser a Sadat: una transizione permanente, Dossier di Politica Internazionale, 3 (1978), p. 31-53. سيتم تقديم عرض أوسع للجدل حول العلاقة بين نظامي عبد الناصر و السادات في الفصل الأخير من هذا البحث، لكن يمكننا من الآن أن نشير بخصوص هذه المسألة إلى مساهمة آلان روسييون Alain Rousillon, "Republican Egypt interpreted: revolution and beyond", in Daly, M. W. (ed.), The Cambridge History of Egypt, vol. 2, Cambridge, Cambridge University Press, 1998, p. 334-393.

٣- مصر السادات

أ- من القيادة الجماعية إلى الانقلاب

يشهد فرع الجماهير الفقيرة في جنازة عبد الناصر على مناخ الشك في مستقبل البلاد وقد شمل هذا الشك أيضا قيادات المؤسسات الناصرية وكذلك ساسة العالم. مثلت السلطة المطلقة التي اكتسبها الرئيس المتوفى منذ أكثر من خمسة عشر عاما، وتشبته الذي دافع به عنها في الداخل والخارج، مع شخصيته الكاريزمية، بالإضافة إلى الموقف الخدمي والطفيلي للنخبة السياسية والاقتصادية، أمورا جعلت من المستحيل عمليا الوصول إلى وريث، وبالذات بعد التخلص من المشير عامر بعد هزيمة ١٩٦٧.

ينص الدستور على أن يحل نائب الرئيس محل الرئيس في حالة الوفاة المفاجئة حتى موعد الانتخابات التالية. وقد احتل السادات، الذي كان عضوا أصليا في الضباط الأحرار واعتبر قليل الأهمية في أوساط النظام، هذا المنصب منذ ديسمبر ١٩٦٩^(١). غير أنه كان من الواضح للعديد من المراقبين أن "مركز القوة" الأكبر كان في يد مجموعة على صبرى في اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي. وقد اعتبرت هذه المجموعة التي ضمت أيضا وزير الداخلية شعراوي جمعة، ووزير الدولة لشئون الرئاسة سامي شرف، وقائد القوات المسلحة محمد فوزي، السادات "رجلا ضعيفا غير مؤثر" يمكن التلاعب به بسهولة^(٢). وتمت

(١) يؤكد هيكل أن عبد الناصر عين السادات فقط لأنه كان "عليه الدور" دون أن يعطيه أي تفويض ليصبح خليفته. انظر محمد حسنين هيكل "حريف النضب" Heikal, Mohamed (sic), Autumn of Fury. The Assassination of Sadat, London, Deutsch, 1983, p. 34.
(٢) انظر Ibidem, p. 36.

الموافقة مع الاستفتاء الشعبى فى ١٤ أكتوبر على نائب الرئيس بنسبة ٩٠ ٪ من الناخبين كرئيس جديد للجمهورية العربية المتحدة^(١). قبل على صبرى بانتخاب السادات كرئيس لأنه كان مقتنعا بأن "القيادة الجماعية" سوف تأخذ جميع القرارات بالأغلبية داخل سكرتارية الحزب وبهذه الطريقة ستكون الكلمة العليا دائما فى يد مجموعة على صبرى^(٢).

لكن الكثيرين حطوا من شأن قدرة السادات ومن شأن السلطة المرتبطة بمؤسسات الرئاسة فى مصر، هذا البلد الذى يطابق فيه الشعب دائما بين السلطة ومن يشغل المنصب الأعلى فى مؤسسات الدولة^(٣). مزج الرئيس الجديد بين هذه

(١) ولد السادات فى ١٩١٨ فى قرية ميت أبو الكوم، فى الوجه البحرى لأسرة متواضعة وشارك فى النشاط السياسى السرى ضد الاحتلال البريطانى حتى نهاية أعوام الثلاثينيات. انضم فقط فى عام ١٩٥١ (على عكس ما أكد فى سيرته الذاتية للبحث عن الذات) إلى الضباط الأحرار. تتراوح السير الذاتية المكتوبة عن السادات بشكل شبه كامل بين "المدح" و"النم". ويمثل كتاب (Israeli, Raphael. Man of Defiance . A Political Biography of Anwar Sadat, London, Weidenfeld and Nicolson, 1985) نموذجا لتلك الكتب التى تحقّق به، ويسجل فيه المؤرخ الإسرائيلى حتى الأكانيب التى احتوت عليها سيرة الرئيس والتى كشفتها المصادر الرسمية. وعلى النقيض، نجد "خريف الغضب"، المصدر السابق الذكر، لـ محمد حسنين هيكل - الذى شارك بنفسه فى جزء كبير من الأحداث المسرودة - يتجاوز فيه الصحفى للمصرى "النقد العادل" ليفسر الأفعال والسلوكيات المختلفة للرئيس المتوفى بطريقة متعسفة؛ بالإضافة إلى الإشارة إلى الجدل الرفيع المثير فى مقال غالى شكرى Egypt: Portrait of a President, 1971-1981, London, Zed, 1981 (والطبعة الأولى العربية، الثورة المضادة فى مصر، بيروت، ١٩٧٩) ويمكن الإشارة إلى نصّ الصحفيتين البريطانيتين Hirst, Paul e Beeson, Irene, Sadat, London, Faber & Faber, 1981 الذى يمثل السيرة الأكثر توازنا المتوفرة حتى اللحظة للراهنه.

(٢) انظر Beattie, K. J., op. cit., p. 43-44.

(٣) بخصوص هذا الموضوع نرى الدراسة المثيرة للاهتمام للمناضل والسياسى الماركسى المصرى سعد زهران فى أصول السياسة المصرية، القاهرة، دار المستقبل العربى، ١٩٨٥، وبالذات ص ٩-٧٨.

السمة السحرية للرئاسة^(١) وبين سياسة تحالف حكيمة سواء بين النخب السياسية المدنية أو بين تكنوقراطيين وبيروقراطيين النظام بهدف التقليل من التحكم في أجهزة الدولة من قبل مجموعة على صبرى.

ورغم أن السادات كان متقيدا بالقيادة الجماعية، إلا أنه بدأ مبكرا الإعلان في عدة حوارات علنية عن خطوط سياسية تميل منذ البداية إلى معارضة اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي. وبالتحديد منذ مواقفه الأولى يمكننا استنتاج الرغبة في مقاربة أكثر اعتدالا تجاه القوتين العظميين، مكملًا وفقًا لرأى بعض الدارسين^(٢)، الطريق الدبلوماسي الذي بدأه عبد الناصر بقبوله لمبادرة روجرز. وفي إدارة الصراع ذاتها، بدأ الرئيس الجديد في فرض قواعد المصالحة على صبرى معلنا قبل كل مناقشة داخلية عن رغبة الجمهورية العربية المتحدة في مدّ الهدنة في القناة ثلاثة شهور أخرى^(٣). كما بدأ السادات في نفس الوقت اتصالات سرية مع الإدارة الأمريكية، التي لم يكن لديه تجاهها نفس معاداة سلفه، سواء عن طريق هيكل أو كمال أدهم رئيس مخابرات الملك فيصل والرجل المقرب

(١) بخصوص "الخصائص السحرية" و"البونابرتية" للرئيس المصري انظر هاتى شكرالله، Shukrallah, H., Political..., cit., p. 61-62 e 84 وكذلك "Lo Stato egiziano dal bonapartismo all'oligarchia", in Zanelli, Patrizia (a cura di), Scritti arabi sulla globalizzazione, Roma, IPO "C. A. Nallino", 2003, p. 210-236. يعرف المؤلف "البونابرتية" بالصفات "السلطوية الشعبوية" التي تتخللها "الحرمة المقدسة" التي تتصف بها الدولة المصرية الحديثة. بخصوص مفهوم "الدولة البونابرتية" (التي سيأتى نكرها بالتفصيل لاحقاً) انظر مرسى مصطفى على "طبيعة السلطة الطبقيّة في مصر" (١٩٧١) المعاد طباعتها بمقدمة لـ صالح محمد صالح، كراسات الطريق غير الدورية، العدد ٤ (يوليو ١٩٨١).

(٢) انظر الإشارة رقم ٦٩.

(٣) انظر الخطاب الموجه للضباط على الجبهة في ١٩ أكتوبر ١٩٧٠ في Israeli, Raphael (ed.), The Public Diary of President Sadat, vol. I, Leiden, Brill, 1978, p. 11-12.

للمخابرات الأمريكية^(١). ومن الضروري أن نلاحظ، مع يورام ميتال Meital Yoram و كيرك ج. بيتي Kirk J. Beattie، أن الإدارة الأمريكية لم تبد حماسا لمحاولات السادات لأنها لم تعتقد أنه سيستمر لفترة طويلة في ممارسة مهام منصبه^(٢).

ونظرا لحرمانه من الشرعية الثورية ومن الكاريزما الناصرية، بحث الرئيس الجديد فورا عن توسيع قاعدته الاجتماعية متجها نحو الطبقة القديمة لملاك الأراضي "ضحايا" الإصلاح الزراعي. ومن هذا المنطلق صدر مرسوم رئاسي بإيقاف تأميم الأراضي وإعادة العديد من الأراضي لملاكها القدامى مدعما من ناحية أخرى قرارا اتخذه عبد الناصر قبل ذلك بعام^(٣). وقد مثلت هذه الحركة بالإضافة إلى إرضائها المد الليبرالي في داخل وخارج النظام، تحديا لسياسة دعم التأميم وسياسة الاقتصاد المخطط التي اتبعتها المجموعة القيادية للاتحاد الاشتراكي.

وكانت المبادرة التي بدأ بها السادات في تحدي "مراكز القوى" واضعا نفسه في مركز اهتمام العالم بأكمله هي عرضه في ٤ فبراير ١٩٧١ قبل انتهاء وقف إطلاق النار بأيام قليلة. عرض الرئيس إعادة افتتاح قناة السويس مقابل انسحاب الجيش الإسرائيلي من ضفتها الشرقية^(٤). ورغم استمرار حكومة تل أبيب في

(١) انظر Heikal, M., The Road to Ramadan, cit., p. 114-120 ؛ و Beattie, K.J., op. cit., p. 50-57.

(٢) انظر Ibidem, p. 556; Meital, Y., op. cit., p. 84.

(٣) انظر Cooper, M. N., op.cit., p. 68. وقد أشار السادات نفسه إلى أهمية و"شعبية" هذا القانون في البحث عن الذات circa di una identità, cit., p. 215. بخصوص السياسة الزراعية للرئيسين انظر Tiana, Michele, "Note sulla riforma agraria in Egitto da Giamāl 'Abd en-Nāser a Mohammed Anwar es-Sādāt", OM, LVII (1977), p. 247-258.

(٤) انظر الخطاب الذي ألقاه في مجلس الأمة في Israeli, R.(ed.), The Public Diary..., cit., vol. p. 30-32.

المطالبة باتفاق شامل عبر مفاوضات مباشرة إلا أن خطوة السادات نجحت في إشراك الأمم المتحدة والإدارة الأمريكية من جديد في قضية الشرق الأوسط^(١). غير أن الجانب الأكثر أهمية للمبادرة الدبلوماسية للرئيس المصري تمثلت في مواصلة التحدى المفتوح ضد مجموعة على صبرى الذين اعترضوا بضراوة على شرعية هذا العرض واصفين السادات بأنه "معادٍ للديموقراطية" و"رأسمالى" مهينين الأرض لمعركة مايو الحاسمة.

ومن أجل أن يقلب الرئيس الوضع الذى شهد تغلب مجموعة "الناصرين الحقيقيين"^(٢)، لصالحه، بحث الرئيس عن تعظيم القاعدة المؤيدة له سواء على مستوى النخبة السياسية والعسكرية أو فى المجتمع بشكل عام. وبالنسبة لتوسيع قاعدته الاجتماعية كان المرسوم الرئاسى السابق الذكر فى ديسمبر ١٩٦٩ موجّها لتقريب الأرستقراطية الزراعية وبشكل أكثر عمومية النخب الريفية القديمة من السلطة.

على أن السادات كان يعرف تماما، نظرا لمجيئه من الضباط الأحرار، قاعدة أن ولاء الجيش والسيطرة عليه هى التى تحدد الحائز الحقيقى لسلطة الدولة فى مصر، ومن هذا المنطلق نجح فى ضم اللواء محمد صادق، رئيس المخابرات العسكرية والمعارض البارز للوجود السوفيتى فى البلاد، لخلق توازن مع محمد فوزى القائد الأعلى للقوات المسلحة الذى انحاز إلى صف مجموعة على صبرى بشكل واضح^(٣).

(١) بخصوص الجدل حول الدوافع التى دفعت السادات إلى مبادرة ٤ فبراير، انظر: Meital, Y., op. cit., p. 87-88. ويعتقد ميتال أن الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل قامتا بتفسير العرض المصرى على أنها إشارة إلى "سلام منفصل". وانظر أيضا تمجيد الذات والافتقار إلى الصدق فى ملاحظات السادات نفسه فى البحث عن الذات / In cerca di una identità, cit., p. 280. وأخيرا انظر: Rondot, Pierre, "Anwar es Sadat: Un Style Nouveau pour l'Egypte", Revue de Defense Nationale (Juillet 1971), p. 1154-1166.

(٢) هكذا عرف أعضاء مجموعة على صبرى أنفسهم كما ذكر السادات فى Ibidem, p. 212.

(٣) انظر: Beattie, K. J., op. cit., p. 46-48.

وبصورة عامة بحث الرئيس عن مساندة عدة معارضين لمجموعة علي صبرى سواء من اليسار أو اليمين. ومن هذا المنطلق عيّن السادات كلا من لطفى الخولى ومحمد الخفيف أعضاء اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي وكلاهما ماركسي من مجموعة مجلة "الطلیعة" التى اتهمت علي صبرى ومؤيديه باحتلال المراكز فى قمة الحزب على حساب "الاشتراكيين الحقيقيين"^(١). فى النهاية كان الحليف الرئيسى للرئيس الجديد هو الرئيس الواسع النفوذ لجريدة الأهرام اليومية محمد حسنين هيكل الذى كان أصلاً صديقاً مؤتمناً لـ عبد الناصر، وناقداً للتحالف للمصرى السوفييتى ومؤيداً للانفتاح على الولايات المتحدة الأمريكية^(٢).

وقد سنحت الفرصة للرئيس للتخلص من معارضة مجموعة علي صبرى من خلال الجدل حول عرض الاتحاد الفيدرالى مع ليبيا وسوريا بالإضافة إلى المناقشة حول فرصة العودة لمهاجمة إسرائيل. ورغم التكرار الرسمى للشعارات الناصرية القديمة حول "وحدة الشعوب العربية" كان السادات على العكس مهتماً بجانب هامشى من اتحاد الجمهوريات العربية^(٣)، ألا وهو تفكيك كل منظمات الدولة حتى يتم عقد انتخابات جديدة كان يأمل فيها أن ينقلب موقف الأقلية التى وجد نفسه ضمنها فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي وفى مجلس الأمة^(٤).

(١) هذا الاتهام المبرر يظهر كثيراً فى أعمدة "الطلیعة" منذ منتصف عام ١٩٦٨. انظر على سبيل المثال عادل غاتم ملاحظات حول القانون الأساسى للاتحاد الاشتراكي، "الطلیعة"، العدد ٥ (مايو ١٩٦٨)، ص ٣٧-٣٨. وانظر الفصل الرابع من هذا البحث.

(٢) من المهم أن نلاحظ أن هيكل نفسه بدأ، بتكليف من السادات علاقات دبلوماسية سرية مع مفوض شئون الولايات المتحدة فى القاهرة بيرجوس Bergus، حيث أقام بشكل سرى خطاً مباشراً بين المنزل الشخصى للرئيس والبيت الأبيض.

(٣) انظر نص إعلان الاتحاد فى OM, LI (1971), p. 313-316.

(٤) انظر Beattie, K. J., op. cit., p. 60؛ انظر أيضاً Hinnebusch, Raymond A., Egyptian Politics under Sadat. The Post-populist Development of an

وخلال خطبة أول مايو أكد الرئيس رغبته في القضاء على "مراكز القوى"^(١) من جهاز الدولة وفي اليوم التالي أصدر مرسوماً بفتحية على صبرى من منصب نائب الرئيس. وفي الأيام التالية، مفترضا وجود محاولة للقيام بانقلاب ضده^(٢)، تخلص السادات بمساعدة هيكل واللواء محمد صادق من وزير الداخلية شعراوي جمعة وآخرين من مجموعة على صبرى كانوا قد استقالوا بالفعل استقالة جماعية معتقدين أنهم بذلك سيثيرون أزمة دستورية. غير أنه على العكس من ذلك قام الرئيس، مطمئنا إلى حياد الجيش، بقبول استقالة الجميع وأمر بإلقاء القبض عليهم واستبدالهم برجال موثوق فيهم اختارهم من يمين النظام. وكانت مجموعة الانقلاب المفترض التي أضعفتها المناقصة والانقسامات الداخلية تأمل أن تدفع استقالتها إلى هبة شعبية لفتحية السادات لكنهم للمرة الثانية قللوا من أهمية سلطة مؤسسة الرئاسة وفوق كل شيء لم يضعوا في اعتبارهم أن الجماهير التي كانت أبطال الحركات الطلابية والشعبية في ١٩٦٨ كانت تمت أولئك الوزراء أنفسهم من مجموعة على صبرى الذين كانوا قد أمروا بقمعها بوحشية^(٣).

Authoritarian-modernizing State, Cambridge, Cambridge University Press, 1985, 43

(١) من المثير ملاحظة كيف استعاد السادات مصطلح "مراكز القوى" الذي استخدمه عبد الناصر في بيان ٣٠ مارس للإشارة إلى المواقع المعاصرة وغير القانونية للسلطة داخل المؤسسات.

(٢) توجد آراء متضاربة بخصوص وجود مؤامرة حقيقية تصل إلى حد الإطاحة بالسادات. وقد قرر الرئيس التحرك بعد معرفته بخضوع هاتفه للمراقبة وبعد سماعه عدة حوارات بين أفراد مجموعة على صبرى. انظر رواية هيكل في The Road to Ramadan, cit., p. 133-139؛ انظر أيضا شهادات الانقلابيين المزعومين في Beattie, K.J., op. cit., p. 62-73 والدراسات الحديثتين لـ سليمان مظهر قصة صراع السادات ورجال عبد الناصر، القاهرة، مديولى، ١٩٩٧، وعبد الله إمام، الطريق إلى كرسي الرئاسة؛ أحداث مايو ١٩٧١، القاهرة، دار الخيال، ٢٠٠٢.

(٣) يؤكد الناقد المصري غالى شكرى في دراسته المثيرة للجدل، أن الخطأ الرئيسى الذى ارتكبه مجموعة على صبرى تمثل فى عدم فهم أن الثورة المضادة المصرية كانت قد بدأت بالفعل قبل وفاة عبد الناصر Shoukri, G., Egypt..., cit., p. 49.

ومن وجهة نظر دعائية يعتبر من الجدير بالذكر أن السادات ومؤيديه عَرَفُوا التخلّص من المعارضين في المشهد السياسى المصرى بـ "حركة التصحيح" هادفين بذلك إلى الإشارة إلى أول "إصلاح" فى مسار الثورة المصرية^(١).

ب: فى البحث عن الشرعية

أُنذر التخلّص من مجموعة على صبرى، الذى اعتبر فى الوطن وفى الخارج "رجل موسكو"، القيادة السوفيتية التى قررت جعل العلاقات الثنائية رسمية بأسرع ما يمكن عبر اتفاقيات صداقة وتعاون مدتها عشرين عاما تم التصديق عليها فى القاهرة فى ٢٧ مايو. ورغم تأكيد هيكى أن هذه المعاهدات كانت خاضعة لمناقشات منذ عدة شهور^(٢) فإنه لا يمكن إنكار الصلة بين انقلاب السادات ورغبة موسكو فى الحصول على ضمانات كبيرة فى علاقاتها مع مصر منذ اللحظة التى جعلت فيها الاتفاقية حتى من حق البحرية العسكرية للاتحاد السوفيتى فى الوجود فى الموانئ المصرية أمرا رسميا^(٣).

من الواضح أن الرئيس قبل التوقيع على نص المعاهدة المعروضة عليه من قبل السوفيت فوراً، موافقا رسميا على تبعية لم يقبلها أبدا سلفه، خوفا من فقدان الدعم العسكرى الذى لا يمكن تعويضه مطلقا. إلا أن السادات أعلن فى منكراته وفى حكايات هيكى أن نواياه الحقيقية منذ وصوله للرئاسة هى إبطاء العلاقات مع الاتحاد السوفيتى والاقتراب من الولايات المتحدة من أجل مطالبتها بالقيام بضغط

(١) هنا نذكر أن السادات، عندما استعاد الشرعية للمؤسسية والشعبية بعد "نصر" ١٩٧٣، وصف عام ١٩٧١ بـ "ثورة التصحيح" و "الثورة الثانية" بالإضافة إلى ذلك عنوان الرئيس الفصل الثامن من سيرته الذاتية بهذه العبارة.

(٢) انظر Heikal, M., The Road to Ramadan, cit., p. 138-139.

(٣) انظر Rubinstein, A.Z., Red Star..., cit., p. 144-153. وانظر الترجمة الإيطالية للاتفاقية فى OM, LI (1971), p. 400-401.

على إسرائيل لتسحب من الأراضي المحتلة في ١٩٦٧^(١). ومما يؤكد ذلك إبقاء الرئيس على علاقاته مع الإدارة الأمريكية سرية بشكل أو بآخر، مؤكدا لها أن المعاهدة مع الاتحاد السوفييتي لا تعني أن مصر تخلت عن خيار الحل الدبلوماسي للصراع مع إسرائيل^(٢).

ورغم أن السياسة الخارجية مثلت نقطة ارتكاز النشاط السياسي للرئيس إلا أنه كان عليه أن يضع في حسابه مبكرا نقص شرعيته سواء شعبيا أو سياسيا في مواجهة صعوبة الموقف الداخلي المصري والبحث عن وضع بصمته على العديد من التحديات التي وجدت البلاد نفسها تواجهها بسبب الأزمة الاقتصادية والاحتلال الإسرائيلي لسيناء. وبالنسبة لسلوك السادات في السياسة الداخلية من الضروري ملاحظة كيف استخدم لغتين مختلفتين تقريبا في مواجهة النخبة السياسية الاقتصادية والشعب^(٣). فبينما كان يقدم نفسه للجماهير العريضة من الشعب المصري باعتباره الوريث المختار من عبد الناصر والمستمر على سياسته من أجل الاشتراكية والوحدة العربية ضد الإمبريالية والصهيونية كان يعرض للبرجوازية الريفية والبرجوازية الجديدة للدولة انتماءه المعتدل والمحافظ مطالبا هذه الطبقات بأن تكون قاعدة الدعم الخاصة به.

ومن ناحية أخرى كانت أولى الدلائل على هذا هي حملة تصفية ناصرية الدولة بعد حرب أكتوبر والتي يمكن التعرف عليها في بعض التدابير التي استكمل بها الرئيس حملات تطهير مايو. وهكذا فبعد تعديل حكومي أول بين يوليو وأول سبتمبر تم حل الاتحاد الاشتراكي والبرلمان من أجل إجراء انتخابات جديدة، وتم إعلان دستور جديد سمي بالدستور الدائم بينما تم تغيير اسم للدولة من الجمهورية

(١) انظر al-Sadat, A., In cerca di una identità, Heikal, M., The Road to
Ramadan, cit., p. 173

(٢) انظر Ibidem, p. 139

(٣) انظر Hinnebusch, R. A., Egyptian Politics..., cit., p. 49-50

العربية المتحدة إلى جمهورية مصر العربية. ومن الضروري ملاحظة القيمة الرمزية الكبيرة لهذين القرارين الأخيرين حيث دلا على المستوى المعنوي على انقطاع تام مع التراث الناصري. فلم يصدر الرئيس السابق أبدا نصا دستوريا دائما لأن الثورة هي عملية مستمرة ومن المفترض أن تكون نهايتها - على الأقل في البلاغة وشعارات النظام - هي تحول المجتمع المصري إلى مجتمع اشتراكي بلا طبقات إلا أن السادات بإعلانه الدستور الجديد "دائما" أكد رسميا انتهاء التجربة، أي الثورة المصرية بعد الحرب. وبنفس الطريقة كان التخلي عن الاسم الرسمي للجمهورية العربية المتحدة والعودة إلى استخدام اسم مصر، رغم أن الشعب لم يتخلَّ عنه أبدا، يشير إلى عودة مفتوحة إلى قومية مصرية بحتة ونهاية "حلم الوحدة" حتى وإن كان الرئيس قد أعلن التزامه باتحاد الجمهوريات العربية مع ليبيا وسوريا^(١).

أما بالنسبة لتفكيك المنظمات السياسية الرئيسية السابقة الذكر والذي تم بمناسبة إعلان اتحاد الجمهوريات، فقد أدى إلى استكمال تطهير نظام الدولة من مجموعة على صبرى، فقد كان من الواضح بالذات رغبة السادات في تقليل سلطة الحزب الواحد والذي كان منافسا محتملا حتى وقتها، مقابل الهيئة البرلمانية التي يمكن التحكم فيها بشكل أسهل والتي تمت إعادة تسميتها أيضا بمجلس الشعب بدلا من مجلس الأمة. ومن هذا المنطلق أعلن الرئيس عن رغبته في إصلاح الاتحاد الاشتراكي "من القاعدة إلى القمة" بالذات بعد الانتخابات الجديدة التي شهدت نجاحا ملحوظا لمجموعة على صبرى. ولهذا اعتمد الرئيس في اللجنة المركزية الجديدة ليس فقط على ممثلي اليمين القدامى والجند مثل إبراهيم شكرى الذي كان عضوا

(١) انظر الخطاب إلى الأمة ٣٠ أغسطس ١٩٧١ الذي حدد فيه السادات أن "عودة كلمة مصر لا تعنى العودة إلى الانعزالية" في Israeli, R. (ed.), The Public Diary..., cit., vol. I, p. 103. بخصوص مشروع الاتحاد انظر Sul Baldissera, Eros, "recente progetto di unione fra Egitto e Siria", OM, LII (1972), p. 485-490.

في حزب مصر الفتاة الفاشي النزعة قبل ١٩٥٢، بل وأيضا على تكنوقراط ومنتمين إلى مجموعة على صبرى معادين لـ على صبرى مثل رئيس الوزراء القادم عزيز صدقي وحتى ماركسيين من مجموعة "الطلیعة"^(١). غير أن الرئيس قام بتسويق انتخابات اللجنة التنفيذية العليا للحزب بحجج مختلفة لأجل غير معلوم وعين سيد مرعى العنصر القادم من البرجوازية الريفية التقليدية سكرتيرا للاتحاد الاشتراكي.

ومن المهم تحليل الدستور الجديد الذي تم التصديق عليه باستفتاء شعبي في ١١ سبتمبر ١٩٧١ باختصار من أجل تحديد البنود الأولى للتغيير الذي قام به السادات لأسس السياسة الناصرية^(٢). فهذه الوثيقة فضلا عن وصفها بالدائمة أعلنت سيادة القانون والشعب، لكنها في نفس الوقت أقرت سلطة الرئيس في إصدار مراسيم لها قوة القانون. وقد صك السادات تحديدا الشعارات الجديدة لـ "دولة المؤسسات" في مواجهة النظام الناصري الأوتوقراطي، و"العلم والإيمان" كنقيض للصيغة الاشتراكية لوثيقة ١٩٦٢. وفي النهاية أعلن الدستور الإسلام كـ "مصدر أساسي للتشريع"^(٣)، محتويا على أولى الإشارات، ربما، إلى الأسلمة من القمة والتي تحققت بعدها في السنوات التالية على يد "الرئيس المؤمن".

وتمثل العودة إلى الصيغ الإسلامية من جانب سلطة الدولة رغم إمكانية تفسيرها على أنها إستراتيجية لاحتواء اليسار، كسرا مهما لسياق السلوك الناصري بممارسة القمع في مواجهاته مع الإسلام السياسي وهو القمع الذي بلغ أوجه باغتيال سيد قطب مرشد الإخوان المسلمين في ١٩٦٦. كذلك يجب أن نذكر أن المملكة

(١) من المهم تسجيل أنه في للحكومة الجديدة التي عينها السادات بعد "حركة مايو"، تم تعيين إسماعيل صبرى عبدالله، الذي كان عضوا في مجموعة "الطلیعة"، وزيرا للتخطيط، فكان أول ماركسي في التاريخ المصري يتولى منصبا وزاريا. انظر Beattie, K.J., op. cit., p. 79.

(٢) انظر الترجمة الإيطالية لنص الدستور في OM, LI (1971), p. 686-698.

(٣) اقتصر الميثاق الناصري على تعريف الإسلام بأنه "الدين الرسمي للدولة".

العربية السعودية التي اقترب منها السادات بسرعة مرتدا عن تفرقة عبد الناصر بين الدول العربية التقدمية والرجعية كان لها دور رئيسي في تسهيل عودة مناضلي الإخوان المسلمين المصريين للحياة السياسية المصرية. وليس من قبيل المصادفة أن يأتي وفد من الإخوان المسلمين في المنفى من بينهم الشيخ يوسف القرضاوي لزيارة القاهرة في فبراير ١٩٧١ لاختبار استعداد الحكومة لعودتهم للوطن. ولكون الرئيس الآن هو الحائز على السلطة فقد قبل هذا الطلب لاغيا قانون العزل السياسي الذي أصدره عبد الناصر في بداية العقد السابق، وأفرج بالإضافة إلى ذلك عن مناضلي الإخوان المسلمين المعتقلين منذ ١٩٦٦ من السجون^(١). كذلك قام الرئيس، في إطار محاولته الواضحة لاحتواء التأثير الشيوعي في الجامعة وفي المعاهد العليا، بتتصيب عضو الإخوان المسلمين السابق كمال أبو المجد أمينا لتنظيم الشباب.

وكما سبق أن ذكرنا فبالإضافة إلى السياسة اليمينية والدينية اتجه بحث السادات عن الشرعية والتحالف أيضا إلى الطبقات المسيطرة القديمة عن طريق إعلانه تعويض حوالي ٥٠٠٠ من ملكيات الأراضي التي كان قد تم تأميمها في ١٩٦٩.

وباختصار يمكن القول إن شخصيات سياسية واجتماعية متعددة استفادت من سياسة التحرير والمقرطة المتوقعة من الدستور الجديد ومن مناداته بـ "دولة القانون" إلا أن هذه الإجراءات لم تتجح في ملء نقص الشرعية الشعبية للرئيس الجديد خاصة لدى جموع العمال والطلاب. بل خاب أمل الرئيس، واستغلت حركة الجماهير التي عادت إلى الحياة في ١٩٦٨ مناخ الحرية النسبي من أجل إطلاق احتجاج على سلطة الدولة في نهاية صيف ١٩٧١. فقد كشفت موجة إضرابات أغسطس ١٩٧١ التي بدأت مرة أخرى من مصانع حلوان بشكل واضح أن الرئيس

(١) انظر شهادة محمود جمعة الذي عينه السادات للاتصال بالموجودين بالخارج في كتبه "عرفت السادات"، القاهرة، المكتب المصري الحديث، ١٩٩٨، ص ١٨٩.

الجديد الذى كان الهدف الرئيسى للانتقادات لم يكن لديه أى سطورة كاريزمية على الشعب الذى احتج بوضوح على احتكار الحزب الواحد للحياة السياسية فى الدولة وطالب بإصلاح حقيقى بشكل ديموقراطى^(١).

وكانت القضية الوطنية من جديد هى التى أطلقت حركة الصراع فى الجامعات المصرية بين نهاية ١٩٧١ وبداية ١٩٧٢ وكان الاحتجاج شخصيا ومباشرا ضد السادات. وبما أن هذا الأخير كان قد أعلن بشكل متواصل أن عام ١٩٧١ هو "عام الحسم"^(٢) للصراع مع إسرائيل، ومر شهر ديسمبر أيضا دون تغيير فى الجبهة حيث استمر نوع من "الهدنة المسلحة" المرهقة، بدأ طلاب جامعة القاهرة مظاهرات جديدة وعديدة لاستنكار كذب الرئيس والاعتراض على شلل الحكومة. شعر الطلاب فى واقع الأمر بإحباط من موقف الاستنفار الحربى الدائم الذى جعل من الصعب حتى أن يكملوا دراستهم وهم فى انتظار حرب لا تأتى أبدا^(٣). هنا يجب أن نذكر كما فعل الرئيس الأب نفسه شاعرا بخيانة "أبنائه الطلاب"^(٤)، أن المتظاهرين استفادوا بالتحديد من عدة إجراءات ديموقراطية اتخذها السادات نفسه ألا وهى إلغاء الحرس الجامعى وإزالة الرقابة على منشورات ودعاية الطلاب الذين ابتدعوا مجلات الحائط المشهورة والتى استكروا فيها بوضوح وعود الرئيس التى لا تتحقق، كما يجب أن نضيف أيضا أن للنشاط الطلابى والبحث عن الربط بين الجامعة والمصانع والنقابات على الأقل فى النصف

(١) انظر المصدر سابق الذكر Hussein, M., La lotta di classe..., cit., p. XII-XIV.

(٢) انظر بالتحديد الخطاب الذى ألقاه فى الاحتفال بذكرى الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٧١، فى Israeli, R. (ed.), The Public Diary..., cit., vol. I, p. 85-95.

(٣) انظر أحمد بهاء الدين شعبان "شهادة من جيل الغضب" ١٩٦٧-١٩٧٧، القاهرة، مركز المحروسة، ١٩٩٨؛ ومقابلة خاصة مع نفس الكاتب الذى كان بين قيادات الحركة الطلابية فى ١٩٧١-١٩٧٤، القاهرة، ١٢ مايو ٢٠٠١ بالنسبة للحركة الطلابية المصرية لأعوام السبعينيات، انظر الإحالات المذكورة فى الإشارة رقم ٢٦.

(٤) بالنسبة للسماة الأبوية للرئاسة الساداتية انظر Hinnebusch, R. A., Egyptian Politics..., cit., p. 80; Erlich, H., op. cit., p. 199-202.

الأول من أعوام السبعينيات كانا مرتبطين بيزوغ منظمات اليسار الجديد^(١)، التي فرضت نفسها بوضوح كقوة مهيمنة في الحياة السياسية الجامعية المصرية^(٢). ف وراء بعض الأسر الجامعية التي كان يتجمع فيها الطلاب الناشطون كانت توجد منظمة ماركسية أو أكثر تقوم بتجنيد الجزء الأكبر من ناشطيها في الحياة الجامعية^(٣).

وفي مواجهة المظاهرات التي استطاعت عبور أسوار الكليات في القاهرة من أجل إشراك المواطنين البسطاء واكتساب تضامن الشرطة التي تم إرسالها لقمعهم، شرح السادات أن عدم البدء في العمل العسكري كان إجباريا بسبب "الضباب" الذي أرسله الصراع الهندو-باكستاني في الساحة الدولية مشتتا انتباه القوى العظمى عن الصراع العربي الإسرائيلي، بالإضافة إلى عدم قيام الاتحاد السوفيتي بإرسال الأسلحة اللازمة لمصر من أجل استئناف الحرب، حيث توجب عليه تحويلها بشكل عاجل إلى حكومة نيولهي^(٤). وأدى استمرار الاحتجاجات وصولا إلى احتلال عدة كليات في العاصمة إلى دفع الرئيس إلى اللجوء إلى قوات الأمن التي اعتقلت العديد من الطلاب بتهمة كونهم "متطرفين شيوعيين"، وفي

(١) انظر: لفصل الرابع (١: ب).

(٢) يعرف صلاح العمروسي المنظر والمناضل في حزب العمال الشيوعي المصري "اليسار الثنائي" بأنه يمثل الجزء الأكبر من المناضلين الجامعيين منذ عام ١٩٦٨ حتى عام ١٩٧٣ (اللقاء الخاص مع المؤلف في القاهرة ٩ مايو ٢٠٠١).

(٣) على سبيل المثال، كانت أسرة "أنصار الثورة الفلسطينية" مرتبطة بالحزب الشيوعي اللاحق "٨ يناير" الحزب الشيوعي المصري ٨ يناير، بينما كانت مجموعة كتاب الغد مرتبطة بـ (حزب العمال الشيوعي المصري)، [اللقاء مع أعضاء الحركة الطلابية والأحزاب السابقة الذكر، من بينهم أحمد عبدالله (٣ مايو ٢٠٠١)، و أحمد بهاء الدين شعبان (١٢ مايو و ٧ يونيو ٢٠٠١)، و إبراهيم فتحي (٣٠ مايو ٢٠٠١)، و حسنين كشك (٢ يونيو ٢٠٠١)، و هاني شكرالله (٣٠ ديسمبر ٢٠٠٢)].

(٤) انظر: خطاب ١٣ يناير ١٩٧٢ في Israeli, R. (ed.), The Public Diary..., cit., vol I, p. 136-138.

خطابه للأمة هاجم للرئيس بعنف الطلاب متهما إياهم بعدم العرفان في مواجهة "والدهم" الذي منحهم حرية أكثر من اللازم وتحملهم لمدة سبعة أيام من الاحتجاجات ودعاهم إلى "العودة إلى كتبهم" واحترام معلميه والسلطات الأكاديمية كما ينبغي على الأبناء احترام آبائهم^(١).

ومن النتائج المهمة للاحتجاجات التي استمرت رغم الاعتقالات والإغلاق المؤقت لعدة كليات^(٢)، توثيق التحالف الوليد بين "الرئيس المؤمن" وبين قوى الإسلام الراديكالي التي دعاها النظام إلى مواجهة نشاط الدوائر الجامعية الماركسية، بأعمال الدعاية والدعوة يمكنها الاعتماد على الأموال الحكومية والسعودية^(٣). فإذا صح أن أغلبية المناضلين من الجامعة المصرية ظلوا إلى جانب اليسار الماركسي والناصرى على الأقل حتى حرب أكتوبر فلا جدال في أنه في نفس هذه الفترة تم تجنيد الكوادر الجديدة للإسلام السياسي المعتدل والراديكالي خاصة من الجامعات الإقليمية التي أنشئت حديثا وبين الطلاب القادمين من الريف والصعيد^(٤).

(١) انظر خطاب ٢٥ يناير ١٩٧٢ في Ivi, p. 148-152. بخصوص "أسطورة القرية" وأهميتها في خطاب السادات انظر Israeli, Raphael, "The Peasant-President: Sadat's World of Images and Metaphors", Middle East Focus, 7, II (1984), p. 11-14.

(٢) من بين حوالي ١٥٠٠ طالب تم إلقاء القبض عليهم أثناء احتلال جامعة القاهرة تم حبس ثلاثين طالبا فقط بتهمة ترعّم الفتنة والارتباط بمجموعة "المتأمرين" المطرودة في مايو ١٩٧١. انظر أحمد عبدالله، Abdalla, A., The Student Movement..., cit., p. 189; OM, LII (1972), p. 73.

(٣) تأسست أول جماعة طلابية إسلامية راديكالية في هندسة القاهرة في خريف عام ١٩٧٢ وهي "جماعة الشباب الإسلامي".

(٤) بخصوص تكوين أجيال الإسلاميين المصريين لأعوام السبعينيات، انظر كتابي Gilles Kepel, Le Prophete et Pharaon, Paris, La Découverte, 1984 و Jihad, ascesa e declino. Storia del fondamentalismo islamico, Roma, Carocci, 2001. انظر أيضا سعد الدين إبراهيم "Anatomy of Egypt's Militant groups: Methodological Note and Preliminary Findings", International Journal of Middle East Studies, 12 (1980), p. 423-453.

وبالإضافة إلى الضغوط القائمة من اليسار الطلابي كان على السادات أن يواجه أيضا احتجاجات يمين النظام الذي بدأ في مساءلة شرعيته بسبب الجمود وعدم الحركة العسكرية، ورغم الوعود المستمرة بحرب وشيكة. وقد قامت مجموعة من الضباط الأحرار السابقين من بينهم زكريا محيي الدين ونائب الرئيس السابق حسين الشافعي وبمساندة هيكل ووزير الحربية محمد صادق بتوقيع خطاب عام شككوا فيه في فائدة التحالف المصري السوفييتي، خاصة في ضوء سياسة "الاسترخاء العسكري" التي تبنتها القوى العظمى بدءًا من قمة موسكو ٢٩ مايو ١٩٧٢ بين بريجنيف و نيكسون^(١). وتقاسمت قطاعات عريضة من الجيش نفس العواطف المعادية للسوفييت، حيث تم تحمل وجود الخبراء السوفييت الذين تخطى عددهم ٢٠٠٠٠ فرد بصعوبات متزايدة^(٢). ورغم شكوى الرئيس المعتادة من نقص وعدم كفاية الإمدادات العسكرية^(٣) وصولا لاستنتاج أن "القوتين العظميين قد اتفقتا على إبقاء الوضع الراهن في الشرق الأوسط"^(٤)، إلا أنه يدرك أن التحالف مع موسكو كان الخيار الإستراتيجي الوحيد المتاح أمام مصر. ورغم ذلك رد الرئيس المصري، وبشكل منفرد في ٨ يوليو، دون التشاور مع أي عضو من النخبة أو مع الولايات المتحدة الأمريكية "التي كانت ستدفع ثمنًا غاليا لهذه الهدية بكل سرور"^(٥)، طرد الخبراء العسكريين السوفييت معلنا انتهاء مهمتهم في البلاد. وكان قرار

(١) انظر Beattie, K.J., op. cit., p. 124; Hinnebusch, R.A., Egyptian Politics., cit., p. 52.

(٢) هذا هو الرقم الذي ذكره هيكل في The Road to Ramadan, , cit., p. 175. بينما تحدث روبنشتين عن رقم "بين ١٥٠٠٠ و ١٢٠٠٠ فرد" Red Star., cit. , p. 190.

(٣) نذكر على سبيل المثال الغضب والسخط اللذين بلغهما رد فعل السادات نحو أخبار "تحويل اتجاه" الأسلحة السوفييتية المرسلة إلى مصر في أواخر ١٩٧١ إلى الهند التي كانت مشتبكة في حرب مع باكستان انظر al-Sadat, A., In cerca di una identità, cit., p. 228.

(٤) انظر هيكل Heikal, M., The Road to Ramadan, cit., p. 173.

(٥) انظر هيكل Heikal, M., Autumn of Fury, cit., p. 46.

السادات الذى يشتمل على الدليل الواضح على الأسلوب الدبلوماسى الخاص به، بمثابة صدمة كهربائية للعالم أجمع، بناء على تعبير الرئيس نفسه. ورغم أنه من الصحيح، كما أكد هيكل، أن وراء كل الأفعال الأكثر دراماتيكية التى قام بها السادات يكمن تفكير طويل عميق^(١)، إلا أنه من الضرورى أن نفهم الأسباب التى دعت إلى القيام بحركة مفاجئة ومحيرة كطرد العسكريين السوفييت بمهلة تبلغ فقط عشرة أيام. وربما كان من أسباب هذا الإحباط التباطؤ المستمر فى إرسال الأسلحة^(٢) واقتناع الرئيس بأن الاتحاد السوفييتى لم يرد تشوب أى صراع فى الشرق الأوسط قد يتطور إلى مواجهة بين القوى العظمى. كذلك أراد السادات أن يفهم الولايات المتحدة الأمريكية أنه لم يكن رجل موسكو فى المنطقة، وأن يهدئ المشاعر المعادية للسوفييت التى سادت بين ضباط الجيش^(٣). ومع ذلك ورغم شهرته بالعداء للسوفييت فقد عارض الفريق صادق قرار طرد كل التقنيين السوفييت دفعة واحدة، خشية أن يعطل ذلك بشكل واضح إرسال الأسلحة اللازمة للحرب. وقد اكتسبت شخصية وزير الحربية المزيد من الهيبة على حساب شرعية الرئيس بعد ترحيل السوفييت الذى تم إرجاع فضله فى مصر وغيرها إلى المعارضة الصلدة لصادق ضد الوجود السوفييتى. وهكذا خشى السادات من حدوث موقف جديد مماثل للمنافسة بين عبد الناصر و عامر فى الستينيات ولهذا قام السادات بتتحية قائد الجيش فى أكتوبر ١٩٧٢ متهما إياه بعدم تنفيذ أوامره التى ترمى إلى بدء الحرب خلال شهر نوفمبر. إلا أن هذا الدافع لم يكن مزيفا تماما،

(١) انظر Ibidem, p. 22.

(٢) من المثير تسجيل تعليق (فى وقت لاحق) ل هيكل عن مسألة المساعدات العسكرية السوفييتية للمفتقدة. يعترف الصحفى المصرى بأن مصر كما هو الحال فى أغلب دول العالم الثالث، بالغت فى تقدير قدرة الإنتاج الحربى للقوى العظمى. كذلك ينكر هيكل أنه فى ظل غياب خطة تحرك عسكري محددة، كانت المطالب المصرية غالبا غير متسقة وأكثر من الحدود المعقولة. انظر The Road to Ramadan..., cit., p. 167-168.

(٣) انظر Beattie, K. J., op. cit., p. 125.

فمن الملاحظ أن صادق كان معارضا لفكرة الحرب المحدودة التي تم توضيحها ووضعها موضع التنفيذ من قبل الرئيس في حرب رمضان مفضلا "حركة عسكرية" قادرة على إعادة اقتحام سيناء بأكملها وربما حتى قطاع غزة^(١).

وعلى أي حال كانت تتحية محمد صادق وتعيين أحمد إسماعيل الأقل طموحا محله في صالح عودة الاقتراب الواضح من الاتحاد السوفييتي الذي كان أسطوله الحربي قد بقي في الموانئ المصرية. وعاد إمداد الجيش بالأسلحة بشكل مكثف منذ فبراير ١٩٧٣، بكميات أكبر من السابق وفي وقت أقل من الذي تطالب به القاهرة^(٢)، إلى درجة دفعت السادات نفسه إلى وصف الاتفاق الذي تم تجديده بـ "أضخم إمداد بالعتاد الحربي لم يسبق حدوثه بين بلدين"^(٣).

وقد تمنى الرئيس بطرده الخبراء السوفييت أيضا إلى الحصول على تقدير كبير في عيون الإدارة الأمريكية، ولهذا أعاد تنشيط الاتصالات السرية بين رجله الموثوق فيه حافظ إسماعيل ومستشار الأمن القومي هنري كيسنجر Henry Kissinger الذي كان دوره في السياسة الخارجية الأمريكية يفوق دور وزير الخارجية روجرز^(٤). غير أن كل اللقاءات السرية والاتصالات بين الجانبين كانت

(١) يذكر هيكل أنه كانت توجد ثلاثة خيارات عسكرية في القيادة العسكرية المصرية العليا. الأول "جرانيت ١" تشمل مجرد عبور القناة. الثاني "جرانيت ٢" غزو سيناء حتى ممر متلا. والثالث "جرانيت ٣" الاستيلاء على شبه الجزيرة كلها واختراق الجيش المصري لفلسطين عبر قطاع غزة. انظر: هيكل، *The Road to Ramadan*, cit., p. 173. ويؤكد المؤرخ المصري عبد العظيم رمضان بناءً على شهادات ممثلي القوات المسلحة المصرية الأساسية أن السادات لم يخطط حتى لاحتلال الممرات، بل خطط فقط لعبور القناة وتدمير خط "بارليف" بهدف التقدم بحد أقصى ١٠-١٥ كم شرق القناة من أجل بدء التحرك الدبلوماسي. انظر: عبد العظيم رمضان "حرب أكتوبر..."، المصدر السابق الذكر، ص ٥٦-٥٧.

(٢) انظر: Rubinstein, A. Z., *Red star...*, cit., p. 216.

(٣) انظر: al-Sadat, A., *In cerca di una identità*, cit., p. 238.

(٤) انظر: Meital, Y., *op. cit.*, p. 98.

غير مثمرة على الإطلاق، لدهشة السادات القصوى، حيث كان موقف واشنطن - عمليا - مساويا تماما لموقف تل أبيب التي أصرت على الاتفاق الجزئي والاتفاقيات الثنائية المباشرة، دون ذكر حقوق الفلسطينيين.

وفقا لبعض الباحثين فإن كلمات كيسنجر الذي تم تعيينه وزيرا للخارجية في ٢٢ سبتمبر ١٩٧٣ عن "أهمية تحريك الوضع الراهن" هي التي أدت إلى إقناع السادات بضرورة الحرب^(١). ومن هذا المنظور أضرم الرئيس الجدل المضاد للولايات المتحدة وإسرائيل معلنا أن الحرب لا يمكن تجنبها واصفا الولايات المتحدة الأمريكية في خطبته المعتادة في ذكرى الثورة بأنها "قاطع طريق كبير"^(٢)، لكن من الناحية الأخرى وكما يؤكد رايموند أ. هينبوش Raymond A. Hinnebusch "ربما لم تكن حرب ١٩٧٣ لتندلع أصلا لو أبدت الولايات المتحدة الأمريكية اهتماما أكبر بمبادرات السادات الدبلوماسية"^(٣).

وهكذا كان يجب على السادات في "الطريق إلى رمضان" مواجهة تحديات لشرعيته سواء داخل البلاد حيث كان عليه أن يوحد الجبهة بسبب الحرب، أو وسط الأمة العربية التي كان من الضروري الحصول على تحالفات سياسية وعسكرية داخلها للقيام بحركة عسكرية ودبلوماسية منسقة.

تم تفسير طرد العسكريين السوفييت وتتحية الفريق صادق على الجبهة الداخلية كخطوات أخيرة في الاتجاه المعاكس للحرب. في هذا المناخ عاودت الحركة الطلابية الاضطرابات والاحتجاجات في الكليات المختلفة مهاجمة بعنف متزايد الشدة شخص الرئيس ومنتهمه إياه ومعاونيه بالانهزامية والعجز. وفي هذه

(١) انظر Beattie, K. J., op. cit., p. 129؛ وكذلك آراء السادات In cerca di una identità, cit., p. 245.

(٢) انظر خطاب ٢٣ يوليو ١٩٧٣ في Israeli, R. (ed.), The Public Diary..., cit., vol. I, p. 397.

(٣) انظر Hinnebusch, R. A., Egyptian Politics..., cit., p. 55.

المرّة أظهر الطلاب، وبشكل مختلف عن حركة ١٩٦٨، أن لديهم وعياً أكبر بموقف البلاد وضرورة وجود انفتاح ديمقراطي حقيقي في كافة المؤسسات الجامعية والحكومية. وبالإضافة إلى هذا النضج الطلابي الواضح، شهدت حركة ١٩٧٢-١٩٧٣، أيضاً، أننى درجات التسامح من جانب الحكومة التى أمرت بالقمع السياسى فى وقت مبكر للغاية. ومن الضرورى أن نذكر كذلك أنه فى ديسمبر ١٩٧٢ دارت أولى الصدمات العنيفة بين المناضلين الإسلاميين - المزودين بالأسلحة البيضاء من قبل الحكومة^(١)، والتقدميين، الذين بقى فى أيديهم السيطرة على الكليات المتمردة. كذلك قام أمين تنظيم الاتحاد الاشتراكي، محمد عثمان إسماعيل، بنس رجال مباحث أمن الدولة بين الطلاب من أجل استثارة المناضلين الماركسيين والناصريين ومساندة الشرطة فى عمليات القمع^(٢).

وكان رد فعل السادات على الموجة الجديدة من الهجوم على شرعيته بقوة متطرفة أمراً بإغلاق الجامعة فى يناير ١٩٧٣ وإلقاء القبض على حوالى ١٥٠ من "المحرضين المنتمين إلى اليسار المخامر"^(٣).

كانت احتجاجات الجامعيين على السياسة الحكومية هى المثال الواضح على الحيوية التى شهدتها أوائل السبعينيات فى المجتمع المصرى المتحرر من الهيمنة السياسية والأيدىولوجية للنظام الناصري. وفى هذا السياق بدأ "الجيل الجديد" من الكتاب والمتقنين الذى تكوّن بعد الثورة^(٤) فى وضع كل من سلطة الدولة والأجيال

(١) أكد لى ذلك فؤاد علام الذى كان نائب وزير داخلية السادات ورئيس شعبة مكافحة الشيوعية والإرهاب عام ١٩٧٦ فى سياق مقابلة شخصية (القاهرة ١٤ يناير ٢٠٠٣).

(٢) انظر شهادات للقيادات السابقة للاتحاد الاشتراكي المذكورة فى Beattie, K. J., op. cit., p. 117-118.

(٣) انظر تقرير عبدالله أحمد (قائد الحركة الطلابية فى جامعة القاهرة فى ١٩٧١-١٩٧٤) عن الأحداث فى The Student Movement..., cit., p. 197-211.

(٤) بخصوص الجيل الجديد من الأبناء والمتقنين انظر ملف "هكذا يتكلم الأبناء الشبان"، "الطليعة"، العدد ٩ (سبتمبر ١٩٦٩)، ص ١٢-٨٨.

القيمة من الكتاب، الذين كانوا متساهلين للغاية مع السلطة، محل نقاش. ومن هذا المنظور لجأ الجزء الأكبر من متقّي البلاد الذين لم يعلنوا موقفهم بوضوح بسبب الرقابة على الصحف أثناء الحركة الطلابية في ١٩٧١-١٩٧٢ إلى محاولة تنظيم "اتحاد كتاب" مستقل عن الدولة، وبالإضافة إلى ذلك عبّر المتقّفون - بالتعاون مع "الحكيم الكبارين" للكتاب المصريين، توفيق الحكيم ونجيب محفوظ في خطابهم الموجه للرئيس ورئيس الوزراء المنشور في ٩ يناير ١٩٧٣ - عن تضامنهم مع الطلاب والمطالبة بـ "إلقاء الضوء" على النوايا الحقيقية للحكومة حول الحرب مع إسرائيل، ونقل مسئولية الخيارات الخاصة بالبلاد "إلى الشعب"^(١). وبالإضافة إلى وجود "العاملين" السابقين الذكر بين الموقعين على الإعلان، كان هناك أيضا كتاب وفنانون وصحفيو هذا العصر^(٢)، من كل جيل ومن كل فكر سياسي مما حال دون وصم النظام للمبادرة بأنها مؤامرة شيوعية. وتمثل حقيقة نشر الرسالة في الجريدة اليومية اللبنانية "الأنوار" في حد ذاتها إعلانا واضحا عن الرقابة الموجودة بمصر، وهو ما صعد رد فعل الرئيس بشدة. وقد قام هذا الرئيس بعد استدعائه لرؤساء الصحف واستقبال محفوظ والحكيم - بطرد ١١١ كاتباً وصحفيًا من الاتحاد الاشتراكي في ٤ من فبراير^(٣)، وهو ما يعاوى الحرمان من النشر في مصر^(٤).

(١) انظر نص التصريح الذي أعاده غالي شكرى في Gālī, Š., Egypt: Portrait of a President, cit., p. 135-137.

(٢) كان من بين الموقعين من الكتاب يوسف إدريس، ثروت عكاشة، لويس عوض، يحيى الطاهر عبد الله، مجيد طويبا، أمل لنقل، جمال الغيطاني، والصحفيون، لطفى الخولى (رئيس تحرير الطليعة)، غالي شكرى، رفعت السعيد، أبو سيف يوسف، صلاح عيسى. انظر المصدر السابق Ghali, Š., Egypt: Portrait of a President, cit., p. 134.

(٣) كان نجيب محفوظ و توفيق الحكيم هما الموقعين الوحيدتين على النداء للذين لم يتم طردهم من الاتحاد الاشتراكي العربى.

(٤) انظر صلاح عيسى "متقّفون وعسكر" القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٥، ص ١٦٨، و مارينا ستاج Stagh, Marina, The Limits of Freedom of Speech: Prose Literature and Prose Writers under Nasser and Sadat, Stockholm, Almqvist and Wilksell, 1993, p.32.

وبهذه الحركة ظهر بوضوح موقف السادات ضد الإنتلجنسيا التي تم اعتبارها مجرد جزء معرقل من التراث الناصري.

ورغم أن جزءًا من المثقفين المطرودين كانوا بالفعل مهاجرين إلى دول عربية أخرى أو أوروبية^(١)، فقد قام الرئيس بإصدار عفو بفضل الحرب معيدا إلى الكتاب والصحفيين حق النشر في مصر ومحررا للطلاب المساجين في المعتقل والمنتظرين للمحاكمة في خطوة في اتجاه توحيد الجبهة الداخلية إزاء الحرب الوشيكة^(٢).

مثلت رسالة "سحب الثقة" من المثقفين للحكومة، بالإضافة إلى التضامن مع الطلاب الذي عبرت عنه العديد من النقابات المهنية وجزء كبير من الطبقة العاملة، قمة أزمة الشرعية في مواجهة السادات ونظامه قبل حرب أكتوبر. ولعجزه عن الاعتماد على القمع فقط، قام الرئيس بتولي مهام رئاسة الوزراء وأعلن "حالة الحرب"، وتحضير الخطوات الأولى للحرب بالتعاون مع الجيش السوري. وعلى المستوى العربي الداخلي كان يجب على الرئيس أن يعي أن سوريا كانت الوحيدة من بين الدول المحيطة بإسرائيل المؤهلة بفاعلية للقيام بهجوم منسق^(٣). فأنشاء عام ١٩٧٣ تدهورت كل من العلاقات مع الأردن، بسبب مشروع الملك حسين بإنشاء مملكة عربية متحدة بين ضفتي نهر الأردن على حساب حقوق الشعب الفلسطيني، والعلاقات مع القذافي. وقد أحبط هذا الأخير من وهن رغبة الرئيس المصري في

(١) سيتم تخصيص قسم من الفصل الأخير للعلاقة بين المثقفين والنظام ولاختيارات الإنتلجنسيا المصرية في أعوام السبعينيات.

(٢) انظر In cerca di una identità, cit., p. 251-252.

(٣) استكملت الاتفاقيات بين الجيشين في مقابلات سرية متعددة في الإسكندرية في أغسطس ١٩٧٣. ويزعم هيكل أنه قيل للسوريين إن الجيش المصري أراد غزو سيناء حتى الممرات (خطة جرانيت ٢)، بينما أمر السادات بتفعيل (جرانيت ١) التي ترمي إلى غزو الضفة الأخرى للقناة فقط وتدمير خط الدفاع الإسرائيلي. Heikal, M., Autumn of Fury, cit., p. 50.

تحويل اتحاد الجمهوريات العربية إلى دولة حقيقة موحدة، بجيش واحد وقيادة سياسية واحدة، وتجمعت العلاقات إلى حد أن السادات لم يُبلغ الرئيس الليبي، رغم تقديمه منحة سخية من الأموال والأسلحة لمصر، بخطواته في الهجوم^(١).

إذا أردنا تقييم أداء السادات في سنوات حكمه الأولى ينبغي أن نلاحظ أنه رغم نجاح الرئيس في الانقلاب الاستباقي ضد مجموعة على صبرى، وفي بحثه عن إجماع داخل الطبقة البرجوازية، إلا أنه كان يجب عليه مواجهة أزمة شرعية خطيرة حيث لم يكن بوسع الاعتماد على الإجماع الشعبى الذى وفرته شخصية سلفه الكاريزمية. ومع ذلك إذا صح أن الرئيس كان عليه أن يعيش في سنوات حكمه الأولى في "ظل عبد الناصر" فمن الواضح أيضا أن السادات احتفظ بالسلطة رغم الاحتجاجات المتنوعة فى الداخل والخارج من النخبة بسبب الصفات الفرعونية والسلطة الشعبوية التى صبغ بها الرئيس السابق منصب رئيس الجمهورية.

٤: بطل العبور. مصر السادات الجديدة

لا يمكن لأى محاولة لسرد قصة المجتمع المصرى فى السبعينيات أن تتجاهل اعتبار حرب أكتوبر^(٢) نقطة تحول نموذجية فى المرحلة الساداتية وحدثا رئيسيا فى تاريخ الثورة المصرية. وهنا ينبغي أن نذكر أن تحليلنا الراهن لا يتفق تماما مع مفهوم الثورة المضادة بالمعنى الذى تبناه عدد من المناضلين والمتقنين الماركسيين ومن أبرزهم غالى شكرى. غير أنه يمكن التأكيد على أنه حتى إذا كانت الثورة المضادة بمعنى تغيير بعض الاتجاهات السياسية الأساسية قد تبرعت

(١) بخصوص محاولات الرئيس الليبى لدفع السادات للوحدة بين البلدين انظر Heikal, M., The Road to Ramadan, cit., p. 184-198.

(٢) المعروف فى مصر "بحرب رمضان" وفى إسرائيل وجزء كبير من العالم "بحرب يوم كيور".

بعد هزيمة ١٩٦٧، إلا أنه لاجدال في أن هذه الثورة لم يقم السادات بإتمامها إلا بعد "تصر" ١٩٧٣^(١).

وإذا كنا قد ذكرنا من قبل أن من الممكن الرجوع بعدة خطوط رئيسية لسياسة الرئيس الجديد قبل حرب أكتوبر إلى ما قبل حركة التصحيح في مايو ١٩٧١ وما قبل الانفتاح على البرجوازية الريفية والإقطاع، فمن المناسب هنا أن نؤكد أن بعض خيارات السادات تبدو استمرارا مخلصا ومنطقيا للاختيارات التي قام بها عبد الناصر بعد النكسة، بالذات فيما يخص الانفتاح الدبلوماسي على الولايات المتحدة الأمريكية، والبحث عن حل غير عسكري للصراع مع الدولة اليهودية. ورغم أننا ينبغي أن نؤكد على وجود خط من الاستمرارية في سياسة الرئيسين إلا أنه لا يمكن الاستغناء عن تحديد الانقطاعات البارزة التي قام بها السادات، بعد حصوله على الشرعية الشعبية وبعد أن تم تعميده باسم بطل العبور، للتوصل إلى تحليل سليم.

ليس من أهداف البحث الراهن مناقشة وتحليل العمليات العسكرية للحرب العربية الإسرائيلية الرابعة^(٢) سوى للتذكير بأنه رغم كونها "تصرا جزئيا" فقط (بعد الصدمة الأولى، رد الإسرائيليين الهجوم على كلا الجبهتين، مجبرين الجيوش العربية على الدفاع بفضل جسر جوى من الولايات المتحدة الأمريكية)؛ فقد نجح الرئيس المصري والرأى العام العربي بشكل عام في تصوير "الحرب المجودة" في أكتوبر على أنها حرب تحرير كبرى و"ثارا من هزيمة يونيو"^(٣).

(١) انظر Shukri, G., Egypt: Portrait of a President, cit., p. 24.

(٢) للحصول على تحليل ووصف للعمليات العسكرية والدبلوماسية انظر The Road to Ramadan...، cit., p. 39-45 e 207-261؛ وانظر أيضا عبد العظيم رمضان "حرب أكتوبر... ص ٩٥-١١١؛ وانظر أيضا el-Badri, H. - el-Magdoub, T., Zohdi, M., The Ramadan War 1973, Dunn Loring (VA), T.N. Dupuy, 1978; El-Shazli, Sa'd, The Crossing of Suez: the October War, 1973, London, Third World Centre for Research and Publishing, 1980.

(٣) بخصوص أهمية الحرب للرأى العام و"النفسية" العربية، انظر على سبيل المثال Hussein, Mahmud, Les arabes au présent, Paris, Seuil, 1974, p. 67-74.

ورغم أن الحرب لم تستطع تحرير الأراضي المحتلة في ١٩٦٧ فقد مثل عبور القناة نهاية أسطورة إسرائيل التي لا تقهر، وكذلك استعادة الشرف للمصري والعربي المجروح بعمق منذ الهزيمة التي حدثت قبل ستة أعوام. أعادت مشاركة العديد من الكتائب العربية تضامنا مع مصر وسوريا^(١) واستخدام ما يسمى بـ "سلاح البترول"^(٢) من جانب ليبيا ودول الخليج المعتلة تقليديا، ميلاد حسّ وحدوي عربي^(٣)، لبعض الوقت على الأقل، غير أن الأمر الذي لا شك فيه هو أن الرابع الحقيقي من الحرب هو المعاداة الذي حقق قراره بتعديل الوضع الراهن بحرب محدودة رغم تصريحاته الرسمية "بحرب تحرير" تصنعها الجماهير العربية.

وهكذا استطاع الرئيس بعد أن حقق شرعيته سواء في مصر أو في باقي العالم أن يبدأ في تحويل البلاد، محققا "ثورة مضادة من أعلى" بكل معنى الكلمة^(٤) وبناءً على معايير ومعايير نخبة اليمين التي تحالف معها، وأن يحرر نفسه من ظل عبد الناصر.

ويلخص الباحث الاجتماعي سعد الدين إبراهيم السياسة الساداتية في أربعة أركان رئيسية يتجسد فيها ما يسمى بـ "تصفية الناصرية" أي تفكيك النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي أسسه الرئيس السابق، هذه الأركان هي الانفتاح الاقتصادي والتحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية والمعسكر الرأسمالي في السياسة الخارجية والمقرطة التي تجسدت في العودة إلى نظام "التعدد الحزبي المحكوم" في الدخل والسلام مع إسرائيل^(٥). ويمكن التأكيد على أن كل هذه

(١) شارك سرب من القوات الجوية العراقية في العمليات على الجبهة المصرية، كما التحقت كتائب من العراق والمغرب والأردن والمقاومة الفلسطينية بالجيش السوري.

(٢) انظر تحليلات هيكل ووفقا لها استفادت شركات البترول الأمريكية بشكل واسع من المقاطعة العربية ومن ارتفاع سعر البترول في The Road to Ramadan, cit., p. 262-277.

(٣) انظر على سبيل المثال تعليق محمود حسين على القمة العربية في مدينة الجزائر في نوفمبر ١٩٧٣ في Les Arabes au présent, cit., p. 111-127.

(٤) انظر Hinnebusch, R. A., Egyptian Politics..., cit., p. 54.

(٥) انظر Ibrahim, Saad Eddin, Egypt, Islam and Democracy. Twelve Critical Essays, Cairo, The American University in Cairo Press, 1996, p. 37.

السياسات قد تم التفكير فيها والسعى إليها بشكل مترابط، وفي فترة من الزمن تبلغ أربع سنوات فقط أى منذ نهاية حرب أكتوبر وحتى رحلة السادات إلى القدس في نوفمبر ١٩٧٧.

أ: الانفتاح الاقتصادى

تم اللعب بورقة أكتوبر من قبل الرئيس فى عام ١٩٧٤ بعد عدة شهور من الحرب وبدون وجود أى آفاق للسلام، فقط من أجل إطلاق الإصلاح الاقتصادى إذ جعلت أزمة الموارد وديون الدولة انفتاح مصر على رؤوس الأموال الخارجية أمرا ضروريا من منظور السادات ومستشاريه^(١). كما كانت البلاد فى حاجة ماسة إلى عملة قوية وسيولة يمكن بهما الإبقاء على سياسة الدعم الشعبوى للضروريات الأساسية للحياة التى بدأها عبد الناصر واتباعها خليفته. وتم وصف الورقة باسم "وثيقة دستورية" وتمت الموافقة عليها فى استفتاء شعبى فى ١٥ مايو ١٩٧٤. وبدءا من "أيام أكتوبر المجيدة" تم تلخيص حدود وإخفاقات السياسة الاقتصادية الناصرية فى هذه الوثيقة، ووضع الأساس لتحويل النظام المصرى بشكل ليبرالى ورأسمالى. وعلى أساس ورقة أكتوبر وسياسة الباب المفتوح بأكملها فقد تحققت "المعادلة" التى ستؤدى من خلال التقنية الغربية والبترو دولار والموارد البشرية المصرية تنمية البلاد^(٢). تثبت الوثيقة أن "من طبيعة الثورات أن تتبنى الإجراءات

(١) لوحظ بشكل صحيح أن الجزء الأكبر من المستشارين الاقتصاديين الذين أنتجوا ورقة أكتوبر والذين كان من بينهم الماركسى إسماعيل صبرى عبدالله، كانوا يؤمنون بالاقتصاد الموجّه، وقد عارضوا خصخصة القطاع العام الاقتصادى، وفى سياق مقابلة شخصية مع إسماعيل صبرى عبدالله عارض الرؤية التى ترى فى الورقة بداية عودة مصر للنظام للرأسمالى (مقابلة مع إسماعيل صبرى عبدالله، القاهرة ٢٥ يناير ٢٠٠٣. وانظر أيضا Beattie, K.J., op. cit., p. 140-146).

(٢) يوجد تحليل كامل لورقة أكتوبر فى Cooper, M., The Transformation of Egypt, cit., p. 88-98. وانظر أيضا OM, LIV (1974) p. 434.

الملائمة لتطور المجتمع" وبناء على هذه المقدمات فمن الضروري التحرك في اتجاهين: يجب من ناحية إزالة كافة الجوانب السلبية التي تعيق التنمية الوطنية، ومن ناحية أخرى تنسيق الحركة الوطنية مع باقى العالم. وبدءًا من استخدام السادات كلمة "الانفتاح" يتضح عزمه، مدفوعا إلى ذلك أيضا بالبرجوازية الخاصة التقليدية وبرجوازية الدولة التي خلقتها الثورة، على إعادة مصر إلى المعسكر الاقتصادى الرأسمالى، كما أراد نقلها إلى المعسكر السياسى للولايات المتحدة الأمريكية فيما يتعلق بالحرب بين المعسكرين.

وقد أوضح الاقتصادى المصرى جودة عبد الخالق للقيمة الأيديولوجية للفظـة "انفتاح" حيث يفترض مسبقا وجود "انغلاق" وهى صفة مضللة فى حالة إطلاقها على الاقتصاد المصرى حتى ١٩٧٣، فليس من الصحيح اعتبار النظام نظام اكتفاء ذاتى ومغلقا أمام الخارج؛ حيث احتفظت مصر دائما بحجم كبير من التبادلات مع الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية فى أوروبا الشرقية، و ينبغى بالتالى، كما أوضح عبد الخالق، أن نتحدث - بدلا من الانفتاح - عن تحول نحو "الشمال الغربى" فى السياسة الاقتصادية المصرية^(١).

وكانت السياسة الاقتصادية الجديدة، التى تم إعلانها رسميا من خلال القانون رقم ٤٣ فى يونيو عام ١٩٧٤^(٢)، ترمى إلى تشجيع الاستثمارات العربية والغربية

(١) انظر Abdel-Khalek, Gouda, "Looking Outside or Turning Midwest? On the Meaning and External Dimension of Egypt's Infitah 1971-1980", Social Problems, vol. 28, n. 4 (April 1981), p. 396-397. انظر أيضا بخصوص القيمة الرمزية لكلمة إنتاج تأملات أحمد بهاء الدين الصحفى الذى صار صديقا السادات ومستشاره وحل محل هيكى فى محاورتى مع السادات، القاهرة، دار الهلال، ١٩٨٧، ص ٧٥-٨٦.

(٢) من الضروري أن نشير إلى أن القانون رقم ٦٥ لعام ١٩٧١ كان يرمى إلى اجتذاب الاستثمارات العربية وكان يمثل بكل المقاييس الخطوة الأولى نحو الانفتاح. انظر Beattie, K. J., op. cit., p. 137.

فى مصر عبر تشكيل مشاريع مشتركة وفتح مصانع محلية للصناعات الكبرى وفروع للبنوك الأجنبية. ورغم أن المبادرة توجهت إلى رأس المال المصرى الخاص، إلا أنها وفرت للأجانب وخاصة للمستثمرين العرب ظروفًا استثنائية مانتة إياهم الأفضلية للاستثمار من حيث استثنائهم من بعض الحقوق النقابية ومن حيث الإعفاءات الضريبية على رأس المال^(١). وتمنى السادات بالإضافة إلى الحصول على عملة صعبة وتحسين العلاقات مع العالم الرأسمالى أن يجد من خلال الانفتاح وظيفة لجيش الخريجين الجامعيين وحملة الشهادات المتوسطة الذين لم ينجح النظام فى تأمين وظيفة لهم فى القطاع العام.

من الواضح أن هذا النظام الهجين من القطاعين الخاص والعام يتبع "نوجما التنمية" التى تمثل دول العالم الثالث نمونجا مثاليا لها والتى تخلط بشكل خاص بين التنمية والنمو. فإذا كانت التكنولوجيا ورؤوس الأموال الأجنبية تستطيع تأمين مستوى معين من النمو الاقتصادى فلا يمكن من خلال ذلك تحقيق تنمية البلاد الذى يستلزم مشاركة الجماهير^(٢). على أى حال، فقد صاحب انطلاق السياسة الاقتصادية الجديدة فترة من التناؤل سواء بسبب الإجماع الذى حصل عليه الرئيس مع نصر ١٩٧٣ الجزئى أو الحجم المؤثر لرؤوس الأموال الأجنبية القادمة أساسا من نظم الخليج الملكية العربية وإيران الذين شهدوا مع الأزمة البترولية طفرة فى أموال الاستثمار. وقد تمثل أحد الإجراءات التى تدعم الانفتاح فى تأسيس ما سعى

(١) من أجل وصف دقيق للأوجه التقنية للانفتاح انظر الدراسة السابقة الذكر Mark Waterbury, John, The Egypt of Cooper, The Transformation of Egypt Nasser and Sadat: the Political Economy of two Regimes, Princeton, R. W. Baker, R. Princeton University Press, 1983. وانظر كذلك مساهمات A. Hinnebusch, G. Amin, K, Korayem, G. 'Abdel-Khalek, A. Hilal Dessouki, F. al-Guindi in Social Problems, Vol. 28, n. 4 (April 1981), p. 378-487.

(٢) انظر 'Abdel-Khalek, G., op. cit., p. 395.

في ١٩٧٤ بنظام "الاستيراد الذاتي" للعملة والذي يمكن بناء عليه لمن يمتلك الموارد الحصول على نقود أجنبية دون الرجوع إلى نظام الدولة المصرفي.

وبإعادته مصر إلى النظام الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية حصل السادات أيضا على قروض من صندوق النقد الدولي ومن البنك الدولي للتنمية. وقد اشتمل ذلك على التخلي البين غير المشروط عن التنمية الاقتصادية للبلاد ووضعها في يد الخبراء في هذه المؤسسات وبرامجها التي تناسب اقتصاد الدول الأكثر تقدما. وبهذه الطريقة تحولت مصر إلى دولة تعتمد تماما على المساعدة الأجنبية التي يمكنها أن تحدد بشكل غير مباشر شروط الخيارات الأساسية للسياسة الداخلية وكذلك مواقفها على الصعيد الدولي.

وهكذا، كما طرح ماري كريستين أولاس Marie Christine Aulas، بدت الدولة الشمال أفريقية في منتصف السبعينيات كأنها عادت إلى عصر الخديوي إسماعيل باشا الذي اضطر قبل ذلك بحوالي قرن، رغبة منه في أوزية البلاد، إلى إعلان إفلاسه إلى أن أصبح معتمدا تماما على قروض البنوك الفرنسية والبريطانية^(١). يجب أن نتذكر أن الاتجاه نحو الليبرالية تم في خطوات متدرجة بناء على رغبة الرئيس^(٢). ومن هذا المنظور صدر في عام ١٩٧٥ القانون ١١٨ للاستيراد والتصدير الذي هدف إلى إعطاء الحق للقطاع الخاص وللأفراد في

(١) انظر، Aulas, Marie Christine, "State and Ideology in Republican Egypt, 1952-82", in Halliday, Fred-Alavi, Hasan (eds), State and Ideology in the Middle East and Pakistan, Basingstoke, Macmillan, 1988, p. 143
انظر أيضا Amin, Galal, "Some Economic and Cultural Aspects of Liberalization in Egypt", Social Affairs, vol. 28, n. 4 (April Economic Affairs), p. 430, 1981، وأخيرا كرس هيكمل فصلا كاملا للمقارنة بين إسماعيل و السادات في Autumn of Fury, p.74-83.

(٢) انظر Beattie, K.J. p.139.

الاستيراد المباشر لبعض السلع^(١). وفي نفس العام تم إلغاء المادة التي تمنع القطاع الخاص من التعامل مع البنوك الأجنبية، وفي نهاية ١٩٧٦ كانت سياسة الاستيراد قد تحررت تماما واستطاعت شركات القطاع الخاص الإفلات من السيطرة الحكومية مكونة مشاريع مشتركة مع الشركات الأجنبية.

وكان مصير آمال الرئيس وجزء كبير من الشعب المصري في الانفتاح هو الإحباط، ففي عام ١٩٧٧ كان من الواضح تماما أن سياسة التحرير الاقتصادي كانت كارثة حقيقة^(٢) لأنها فشلت في جميع أهدافها، ليس فقط لأنها لم تحافظ على وعودها بالتنمية والرخاء للبلاد بل أيضا لآثارها السلبية على حياة المواطنين. فقد تم تفكيك العديد من الصناعات من جانب في إطار التزام كامل ببرنامج تصفية الناصرية ومن جانب آخر نشأ اقتصاد استهلاكي غير متوقع ومتنام، مع عدم قدرة الإنتاج على مواجهة الطلب والاتجاه نحو استيراد للعديد من السلع الكمالية وغير الضرورية مثل السيارات وأجهزة التليفزيون والثلاجات، إلخ. وقد ضاعف كل ذلك من عجز الميزان التجاري مع الغرب الذي تخطى حتى إجمالي الدخل المحلي المصري^(٣). وامتد الفضل أيضا إلى القدرة الاقتصادية للبلاد، التي لم يستطع تجارها منافسة أولئك القادمين من الغرب أو الشرق الأقصى في السعر أو الجودة، مما تسبب في فشل الشركات الخاصة المحلية، وما تبع ذلك من البطالة وتحويل جزء كبير من أصحاب رؤوس الأموال القدامى والجند أموالهم إلى أنشطة طفيلية

(١) سمحت السلطات باستيراد أغلبية السلع ما عدا ١٨ منتجا استمرت الدولة في استيرادها والتحكم فيها، وكانت هذه المنتجات هي: الدقيق والذرة والسكر والأسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية والأسلحة والمنتجات الحربية. وباستثناء هذه البضائع كان الاستيراد مفتوحا تماما للقطاع الخاص، انظر المصدر السابق الذكر - Abdel-

.Khalek, G., op. cit., p. 397

(٢) انظر Cooper, M.N., op. cit., p. 106.

(٣) انظر Ibidem, p. 107.

والاستثمار في قطاعات يضمنها الوجود الحكومي مثل الإسكان الشعبي^(١). وكان لتعميق الفروق الاجتماعية بسبب ظهور طبقة "الأغنياء الجدد" الذين سُموا "بالقطط السمان" أثر جانبي درامي للتوجه الاقتصادي الجديد. وقد تسبب بحث السادات عن التحالف مع البرجوازية التقليدية القديمة المرتبطة بملكية الأراضي أو ببرجوازية الدولة التي نمت في القطاع العام الضخم في سنوات الستينيات في التطور الاقتصادي لهذه الطبقات وتكوّن أوائل المليونيرات المصريين^(٢)، بينما تسبب غلاء الأسعار والتضخم في استمرار ازدياد صعوبة حياة الجزء الأكبر من المواطنين. وأدى حب الاستهلاك وتفاخر أثرياء المنفتحين المتحررين من النقش الاشتراكي الذي ابتغاه عبد الناصر إلى كراهية هذه الطبقة من جانب الطبقات الأقل قدرة مدمرا إلى الأبد لـ "الجامع القومي" الذي أمّن منذ الخمسينيات وحدة جميع الطبقات الاجتماعية في البلاد تحت حماية كاريزما الرئيس السابق متضامنة من أجل الكفاح للحصول على الاستقلال والتنمية الاجتماعية والاقتصادية.

تحققت بوادر استئناف النشاط العمالي والنقابي ضد النظام والبرجوازية الكومبرادورية والطفيلية في عام ١٩٧٥. وخلال العام التالي شهد كل أسبوع تقريبا إضرابا في المجمعات الصناعية والإنتاجية الرئيسية للبلاد. واتهمت الحكومة

(١) وفقاً لـ هاني شكر الله فإن هذا الوضع الطفيلي للبرجوازية المصرية منعها من امتلاك السلطة السياسية بعد الحصول على السلطة الاقتصادية مفضلين البقاء في موقع "حلفاء" النظام الذي بقيت مقاليدته في أيدي النخبة العسكرية. انظر p88-90 Hussein, Mahmud, "Nazionalismo Shukrallah, H., Political..., انظر أيضاً "invisible e crisi dello Stato" in L'Egitto da Nasser a Sadat: una transizione permanente, Dossier di Politica Internazionale, 3 (1978), p. 41-44.

(٢) مثل عثمان أحمد عثمان رئيس شركة المقاولون العرب وصديق السادات الوفي رمز "القطط السمان". وقد تجاوزت أرباح عثمان بفضل عطاءات الحكومة المصرية مبلغ ١,٦ مليون جنيه مصري في ١٩٧٢ إلى ٢٢,٤ مليون جنيه مصري في ١٩٨١ انظر Baker, Raymond W., Sadat and After. Struggles for Egypt's Political Soul, London, I. B. Tauris, 1990, p. 23 e ss.

المنظمات الشيوعية السرية بهذه الأعمال حتى لا تضطر إلى الاعتراف بفشل سياستها الاقتصادية نفسها. صحيح أن عام ١٩٧٥ وما تلاه شهد نمواً للنشاط العمالي والطلابي ذي الاتجاه الماركسي والناصرى^(١)، إلا أن استياء الطبقات الدنيا التي رأت تضائل القوة الشرائية لأجورها بسبب الانفتاح، كان عاماً تقريباً ومفتقراً إلى التنظيم، كما بينت انتفاضة ١٩٧٧ الشعبية الكبيرة.

وباختصار لم يقدم السادات إلى الدول الرأسمالية الأكثر تقدماً مع الانفتاح الاقتصادي أكثر من سوق جديدة وزبائن جدد لسلعهم، وعلاوة على ذلك لم يكن من الملائم الاستثمار في البنية التحتية والأنشطة الإنتاجية في دولة لا تزال في حالة حرب. وقد قاومت القوى الاقتصادية الكبرى الممثلة في البنك والمجتمع الدولي ذلك بمنح المساعدة المالية، المهددة من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، والضرورية من أجل الإبقاء على البلاد في حالة "تعويم" والحفاظ على بقاء نظامها في السلطة، وهو الذي أصبح حليفاً إستراتيجياً للمعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية^(٢).

ب: "صديقي كيسنجر" إعادة هيكلة السياسة الخارجية

ربط السادات بوعي إعادة هيكلة السياسات الاقتصادية المصرية بمراجعة شاملة لإعادة تحديد موقع البلاد في الساحة الدولية.

(١) بخصوص معارضة الانفتاح من جانب التشكيلات الماركسية المصرية المختلفة انظر الفصل الرابع.

(٢) انظر استنتاجات جلال أمين، Amin, G., op. cit., p. 438-440. انظر أيضاً الملاحظات المثيرة للمحلل السياسي أرماتدو سلفاتورى عن "الرعاية الأمريكية للانفتاح" في "Ruolo egemonico e modernizzazione in 'Medio Oriente'. Il dilemma degli aiuti economici americani in Egitto, Napoli, Ferraro, Gobe, Eric, 'Egypte: les hommes d'affaires et l'Etat' 1991, p.55-82 dans le capitalisme del'infit...h (1974-1994)", Monde Arabe Maghreb-Machrek, 156 (1997), pp.49-59.

ويسجل العديد من الباحثين التفضيل والإعجاب "التاريخي" من جانب الرئيس للنظام الاقتصادي الاجتماعي للولايات المتحدة الأمريكية بالمقارنة مع تقشف الاشتراكية الواقعية السوفيتية^(١)، كما يذكرون أن أول انفتاح حتى وإن كان على استحياء نحو رأس المال الخاص كان موجودا بالفعل في "بيان ٣٠ مارس" الذي قدمه عبد الناصر^(٢). وكذلك يجب التأكيد على أن نجاح الانفتاح الاقتصادي كان يتطلب انفتاحا سياسيا في نفس الاتجاه على المستوى الدولي^(٣).

وعلى أي حال فإن من الممكن الانطلاق من تصريح ٢٠ أكتوبر ١٩٧٣ الذي طلب فيه الرئيس من الرئيس السوري حافظ الأسد بقبول وقف إطلاق النار لأن الولايات المتحدة الأمريكية قد نزلت ساحة الحرب إلى جانب إسرائيل ولا تستطيع مصر مواجهتها^(٤)، لاستنتاج رغبته في طلب وساطة الولايات المتحدة الأمريكية بصرامة. وتبعاً لهذا المنطق يستنتج ميتال أن حرب أكتوبر كانت بمثابة نصر لـ السادات نفسه لأنه نجح في تغيير موقف الولايات المتحدة الأمريكية، دافعا لها إلى التدخل المباشر واتخاذ موقف لا تقوى فيه ببساطة على إعادة إنتاج

(١) نكر هيكل و باتي ضمن آخرين الانطباع العميق الذي خلفته زيارة السادات للولايات المتحدة الأمريكية واقتناعه الذي اكتمل بعد البعثات الدبلوماسية المتكررة لموسكو بأن الولايات المتحدة الأمريكية ستصبح القوى العظمى الوحيدة الحقيقية. انظر: Heikal, M., Autumn of Fury, p.63 والمصدر سابق الذكر Beattie, K. J., p.147.

(٢) انظر القسم ٢: أ في هذا الفصل.

(٣) ١٦٨: يمكننا أن نؤكد إذا تذكرنا كلمات هاني شكرالله التي سبق ذكرها، أن عودة مصر إلى النظام الاقتصادي للرأسمالي كانت تمثل أحد الأعمدة التي تأسست عليها "المرحلة الرجعية الجديدة" للبورجوازية المصرية بعد انتهاء "المرحلة التقدمية" مع هزيمة ٦٧. انظر: Shukrallah, H., Political..., cit. p. 63. انظر أيضا Hussein, Mahmud, "Nazionalismo invisibile e crisi dello Stato" in L'Egitto da Nasser a Sadat: una transizione permanente, Dossier di Politica Internazionale, n°3 (1978), p. 42-43.

(٤) النص في كتاب السادات p. 337, In cerca di una identità.

المواقف الإسرائيلية^(١). وقد جاء الدليل على ذلك من زيارة كيسنجر للقاهرة في ٦ نوفمبر بهدف التفاوض على اتفاقية فك الارتباط بين الطرفين. فمنذ أول مقابلة بين السادات ومن سيصبح بعد ذلك "صديقي هنري كيسنجر" أعلن الرئيس المصري بشكل واضح، وفقا لرواية هيكل، سلاما كاملا مع إسرائيل مؤكدا أن الاتحاد السوفيتي هو العدو الحقيقي لمصر^(٢)، رغم الجسر الجوي للأسلحة والذخيرة الذي وفرته موسكو لصالح القاهرة ودمشق أثناء الحرب.

وفي الوقت نفسه تحطم، في ٣٠ أكتوبر، أول تابو في "حياة السلام" المصرية الإسرائيلية، بالمناقشات المباشرة بين القيادات العليا للقوات المسلحة للجيشين، بفضل وساطة الأمم المتحدة في الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة - السويس^(٣). كانت هذه هي المرة الأولى منذ هدنة رودس في ١٩٤٩ التي التقى فيها أعضاء على مستوى عالٍ من البلدين بشكل رسمي من أجل معاهدات ثنائية مباشرة، وقد نتج عنها ما سمي "باتفاقية النقاط الست". والتي رمت إلى الالتزام المتبادل باحترام وقف إطلاق النار واستبدال أسرى الحرب، ويمكن اعتبارها أول نجاح لدبلوماسية "الخطوة خطوة" لهنري كيسنجر من اللحظة التي أُنقذ فيها السادات بالتخلي عن عودة الجيش الإسرائيلي إلى خط ٢٢ أكتوبر كشرط مبدئي لأي معاهدة^(٤).

(١) انظر Meital, Y., op. cit., p. 127.

(٢) رغم أن من الجائز أن نشك في كلمات هيكل في "خريف الغضب" (Autumn of Fury, p. 67-68) إلا أن كيسنجر نفسه أكدها في Years of Upheaval, Boston, Little, Brown & Co., 1982, p226-236.

(٣) عن المغزى النفسي للمقابلات انظر رواية رئيس المفاوضات المصرية اللواء عبد القنى الجمسى في "منكرات الجمسى: حرب أكتوبر"، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٩، ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٤) استمر الجيش الإسرائيلي في التقدم على الضفة الغربية للقناة فاحتل عدة مواقع على طريق مصر - السويس عازلا الجيش الثالث المصري عن باقي الجيش الذي امتثل على العكس منه لوقف إطلاق النار، وذلك رغم القرار ٣٣٨ للأمم المتحدة الذي =

تأكد الدور الجديد للإدارة الأمريكية في الصراع منذ إعلان الاستعادة الرسمية للعلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية في السابع من نوفمبر، وتوثقها بالعديد من اللقاءات بين الرئيس ووزير الخارجية بين نهاية عام ١٩٧٣ وبداية عام ١٩٧٤. وبعد انعقاد مؤتمر جنيف الفاشل^(١) الذي أقيم تحت رعاية القوتين العظميين بمشاركة إسرائيل ومصر والأردن "وضع [السادات] كل أوراقه في يد كيسنجر" متخطيا الأمم المتحدة والتحالف المترشح كالعادة مع موسكو. وبعد نهاية الجولات المكوكية لرئيس الدبلوماسية الأمريكية بين الدولتين مصر وإسرائيل تم توقيع معاهدة فض اشتباك في ١٨ يناير ١٩٧٤ باسم "سيناء ١". وقد رمت هذه التسوية التي مثلت من كل الأوجه الخطوة الأولى نحو السلام المنفصل، إلى انسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء حوالي ٢٠ كيلو مترا من القناة والوجود "الرمزي" للجيش المصري على الضفة الشرقية^(٢)، والتزام الحكومة المصرية بإيقاف العمليات الفدائية من أراضيها وإيقاف المقاطعة البترولية^(٣).

=فرض وقف إطلاق النار في ٢٢ أكتوبر. وقد أدى موقف إسرائيل هذا ضمن أمور أخرى إلى تهديد الاتحاد السوفيتي بالتدخل المباشر، وبشكل غير مباشر إلى إعلان الولايات المتحدة الأمريكية حالة التأهب النووي في ٢٥ أكتوبر.

(١) كان السادات يأمل في انعقاد فوري لمؤتمر سلام بين دول الجبهة العربية وإسرائيل مع وساطة الأمم المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتي في خطاب ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ الذي أعلن فيه السادات تفضيله لوقف إطلاق النار. وافتتح المؤتمر في ٢١ ديسمبر ١٩٧٣، وشهد فقط مشاركة مصر والأردن من الجانب العربي وانفض دون التوصل إلى نتائج.

(٢) وفقا للمعاهدة سمح لمصر بالاحتفاظ بثلاثين دبابة فقط شرق القناة من أصل ٧٠٠ دبابة كانت موجودة وقت وقف إطلاق النار، ويروى هيكل أنه عندما قرر السادات التخلي حتى عن هذه الثلاثين دبابة لإرضاء كيسنجر أفلتت بموع الجسمي، الذي شعر بأنه حارب بلا طائل. انظر هيكل في Heikal, M., Autumn of Fury, cit., p.71.

(٣) انظر OM, LIV (1974), p.106-107 e Meital, Y., op. cit., p. 144-145.

قدم الرئيس الاتفاقية للرأى العام المصرى والعربى على أنه انتصار لأنه للمرة الأولى منذ النكسة انسحبت إسرائيل من جزء من الأراضى العربية المحتلة. إلا أن العديد من النقاد على العكس من ذلك بدأوا فى اتهام السادات بالاستسلام للعدو والإمبريالية العالمية موضحين أن حرب أكتوبر لم تكن فى واقع الأمر "حرب تحرير وطنية" بل كانت على العكس من ذلك " محطة انتقالية نحو الاستسلام للصهيونية"^(١).

على أن الاعتراضات بقيت لوقت طويل محصورة فى الأوساط الراديكالية والماركسية والناصرية، حيث رأت الجموع التى صعدت بمفاجأة انفجار الحرب^(٢) فى الرئيس بطل العبور، وكانت مستعدة لمنحه ثقة كبيرة فى السياسة الداخلية والخارجية^(٣). واستأنف الرئيس بعد معاهدة فض الاشتباك الاتهامات ضد موسكو معترضا على نقص تعويض الأسلحة التى تم تدميرها فى الحرب^(٤) ومقما قادة واشنطن فى نفس الوقت للرأى العام المصرى على هيئة "الأصدقاء الذين ساعدوا مصر على استعادة سيناء وتحقيق سلام عادل ومستقر".

(١) النقد الوحيد للمعاهدة الذى نشر فى مصر رغم فتوره الشديد، نجده فى المناظرة التى نظمتها "الطلیعة" بين محرريها والمتعاونين معها بعنوان "حركة التحرر الوطنى العربیة بعد ٦ أكتوبر: المشاكل والآفاق" فى "الطلیعة"، العدد ١ (يناير)، ١٩٧٤ ص ١٠-٤٠، على العكس من ذلك ظهرت اتهامات قوية فى كتابات "اليسار الجديد" انظر: Hussein, M., Les Arabes..., cit., وعدة مقالات فى الصحافة الشيوعية السرية الناشئة من بينها مقال صالح محمد صالح "ليس كل ما يلمع ذهباً" أبريل ١٩٧٤ الذى أعاد إصداره حزب العمال الشيوعى المصرى "مسار الخيانة من الهزيمة إلى المبادرة" بيروت، دار الكتب، ١٩٧٩، ص ٥٥-٧٧.

(٢) انظر استطلاع الرأى الشعبى "رؤية شعبية لحرب أكتوبر" فى "الطلیعة" العدد ١٢ (ديسمبر ١٩٧٣) ص ١٨-٥٠، وتعليق هيئة التحرير فى نفس المصدر ص ٥١-٥٤، انظر أيضا Hussein, M., Les Arabes..., cit., p.180-183.

(٣) لكن حتى فى عام ١٩٧٤ ظل السادات يعلن أنه يستمد شرعية حكمه من اختياره من جانب عبد الناصر. انظر اللقاء الطويل مع الرئيس فى عبد الستار الطويلة، "السادات الذى أعرفه"، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠، ص ٣٠ ومايليه.

(٤) انظر Donini, Pier Giovanni, "Sulla crisi dei rapporti tra Egitto e Unione Sovietica" in OM, LV (1975), p. 473 عن اعتبارية هذه الاتهامات، انظر Shukri, G., Egypt: Portrait..., p. 161.

والحقيقة أن استقبال المنتصرين الذى قُدمه النظام لـ نيكسون^(١)، رغم ما لحق به فى فضيحة ووترجيت، بمناسبة زيارته إلى القاهرة فى يونيو ١٩٧٤، وتوقيع العديد من الاتفاقيات الثنائية للتعاون الاقتصادى والمالى بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية، كان يمثل تحول السادات إلى المعسكر الغربى. وكرست الاتفاقيات السابقة الذكر التبعية الاقتصادية لمصر على المنحة الأمريكية ومثلت نهاية اتفاقية الصداقة المصرية السوفيتية منذ ١٩٧١ بشكل عملى، وإن لم يكن رسمياً. ورغم وصف السادات محاولاته للاقترب من الولايات المتحدة الأمريكية كمورد محتمل للأسلحة على أنها "سياسة تنويع مصادر السلاح" إلا أن الحملة المضادة للاتحاد السوفيتى التى انطلقت فى الصحافة المصرية ١٩٧٤ و ١٩٧٥^(٢) استبقت إلغاء المعاهدة من طرف واحد وهو الذى تحقق فقط فى مارس ١٩٧٦.

وبالنسبة لسياسة فترة ما بعد الحرب للدول العربية تتبع محمود حسين تيارين: تيار "البراجماتيين" الذى يمثل السادات وهو يناصر التناول التدريجى لحل المسألة العربية الإسرائيلية، وتيار "الراديكاليين" بقيادة الرئيس الجزائرى بومدين والرئيس السورى^(٣). غير أن من الضرورى أن نوضح أن هذه للتفرقة ليست سهلة

(١) انظر OM, LIV (1974), p.527-529.

(٢) انظر Donini, P. G., Sulla crisi.., op. cit., p.475.

(٣) انظر Hussein, M., Les Arabes..., op. cit., p178 e ss. عن العلاقات بين العرب فى أعوام السبعينيات انظر Ercolessi, Maria Cristina, "L'evoluzione dei rapporti inter-arabi, 1970-1983" in AA. VV., La crisi del Medio Oriente. Dimensione regionale ed internazionale, Dossier CeSPI, Milano, Franco Angeli, 1984, p.17-51 Tibi, Bassam, "Structural and Ideological Change in the Arab sub-system since the Six-Day War", in Lukacs, Y. & Battah A., The Arab-Israeli Conflict: two Decades of change, Boulder, Westview Press, 1988, p.147-163. من أجل معالجة واقعية عن السياسة العربية المصرية فى أعوام السبعينيات انظر حسن أبو طالب، "علاقات مصر العربية" ١٩٧٠-١٩٨١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨.

دائماً، وأن سوريا بدورها قبلت باتفاقية فض الاشتباك في الجولان في مايو ١٩٧٤^(١). ورغم ثقة الرئيس الكاملة في الوساطة الأمريكية وقبوله لتسهيلات سياسية دبلوماسية لصالح الحل السياسي للصراع إلا أنه التزم بعض الوقت بالموقف الذي يربط أى اتفاق سلام نهائى بحل المشكلة الفلسطينية ونفى من حيث المبدأ احتمال قيام اتفاقيات سياسية واقتصادية وتجارية بين إسرائيل والدول العربية. وإلى جانب التراث السيكولوجى الناصرى بعقيدته التى ترفض الدولة اليهودية رفضاً قاطعاً، كانت تقف وراء رفض قبول إسرائيل فى "النظام الإقليمى العربى"، ضرورة حماية البرجوازية المصرية، الحليف الرئيسى لـ السادات، من غزو محتمل للسلع الإسرائيلية للأسواق العربية وهو الأمر الذى قد يضرب فى مقتل "بعث" اقتصاد رأسمالى مصرى فى طريق إعادة الهيكلة بالانفتاح^(٢).

ومن الضرورى أيضاً أن نوضح مع ميتال أن السادات اعتقد لبعض الوقت فى وجهة النظر التى تقول بسلام يتم التفاوض عليه بصحبة الدول العربية الأخرى أو على الأقل مع الدول التى فى "الخط الأول" لكنه اقتنع نتيجة للجمود الإسرائيلى وصعوبة الوساطة والاتفاق داخل المعسكر العربى بـ "الاستمرار وحده على طريق الولايات المتحدة الأمريكية"^(٣).

إذا أردنا تتبع المحطات الأكثر دلالة على طريق الحل المنفرد، من الضرورى أن نتذكر أنه على كل حال تم اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية فى لقمة العربية للرباط فى ١٩٧٤ "الممثل الوحيد للشعب الفلسطينى"^(٤). وقد عزز هذا القرار التاريخى انتصار الجناح الأقل راديكالية للمقاومة الفلسطينية، وانتزع الملك

(١) انظر نص الاتفاقية فى OM, LIV (1974), p.384-385.

(٢) انظر Hussein, M., Les Arabes..., cit., p. 170، وانظر أيضاً صالح محمد صالح، "ليس كل ما يلمع ذهباً"، المصدر الذكر السابق.

(٣) انظر Meital, Y., op. cit., p. 146-147.

(٤) انظر OM, LIV (1974), p. 566-568. وقد تقرر كذلك فى الرباط إعلان "السلطة الوطنية" الفلسطينية على كل شبر من الأراضى المحررة.

حسين في نفس الوقت أى حق في تمثيل الفلسطينيين والذين يمثلون رغم ذلك أغلبية رعاياه. وجعل هذا القرار من الصعب بدء مفاوضات السلام مع إسرائيل من اللحظة التي لم تقبل فيها الولايات المتحدة الأمريكية أو الدولة اليهودية نهائيا قبول حضور وفد من منظمة التحرير الفلسطينية في مؤتمر السلام في جنيف حتى "علاقات لم يتخل رسميا عن الكفاح المسلح وإلغاء المادة التي ترمى إلى تدمير دولة إسرائيل من دستور منظمتها"^(١).

في الحقيقة لم يقف التعنت الإسرائيلي عند حد رفض الاتفاق مع ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية بل ذهب إلى حد التثبيت بربط عقد معاهدات سلام مع الدول العربية بتطبيع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والاجتماعية بين الدول الموقعة. وبالإضافة إلى ذلك، أعلنت الدولة اليهودية، فيما يتعلق بالاتفاقيات "المنفردة" المصرية الإسرائيلية، رفضها الانسحاب إلى الشرق من ممرات متلا والجدى اللذين يمكن من خلالهما السيطرة على طرق سيناء الرئيسية. وقضى عدم استعداد تل أبيب لتعديل موقفها الذي أبدته في النصف الثاني لعام ١٩٧٤ وما بعده على مساعي كيسنجر والذي بقي وزيرا للخارجية أيضا مع الرئيس جيرارد فورد Gerard Ford^(٢).

وقد شهد النظام الإقليمي العربي في عام ١٩٧٥ حدثين مثيرين للاضطراب ألا وهما اغتيال فيصل ملك السعودية على يد أحد أقربائه في ٢٥ مارس وبداية الحرب الأهلية اللبنانية. وحرّم اختفاء الملك فيصل في الرياض السادات من حليف ثمين على طريق الاتفاق المنفصل مع إسرائيل، بينما أدى تورط المقاومة

(١) انظر Meital, Y., op. cit., p. 147، وانظر أيضا Hussein, M., Les Arabes..., cit., p. 148-151.

(٢) حل جيرارد فورد، نائب الرئيس الأمريكي، في أغسطس ١٩٧٤، رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية، محل ريتشارد نيكسون الذي أجبر على الاستقالة بعد فضيحة ووترغيت.

الفلسطينية في العمليات العسكرية بين الطوائف اللبنانية إلى تصعيد الجمود الإسرائيلي والأمريكي في رفض الجلوس على طاولة المفاوضات مع ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية.

وفي سبيل حل هذا الموقف المتأزم قرر السادات "تليين" مواقفه. وفي مقابلته مع فورد في سالزبورج، في بداية يونيو أعلن إعادة فتح قناة السويس للملاحة في ٥ يونيو ١٩٧٥ الذكرى الثامنة لحرب الأيام الستة^(١). وكان قرار الرئيس بإعادة فتح القناة والقرار الملازم له بإعادة بناء المدن على ضفافها، وهي المدن التي كان قد تم إخلاؤها منذ زمن يعنى ضمناً موافقة الرئيس على التخلي عن الحل العسكري. ولم تغب هذه النية على حكومة تل أبيب التي قررت "في بادرة على حسن النوايا" خفض عدد قواتها العسكرية الفاعلة في المنطقة المجاورة للقناة^(٢).

وتمخضت إعادة الاتصالات الدبلوماسية في ٤ سبتمبر ١٩٧٥ عبر وساطة كيسنجر التي لا يمكن الاستغناء عنها عن توقيع اتفاقية فض الاشتباك الشهيرة باسم "سيناء ٢"^(٣)، وتنص المادة الأولى من الاتفاقية على أن "الصراع بين الطرفين في الشرق الأوسط سيتم حله بوسائل سلمية" وأن على الطرفين المتنازعين أن يلتزما بتحقيق "سلام عادل ودائم من خلال المفاوضات". وبناء على الشروط الأخرى كان ينبغي أن ينسحب الجيش الإسرائيلي من الممرات وآبار البترول في سيناء، ووضع ثلاث نقاط تفتيش في كل واحدة منها ممثلون لمصر وإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية في هذه الأراضي التي سيتم الجلاء عنها. وبالإضافة إلى الإعلان عن التخلي عن حالة الحرب وإن لم يكن بشكل رسمي، ضمنت حكومة القاهرة المرور

(١) انظر خطاب السادات بمناسبة إعادة فتح القناة في ٥ يونيو ١٩٧٥، في Israeli R. (ed), The Public Diary..., cit., volume 3, p. 905-909. وانظر أيضا OM, LV. (1975), p. 369.

(٢) انظر Meital, Y., op. cit., p. 149.

(٣) انظر نص المعاهدة في OM, LV (1975), p. 287-291.

لحر للسفن التي تحمل حمولة غير عسكرية والقادمة إلى أو المغادرة من إسرائيل. وعلى هامش "سيناء ٢" ضمنت الولايات المتحدة الأمريكية إمدادا استثنائيا بالبتترول في حالة حدوث حظر جديد والأهم من ذلك الإمداد بـ "أسلحة جديدة وأكثر تعقيدا للدولة العبرية" تعويضا عن غياب إعلان مصرى صريح عن إنهاء حالة الحرب بين البلدين.^(١)

ومستبقا الانتقادات التي ستوجه إلى توقيعها على هذه المعاهدة، سارع السادات أثناء تقديمه للاتفاقية في جلسة مشتركة بين مجلس الشعب والاتحاد الاشتراكي بإعلان أن توقيع "سيناء ٢" لا يعنى قبول "معاهدة سلام منفردة ولا الاستسلام لإسرائيل أو للتخلي النهائي عن حقوق الشعب الفلسطيني بأي حال من الأحوال، ولا حتى انسحاب مصر من الصراع العربي الإسرائيلي"^(٢).

وقد برهن الرئيس على الوجه الإيجابي للاتفاقية الذي يتضح من كونه أول انسحاب إسرائيلي ملحوظ منذ حوالي ٤٠ عاما من المواجهة العسكرية، مناديا بـ "رؤية واقعية" للسياسة الدولية ومطالبيا "الإخوة العرب" بالثقة في سلامة نوايا الوساطة الأمريكية. ويقف وراء قرار السادات بقبول الحل السلمي للصراع وبناء على كلماته نفسها إدراك أن القوى العظمى لم تكن لتسمح أبدا لأحد الطرفين بتحقيق نصر عسكري واضح^(٣).

ولكن رغم المحاولات الشاقة للرئيس لتوضيح كم كانت اتفاقية فض الاشتباك الثانية خطوة إيجابية، لم تلق انتقادات الأطراف المختلفة إليه بالا. فقد اتهم النظام

(١) انظر Meital, Y., op. cit., p150.

(٢) انظر خطاب ٤ سبتمبر ١٩٧٥ في Israeli, R. (ed.), The Public Diary..., volume 3, p. 1012-1013. انظر أيضا المقابلة المنشورة في الجريدة اللبنانية اليومية "الأخبار"، في ٢٢ يونيو ١٩٧٥، التي تكلم فيها للرئيس عن "عدم المسامح" بإسرائيل من الناحية العملية في حدود ١٩٦٧، وأكد كذلك على الثمن الغالى الذي دفعته مصر بتورطها في القضية العربية "حتى ضد مصالحها هي نفسها".

(٣) Ibidem.

المصري السادات بـ"الخيانة العظمى" واصفا الاتفاقية على أنها "هزيمة للقضية العربية" ومهددا بقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر فورا. كذلك وصم العراق الذي كان مرتبطا تماما بالمعسكر السوفييتي الاتفاقية بأنها "اتفاقية سلام منفردة بشكل فعلي واضح" بينما اتهمت فصائل المقاومة الفلسطينية المختلفة مصر بأنها باعت قضيتهم بثمن بخس بسبب قطعة أرض^(١).

وقد تمثل رد فعل الرئيس على هذه الانتقادات العنيفة في اتهام نظامي بغداد ودمشق بأنهما "مسيّران" من جانب الاتحاد السوفييتي، ويستخدمان القضية الفلسطينية فقط كحجة لإضعاف موقف القاهرة وتلويث سمعة الجيش المصري^(٢). وبدأ السادات والصحافة الرسمية المصرية في الأيام التي تلت توقيع المعاهدة جدلا جديدا ضد الحكومة السوفييتية المتهمة بالتهرب من حضور عقد الاتفاقية رسميا في جنيف وبالبحث عن بذور الشقاق بين الدول العربية بدلا من مساعدتها^(٣).

ورغم عنف هذه الكلمات فقد تم التعبير عن رد فعل موسكو في نقد أكثر اعتدالا مقارنة بالدول العربية الراديكالية. وكان مقال رئيس تحرير جريدة الپرافدا في ٢٥ أكتوبر ١٩٧٥ يمثل رد فعل على الاتهامات المصرية، إلا أنه وإن كان قد هاجم الرئيس بشكل غير مباشر فضل توجيه الانتقادات بنكران الجميل وعدم الاستقامة للصحافة المصرية^(٤). وعلى أي حال فقد بدا تدهور العلاقات المصرية

(١) عن ردود الفعل العربية على الاتفاقية انظر OM, LV (1975), p. 618-619. انظر أيضا Baker, R. W., Egypt's Uncertain Revolution..., p.135-142.

(٢) انظر خطاب ١٥ سبتمبر ١٩٧٥، في Israeli, R. (ed.), The Public Diary..., cit., vol. 3, p. 1034-1056.

(٣) انظر المقابلة المعقودة في الجريدة الكويتية السياسية والواردة في نفس المصدر السابق ص ١٠٢٤ ومايليها.

(٤) المقال في Donini, P. G., Sulla crisi..., cit., p. 475-482، وعن رد فعل الاتحاد السوفييتي على اتفاقية "سيناء ٢"، انظر Rubinstein, A. Z., Red Star..., Golan, Golia, Yom Kippur and After: The Soviet Union and the Middle East Crisis, Cambridge, Cambridge University Press, 1977.

السوفيتية غير قابل للإيقاف، ووصل في عام ١٩٧٦ إلى حدّ التخلّي من جانب طرف واحد وهو السادات عن معاهدة الصداقة والتعاون الموقعة في مايو ١٩٧١^(١).

وفي الوقت نفسه، قام السادات بتوثيق العلاقات مع الإدارة الأمريكية بالزيارات المهمة للولايات المتحدة الأمريكية بين نهاية أكتوبر وبداية نوفمبر ١٩٧٥. وكان الهدف الأساسي للمحادثات مع فورد هو الحصول على مساعدات اقتصادية ضخمة من أجل مواجهة الأزمة الجديدة للسيولة والموارد التي تواجهها البلاد، والتي تفاقمّت بعدم نجاح سياسة الانفتاح. وكان أحد أهداف الرئيس الأخرى هو الحصول على أسلحة دفاعية وتكنولوجيا عسكرية أمريكية من أجل البدء في استبدال الأسلحة السوفيتية بهدف الانفصال النهائي عن موسكو. وانتهاز الرئيس فرصة التحدث أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة والاجتماعات الرسمية الأخرى لتقديم نفسه على أنه المدافع عن القضية الفلسطينية رافضا الاتهامات بالتخلّي عن المعسكر العربي وبالسلام المنفرد مع إسرائيل، وهي الاتهامات التي كانت تكيلها له الأنظمة المسمّاة "بجبهة الرفض"^(٢).

وبالنسبة لرد الفعل في مصر على الاتفاقية يمكننا أن نذكر أن قرار الرئيس تم انتقاده من أطراف عديدة رغم الرقابة المفروضة على الصحافة وغياب معارضة معترف بها رسمياً. وفي الواقع أنه رغم استمرار السادات في اتهام "المشاغبين الشيوعيين الممولين من القذافي" بإثارة الاضطرابات في الجامعة

(١) انظر: OM, LVI (1976), p. 261.

(٢) انظر: الخطاب الذي ألقاه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٩ أكتوبر ١٩٧٥، في Israeli, R. (ed.), The Public Diary..., cit., vol. 3, p. 1115؛ والذي أكد فيه السادات أن القدس ونابلس والخليل وغزة ليست أقل "غلاوة" عليه من القنطرة والعريش في سيناء، انظر: أيضا الخطاب الذي ألقاه أمام الكونجرس في الولايات المتحدة الأمريكية في ٥ نوفمبر ١٩٧٥، انظر: Ibidem, p. 1126-1127.

والمصانع^(١)، كان التمر من توقيع المعاهدة موجودا أيضا بين موظفي الجيش وفي صفوف الدبلوماسيين في وزارة الخارجية المخلصين لشعار "الرفض الثلاثي" (اللاءات الثلاث) لإسرائيل المستقر في ١٩٦٧ وعقيدة تحرير كل الأراضي العربية المحتلة في حرب "الأيام الستة"^(٢).

ومرة أخرى ظهرت الانتقادات الوحيدة المنشورة في مصر للمعاهدة على صفحات الصحافة اليسارية إلا أنها اقتصررت على المجلة الشهرية "الطلعة" والأسبوعية روز اليوسف التي كان يرأس تحريرها في ذلك الحين الكاتب الماركسي عبد الرحمن الشرقاوي. على أن نغمة الانتقاد في هاتين المجلتين كانت معتدلة جدا حيث لم تقوما بنقد المعاهدة بالكامل بل قامتا بتحذير الرئيس من خطر عزلة مصر في العالم العربي وطالبتا بإشراك الاتحاد السوفيتي في المعاهدات، متشككتين في دور الولايات المتحدة الأمريكية كوسيط^(٣).

كانت أصوات أخرى تعمل في السر ومنضوية تحت لواء المعارضة الواضحة للنظام ومؤسساته؛ صلبة جدا في التوكيد، على سبيل المثال، على خطورة إعطاء الولايات المتحدة الأمريكية محطات إنذار على الأراضي المصرية^(٤) والتخلي عن القضية الفلسطينية مقابل أمل ضعيف في سلام إسرائيلي سيجعل من مصر دولة خادمة للإمبريالية العالمية في المنطقة العربية^(٥).

-
- (١) انظر المقابلة المنشورة في الجريدة الكويتية "السياسة"، في Ibidem, p. 1033.
- (٢) انظر شهادة بطرس بطرس غالي الذي سيصبح فيما بعد وزير الدولة للشئون الخارجية في Egypt's Road to Jerusalem, New York, Random House, 1997, p. 13-15. انظر كذلك شهادة تحسين بشير (1925-2002) Tahseen Bashir، المتحدث باسم المصادات بشأن السياسة الخارجية والذي أجبر على الاستقالة في ١٩٧٦ في al-Ahram Weekly, n. 591, 20-26 June 2002 (online edition).
- (٣) انظر الافتتاحية (غير الموقعة) "عن اتفاقيات سيناء" في "الطلعة"، العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٧٥)، ص ٥-١١ وافتتاحيات "روز اليوسف"، أيام ٨، ١٥، ٢٢ سبتمبر ١٩٧٥.
- (٤) انظر التحليل للقاسي للنقاد غالي شكرى في فصل "Who Will Abrogate the Sinai Agreement?" من كتابه Egypt: Portrait of a President..., cit., p. 177-192.
- (٥) انظر نشرة حزب العمال الشيوعي المصري، "بيان حول الاتفاقية الجديدة على الجبهة المصرية الإسرائيلية. لنقاوم استسلام النظام المصري أمام الاستعمار الأمريكي وإسرائيل!"، ١٣ سبتمبر ١٩٧٥ (ص ١٥).

وبعيدا عن التقييم بأثر رجعي للسلوك الإبراهيمي لـ السادات بالمقارنة مع تطرف المجموعات والنظم العربية الراكية^(١)، فإنه لا يمكن إنكار أن توقيع "سيناء ٢" يمثل خطأ فاصلا في الصراع العربي الإسرائيلي ويدل بشكل ما على انسحاب مصر من جبهة الحرب ويحد من آمال الفلسطينيين في إنشاء دولتهم وإن على أراضي الضفة الغربية والقطاع فقط. وهكذا فقد السادات بتخليه عن الخيار العسكري كما يفهم من المادة الأولى للمعاهدة جزءا كبيرا من قوته التفاوضية في مواجهة حكومة تل أبيب التي نجحت بهذا الشكل وبمساعدة رعاية واشنطن الضرورية في وضع مصر، التي تمثل قمة الصف العربي، على طريق السلام المنفرد.

ويمكننا أيضا أن نشارك هيكل الرأي في خطأ السادات باعتبار مصر "القيادة الطبيعية" للعالم العربي وهو ما دفعه إلى التصرف دون أن يضع في اعتباره نقل العلاقات العربية البينية، وثقا بأن الأنظمة الأخرى ستتبعه في أي طريق يختاره^(٢).

ج: تصفية الناصرية و"الديموقراطية الموجهة" انتخابات ١٩٧٦

نصت ورقة أكتوبر الصادرة في أبريل ١٩٧٤ على أن الانفتاح الاقتصادي للبلاد أمام رأس المال الأجنبي يجب أن يصاحبه انفتاح للحياة السياسية المصرية بمنظور ليبرالي. ومن ناحية أخرى يجب أن نذكر أن السادات منذ دستور ١٩٧١ كان مستعدا لتحويل "نولة عبد الناصر البوليسية" إلى "نولة المؤسسات" التي يقوم فيها الحكام بإطلاع المواطنين على ما يفعلونه والتي يضمن فيها القانون الحريات الأساسية للأشخاص.

(١) انظر إبراهيم سعد الدين "رد اعتبار للسادات" القاهرة، دار قباء، ٢٠٠٢، وانظر أيضا "The Vindication of Sadat in the Arab World" in Egypt, Islam and Democracy. Twelve Critical Essays, Cairo, The American University in Cairo Press, 1996, p. 201-223.

(٢) انظر Heikal, M., Autumn of Fury, cit., p. 62-63.

وتم ربط الانفتاح المدعوم من الرئيس بإعلان إلغاء الرقابة على الصحف في ٩ فبراير ١٩٧٤^(١). ولكن يجب أن نذكر، قبل تحليل الجدل حول الإصلاحات السياسية والمؤسسية، أن مناقشة التجربة الناصرية سبقتة و تجاوزته بشكل كبير وهو الأمر الذي قام السادات والصحافة الرسمية بأكثر من تشجيعه.

ويمكننا اعتبار بداية حملة "تصفية الناصرية" مع نشر رائد المسرح العربي توفيق الحكيم كتابا يحمل بشكل لاقت للنظر عنوان "عودة الوعي"^(٢). ويتهم النص المنشور في بيروت في ١٩٧٤ والمتداول بالفعل بنسخ ماستر في أوساط المثقفين في القاهرة منذ نهاية ١٩٧٢، وبلا اعتدال "فساد" و"تجاوزات" النظام الناصري واصفا لياه بالديكتاتور القاسي وبقلم أحد للمثقفين الذين مجدوا شخصية عبد الناصر بشدة في العقد السابق^(٣).

(١) انظر OM, LIV (1974), p. 102، تم تأميم الصحافة المصرية وإخضاعها للرقابة مثل المطبوعات الأخرى بقانون عام ١٩٦٠. للاطلاع على تاريخ للعلاقات بين الصحافة والثورة المصرية، انظر Najjar, Fauzi, "The Egyptian Press Under Nasser and al-Sadat" in Atiyeh, G. N. - Oweiss, Ibrahim M. (eds.), Arab Civilization: Challenges and Responses, Albany, State University of New York Press, 1988, p. 327-358; المصرية من ١٩٥٢ إلى ١٩٨١، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، ١٩٨٨؛ Dabous, Sonia, "Nasser and the Egyptian Press", in Tripp, Charles, Contemporary Egypt: through Egyptian Eyes, London, Routledge, 1993, p. 104.

(٢) انظر توفيق الحكيم "عودة الوعي" بيروت، دار الشروق، ١٩٧٤.

(٣) انظر مصطفى عبد القنى، "المثقفون وعبد الناصر"، الكويت، دار سعاد الصباح، ١٩٩٣، ص ٤٨٢-٤٨٦. وقد حكم الناقد المصري "بالنفاق للرخص" على موقف الحكيم والمثقفين المصريين الآخرين "المرجعين" مثل لويس عوض و يوسف إدريس وطبقا لعدد من النقاد يمكن إدراج رولية "الكرنك" لنجيب محفوظ التي نشرت أيضا في ١٩٧٤ في صفوف "المرجعين"، انظر Milson, Menachem, "Najuib Mahfouz and Jamal 'Abd al-Nassir: The Writer as Political Critic", =Asian and African Studies, 23 (1989), p. 1-22; Amaldi, Daniela, "La

وفي الوقت الذي قام فيه بإصدار قانون إلغاء الرقابة على الصحف، قرر الرئيس تغييرات كبيرة في رؤساء الصحف الرئيسية ليضمن الرأي العام في صفه بعد توقيع اتفاقية "سيناء ١" وكذلك فيما يتعلق بالتغييرات في السياسة الاقتصادية التي ستتجسد بعد فترة قصيرة في الانفتاح. وكانت الحركة الدرامية الأولى هي إقصاء هيكل الذي كان وزيراً للإعلام من منصب رئيس تحرير الأهرام الصحفية اليومية الرئيسية الذي تولاها منذ عام ١٩٥٩ بدون توقف^(١). وسبق إبعاد هيكل - بسبب مقالاته التي عبر فيها عن حيرة بالغة إزاء اختيار الرئيس تسليم كل أوراق اللعبة للولايات المتحدة الأمريكية - إلغاء الرقابة بعدة أيام وجعل من الممكن بكل وضوح التخمين بإبعاد الصحفيين الناصريين والماركسيين وعودة شخصيات من اليمين الليبرالي والمحافظين بوفرة، وهو الأمر الذي بدأ يحدث.

وكتغيير أول، وبناءً على نصيحة الصحفي موسى صبرى^(٢)، عين السادات على أمين رئيساً لتحرير الأهرام وهو الممثل التاريخي لليمين الليبرالي، ومؤسس جريدة الأخبار اليومية في عام ١٩٤٤ وكان في المنفى كشخص غير مرغوب فيه منذ حوالي ١٠ أعوام، وبالإضافة إليه حصل أخوه، مصطفى أمين، على حريته بعد أن قضى ٩ سنوات في السجن بتهمة التجسس لصالح الولايات المتحدة الأمريكية ليتولى رئاسة الأخبار التي كان قد شارك في تأسيسها.

=guerra dei sei giorni in "Al-Karnak" di Naguib Mahfouz", Egitto e Vicino Oriente, 4, 1981, p. 381-388

(١) انظر OM, LIV (1974), p. 102. عن دور هيكل في نظامي عبد الناصر و السادات انظر Nasser, Munir K., Press, Politics and Power: Egypt's Heikal and al-Ahram, AMES, Iowa State University Press, 1979 رواية مختلفة انظر حنفي المحلاوي في: السادات بين هيكل وموسى، القاهرة، الدار العربية للكتاب، ١٩٩٤.

(٢) كاتب وصحفي (ولد في ١٩٣٢) من أصل اجتماعي متواضع ومؤيد متحمس لانقلاب مايو ١٩٧١ وكاتب رئيسي لخطب السادات في سنوات حكمه الأولى.

كان الشقيقتان هما البطالين الرئيسيين لحملة التشهير بـ عبد الناصر إلى درجة إخراج السادات الذي أعادهما إلى الحياة المهنية لهذا السبب بالتحديد بإجباره على وضع حد للاتهامات المنشورة في الصحف^(١)، خاصة بعد نشر كتاب وصف فيه مصطفى أمين بالتفاصيل الدقيقة التعذيب الذي لاقاه في المعتقل في أعوام الستينيات^(٢). وحتى تصل الحملة المضادة للناصرية إلى جمهور أوسع سلطت السينما الضوء على الجوانب الأكثر إظلاما في نظام يوليو مع إنتاج فيلم مثل "زائر الفجر"^(٣).

ومن المشكوك فيه كما لاحظت مارينا ستاج Marina Stagh أن حرية التعبير في مصر قد حققت تقدما حقيقيا في عامي ١٩٧٤-١٩٧٦، غير أنه ينبغي إضافة أن جانبا كبيرا من هذه الحرية استغلته صحف اليمين الموالية للرئيس من أجل تحقيق عملية نقد وإعادة نظر في التجربة السياسية الناصرية وهو ما وصل في المناسبات السابقة الذكر إلى محض التشهير بشخصية الزعيم^(٤). وهكذا على الأقل استطاعت صحافة اليسار أيضا الاستفادة من مناخ التسامح النسبي من جانب السلطة من أجل انتقاد السياسة الخارجية والاقتصادية للحكومة بشكل واضح ولكن

(١) انظر Baker, R. W., Egypt's Uncertain Revolution..., cit., 151-157. كانت المجلات والصحف الأكثر نشاطا في مهاجمة الرئيس الراحل "المصور" و "آخر ساعة" اللتين تولى رئاستهما الأخوان أمين، "الأخبار"، "أخبار اليوم".

(٢) انظر مصطفى أمين، "سنة أولى سجن"، القاهرة، دار الأخبار، ١٩٧٤.

(٣) اشتهر ضباط البوليس السياسي بهذا الاسم حيث اعتادوا القيام بالاعتقالات مع أضواء الفجر الأولى.

(٤) انظر Stagh, M., p.34. للاطلاع على ملخص لردود الناصريين على اتهامات الساداتيين في أعوام السبعينيات، انظر Baker, R. W., Sadat and After..., cit., p. 79-117. للاطلاع على نقد من وجهة نظر ماركسية للتجربة الناصرية، انظر المقال المتوازن والصادق لـ إسماعيل صبرى عبد الله، "الثورة وإمكانية المحال"، "ألب ونقد"، العدد ٣٥ (أغسطس ١٩٨٨)، ص ١٨-٢٨، وأخيرا انظر Sid-Ahmed, Mohammed, "Auto-critique du soutien inconditionnel à Nasser", Peuples Méditerranéens, 74/75 (1996), pp. 67-75.

دون مهاجمة السادات مباشرة^(١). والحقيقة، كما أكد فوزى نجار، منع مفهوم السلطة الأبوية للرئيس من تحمل الانتقادات ضد شخصه حيث شعر أنه "راعى لإرادة الشعب" بمفهوم "رب العائلة" المصرية^(٢).

فمنذ عام ١٩٧٦، وبينما تناقصت المساحة المتاحة لليسر وصولاً إلى مجرد وجود المجلة الشهرية "الطلیعة" التى أسسها "الحرس القديم" الماركسى، والتى عوملت بشك متزايد من جانب النظام ومن صحفيى الصحافة الرسمية^(٣)، استطاع حتى الإسلام الراديكالى إعادة إصدار جريدة "الدعوة" الشهرية ذات الميول الإسلامية واصطف الصحفيون القلائل نوو الميول الإسلامية فوراً فى صف نقاد عبد الناصر، بدافع قوى من روح الانتقام من الاضطهاد الذى تعرضوا له فى سنوات الستينيات مستفيدين من الحرية النسبية أيضاً فى غمز اليسار والدعوة للتطبيق المتكامل للشريعة فى البلاد، بادئين فى وضع شرعية النظام كنظام دولة إسلامية موضع الشك^(٤).

وكما اتضح، لم يبلغ السادات الرقابة على الصحف وإنما نقلها إلى داخل الصحف والمجلات مؤتمناً رؤساء التحرير الموثوق بهم إلى أقصى حد على تحديد ما يمكن نشره. كذلك بدأ السادات فى نهاية عام ١٩٧٤ الحديث عن الصحافة "كمبلطة رابعة" للحكم، وأعلن تكوين مجلس أعلى للصحافة تحت قيادة الحزب الواحد. وقد قضى هذا القرار رغبة الرئيس فى وضع الإعلام تحت القيادة المباشرة للدولة وإخضاع الطابع المؤسسى عليه^(٥).

(١) انظر على سبيل المثال المقالات المذكورة سابقاً حول اتفاقية سيناء ٢ فى "الطلیعة" و"روزاليوسف" فى سبتمبر وأكتوبر ١٩٧٥.

(٢) انظر Najjar, F., op. cit., p. 338. انظر كذلك شهادة هرمان إليتس سفير الولايات المتحدة الأمريكية فى مصر فى عهد السادات، المستشهد به فى Beattie, K. J., op. cit., p. 180-181.

(٣) منع العديد من صحفيى اليسار خاصة "روزاليوسف" الأسبوعية من حق الكتابة فى مصر مع صرف رواتبهم فى الفترة ما بين عامى ١٩٧٥ و ١٩٧٦.

(٤) عن "النهضة" الإسلامية للراديكالية فى عهد السادات، انظر أدناه.

(٥) انظر Najjar, F., op. cit., p. 343.

ورغم قيام "الحرس القديم" الليبرالى بواجبهم فى توضيح "الجوانب المعتمدة" فى التجربة الناصرية وتمجيد "مصر أكتوبر الجديدة" قرر الرئيس القيام بثورة صغيرة جديدة داخل الصحف الرئيسية بين عامي ١٩٧٦ و ١٩٧٧، حيث شرع الإخوان أمين وزملاؤهما فى إدانة الفساد ومهاجمة "القطط السمان" الذين أنتجتهم نقائص السياسة الاقتصادية الجديدة بعنف على صفحات صحفهم، وهم يقصدون عثمان أحمد عثمان صديق السادات وموضع ثقته، مما دعا الأخير إلى تخليص نفسه من ممثلي "اليمن القديم" واستبدالهم برجال مخلصين له أكثر من أى مبدأ ليبرالى. وهكذا حل يوسف السباعي^(١)، محل الأديب إحسان عبد القدوس^(٢)، فى رئاسة الأهرام، وتولى على أمين منصب موسى صبرى فى جريدة الأخبار، بينما تولى أنيس منصور^(٣) رئاسة "مجلة أكتوبر" الجديدة. وهكذا فبدلاً من أن نتحدث عن صحفيين نوى ميول ليبرالية ينبغى أن نتحدث عن "ساداتيين" وهم هؤلاء المخلصون تماماً للرئيس ومدينون له بكل حظهم^(٤).

ارتبط الجدل حول مقرطة المؤسسات السياسية للدولة مباشرة بالجدل حول حرية الصحافة، إلا أن السادات أعلن فى ورقة أكتوبر عن ضرورة إصلاح الاتحاد الاشتراكي إصلاحاً جذرياً، غير أنه أضاف أن البلاد ليست مستعدة بعد للعودة إلى التعدد الحزبي حيث ما تزال متشغلة فى حرب تحرير الأراضي المحتلة

(١) ضابط وكاتب شعبي (١٩١٧-١٩٧٨) مثل دوراً "مهماً" فى المؤسسات الثقافية الناصرية، انظر: الفصل الرابع للقسم ٢: أ.

(٢) صحفي وكاتب (١٩١٩-١٩٩٠) ذو ميول ليبرالية تقدمية كان يدير إبان ثورة يوليو المجلة الأسبوعية "روزاليوسف" التى أسستها والدته الممثلة فاطمة اليوسف فى عام ١٩٢٥.

(٣) أنيس منصور، أستاذ بجامعة القاهرة، كان هو الكاتب الأساسى لخطب الرئيس منذ عام ١٩٧٦ و ١٩٨١.

(٤) انظر: Beattie, K. J., op. cit., p. 185-186. انظر أيضاً ليلي عبد المجيد، المصدر السابق الذكر، ص ٦٠-٦١؛ فاروق أبو زيد، "أزمة الديمقراطية فى الصحافة المصرية"، القاهرة، مكتبة مدبولي، بدون تاريخ.

وهو ما يستدعى "جبهة وطنية موحدة"^(١). لكن الرئيس نفسه أضاف في وثيقة رسمية في أغسطس ١٩٧٥ بعنوان "عن تطوير الاتحاد الاشتراكي العربي" أنه يجب أن يتواجد داخل الحزب الواحد مساحة لمنابر وتيارات تمثل المصالح المختلفة^(٢).

تسبب مولد الجدل في الصحافة حول مستقبل المؤسسة الحزبية الشرعية للوحيدة والمطالبة من أطراف عديدة بتفكيك الاتحاد الاشتراكي وتكوين أحزاب جديدة، في مناقشة خاصة بين أعضاء البرلمان في سبتمبر ١٩٧٤. وفي نهاية جدول الأعمال أكد رئيس المجلس حافظ بدوي ضرورة الإصلاح، إلا أنه كرر أنه ليس من الممكن تكوين أحزاب طالما تواجد تهديد إسرائيل على القناة.

ومع ذلك استمر الجدل حول إصلاح الحزب الواحد والنظام السياسي والانتخابي المصري بمناسبة انعقاد المؤتمر العام للاتحاد الاشتراكي في صيف ١٩٧٥ وذلك بفضل الحرية الكبيرة في الصحافة إلى درجة أن جميع الاتجاهات السياسية الأيديولوجية باستثناء اليمين الإسلامي واليسار الشيوعي الأكثر جنسية وجدت لها مكانا على صفحات المطبوعات اليومية والدورية^(٣). كذلك تم تنظيم

(١) انظر حديث السادات مع على أمين في الأهرام ١٢ أبريل ١٩٧٤.

(٢) انظر، Asfahany, Nabya, "La «democratizzazione» del sistema politico", in L'Egitto da Nasser a Sadat: una transizione permanente, Dossier di Politica Internazionale, 3 (1978), p57. وقد نشرت الوثيقة في "الطلعة"، العدد ٩ (سبتمبر ١٩٧٤)، ص ١١١ وما يليها. ونشر تعليق هيئة التحرير عليها في العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٧٤)، ص ٥٧. للاطلاع على تحليل مختصر ووافٍ للتجربة المصرية في "المقرطة من أعلى" انظر Korany, Bahgat, "Restricted Democratization from Above: Egypt", in Korany, Bahgat- Brynen, Rex-Noble, Paul (eds), Political Liberalization and Democratization in the Arab World, vol. 2, Boulder, Lynne Rienner, 1998, p.54-70.

(٣) انظر على سبيل المثال جمال سليم، "الأحزاب لا تنشأ بقرار"، في "روز اليوسف"، العدد ٢٤١٤ (٦ سبتمبر ١٩٧٤)، ص ٧٠. انظر أيضا تعليقات أحمد بهاء الدين (الأهرام) و على أمين (الأخبار) في OM, LIV (1974), 670.

سلسلة من المناظرات التليفزيونية حول مسائل الإصلاح المؤسسى فى نهاية ١٩٧٤ شارك فيها بالإضافة إلى ممثلى النظام أيضا ممثلون للناصرين والماركسيين من "الحرس القديم" مثل خالد محيى الدين و إسماعيل صبرى عبدالله، والشيخ متولى الشعراوى ممثلا للإسلام الراديكالى^(١).

وقبل متابعة تطور الجدل حول مستقبل الاتحاد الاشتراكى وحول قيام المنابر داخله، من الضرورى توقع أنه فى حين فضل السادات مقرطة النظام السياسى المصرى - من حيث الواجهة على الأقل - فقد قوى موقعه المهيمن داخل النظام بفضل إدخال عناصر من المخلصين له داخل السلطة التنفيذية وفى المناصب العليا فى الدولة، وبهذا الشكل نستطيع أن نؤكد مع فؤاد عجمى أن "جيل أكتوبر" الجديد قد أخذ موقع "جيل يوليو" القديم فى إدارة مقاليد السلطة^(٢).

والواقع أن الصحافة الرسمية بدأت الحديث عن "مصر أكتوبر" مقابل البلاد المهزومة فى ١٩٦٧ منذ النصف الثانى من عام ١٩٧٤، وعلى رأس هذا الحديث بدأ السادات فى وصف انقلابه فى ١٩٧١ بـ "ثورة مايو" أو "الثورة الثانية" رغم أنه فى النهاية يصفه بـ "حركة التصحيح". ومن الواضح أن الشرعية التى تم اكتسابها مع "مصر" ١٩٧٣ فقط هى التى سمحت للرئيس الجديد باستخدام لفظ "ثورة" كأداة، وهو اللفظ الذى كان مرادفا حتى تلك اللحظة "للنظام الناصرى"، فى نفس الوقت الذى كان منشغلا فيه بتفكيك البنية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى أسسها سلفه.

وباتباع هذا المنطق يمكننا تعريف عام ١٩٧٥ بعام العبور الرمزي لطبقة سياسية جديدة إلى السلطة كتعبير عن التوجهات الجديدة السياسية الاقتصادية سواء فى الاقتصاد الداخلى أو على المستوى العربى والعالمى. ويحدد المؤرخ الأمريكى

(١) انظر Beattie, K. J., op. cit., p. 167 عن دور الشعراوى فى الخطاب الإسلامى للنظام، انظر محمد بلز "الشعراوى والسادات"، القاهرة، مبدولى الصغير، ١٩٨٨.

(٢) انظر Ajami, F., The Arab Predicament, cit., p. 110.

كيرك. ج. بيتي نقطة التحول في التعديل الوزاري في أبريل ١٩٧٥^(١). ففي الحكومة الجديدة حل "الرجال الجدد" محل العناصر التي رغم أنها أظهرت ولاءها للرئيس في "الساعات الحاسمة" لانقلاب ٧١ لم تكن مستعدة لقبول سياسة خارجية تعزلية تماما على المستوى العربي وتابعة للولايات المتحدة، ولا باتجاه اقتصادي معاكس لسيطرة القطاع الحكومي؛ للميراث الأساسي للعصر الناصري. وهكذا تم إعفاء عبد العزيز حجازي من منصب رئيس الوزراء وإحلال ممدوح سالم وزير الداخلية محله. وبالتوازي تم إحلال أشخاص مخلصين للرئيس محل إسماعيل صبري عبد الله الماركسي وزير التخطيط والناصري يحيى الجمل^(٢). وفي النهاية كان التغيير الأكثر تمثيلا لأنصار "جيل أكتوبر" على جيل ١٩٥٢ هو تنصيب حسني مبارك الذي كان قائدا للقوات الجوية في حرب رمضان كنائب للرئيس بدلا من حسين الشافعي الذي كان أحد الضابط الأحرار. وبهذه الحركة الأخيرة بقي السادات الممثل الوحيد للجيل القديم للعسكريين الذين ينتمون إلى القيادة السياسية المصرية^(٣).

ولاستكمال وصف "التحول" يوجد اسم أساسي ألا وهو الفقيه القانوني "صوفي أبو طالب"^(٤) الذي عهد إليه السادات بالمهمة الأساسية المتمثلة في وضع

(١) انظر Beattie, K. J., op. cit., p. 173-176.

(٢) انظر OM, LV (1975), p. 133-134.

(٣) بخصوص تحولات النخبة السياسية والعسكرية تحت حكم السادات، انظر Hinnebusch, R. A., Egyptian Politics Under Sadat..., cit., p.78-121 e idem, "Egypt Under Sadat: Elites, Power Structure and Political Change in a Post-Populist State", Social Problems, Vol. 28, no. 4 (April 1981), p.443-464.

(٤) أستاذ الحقوق في جامعة القاهرة، أجبر بسبب انتقاده للاشتراكية الناصرية على الهجرة في ١٩٦٩ إلى جامعة بيروت حيث بقي حتى عام ١٩٧٢ وعاد إلى الوطن. عينه السادات نائبا لمدير جامعة القاهرة عام ١٩٧٣ ثم مديرا لها في عام ١٩٧٥ ثم رئيسا للبرلمان.

"أيديولوجيا جديدة" من أجل إنشاء فلسفة سياسية لنظامه. ومع نشر كتاب "اشتراكييتنا الديمقراطية"^(١) نفذ صوفى أبو طالب المهمة بطريقة أكثر من مرضية لأبيه الروحى. وقد حاول النص الذى كان نتاج تأثيرات متنوعة أن يشرح كيف أن "الاشتراكية الحقيقية" ليست هي "الاشتراكية العلمية الماركسية" التى تركز ديكتاتورية طبقة واحدة على باقى الطبقات، وهو أمر يناقض مبدأ "الشورى" الإسلامى والذى تريد "الاشتراكية الديمقراطية" أن تكون نسخة عصرية منه. وباختصار بحث المشرع المصرى عن حجة فى دستور ١٩٧١ الذى يعلن أن الشريعة هي "المصدر الأساسى للتشريع" لتبرير نظريات مستوردة من خبرات مؤسسية فى أوروبا الشمالية والجنوبية. وعلى أى حال فقد كان على أسلوب صوفى أبو طالب بلغته الغنية بالاستشهادات الإسلامية أن يحل فى الخطاب الرسمى للنظام محل القاموس الأيديولوجى والسياسى الكفاحى المتمركز الذى نجده عند هيكلممثلة الرئيسى وفى "الميثاق" ١٩٦١ منتجة الأكثر نجاحا.

وكما ألمحنا، فبالتوازي مع هذه "الدورة نحو اليمين" فى السلطة التنفيذية، تنامت المناقشة حول إصلاح المؤسسات السياسية سواء داخل الاتحاد الاشتراكى أو فى التنظيمات الأساسية للإعلام. وكذلك كرس اليسار "الرسمى" المتمثل فى مجلة "الطليعة" اهتماما واسعا بمسألة مقرطة الحياة السياسية للبلاد، والحفاظ على "المكاسب" التى حصلت عليها الطبقات الشعبية فى أعوام الستينيات^(٢). وشهد مطلع عام ١٩٧٥ إضرابا كبيرا شاركت فيه الصناعات المصرية الكبرى والذى حصل على تضامن طلابى واسع و لم يضيع النظام فرصة أن يتهم "الشيوعيين" بتنظيم المظاهرات^(٣). وفى ظل أزمة اقتصادية محلية صعبة وأزمة سياسية عالمية افتتح

(١) صوفى أبو طالب، "اشتراكييتنا الديمقراطية"، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٨.
(٢) انظر على سبيل المثال التعليق المذكور لهيئة التحرير فى العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٧٤).
(٣) عن دور اليسار وبالتحديد التنظيمات الشيوعية السرية فى النشاط السياسى العمالى، انظر الفصول القائمة فى هذا البحث. وينبغى هنا أن نذكر أن الحزب الشيوعى المصرى، الذى قام بحل نفسه فى عام ١٩٦٥، أعلن عودته إلى الحياة فى عام ١٩٧٥.

الاتحاد الاشتراكي أعمال "مؤتمره الوطني" الثالث في الخامس والعشرين من يوليو وقرّر استنادًا إلى "رغبة الجماهير" رفض نظام التعدد الحزبي مع السماح بتكوين المنابر في كنف الحزب^(١). وقد عكس هذا القرار رأى الرئيس وطرح سؤالاً جديداً حول طبيعة المنابر والعلاقة بينها وبين الاتحاد. ورغم استمرار عدم وضوح هذه المسائل المهمة فقد تحرك السياسيون الجدد والقدامى من كل الاتجاهات في الفترة ما بين ١٩٧٥ و ١٩٧٦ لتنظيم المنابر الجديدة، الأمر الذي يشهد على أن ضمور الحياة السياسية المصرية يعود أساساً لاحتكار السلطة من قبل للنظام الحاكم وبشكل غير مؤكد بـ "سلبية" الجمهور. وقد تجلّى هذا النشاط الكبير في شكل تقديم ٤٣ طلب موافقة على تكوين ثلاثة وأربعين منبراً حتى نهاية يناير ١٩٧٦ إلا أن العديد من هذه المنابر كان ينقصها برنامج أو مشروع سياسى واضح، إذ كان أحدها مثلاً مجرد تجمع "لأثرياء الجدد" الذين رغبوا في الحماية السياسية لنشاطهم في المضاربة المالية بينما تُظهر أسماء بعض المنابر الأخرى مثل منبر الله توجّهًا أيديولوجيًا واضحاً^(٢). وقد فوجئت أمانة الاتحاد الاشتراكي برئاسة رفعت المنحجوب بهذا السيل من الطلبات وقررت تشكيل "لجنة لمستقبل العمل السياسى" بهدف وضع معايير الموافقة على إنشاء المنابر، منذ اللحظة التي بدأت فيها بعض هذه المنابر بالتبشير بأفكارها، معتبرة الموافقة الرسمية أمراً مفروغاً منه. وقد شهدت المناقشات التالية سواء تلك التي جرت في المجال الرسمى أو الإعلامى تبلور أربعة اتجاهات رئيسية داخل اللجنة. وكان توجّه الأغلبية يميل إلى وجود منابر ثابتة داخل الاتحاد الاشتراكي، وتلاه الاتجاه الذى يؤيد تكوين "تيارات فكرية" متحركة داخل حزب أكثر ديناميكية، ويلى هؤلاء بدورهم مجموعة صغيرة من الأعضاء الذين طالبوا بتأسيس أحزاب سياسية حقيقية، بينما كان هناك صوتان فقط فى صالح منابر ثابتة تنشأ خارج الاتحاد الاشتراكي^(٣). وكما هو واضح فبعد

(١) انظر المصدر السابق الذكر 59 p. cit., N. Asfahany.

(٢) انظر 182-185 p. cit., M. Cooper, The Transformation...

(٣) انظر 57-58 p. cit., N. Asfahany, p. 187-188. Ibidem.

حوالى عامين من الجدل لم يكن هناك بعد اتفاق حول إصلاح المؤسسات السياسية المصرية، ويجب أن نعترف بأن المناقشات كان يتم نشرها بلا رقابة فى الصحف، وكان هذا يمثل أقصى درجة من الانفتاح [السياسى] شهدها البلاد منذ عام ١٩٥٤. وفى نهاية الأمر كان الرئيس، ومن مركزه الرفيع المفترض كحكم، هو من اختار الحل القاتل بمنابر دائمة داخل الاتحاد الاشتراكى، مقررًا أن ثلاثة منابر تمثل اليسار واليمين والوسط يمكن أن تكفى^(١).

وفى نفس السياق صرح السادات بوضوح أن الوسط "كان دائما هو التيار الرئيسى" فى مصر، حيث شكّل تطور الجدل الديمقراطى^(٢). ووفقًا لبعض الباحثين فقد أغلق تصريح الرئيس فى أبريل ١٩٧٦ قوس "الحرية النسبية" للرأى والتعبير الذى فتحه النظام الساداتى^(٣)، رغم أن الحملة الانتخابية شهدت للمرة الأولى جدلا بين ثلاثة برامج مختلفة تخص بالأساس السياسة الاقتصادية للبلاد^(٤).

احتلت الحكومة، مستندة إلى ضمان الرئيس، منبر الوسط وأطلقت عليه اسم منبر مصر العربى الاشتراكى، وانتخبت - كرئيس له - رئيس الوزراء ممدوح سالم الذى انشغل على كافة الأصعدة بالحصول لمنبره على أكبر نصر ممكن. واكتسب

(١) انظر: خطاب السادات فى ١٦ أبريل ١٩٧٦ فى Israeli, R. (ed.), The Public Diary..., cit. vol. 3, p. 1190-1193 OM, LVI، وانظر أيضا ملخصا له فى (1976), p. 261.

(٢) للاطلاع على قائمة كاملة بالمسوغات الضرورية لخلق منبر، انظر "الأهرام"، ١٩ مارس ١٩٧٦. وقد تم الاحتفاظ بحظر قيام المنابر على أساس الانتماء الدينى والطبقى كما كان من المحظور إعادة تأسيس الأحزاب التى كانت موجودة قبل الثورة. وقد تمثل الأمر الجديد الرئيسى فى إمكانية دخول المنابر لغير الأعضاء فى الاتحاد الاشتراكى.

(٣) انظر: ليلى عبد المجيد المصدر السابق الذكر ص ٦٨؛ من أجل مناقشة واسعة حول مسألة الديمقراطية فى نظام السادات، وانظر: نهى محمد نافع، الممارسة الديمقراطية فى عهد السادات، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٤.

(٤) أكد السادات أن قيادة السياسة الخارجية كانت من اختصاصه هو فقط.

المنبران الآخران من هبة قائديهما اللذين كانا من المشاركين في المجموعة الأساسية للضباط الأحرار. ترأس منبر اليمين الذي اتخذ اسم منبر "الأحرار الاشتراكيون" مصطفى كامل مراد، رجل الأعمال "الذي أحبطته" التجربة الاشتراكية، وصديق الرئيس منذ زمن طويل، وسُمي منبر اليسار باسم "التجمع الوطني التقدمي الوحدوي" بقيادة المناضل اليساري خالد محيي الدين، وكان عبارة عن تحالف بين شيوعيين الحرس القديم واليسار الناصري، والمتدينين المستيرين^(١).

وكان على اليمين - في منظور السادات - أن يتخذ دور "المعارضة الوفية" نظرا لأن برامجه لم تختلف كثيرا عن تلك التي بدأتها المجموعة الحكومية اللهم إلا من حيث التشديد على خصخصة عدة مؤسسات عامة^(٢). وقد انضم إلى الأحرار الاشتراكيين عدد من الأعضاء القريبين من الإخوان المسلمين الذين لم يتم قبولهم كممبر، وأعضاء قليلون من فئة السياسيين الوفديين للقدامى، الذين مثلوا بالفعل

(١) سيتم تكريس جزء من الفصل الرابع لتكوين "التجمع" والجدل بين الاتجاهات الماركسية المصرية المختلفة، انظر أيضا رؤية ريموند هاينبوش، Hinnebusch, Raymond A., "The National Progressive Unionist Party: The Nationalist-Left Opposition in Post-Populist Egypt", Arab Studies Quarterly, Vol. 3, n. 4 (1981), p. 325-351. انظر أيضا مواقف مجموعة "الطلبة" في المقالات المنشورة في العدد ٧ (يوليو ١٩٧٦)، ص ١٢٤-١٣٥، والعدد ٨ (أغسطس ١٩٧٦)، ص ١١٢. وأخيرا انظر رؤية رئيس الحزب خالد محيي الدين في "Recenti sviluppi democratici in Egitto e l'Assemblea Nazionale Progressista Unitaria" in La Sinistra egiziana e le prospettive del socialismo nel mondo arabo. Atti del Convegno, Roma 4-5 maggio 1977, Istituto per la cooperazione politica economica e culturale internazionale (ICIPEC), p.7-13.

(٢) عن برنامج الاشتراكيين الأحرار، انظر Beattie, K. J., op. cit., p. 193-194.

التقاليد الليبرالية الحقيقية للبلاد. وفضل الجزء الأكبر من مرشحي الوفد^(١) والإخوان التقدم للانتخابات كمستقلين حيث لم يشترط القانون الانتخابي الجديد العضوية في الاتحاد الاشتراكي كشرط ضروري للترشيح.

وكانت العلاقة بين السلطة ومنبر اليسار منذ لحظة تكوينه أكثر من صعبة ومعقدة - ففي نية الرئيس كان ينبغي على هذا المنبر أن يكون وسيلة للتحكم في نشاط الشيوعيين الرسميين باحثا عن عزلهم بناء على اقتناعه بأنه لا توجد قوى سياسية أخرى من الممكن أن تنضم إلى متبر "ملحد" - إلا أن العديد من الناصريين قرروا دخول التجمع رافضين ادعاء السادات بأنه "الناصرى الحقيقى" وموضحين أن الفكر الناصري كان قوة معارضة في مصر الجديدة التي أنشأها "الصديق كينسجر". ورغم تأمين الماركسيين للمراكز القيادية للحزب، فالرئاسة مع خالد محيي الدين، والسكرتارية مع رفعت السعيد، إلا أنهم تركوا الجزء الأكبر من المناصب في أيدي العناصر الناصرية والقومية والتقدمية بالمفهوم الواسع. وكان هذا القرار يهدف إلى منع النظام من وصم المنبر الذي أمل في التحول إلى حزب مستقل حقا بأنه "مجموعة من عملاء موسكو" أو بأي لاقات هجائية، وإن لم يكن من الممكن تجنب ذلك بعد انتفاضة يناير ١٩٧٧ الشعبية.

على أي حال، تلت الانتخابات التي أيدت بقاء السادات في الرئاسة لمدة ست سنوات أخرى بنسبة ٩٩%^(٢)، الانتخابات العامة لمجلس الشعب التي تمت لأول

(١) بقي الوفد الذي أسسه الزعيم الوطني الراديكالي سعد زغلول صانع الثورة الرئيسي عام ١٩١٩ في السلطة وإن تم ذلك من خلال تحالفات متنوعة، واقتراحت مختلفة منذ الاستقلال الرسمي ١٩٢٢ حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ انظر Vatikiotis, P. J., The History..., cit., cap. 12, 13, 15 and Parties in Egypt, Tel Aviv, Israel Publishing House, 1953; Minganti Paolo, I movimenti politici arabi, Roma, Ubaldini, 1971, p. 25-34; Aglietti, Bruno, "Il Partito Wafdisto Egiziano dalle origini (1918) ad oggi", OM, XXIII (1943), p. 407-427.

(٢) انظر OM, LVI (1976), p. 439.

مرة بصورة تنافسية، وإن كانت "بدائية"، بين المنظمات السياسية التي عبرت عن برامج مختلفة رغم احترامها لتحالف قوى الشعب العاملة". وشهدت العملية الانتخابية التي تمت على مرحلتين في ٢٧ أكتوبر و ٤ نوفمبر الانتصار المتوقع لمنبر الوسط "منبر مصر العربي الاشتراكي" الذي حصل على ٢٨٠ نائب (٨١,٨ % من الأصوات) يليه بمسافة كبيرة الأحرار الاشتراكيون باثني عشر مقعدا (٣,٥ %) والتجمع بثلاثة نواب (٠,٦ %) أما المقاعد الثمانية والأربعون المتبقية (١٤ %) فقد ذهبت إلى المرشحين المستقلين^(١) الذين يمكن التعرف على حوالي عشرة منهم كأعضاء في الاتجاه الوفدي^(٢).

وبالنظر إلى الأداء الانتخابي للهزيل^(٣)، وإن كان سير الأمور في التصويت غير قانوني^(٤)، كانت أفضل نتيجة لمنابر الأقلية هي قيام السادات برفعها إلى مستوى أحزاب في خطاب افتتاح مجلس الشعب في ١١ نوفمبر ١٩٧٦^(٥). ورغم تأكيد الرئيس على أن نشاط الأحزاب الجديدة يجب أن يلتزم باحترام الدستور والقوانين القائمة إلا أنه كان من الواضح أنها اعتبرت منظمات حرة تماما ومستقلة عن حزب السلطة.

(١) انظر Ibidem, p.440. النتائج الكاملة للانتخابات وأسماء الأعضاء واردة في "الطلیعة"، العدد ١ (يناير ١٩٧٧)، ص ٧٨-٧٩.

(٢) انظر شهادة ياسين سراج الدين، في Beattie, K. J. op. cit., p. 200.

(٣) بخصوص انتخابات عام ١٩٧٦ ومغزاها في التاريخ الدستوري في مصر الحديثة انظر Martin-Muñoz, Gema, Política y elecciones en el Egipto contemporaneo, 1922-1990, Madrid, Instituto de Cooperación con el mundo árabe, 1992, p. 308-344. التعليق على النتائج من قبل هيئة تحرير "الطلیعة" - التي كانت قد اندمجت تماما داخل حزب التجمع في هذا الوقت - موجود في العدد رقم ١٢ (ديسمبر ١٩٧٦) وعدد ١ (يناير ١٩٧٧).

(٤) عرض مارك كوبر عرضا تحليليا للآلية الانتخابية والتزوير الذي تم بمناسبة التصويت انظر Cooper, M. N., The Transformation..., cit., p. 194-234.

(٥) انظر OM, LVI (1976), p. 44.

وبهذا المنظور سيكون من الخطأ، كما يقترح مارك كوبر Mark Cooper، اعتبار الانتخابات والجدل الطويل الذي سبقها "مهزلة"^(١). وقد ارتكب النظام هذا الخطأ عندما استمر في ممارسة الهيمنة المطلقة على المؤسسات متجاهلاً تماماً وجود مطالب بالتغيير ومعاناة المجتمع المصري التي يمكن لنتائج الانتخابات للتعبير عنها وإن بشكل محدود. فهناك - وفقاً للعديد من المراقبين - علاقة وثيقة بين انتخابات خريف ٧٦ والانتفاضة الشعبية في يناير ١٩٧٧^(٢)، عندما هبّ بعنف جزء كبير من الشعب المصري ضد النظام للاحتجاج على ارتفاع أسعار السلع الرئيسية وضد النتائج الاجتماعية للانفتاح.

ومع وضع "القيمة النسبية" لمنافسة انتخابية بقيادة السلطة في الاعتبار فإننا لا يمكن أن نقلل من أهمية الاعتراف الرسمي بوجود "الآخر"، الذي اعتبره النظام من قبل منافساً سياسياً وأيديولوجياً له^(٣).

٥. الأزمات والسقوط

أ- انتفاضة يناير ١٩٧٧ ونتائجها المنطقية على السياسة الداخلية

يتجسد فشل سياسة "الباب المفتوح" الاقتصادية سواء في إفلاس الميزانية أو في الآثار الاجتماعية، وبعد قرار السادات أن تتبع البلاد نظام السوق فقد كان عليه أيضاً أن يقبل بالقواعد التي وضعها تكنوقراطي البنك الدولي للتنمية وصندوق النقد

(١) انظر: Cooper, M. N., The Transformation..., cit., p. 204.

(٢) مقابلة خاصة مع رفعت السعيد الأمين العام للتجمع منذ ١٩٧٦ حتى ٢٠٠٣ وعملياً رئيس الحزب، في القاهرة ٢ مايو ٢٠٠٠.

(٣) عن مفهوم الآخر السياسي في مصر، انظر: Contu, G., La situazione politica..., cit., p. 235-236.

الدولى. والحقيقة أن هذه القواعد التى تولى تطبيقها فى مصر الاقتصادى عبد المنعم القيسونى^(١) اقتضت أولا إلغاء الدعم الحكومى للسلع الأساسية مع أن هذه السلع كانت تمكن أغلبية الشعب المصرى من مواصلة البقاء تحت ظروف فقر مدقع.

ونتيجة للضغوط الدولية، وبقرار إدارى لم تتم مناقشته فى البرلمان، قررت الحكومة فى ليلة ١٧ يناير ١٩٧٧ إلغاء الدعم على العديد من السلع الضرورية وهى الأرز والسكر والتبغ والدقيق والبوبتاجاز^(٢).

وبعد انتشار الخبر فى البلاد فى الصباح التالى شهدت المدن المصرية "من الإسكندرية حتى أسوان" حركات شعبية تطورت خاصة فى العاصمة إلى أعمال عنف ضد أقسام الشرطة، "مبانى السلطة"، وفيلات "الأثرياء الجدد"، والملاهى الليلية التى يتردد عليها السياح^(٣). ولأول مرة منذ ثورة ١٩٥٢ هاجمت الطبقات

(١) قبل قيام السادات بتعيينه وزيرا للاقتصاد فى عام ١٩٧٦، كان القيسونى مديرا لصندوق النقد الدولى لشئون الشرق الأوسط، وكان على علاقة مباشرة بالبنوك الغربية الكبرى. انظر: Hinnebusch, R., Egyptian Politics..., cit., p.136; the open Dessouki, A. E. Hilal, "Policy-making in Egypt: a case study door economic policy", Social Problems, 28 (1981), p.413-414 بخصوص دور القيسونى فى المرحلة الثانية من الانفتاح انظر: Baker, R. W., Egypt's..., cit., p. 167-168.

(٢) نشرت الأنباء فى الصفحة الأولى لـ "الأهرام" وباقى الصحف اليومية الرئيسية صباح يوم ١٨ يناير ١٩٧٧.

(٣) أكثر التقارير دقة وتفصيلا موجود فى كتاب الصحفى الماركسى حسين عبد الرزاق، مصر فى ١٨ و ١٩ يناير، دراسة سياسية وتوثيقية، القاهرة، دار شهدى، ١٩٨٥، الطبعة الثالثة: انظر أيضا OM, LVII (1977), p. 138-139; Cooper, M. N., The Transformation...,cit., p.235-245; Ansari, Hamied, Egypt. The Stalled Society, Cairo, The AUC Press, 1987, p.185-193 تحليل لهذه المؤسسات من الداخل انظر شهادة حسن أبو باشا مدير مباحث أمن الدولة منذ ١٩٧٥ والذى أصبح فى وقت لاحق وزيرا للداخلية فى عهد مبارك فى "مذكرات فى الأمن والسياسة: يناير ١٩٧٧، أكتوبر ١٩٨١، رمضان ١٩٨٧"، القاهرة، دار الهلال، ١٩٩٠ ص ٢٠-٦٠. وأخيرا انظر للكتاب الذى صدر حديثا=

الأكثر فقرا - المدنية وجزئيا الريفية - رموز النظام الذي كانت قد قررت دعمه في ساعته الأكثر صعوبة بعد هزيمة ١٩٦٧، فبينما هتفت المظاهرات في "الأيام المجيدة" في التاسع والعاشر من يونيو ١٩٦٧ للرئيس السابق، كانت الشعارات هذه المرة موجهة ضد السادات وضد عائلته متهمة إياهم بأنهم يعيشون حياة الرفاهية دون مراعاة مواطنيهم الذين يموتون جوعاً^(١). ويمكن القول إنه كانت هناك حالة فراغ من أي سلطة في البلاد في اليوم الأول من الانتفاضة حتى طلب السادات تدخل الجيش من أجل استعادة النظام في شوارع البلاد. ويمثل هذا الحدث المرة الأولى التي كان على العسكريين المصريين فيها أن يطلقوا النار على مواطنيهم، فكانت الحصيلة النهائية ليومي الاضطرابات ٧٩ قتيلا و ٢١٤ جريح طبقا لتصريحات الحكومة التي أعلنت سحب القرار الذي تم الاحتجاج عليه^(٢).

وبدلا من الاعتراف بفشل الافتتاح الذي كان السبب الرئيسي وراء الغضب الشعبي، ألقي النظام بالذنب على المؤامرة التي قامت بها المنظمات الشيوعية السرية وحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي الوليد^(٣). وعلى كل حال فقد تم إلقاء القبض على عدة آلاف من مناضلي اليسار الرسمي وغير الشرعي في الأيام التالية للانتفاضة^(٤).

= ١ عبد القادر شهاب، ١٨ و ١٩ يناير، رؤية واقعية، القاهرة، دار مصر المحروسة، ٢٠٠٢.

(١) كان من أشهر الشعارات "يا بطل العبور فين الفطور؟! و "جيهان لابسة آخر موضة واحنا نليمين عشرة في أوضة"، بالإضافة إلى الشعارات ذات الصبغة الناصرية والماركسية-العمالية. وتوجد قائمة شبه كاملة في حسين عبد الرازق، المصدر سابق الذكر، ص ٨١-٨٢.

(٢) نفس المصدر، ص ١٣. وينكر ر. و. بيكر كذلك، نقلا عن نيويورك تايمز، وجود أكثر من ألف جريح. انظر Baker, R. W., Egypt's..., p. 165.

(٣) انظر تصريحات رئيس الوزراء مدوح سالم في ١٩ يناير ١٩٧٧ الواردة في حسين عبد الرازق، المصدر السابق الذكر، ص ١٣.

(٤) انظر Baker, R. W., Egypt's..., cit., p. 156.

ورغم وجود عناصر متعددة من الطيف المتنوع لليسار المصري على رأس المظاهرات إلا أنه يمكن تأكيد أن الانتفاضة كانت من الناحية الأساسية تلقائية وغير منظمة حيث افترت إلى أي خطة لقلب النظام^(١). وبالإضافة إلى إعلان النشطاء الماركسيين والناصريين أنفسهم بعدها أن الحجم الضخم للمظاهرات^(٢)، التي اندمج فيها الناس العاديون "بالطبيعة التقليدية" من الطلبة والعمال، أصابهم بالدهشة.

وما من شك في حقيقة أن انتفاضة يناير الشعبية لم تولد من فراغ، فإذا وضعنا في الاعتبار مرة أخرى تحليل كوبر وجننا أنه كانت هناك في الواقع صلة بين انتخابات ١٩٧٦ ومظاهرات ١٩٧٧. فقد قام الجدل حول المنابر والحملة الانتخابية التي تلت بتسييس جزء من الطبقة المتوسطة الدنيا في المدن صدمته نتائج المنافسة التي تم فيها بشكل أساسي تقوية الهيمنة المطلقة للحزب الواحد السابق. وبالإضافة إلى قمع مناخ الانفتاح الديمقراطي ينبغي أن نذكر أنه بدءًا من حركة أول يناير ١٩٧٥^(٣)، شهدت مصر عامين من الإضرابات والاعتصامات والاحتجاجات الشعبية في المصانع والجامعات المختلفة بالبلاد، وهو الذي قام بـ"تنشيط" جزء من الجموع التي كانت الهيمنة الناصرية قد قامت بـ"تحييدها"^(٤). وقد

(١) انظر: تحليلات مارك كوبر في Mark Cooper, The Transformation..., cit., p. 238-245.

(٢) على سبيل المثال صرح رفعت السعيد الأمين العام لحزب التجمع، والذي تم إلقاء القبض عليه بتهمة أنه من منظمي الانتفاضة، بأنه "استيقظ صباح ١٨ على صوت صراخ المتظاهرين" (مقابلة خاصة مع المؤلف، القاهرة، ٢ مايو ٢٠٠٠)، وقد صرح لي مناظرو الأحزاب الشيوعية السرية بشهادات مماثلة. وللحصول على تحليل عن دور الحركة الماركسية في انتفاضة يناير انظر: الفصل الأخير من هذا البحث.

(٣) انظر: OM, LV (1975), p. 135. انظر: أيضا Shukri, G., Egypt..., cit., p. 239-242.

(٤) انظر: القسم الأول من هذا الفصل .

أكد قرار المشرعين بعدم مناقشة الإجراءات في البرلمان وإصدارها بوضوح معرفة النظام الجزئية على الأقل بالمخاطرة الاجتماعية لهذه القرارات^(١).

وأعلنت حركات يناير الشعبية التي أسماها السادات باحتقار "انتفاضة الحرامية"^(٢) - بشكل درامى - فشل البرنامج الاقتصادى الاجتماعى للانفتاح الذى اعتمد عليه الرئيس لتقوية شرعيته ولتأسيس الاقتصاد المصرى على قاعدة جديدة، وهو الاقتصاد الذى كان فى حالة كارثية منذ النكسة على الأقل. وملت أيضا الانتفاضة على عجز النظام عن تقييم تدمير وإحباط الشعب المصرى الذى لا يمكن أن تفرض عليه التكلفة الكلية لإعادة البلاد إلى معسكر النظام الرأسمالى العالمى.

ويُظهر اختيار الحكومة وصف أحداث يناير بأنها "مؤامرة شيوعية" نافية أى مشاركة فى المسئولية ومستعدة سياسة قمع بوليسى سبق أن اتهم بها عبد الناصر من جانب "حوارى" حملة معاداة للناصرية. أن انتفاضة يناير ١٩٧٧ تعد محطة مهمة فى تاريخ النظام الساداتى الذى ولجه أزمة شرعية جديدة بعد لحظة النشوة والنصر التى أحدثتها حرب أكتوبر^(٣). ولا نجازف إذا أكدنا أن انتفاضة الخبز تمثل بداية انحدار النظام السياسى الذى افتتحه السادات بانقلاب ١٩٧١. فقد تآكل الإجماع الشعبى - رغم النجاحات العابرة فى السياسة الخارجية - على الرئيس شيئا فشيئا وصولا إلى اغتياله فى ١٩٨١^(٤).

وصار لنتهاء تجربة الديموقراطية الجزئية للنظام السياسى التى دشنها السادات بورقة أكتوبر فى ١٩٧٤ بالقمع الذى تلا الانتفاضة أمرا مؤكدا^(٥).

(١) انظر Cooper, M. N., The Transformation..., cit., p. 240.

(٢) للاطلاع على وصف من داخل النظام لرد فعل الرئيس على الانتفاضة انظر أحمد بهاء الدين "محاوراتى"، المصدر السابق الذكر، ص ١٢٣-١٤٦.

(٣) انظر Heikal, M., Autumn of Fury..., cit., p. 91-94.

(٤) يتفق فى هذا التقييم على سبيل المثال مارك كوبر و غالى شكرى والعديد من ممثلى اليسار المصرى فى مقابلاتى معهم.

(٥) انظر Asfahany, N., op. cit., p. 60-61.

ولبيان ما سبق قوله يكفي التفكير في أن الرئيس قام بإطراد بتفريغ دور البرلمان من أى مضمون حقيقى مفضلا الاتجاه مباشرة نحو "شعبه" من خلال استفتاءات متعددة جرى تنظيمها لتأكيد أن المواطنين المصريين يقفون فى صفه. والمثال الأول على هذا السلوك يمكن تتبعه فى القوانين القائمة للحريات فى فبراير ١٩٧٧ التى أصبحت معها حقوق الاجتماع والمشاركة السياسية محدودة بشدة، وهى القوانين التى تمت للموافقة عليها، دون مناقشتها من جانب أعضاء المجلس النيابى، من خلال استفتاء شعبى بإجماع أكثر من ٩٩ %، رغم تأكيد العديد من المراقبين أن عددا قليلا جدا من المواطنين ذهب إلى التصويت^(١).

وبهذه الاستفتاءات الشعبية عمد السادات إلى الانتقام من مظاهرات يناير التى ترتب عليها أنه صار الهدف الرئيسى لشعارات المتظاهرين.

لستمر النظام فى هجومه على اليسار فى كافة منظماته دون توجيه حد أننى من الاعتذار مستندا إلى نتائج الاستفتاء. ومن ناحية أخرى لم يوجه الرئيس أى لوم إلى منظمات الإسلام الراديكالى رغم نهب الملامى الليلية فى شارع الهرم الذى يوحى بمشاركة نشطة لمناضلين إسلاميين أو متعاطفين معهم فى الحركات الأكثر عنفا^(٢). وبالإضافة إلى توجيه ضربة قوية إلى قيادات المنظمات الماركسية فقد قام

(١) انظر OM, LVII (1977), p. 346. وطلب من الناخبين أن يصوتوا من أجل سجن أعضاء ومنظمى المنظمات السياسية السرية سجنًا مؤبدًا، وكذلك العمال الذين أضربوا ضد المصالح الاقتصادية الوطنية، وأولئك الذين تظاهروا بنية تخريب ومهاجمة الملكيات الخاصة. انظر Cooper, M. N., The Transformation..., cit., p. 237.

(٢) انظر Beattie, K. J., op. cit., p. 210. أكد هذه المفاهيم مناضلون ماركسيون عديدون فى مقابلاتهم الشخصية معى من بينهم رفعت السعيد (التجمع) وصلاح العمروسى (ح. ع. ش. م) و أحمد بهاء الدين شعبان (ح. ش. ٨ يناير) وكانت هذه المنظمات جميعا متهمة بقيادة الانتفاضة. ويتبنى الناقد المستقل غالى شكرى موقفا مختلفا فينطلق من الفرضية القائلة بأن "الشارع المصرى بطبيعته النقائلية يسارى"، ويرى فى الهجوم على النوايا الليلية تعبيراً عن الغضب الشعبى ضد رفاهية=

أيضا باستخدام المناضلين الإسلاميين الذين استطاعوا توجيه ضربة شديدة لتأثير اليسار في الجامعة التي أصبحت حكرا على الإخوان المسلمين وكذلك التشكيلات الأكثر راديكالية وعنفا.

وبالنسبة لأحزاب اليسار تم اعتقال قيادات ومناضلين من كل المنظمات السرية، وخاصة ١٧٦ عضواً من التجمع بالرغم من كونه معترفاً به قانوناً. ولم ينج من الاعتقال سوى رئيس الحزب خالد محيي الدين الذي كان في الخارج أثناء الأحداث وبدأ معركة طويلة وغير متكافئة مع الرئيس لرد الاعتبار للحزب وإطلاق سراح المعتقلين^(١).

ورط هجوم النظام على الماركسيين المصريين هؤلاء المتقنين الذين لم يشاركوا بنشاط في المظاهرات ولكنهم دافعوا على صفحات الجرائد عن اليسار ضد الاتهام بأنه نظم "انتفاضة الحرامية".

وبالتحديد اتهم محررو مجلة "الطلیعة" بدون مواربة النظام وسياسته المضادة للشعب بأنها مسئولة عن الانتفاضة، معيدين وصفها بأنها التعبير الشرعي عن غضب الجموع^(٢). كان رد فعل النظام قوياً ومحدداً، حيث تم فصل هيئة تحرير المجلة بأكملها، وهي التي مثلت منذ ١٩٦٥ "التيار الرسمي للماركسية المصرية"

=الأثرياء الجدد والسواح الأجانب دون أى صبغة دينية. انظر Shukri, G., Egypt..., cit., p. 331-332.

(١) انظر البيانات العديدة التي وقعها محيي الدين صبيحة الاعتقالات والتي سجلها حسين عبد الرازق، المصدر سابق للذكر ص ١٥٩-١٨١. انظر كذلك المقابلة مع محيي الدين نفسه في مجلة "روزاليوسف" الأسبوعية في ٧ مارس ١٩٧٧ نفس المصدر ص ١٨٨-١٩٥.

(٢) انظر خاصة كلمة رئيس التحرير لطفى الخولي، "جماهير يناير بين الحكومة واليسار"، "الطلیعة"، العدد ٢، (فبراير ١٩٧٧)، ص ٥-١٩، وانظر أيضاً تعليقات أبو سيف يوسف و محمد سيد أحمد و عادل غنيم في ص ٣٢-٣٩. وانظر أيضاً تحليلات ر. و. بيكر في R. W. Baker in Sadat and After..., cit., p. 118-ss.

وتم اعتقال جزء كبير من المتعاونين معهم رغم كونهم أعضاء في حزب التجمع^(١).

وتم أيضا طرد الصحفيين من نوى الميول للماركسية في مجلة روز اليوسف الأسبوعية، بما فيهم الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوي من مناصبهم^(٢).

يمكننا أن نؤكد - في النهاية - أن القمع الذي تلا انتفاضة يناير ١٩٧٧ يمثل النهاية المحددة لوجود جزء من الماركسية المصرية داخل المؤسسات^(٣). هذا الوجود الذي وصفه أحدهم بأنه "تسرب قانوني"^(٤)، والذي بدأ في أيام عبد الناصر وتأكد بالدعم الممنوح اليسار الرسمي من جانب انقلاب السادات في مايو ١٩٧١.

تجسدت النقلة السلطوية الجديدة للنظام الساداتي بعد الاستفتاء في التعديل الوزاري في مارس ١٩٧٧ رغم أنه أكد بقاء القيسوني في قيادة وزارة الاقتصاد، بالإضافة إلى ذلك تم تنصيب النبوي إسماعيل الضابط الصديق للمقاول عثمان أحمد عثمان، وزيرا للداخلية، بهدف إعادة تنظيم قوات الأمن التي ظهرت عاجزة عن مواجهة الغضب الشعبي في انتفاضة يناير بكفاءة^(٥). ومن هذا المنطلق تم

(١) انظر OM, LVII (1977), p.347.

(٢) Ibidem.

(٣) انظر تحليلات رئيس التجمع خالد محيي الدين في أعمال مؤتمر روما ٤-٥ مايو ١٩٧٧ "Recenti sviluppi democratici in Egitto e l'Assemblea Nazionale Progressista Unitaria" in La Sinistra egiziana e le prospettive del socialismo nel mondo arabo. Atti del Convegno, Roma 4-5 maggio 1977, ICIPEC, p. 7-13.

(٤) انظر Shamir, Shlomo, "The Marxists in Egypt: the «Licensed infiltration» Doctrine in Practice", in Confino, Michael- Shamir, Shlomo (eds), The U.S.S.R. and the Middle East, Jerusalem, Israel University Press, 1973, p.293-319.

(٥) انظر Beattie, K. J., op. cit., p. 222.

التوسع فى قوات الأمن المركزى التابعة لوزارة الداخلية حتى أصبحت فعلا جيشا ثانيا مزودا بأحدث الأسلحة ومجهزا لصدّ أى محاولة محتملة لانقلاب عسكرى.

وإذا كان هدف النظام من استفتاء فبراير هو تضيق المساحات للقليلة من حرية التعبير الممنوحة حتى وقتها، فإن القانون رقم ٤٠ عن الأحزاب السياسية والمتفق عليه فى يونيو جعل من نشأة قوى بديلة داخل المؤسسات أمرا أكثر صعوبة. وقد حرم القانون تشكيل أحزاب أو مؤسسات سياسية تقوم على الانتماء الطبقي أو الدينى أو المنطقة الجغرافية. وتمت الموافقة على هذه القواعد من منظور واضح هو منع التصريح بأى حزب شيوعى أو للإخوان المسلمين أو المنظمات الإسلامية للراييكالية الأخرى، وقد أسفر القانون بالإضافة إلى ذلك عن مولد "اللجنة العليا للأحزاب السياسية" بقيادة مصطفى خليل السكرتير العام الجديد للاتحاد الاشتراكى الذى كان يحتضر من الناحية العملية^(١).

ورغم الديكور الرسمى الديمقراطى لتلك القوانين، كانت نية النظام فى الحفاظ على الهيمنة المطلقة للحكومة واضحة، وكذلك كان السادات يدرك ضرورة اللجوء إلى دعاية لصالح الديمقراطية من أجل إرضاء حكومة الولايات المتحدة الأمريكية التى قادها منذ ١٩٧٧ جيمى كارتر الديمقراطى بخطابه البلاغى حول حماية حقوق الإنسان فى العالم^(٢).

ووفقا لهذا المنطق يمكن تفسير القرار الخاص بالإفراج عن الجزء الأكبر من المتقنين والمناضلين اليساريين، المتهمين بتنظيم "مؤامرة يناير" بعد قيام الرئيس بجولة سلام فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا^(٣).

(١) Ibidem, p. 223.

(٢) من أجل نظرة عميقة على الخطابة الإنسانية للرئيس كارتر انظر كتابه Carter, Jimmy, Keeping Faith, New York, Bantam Books, 1982 الذى ألقى فيه الضوء بين أشياء أخرى على دوره فى عملية السلام الإسرائيلية المصرية.

(٣) تم إطلاق سراح الغالبية العظمى من المناضلين الماركسيين ومن بينهم من قادة التجمع السعيد و عبد الرزاق فى بداية مايو، انظر OM, LVII (1977), p. 348.

وقد ركز النظام بالتوازي مع هذه القرارات فى السياسة الداخلية على الأزمة الاقتصادية الخطيرة التى كانت أساس للحركات الشعبية. وعندما لم يستطع القيسونى توفير أموال نتيجة لإلغاء الدعم كما أراد البنك الدولى، لجأ إلى الاعتماد على العمودين الأساسيين للانفتاح ألا وهما المساعدة الخارجية والاستثمارات المباشرة من الشركات الأجنبية.

وبعد "انتفاضة الخبز" أنشأت نظم الخليج الملكية البترولية معونة خاصة لتحسين مستوى الاقتصاد المصرى. وفى الوقت نفسه قررت إدارة الولايات المتحدة زيادة كميات مساعدات القمح والمواد الغذائية، حتى وإن ظل السادات يعتقد أن هذه المساعدات غير كافية متبرما بالذات من عدم عرفان "الإخوة للعرب" تجاه التضحيات الكثيرة التى قدمها الشعب المصرى خلال خمسة وعشرين عاما قبل ذلك الحين من أجل القضية المشتركة ضد للدولة العبرية.

وعلى أى حال فلا شك فى أن الفشل الأوضح "للافتتاح" تمثل فى قدرة الجذب المحدودة من جانب السوق المصرى للمستثمرين الأجانب الذين قاموا بتغطية ١٠ % فقط من حجم الاستثمارات فى عام ١٩٧٧ فى هذه الدولة الأفريقية الشمالية وقد قامت شركات بترولية بتغطية هذه النسبة تقريبا. ذلك أن الشركات المتعددة الجنسية الكبرى أحجمت عن المغامرة فى الاقتصاد المصرى رغم الشروط الملائمة الممنوحة فى قانون ٤٣ الذى منح أفضلية رأس المال الأجنبى على المحلى. ومن المؤكد أن جزءا من هذا الانعدام للثقة يرجع إلى ندرة المواد الأولية باعتبار أن الموجود فى سيناء المحتلة غير متاح، وكذلك التواجد الضخم للحكومة وبيروقراطيتها فى كل عملية فى السوق، وهى التى أجبرت مثلا المستثمرين الأجانب على الحصول على العملة المحلية بسعر صرف رسمى أعلى من السعر الحقيقى. ومن أجل معالجة هذا الموقف تمت الموافقة على القانون ٣٢ فى عام ١٩٧٧ والذى حرر سوق الصرافة وسهل بشكل أكبر شروط الاستثمار بالنسبة للشركات الأجنبية، التى حررت من كل ارتباط حكومى. وعلى العكس من هذا عاقبت قوانين الحكومة للرأسماليين المصريين فى القطاع الإنتاجى ومنحت

الفرص فقط للملاك المتعاقدين مع الحكومة و"القطط العمان" للبرجوازية
الكمبرلورية.

ومع هذا لم ينجح تطبيق قانون ٣٢ فى تخطى معارضة المستثمرين الأجانب
لبداء نشاط إنتاجى على الأرض المصرية بالرغم من وجود شروط أكثر ملائمة
لرأس المال الأجنبى. ويعود السبب الرئيسى وراء هذا الفقدان للنّقة - كما أوضحت
ك. بلى - إلى استمرار احتمال حرب مع إسرائيل، مع استمرار وثقة اتفاقية
جنيف، وهو الأمر الذى يعرّض الاستثمارات الإنتاجية للخطر^(١). وبالإضافة إلى
هذا كان ينبغى أن توضع فى الاعتبار حقيقة أن جزءا كبيرا من الشركات المتعددة
الجنسيات التى توجد مقارها فى الولايات المتحدة وأوروبا مثل كوكاكولا
وزيروكس وفورد كانت فى "القائمة السوداء" لمكتب مقاطعة إسرائيل التابع للجامعة
العربية. وهكذا كان من المستحيل على هذه الشركات أن تنشئ نشاطا إنتاجيا
وتجاريا مستقرا فى هذه الدولة التى تستضيف مقر الجامعة.

وتتضح مما سبق للعلاقة السببية بين ثورة يناير و"المبادرة" التى قام بها
السادات فى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧. وكان على الرئيس فى الحقيقة أن يركز
على السياسة الخارجية ليس فقط من أجل مواجهة أزمة الشرعية التى يولجها
نظامه، بل أيضا "ليضع علاجاً" للموقف الكارثى الذى يمر به الاقتصاد المصرى.

ب: التصالح مع إسرائيل: من القدس إلى كامب ديفيد

لخص الباحث الاجتماعى سعد الدين إبراهيم باقتدار، من بين "أربعة
أركان"، السياسة الساداتية^(٢) معتبرا عملية الصلح مع إسرائيل القطيعة الأكثر
درامية مع التراث الناصرى.

(١) انظر Beattie, K. J., op. cit., p. 220.

(٢) انظر إبراهيم سعد الدين Ibrahim, Saad Eddin, Egypt, Islam and Democracy..., cit., p. 37. وانظر القسم الرابع من هذا الفصل.

ومن المهم أن نؤكد من جديد أن سياسة الرئيس عبد الناصر في المواجهة مع الدولة العبرية مرت بتغيير واضح بعد هزيمة ١٩٦٧، وهو ما أدى به إلى قبول قرار مجلس الأمن ٢٤٢ الذي تم بموجبه الاعتراف بوجود الدولة العبرية كأمر واقع، وأدى به في النهاية إلى التوقيع على مبادرة روجرز في ١٩٧٠^(١). ورغم ما سبق ذكره فإنه لا يمكن التقليل من الأهمية التاريخية لمبادرة السلام التي قام بها السادات بسبب النتائج المنطقية التي حولت نهائيا تركيبة العلاقات العربية اللبنانية والشرق أوسطية، بالإضافة إلى الطفرة في التوازنات الدولية.

كذلك لا يجب أن ننسى أن السادات اقترح منذ ما قبل انقلاب مايو ١٩٧١ حلا سلميا للصراع مع تل أبيب بمبادرة ٤ فبراير، ومن هذا المنطلق يمكننا أن نفسر سواء حرب أكتوبر أو الاتفاقين الجزئيين الموقعين لفك الارتباط تحت رعاية الولايات المتحدة الأمريكية في ١٩٧٤ و ١٩٧٥.

ومع هذا فإنه إذا صح اعتبار الرحلة إلى القدس كما وصفها بعض النقاد "مسار الخيانة"^(٢) فإن من الضروري أيضا أن نضع في الاعتبار صعوبة الوضع الدولي في ١٩٧٧.

خاطرت اتفاقية فك الاشتباك "سيناء ٢" في سبتمبر ١٩٧٥ بصورة مصر في عيون الأنظمة "الرايكانية" وجزئيا في عيون الجماهير العربية؛ الذين وصفوها بأنها ضد مصالح الشعب الفلسطيني. ومن ناحية أخرى فرغم مظهر "انتصار العرب" في حرب ١٩٧٣، كان من الواضح حتى نهاية الأحداث الدرامية لـ "سبتمبر/أيلول الأسود" في ١٩٧٠ أن التوق البعثي والناصري إلى الوحدة العربية في الستينيات قد حلت محله الواقعية السياسية الأضييق للنظم العربية

(١) انظر: أعلام.

(٢) تشير بالتحديد إلى عنوان منشور "ح. ع. ش. م"، "مسار الخيانة من الهزيمة إلى المبادر"، بيروت، دار الكاتب، ١٩٧٩.

المنفردة^(١)، والتي ترجمت في مصر في صورة أول إحياء لـ "الوطنية المصرية" و"الفرعونية"^(٢).

وقد أثبت انفجار الحرب الأهلية اللبنانية، التي رفع فيها الجيش السوري السلاح ضد منظمة التحرير الفلسطينية رغم أنها الممثلة الرسمية للشعب الفلسطيني، مدعماً على هذا النحو القمع الإسرائيلي، تشرنم النظام الإقليمي العربي^(٣). وإذا كانت حرب أكتوبر قد خلقت اتفاقاً مؤقتاً بين دولتي الجبهة الرئيسيتين بالتعاون مع المملكة العربية السعودية فقد باعد الصراع اللبناني والخلاف حول نوعية وتوقيت الاتفاقات مع إسرائيل بين قيادتي الدولتين، دافعاً سوريا نحو "جبهة الرفض" بقيادة العراق والجزائر، ودافعاً مصر على "الطريق الخطر" للاتفاقات المنفصلة والتي تعد وساطة الولايات المتحدة الأمريكية ضمانها الوحيد.

(١) بخصوص "التحول البراجماتي والواقعي" للحكام العرب انظر على سبيل المثال Khoury, Nabeel A., "The Pragmatic Trend in Inter-Arab Politics", Middle East Journal, XXXVI, n. 3 (1982), p. 374-387

(٢) بالإضافة إلى كتاب جمال حمدان، "شخصية مصر"، الذي صدر في ١٩٧٠، وهو أحد أهم عناصر إحياء شعور "المصرية" [في مواجهة للعروبة]، من الجدير بالذكر الكتاب الذي يحمل عنواناً مشابهاً جداً للكاتبة نعمات فؤاد (القاهرة، الشخصية المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨)، وبخصوص نفس الموضوع انظر المصدر السابق الذكر Ajami, F., The Arab Predicament..., cit.; Roussillon, Alain, "Egyptianité, arabité, islamité: la recomposition des référents identitaires", Egypte-Monde arabe, 11, 1992, p. 77-132 للناقد سماح سليم "The New Pharaonism: Nationalist Thought and the Egyptian Village Novel", Arab Studies Journal, VIII-IX, Fall/Spring(2000-2001), p. 10-24

(٣) للاطلاع على تحليل للصراع بين دول وجهات عربية داخل الصراع اللبناني انظر، على سبيل المثال، Bozzo, Anna, "La crisi libanese: dinamiche interne e condizionamenti esterni" in AA. VV., La crisi del Medio Oriente, p.103-128.

من الضروري أن نقف عند صعود "السياسة البترولية" بعد حرب ١٩٧٣ والتي تم التعبير عنها في محاولات الهيمنة من قبل المملكة العربية السعودية في المشهد الإقليمي^(١). فقد استلزمت المصالح السعودية التي تلت الازدهار الاقتصادي الناشئ عن أزمة الطاقة الغربية، إعادة تشكيل "الجبهة المعتلة" التي تستطيع أن تؤدي إلى عملية موحدة للسلام تحت رعاية الولايات المتحدة الأمريكية^(٢). ويمكن أن نفسر على هذا النحو دور الوساطة بين مصر وسوريا الذي قامت به المملكة العربية السعودية منذ نهاية عام ١٩٧٦ وحتى ما بعد المبادرة للساداتية^(٣).

ورغم الاتفاق المستعاد مع نظام الأسد، لم يكن لدى القيادة في القاهرة مزيد من الثقة في خيار عقد اتفاقيات بين لجنة عربية موحدة وإسرائيل خشية أن يؤدي حق الرفض السوري إلى تعطيل العملية التي بدت للسادات أمرا لا مناص منه.

ومن الضروري بالإضافة إلى هذا، أن نضع في الاعتبار تغيرات مهمة أخرى في المشهد الدولي، فأولا خلق مجيئ كارتر إلى البيت الأبيض مناخا مناسباً أكثر للعملية التفاوضية، لكنه أيضا وضع حدا لدبلوماسية "الخطوة خطوة" التي ينتهجها كيسنجر الذي استبدل وقتها بـ سايروس فانس Cyrus Vance، وقد أوضح هذا الأخير منذ رحلته الأولى إلى عواصم الشرق الأوسط أن الإدارة الجديدة تطمح إلى تسوية شاملة للصراع العربي الإسرائيلي بدلا من التطورات البطيئة^(٤).

(١) بخصوص "البترول السياسي" انظر Korany, Bahgat "La nation dans tous ses Etats: dialectique unité/diversité" in Flory, M. et alii, Les regimes politiques arabes, p. 173-180.

(٢) انظر Ercolessi, M. C., op. cit., p. 222.

(٣) عُقدت القمة المصرية السورية الهامة في الرياض في يناير ١٩٧٧. انظر OM, LVII (1977), p. 78.

(٤) انظر OM, LVII (1977), p. 302-303، انظر أيضا شهادة ويليام كوانت الذي كان عضوا في فريق كارتر في الخارج في Quandt, William B.(ed.), Camp David. Peacemaking and Politics, Washington DC, The Brookings Institution, 1986.

الحدث الثانى المهم على الصعيد الدولى والإقليمى هو فوز الليكود فى الانتخابات الإسرائيلية فى مايو ١٩٧٧، وهو ما ترتب عليه تعيين "الصقر" مناحم بيجين فى منصب رئيس الوزراء بصحبة المتشدد موشى ديان فى وزارة الخارجية^(١). ومن الواضح أن صعود اليمين إلى السلطة فى الدولة العبرية بالشعارات التى تنادى بعدم تقسيم القدس، وضمّ "يهودا والسامرة" لم يدع مجالا واسعا للتكهن بإمكانية قيام اتفاقيات مع الدول العربية، رغم التفاؤل الذى صرح به كارتر بوضوح للسادات فى واشنطن بمناسبة لقائهم الأول^(٢).

ورغم هذا الموقف الرسمى للولايات المتحدة المعتمد من قبل وزارة الخارجية فى يونيو ١٩٧٧ والذى تضمن للمرة الأولى وجود وطن للفلسطينيين، إلا أنه ربط عملية السلام بالدعوة إلى انعقاد مؤتمر جنيف بين كل الدول المتحاربة^(٣). ورغم أن الرئيس المصرى كان يمكن أن يرضى باعتراف الولايات المتحدة بحقوق الفلسطينيين، إلا أنه لم يتفق مع إستراتيجية الاتفاقية الموحدة، بل رأى أنه ينبغى الدعوة إلى انعقاد مؤتمر السلام فقط بعد عقد اتفاقيات ثنائية بين كل دولة فى الجبهة العربية وإسرائيل.

ومن هذا المنطلق كانت الاستجابة الإيجابية من الجانب المصرى للمحاولة الإسرائيلية لفتح قناة دبلوماسية بين البلدين، وهو ما تجسد فى وساطة الرئيس الرومانى تشاوشيسكو Ceausescu وملك المغرب حسن الثانى فى المباحثات السرية بين ديان والتهامى المبعوث الخاص للسادات المنعقدة فى الرباط فى سبتمبر

(١) انظر OM, LVII (1977), p. 324-326.

(٢) انظر Quandt, William B., "American-Egyptian Relations", American-Arab Affairs, n. 32 (Fall 1987), p. 1.

(٣) انظر ملاحظة وزارة الخارجية فى ٢٢ يونيو ١٩٧٧ الواردة فى Meital, Y., op. cit., p. 155.

١٩٧٧. ورغم هذا لم يتم التوصل إلى أى اتفاق بين الجانبين فى هذه المحادثات^(١). ولا شك فى أن لقاء المغرب مثل بداية مرحلة جديدة فى العلاقات بين البلدين ويمكن النظر إليها بوضوح على أنها الخطوة الأولى نحو "المبادرة" الساداتية الدرامية بعد ذلك بشهرين.

وقد دعا الإعلان المشترك للولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى، الصادر فى الأمم المتحدة فى ١ أكتوبر كل أطراف للصراع إلى عقد مؤتمر جنيف خلال ديسمبر، حتى وإن كانت مصر وإسرائيل كلاهما ضد هذه الفكرة. وبالإضافة إلى ذلك، طلب كارتر الذى رأى فى السادات رجل سلام، من الرئيس الإعداد لنجاح المؤتمر المقبل بشكل جيد^(٢).

وفى هذا المناخ، أنضج للرئيس - أثناء جولته فى رومانيا وإيران والمملكة السعودية - قراره بقاء رئيس الوزراء الإسرائيلى، وربما حتى بالذهاب إلى الكنيست الإسرائيلى كما أعلن فى البرلمان فى وجود ياسر عرفات فى ٩ نوفمبر^(٣).

(١) حتى اليوم لا تتوفر رواية مؤكدة لمحتوى المباحثات لعدم وجود أى محاضر رسمية بالمقابلة. ويبدو من المحتمل أن ديان وعد بالانسحاب من سيناء مقابل إقامة علاقات دبلوماسية مع مصر، بينما يزعم بعض المؤرخين المصريين من بينهم جمال زهران مؤلف الدراسة الموثقة جيدا عن السياسة الخارجية الساداتية ("السياسة الخارجية لمصر ١٩٧٠-١٩٨١" القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٧) على العكس بأن ديان وعد بالانسحاب من كافة الأراضي العربية المحتلة فى ٦٧. بخصوص هذه المسألة انظر تحليل ميتال فى Meital, op, cit., p. 161-163.

(٢) انظر Meital, op, cit., p. 164.

(٣) فى خطابه الشهير أعلن الرئيس استعداده للذهاب "إلى آخر العالم وحتى إلى الكنيست الإسرائيلى" باسم السلام. انظر النص الأصلى فى مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، نصوص ووثائق معاهدات السلام بين مصر وإسرائيل ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩، ص ١١-١٨. وتوجد ترجمة إيطالية جزئية فى OM, LVII (1977), p. 593.

وبالإضافة إلى أن تفضيل الرئيس لـ"دبلوماسية الصدمة الكهربائية"، يقف وراء القرار التاريخي بالذهاب إلى القدس المحتلة رغم سيطرة الجيش الإسرائيلي إلى تلك الحين على جزء من الأراضي المصرية، كان هناك بلا شك إدراكه لواقع أن الأزمة الاقتصادية كانت شديدة الحدة في البلاد، إلى درجة أنه لم يكن بوسعها قبول خيار الاتفاقيات الموحدة الطويلة المدى وصولاً إلى السلام. والحقيقة أن حالة "السلام واللاحرب" التي حلت من جديد بين عامي ١٩٧٦ و ١٩٧٧ العائق الرئيسي أمام وصول الاستثمارات الأجنبية التي كان ينبغي وفق "المنظور المتفائل للنظام" أن تضع حداً لكل المشكلات الاقتصادية للبلاد رغم اختيار السادات ونخبته السياسية الاقتصادية وضع ثقتهم تماماً في مساعدة الغرب في تنمية مصر، بالإضافة إلى الحلم المعلن للرئيس بأن تكون مصر إلى جانب إسرائيل كحليف إستراتيجي للولايات المتحدة في المنطقة لتحاول أن تحل محلها لاحقاً، مع أن كارتر قد توقع منذ البداية "تحالفاً ثلاثياً"^(١).

على أية حال لم يفكر السادات منذ البداية في سلام منفصل، حيث كان مقتنعاً أن الأردن والمملكة السعودية سيتبعانه مجبرين، وأيضاً سوريا والدول العربية الأخرى في قبول التسوية^(٢). ومما لا شك فيه أن القرار المفاجئ بزيارة للقدس، والخطاب اللاحق في البرلمان الإسرائيلي والمذاع على الكوكب بأكمله قد

(١) انظر W. B. Quandt, "American-Egyptian Relations", cit., p. 1.

(٢) انظر شهادة بطرس غالي في Ghali, B. B., The Road to Jerusalem, New York, Random House, 1997, p. 28. وتعتبر مذكرات وزير الدولة للشئون الخارجية في هذه الفترة مصدراً قيماً لإعادة تفسير قرارات السادات ولرؤية أسلوبه الحاسم الذي يفتقر إلى الميل إلى روح عمل الفريق. كذلك نشر دبلوماسيون مصريون آخرون كتب مذكراتهم. انظر إسماعيل فهمي (وزير الخارجية الذي استقال عشية الرحلة إلى القدس) "المفاوض من أجل السلام في الشرق الأوسط"، القاهرة، مديبولي، ١٩٨٥؛ محمد إبراهيم كامل (وزير الخارجية الذي استقال في ١٩٧٨ معارضا لاتفاقيات كامب ديفيد) Kamel, Mohammad Ibrahim, The Camp David Accords. A Testimony, London, Routledge, 1986.

أديا إلى تخطي أزمة عملية السلام، وحطما - قبل كل شيء - الحاجز النفسي، واجتنبنا إلى جانب الرئيس المصري والقضية العربية بشكل عام لانتباه جزء كبير من الرأي العام الغربى، وبشكل خاص للرأى العام فى الولايات المتحدة الأمريكية، التى انتظرت فى ذلك الوقت ردا شجاعا مماثلا من جانب تل أبيب.

وبينما كان رد الفعل فى مصر مرحبا بالمبادرة من جانب الجماهير التى احتفلت باستقبال الرئيس فى المطار^(١)، ارتفعت انتقادات ثقيلة من العديد من الدول العربية. والحقيقة أن محتوى الخطاب فى الكنيست رغم أنه لم يكن استسلاميا بحال من الأحوال، نظرا لربط السادات مهمته بالاعتراف بحقوق الشعب الفلسطينى ومطالبته بالجلء عن كافة الأراضى العربية المحتلة^(٢)، إلا أن الواقع المتمثل فى مجرد الذهاب إلى "بيت العدو" فى الوقت الذى يستمر فيه احتلال الجيش الإسرائيلى للأراضى العربية كان يمثل بالنسبة للعديد من الحكام والمتقنين العرب علامة لكيدة على الاستسلام الذى سيجحف بحقوق الفلسطينين قبل الجميع^(٣). وعلى عكس توقعات السادات الوردية كانت المغرب والسودان والصومال^(٤) وعمان على وجه التحديد هى الدول العربية الوحيدة التى ساندته بوضوح، بينما نشأت بين ليبيا

(١) عرف بطرس غالى رغم أنه كان يتحدث من داخل للنظام أن مظاهرات الابتهاج كانت فى حقيقة الأمر منظمة فى الغالب من قوى الأمن. انظر: Ghali, B. B., op. cit., passim.

(٢) انظر النص الرسمى فى "مركز وثائق..."، المصدر السابق الذكر، ص ٢٥-٣٨. وقد ظهرت للترجمة الإيطالية فى OM, LVII (1977), p. 525-531.

(٣) بخصوص ردود الفعل العربية على مبادرة السادات، انظر: OM, LVII (1977), p. 539-540.

(٤) رغم أن الصومال ليست دولة عربية بالمفهوم الدقيق للكلمة إلا أنها انضمت إلى الجامعة العربية فى ١٩٧٤، ولعبت مع النظام المصرى فى فترة مبادرة السادات دورا مهما فى الإستراتيجية الأمريكية لاحتواء التوسع السوفييتى فى أفريقيا. للاطلاع على بحث إجمالى للعلاقات بين مصر ودول القرن الأفريقى انظر: Battera, Federico, "Egitto e Corno d'Africa: da Nasser a Mubarak", in Branca, P. (a cura di), Tradizione e modernizzazione..., cit., p.245-260.

والجزائر "جبهة الرفض" التي انضمت إليها بعد وقت قصير حكومات سوريا وجنوب اليمن والعراق ومنظمة التحرير الفلسطينية. والتزمت الدول الأخرى - بما فيها تلك التي سُمّيت بالدول المعتلة والحليفة التقليدية للولايات المتحدة الأمريكية، مثل المملكة العربية السعودية والأردن في البداية - الصمت الحذر.

وكانت انتقادات الحكومة الليبية بالذات لاذعة، وكذلك الحكومة السورية التي أعلنت يوم ٢٠ نوفمبر "يوم الحداد القومي" وأيضاً منظمة التحرير الفلسطينية التي تحدثت بشكل واضح عن خيانة القضية العربية. ورغم اللقاء دول جبهة الرفض في مؤتمر مصغر في طرابلس في ٢ ديسمبر دافعين المصادات إلى قطع العلاقات الدبلوماسية معها^(١)، إلا أن أيّ رئيس دولة عربية لم يفكر حقاً في أن مصر يمكنها أن توقع سلاماً منفصلاً وتتخلى عن القضية المشتركة. وكما أظهرت الدعوة إلى مؤتمر فاشل في القاهرة، شهد مشاركة الولايات المتحدة ومصر وإسرائيل والأمم المتحدة ومقاطعة الاتحاد السوفييتي وباقي الدول العربية، فإن النظم الأكثر اعتدالاً حتى لم تكن مستعدة لاتباع طريق مصر؛ لكنهم وتقوا في نجاحها واتباعها لاحقاً.

على أنه من الناحية الفعلية ورغم التفاؤل السادتي وتفاؤل الصحافة المصرية التي لم يعد بها أيّ صوت للمعارضة، اتضح للجميع بما في ذلك الدبلوماسيين المصريين منذ قمة الإسماعيلية في ٢٤ ديسمبر، أن الموقف الإسرائيلي لا يتزحزح عن رفض ربط الاتفاقيات المصرية بانسحاب أوسع من الأراضي العربية الأخرى^(٢).

ورغم انزعاج الرئيس من سلوك قادة الدولة اليهودية إلا أنه قرر استكمال الاتفاقيات، ضد وجهة نظر شركائه أنفسهم وباقي الرؤساء العرب، واتقاً - بصورة عمياء - بقدرة الولايات المتحدة على ممارسة ضغوط "تليين" التشدد الإسرائيلي.

(١) انظر OM, LVII (1977), p. 594.

(٢) انظر على سبيل المثال تعليقات بطرس غالي Ghali, B. B., op. cit., p. 173.

ومع مرور الوقت صار من الواضح أن السادات يعتزم الاستمرار، إذا لزم الأمر، في طريق السلام المنفصل منذ اللحظة التي عززت فيها المعارضة العربية النزوع الموجود أصلاً لدى السادات إلى إنقاذ المصالح المصرية قبل كل شيء. وهكذا صارت استعادة سيناء في أقرب وقت ممكن من منظوره الشغل الشاغل الأوحد. ومن هذا المنطلق أظهر الرئيس استعداداه لتقديم تنازلات واسعة للمفاوضين الإسرائيليين والأمريكان وفوق كل شيء فصل القضية الفلسطينية عن مباحثات السلام.

وعندما ظهر بكل وضوح في كامب ديفيد في سبتمبر ١٩٧٨، بعد أسابيع من المفاوضات، أن كارتر صار "رهينة" بينيين، وكذلك تشدده في المفاوضة ليس فقط بشأن حق الشعب الفلسطيني في الحكم الذاتي بل أيضاً بشأن تجميد المستعمرات في غزة والقطاع، أعطى السادات أول أوامره لوزرائه بالتخلي عن المفاوضات، إلا أنه قبل بعدها بدون شروط المقترحات الإسرائيلية من أجل إنقاذ "الصديق جيمي" من خطر عدم إعادة انتخابه لفترة رئاسية ثانية^(١). ووفقاً للعديد من التقارير، قبل السادات التوقيع بناء على الالتزام من قبل الرئيس الأمريكي بممارسة ضغوط على إسرائيل والدول العربية الأخرى المعتدلة لتوقيع معاهدة سلام حقيقي بمجرد إعادة انتخابه في ١٩٨٠^(٢). ولم تتضمن اتفاقيات كامب ديفيد معاهدة سلام حقيقية بين الدولتين، وإنما اشتملت على مسودتي اتفاق، واحدة تخص السلام المصري الإسرائيلي، والأخرى بخصوص الحكم الذاتي لغزة والقطاع، وقد أتت

(١) بالإضافة إلى الحكايات المذكورة لوزير الخارجية محمد إبراهيم كامل ووزير الدولة للشئون الخارجية بطرس غالي انظر: الدراسات النقدية لـ عادل الصفدي، Safty, Adel, "Sadat's Negotiations with The United States and Israel: Camp David and the Blair House", American Journal of Economics and Sociology, Karawan, Ibrahim A., "Sadat و إبراهيم كروان 50, no. 4 (October 1991), and the Egyptian-Israeli Peace revisited", JMES, 26 (1994), p. 249-266.

(٢) انظر بشكل خاص شهادة محمد إبراهيم كامل في op. cit., p. 357-ss.

أيضا على ذكر الأردن "وممثلي الشعب الفلسطيني" رغم عدم استشارة أيٍّ من هؤلاء^(١).

وظهر بين نهاية عام ١٩٧٨ وبداية عام ١٩٧٩ ضعف الرئيس المصري بشكل واضح، حيث وجد نفسه يتفاوض، رغم تطميناته المتعددة التي منحها لمواطنيه وللأشقاء العرب، على مجرد سلام منفصل وغير مشرف باعتبار أنه صار على مصر أن تقبل إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع دولة ما تزال تحتل عسكريا منطقة كاملة من أراضيها. وبالإضافة إلى ذلك، حدد القادة الإسرائيليون "نقطة ضعف" السادات مهددين إياه في كثير من الأحيان بعدم قدرتهم على ضمان فك المستوطنات اليهودية في سيناء، وتوصلوا إلى أنه سيتم إعادتها - سيناء - على مراحل متباعدة في ظرف ثلاث سنوات. وهكذا ضمنوا عدم قدرة مصر على التحرك في حالة وجود صراع في المنطقة. وقد تم فرض هذه النقطة الأساسية بموجب المادة رقم ٦ من معاهدة السلام الموقعة في مارس ١٩٧٩ في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي أكدت أسبقية السلام مع إسرائيل على الالتزامات المقررة في "اتفاقية الدفاع العربي" الموقعة في القاهرة في ١٩٥٠^(٢). ومن المثير، بالمناسبة، ملاحظة أن الجريدة اليومية شبه الرسمية "الأهرام" حذفت المادة المذكورة من إعلان نص معاهدة السلام، بالتحديد لأن النظام يعرف خطورة هذه النقطة التي فرضت على مصر العزلة التامة عن العالم العربي وتتحيتها عن دورها القيادي في الأمة العربية^(٣).

(١) انظر النص الرسمي للعربي للاتفاقيات في مركز وثائق المصدر المذكور ص ٨٥ - ١٠٠. والترجمة الإيطالية واردة في OM, LVIII (1978), p. 703-710.

(٢) انظر النص الرسمي للعربي للاتفاقيات في "مركز وثائق..."، المصدر السابق للذكر، ص ١١٠-١٣٢.

(٣) انظر الصفتي Safty, Adel, ibidem, op. cit.

وقبل توقيع معاهدة السلام المنفردة جذبت دول "جبهة الرفض" إلى جانبها كل الدول العربية تقريبا مقنعة إياها بعدم الارتباط بالمبادرة المصرية^(١). وفي نهاية قمة الجزائر في ١٩٧٨ قرر قادة خمس دول من جبهة الرفض تجميد كافة العلاقات مع مصر، وربطت ذلك بعجز مصر وإذعانها في مواجهة الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان في ١٩٧٨ الذي تم فقط استنكاره من قبل القاهرة دون أن يوقف ذلك استمرار المفاوضات، وذلك بسبب ضغوط الولايات المتحدة الأمريكية^(٢).

وكان من الطبيعي بالتالي أن تجتمع للجامعة العربية في بغداد بعد اتفاقيات كامب ديفيد في خريف ١٩٧٨، جامعة ضد السادات ما سمي بجبهة الصمود مشتملة تقريبا على كل الدول العربية باستثناء السودان وعمان، وأرسل الحكام العرب من العاصمة العراقية الإنذار الأخير للرئيس لكي لا يوقع معاهدة السلام، وفي المقابل عرض "الإخوة العرب" مساعدات اقتصادية عن طريق قروض مينة واستثمارات ومساعدة تقنية، غير أن السادات كان قد قرر بالفعل قبول ضغوط كارتر بالخضوع لكل نقطة تشدد من جانب الإسرائيليين، إلى درجة قبول وجود قوة عسكرية دولية مكونة بمعظمها من الولايات المتحدة الأمريكية في الجزء المصري من الأراضي التي كان ينبغي استردادها من إسرائيل وتأمين حد أدنى من إمدادات البترول السنوية لتل أبيب. وبعد توقيع معاهدة السلام تحققت التهديدات العربية بالقرار المتخذ في قمة بغداد في مارس ١٩٧٩ بطرد مصر من جامعة الدول العربية ونقل مقرها من القاهرة إلى تونس^(٣). وأكملت جبهة الصمود عزلة

(١) يوجد وصف رائع لعملية التقارب بين الملكيات المحافظة والدول "الرايكانية" وهي العملية التي أدت إلى العزلة التامة لمصر عن المعسكر العربي في Barnett, Michael N, Dialogues in Arab Politics. Negotiations in Regional Order, New York, Columbia University Press, 1998, p. 191-201.

(٢) انظر OM, LVIII (1978), p. 223.

(٣) انظر OM, LIX (1979), p. 475-477.

مصر من "محيطها التاريخي الطبيعي" إذ طرقتها في مايو التالي من منظمة المؤتمر الإسلامي رغم وجود العديد من الدول الموالية للغرب بكل وضوح مثل باكستان وماليزيا.

وكان رد فعل الرئيس على المعارضة العربية في أول الأمر هو الدهشة وعدم التصديق خاصة بالنسبة للمملكة الأردنية والمغرب اللتين توقع منهما مساعدة كبرى، ثم تحول بعدها إلى الهجوم. ومن جانب بالغ السادات في قيمة دور مصر الريادي مقتنعا بأن العرب سيتبعونه مهما فعل، ومن جانب آخر ومع مرور الوقت بدأ في اعتبار الحكومات الغربية فقط بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية محاوريه الوحيدة. وعندما أثيرت الحكومات والرأي العام العربي من انتقاداتهم بعد اجتماعات كامب ديفيد، جاء رد فعل الرئيس بازدياد، معيدا استخدام كل الحجج عن "خصوصية مصر" (الإقليمية) أو متحدثا بشكل مسيء عن القادة العرب حتى في اللقاءات العامة^(١). كما بدأت الصحافة الرسمية المصرية في هجاء "الإخوة العرب" القدامى بتعنت خاصة بدو الخليج "الأجلاف الجهلة" الذين أثروا من البترول مع أنهم أدنى ثقافيا واجتماعيا من المجتمع المصري المتحضر^(٢). وبالإضافة إلى هذا جعل اختطاف طائرة من الخطوط الجوية المصرية في قبرص في ١٩٧٨ من جانب الفدائي الفلسطيني الذي قام باغتيال وزير الثقافة المصري يوسف السباعي للرأي العام المصري أقل حساسية تجاه القضية الفلسطينية^(٣).

(١) على سبيل المثال، يسجل بطرس غالي في مذكراته السابقة الذكر أنه أخرج عدة مرات من حقيقة أن السادات نعت ملوك ورؤساء جبهة الرفض عدة مرات بـ "أولاد الكلب".

(٢) سيكون رد الفعل الداخلي هو موضوع القسم التالي من البحث مع الالتفات إلى أحزاب المعارضة بشكل خاص.

(٣) انظر OM, LVIII (1978), p. 73. ففي جنازة السباعي كانت الجموع تصرخ بألم (لا فلسطين بعد اليوم) انظر تحقيقات عبد العظيم رمضان، "مصر وفلسطين: انتحار العقل العربي"، وقد نشرت أصلا في "روزاليوسف" في ٢٠ مارس ١٩٧٨ ثم أعيد طبعها في كتابه "مصر في عصر السادات"، الجزء الثاني، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٩، ص ١٥٣-١٥٩.

كذلك هاجمت الصحافة العربية، التي عادة ما كان يكتب فيها المنفيون المصريون، السلام المصري الإسرائيلي، مستكرة بالذات حقيقة أن السادات باع "المسجد الأقصى بالقدس مقابل رمال سيناء"^(١).

وفي النهاية نظر الجزء الأكبر من الإنتلجنسيا العربية من كافة الاتجاهات السياسية - الأيديولوجية إلى مبادرة السادات على أنه "قتل لسلام عادل" وسبب إضافي لتدهور أوضاع الشعب الفلسطيني^(٢).

ج: إضفاء الشرعية على الديكتاتورية

بعد انتفاضة يناير، يمكننا اعتبار أن الفترة "شبه التعددية" التي بدأها الرئيس مع نصر أكتوبر قد انتهت. وكان على قانون "حماية أمن الأمة والمواطنين" الذي تمت الموافقة عليه في استفتاء فبراير ١٩٧٧^(٣)، أن يكون الأول فقط من سلسلة إجراءات قامعة للحرية كان عليها إضفاء الشرعية على تسلط الدولة، إذ كرس موقع الهيمنة المطلقة للرئيس داخل المؤسسات^(٤). غير أن السادات، سواء قبل أو بعد "مبادرة السلام" في نوفمبر ١٩٧٧، وجّه انتباهها كبيرا للحفاظ على "واجهة" التعددية لنظامه قبل أي شيء لإرضاء حليفه الرئيسي والراعي الوحيد لعملية السلام المنفرد جيمي كارتر.

(١) منكور في Safty, Adel, ibidem, op. cit.

(٢) انظر التحليل اللامع للفيلسوف السوري صادق جلال العظم في زيارة السادات ويؤس السلام للعادل، بيروت، دار الطليعة ١٩٧٨. للاطلاع على تحليل من منظور فلسطيني خالص انظر Sayegh, Fayez, "The Camp David Agreement and the Palestine Problem", Journal of Palestine Studies, 30 (1979).

(٣) وفقا للمعلومات الحكومية صوت ٩٩,٤ % من المواطنين لصالح القانون انظر Martin Muñoz, op. cit., p. 324.

(٤) انظر Martin Muñoz, op. cit., p. 327-340.

ومن هذا المنظور، وفي محاولة لتهميش المعارضة اليسارية "غير المسئولة" التي انتقدت بكل وضوح "رحلته السلمية"^(١)، يمكن تفسير قرار الرئيس بالسماح بعودة الوفد الذي حصل على التفويض بإعادة التكوين باسم الوفد الجديد في فبراير ١٩٧٨ بفضل اثني عشر عضواً في مجلس الشعب قرروا الانتقال إلى صفوفه^(٢).

كان وراء قرار إعادة حزب الوفد إلى الحياة بقيادة الباشا العجوز فؤاد سراج الدين الذي كان وزيرا في آخر حكومة قبل الثورة إحساس اليمين الليبرالي بأن النظام رغم الانفتاح الاقتصادي وإعادة الاعتبار للأرستقراطية القديمة والبرجوازية، لم يكن في حالة تضمن الحماية الكافية لمطالبهم. وبالإضافة إلى هذا، لم يكن التقليد الوفدي المبني على العلمانية والقومية المصرية قادرا على قبول أي من "الانعطاف الإسلامي" للنظام أو اعتماد السادات اعتمادا كاملا على الولايات المتحدة في السياسة الاقتصادية^(٣).

وكان السادات من جانبه يرمى - بعد خيبة أمله بعد انتفاضة يناير عندما أساءت "معارضته" استخدام الحرية الممنوحة لها في مهاجمتها لمؤسسات الدولة - إلى ربط الحزب الحكومي "بمعارضة مخصصة"، مدركا أن عملية السلام مع إسرائيل سوف تبعد عنه جزءا من مؤيديه سواء في المعسكر الإسلامي أو بين أبناء ثورة يوليو.

وبعيدا عن القيام بهذا الدور، انضم الوفد إلى صفوف المعارضة البرلمانية في استنكار "الخيانة الوطنية" التي ارتكبتها السادات في بداية مفاوضات السلام مع الدولة اليهودية. وفي هذا المجال تكونت "جبهة برلمانية" من المعارضة بين التجمع

(١) سيخصص جزء كبير من الفصل الرابع لمعرفة ردود فعل التجمع (واليسار للرايكا) على المبادرة.

(٢) انظر Hinnebusch, R. A., Egyptian Politics..., cit., p. 208-ss.

(٣) قدم سراج الدين نفسه ملخصا لدوافعه وراء اختيار إعادة تأسيس الحزب في لماذا الحزب الجديد"، القاهرة، دار الشروق، ١٩٧٧.

والوفد الجديد والناصريين المستقلين. ولم تكن القاعدة الاجتماعية وبرامج هذه الأحزاب مختلفة فقط، بل كانت متناقضة بشكل موضوعي، إلا أن رفضهم للسلام المنفرد كان مشتركاً، وكذلك للأسلمة من الأعلى والتقييد المتزايد للحرية المحدودة أصلاً. وهنا يجدر بنا أن نتوه بأن الوفديين كانت لديهم بوضوح أسباب محددة تقف وراء رفضهم لعملية سلام تعزل مصر عن العالم العربي. ففي الأيديولوجية الوفدية يوجد مبدئياً تشديد على الاستقلال السياسي والاقتصادي للبلاد، وبالإضافة إلى هذا استمر رأسماليو الحزب في اعتبار العالم العربي سوقاً "طبيعية" للسلع المصرية، إذ كانوا يخشون - عن حق - غزو التكنولوجيا والسلع الإسرائيلية في حالة التطبيع التام للعلاقات بين البلدين^(١).

وعلى أي حال فإن الموقف الذي اتخذته الوفديون من عملية السلام وانضمامهم في البرلمان إلى جناح "ملحدى" للتجمع، والدعم الشعبي المتزايد، والذي يمكن رؤيته جيداً في مناسبات مثل الندوات المنظمة من الحزب في نقابة المحامين - للقاعدة التقليدية للبرالية الوفدية - جعل الحزب محطاً للأنظار^(٢).

وكان رد فعل الرئيس خليطاً من خيبة الأمل والغضب وقد عبر عنه أولاً في تهجماته الشخصية على القادة الوفديين، والتي لاقت صدى واسعاً من جانب الصحافة الموالية للنظام، إلا أنه تم تسريعها بعد ذلك في تدابير قانونية، قانون "حماية الجبهة الداخلية والسلام الاجتماعي"^(٣) الصادر في مايو ١٩٧٨ الذي تمت الموافقة عليه بالاستفتاء المعتاد بعد عدة أسابيع، والذي استبعد من النشاط السياسي كل "الذين تسببوا في فساد الحياة العامة قبل عام ١٩٥٢"^(٤)، وكان يرمى بوضوح

(١) انظر Hinnebusch, R. A., Egyptian Politics..., cit., p. 218-ss.

(٢) انظر Ibidem.

(٣) توجد رواية جزئية لهذا القانون في ملحق -452, Shukri, Gh., Egypt..., cit., p. 453.

(٤) انظر المادة ٤ من القانون ٤٥٢. ibidem, p. 452.

إلى اتهام القادة الوفديين الجدد. وقد فضل هؤلاء، بدلا من طرد القادة القدامى للحزب، تجميد أنشطتهم وفك الحزب واقعا في ١٢ يونيو ١٩٧٨ (١).

ويعود جانب من عداء الرئيس للوفد إلى القدرة على التحرك التي أبدتها الليبراليون القدامى على النقيض من عدم كفاءة حزب الوسط (حزب مصر العربي الاشتراكي) الذي ورث بنيته المتضخمة من الاتحاد الاشتراكي، وعجزه عن أن يكون حزبًا للجماهير. وفي محاولة منه لتخطي هذه الأزمة من أجل تخليص حزب مصر العربي الاشتراكي من "بقايا" الفترة السابقة، فكر السادات في تكوين "حزبه" والذي طبقا لنواياه كان ينبغي أن يكون منظمة سياسية حقيقية. ولم يرغب السادات في أن يحل الحزب الجديد الذي سيدعى "الحزب الوطني الديمقراطي" محل "حزب مصر العربي الاشتراكي" الذي أراده أن يكون منذ البداية حزب المعارضة الوفي الذي ينقصه، غير أنه بعد إعلان الرئيس بأنه سيكون رئيس الحزب الوطني الديمقراطي، ترك جميع أعضاء مجلس الشعب حزب مصر العربي الاشتراكي منتقلين إلى حزب الرئيس الذي خرج إلى النور في ١٢ أكتوبر ١٩٧٨ (٢). ولا يمكننا أن نتجاهل أن السادات بخلطه الأوراق في البرلمان، بالإضافة إلى رغبته في إنشاء حزب جماهيري يحد من نجاح الوفد الجديد، إنما كان يرغب في أن يصرف الانتباه عن "مشاكله" مع المعارضة التي أدانت بوضوح "خيانة" كامب ديفيد بتوقيع الاتفاقية في سبتمبر ١٩٧٨ (٣).

(١) انظر "بيان من حزب الوفد الجديد" ١٢ يونيو ١٩٧٨، في Haykal, Autumn of Fury (cit., p. 203)، ويذكر هيكل أن سراج الدين كان معارضا لتجميد الأنشطة العملية إلا أنه تكيف لصالح غالبية المناضلين.

(٢) انظر Beattie, op. cit., p. 237. وينبغي أن تلفت النظر إلى أن اسم الحزب الوطني الديمقراطي يشير بكل واضح إلى الحزب الوطني بقيادة مصطفى كامل، أول حزب وطني مصري.

(٣) للاطلاع على معالجة أوفى لرد فعل المعارضين وأولهم اليساريون على عملية السلام، انظر الفصل الرابع.

كان برنامج الحزب الوطنى الديموقراطى - الذى هيمن فيه التكنوقراط وأشد المخلصين على القيادة - يقوم على تطوير الانفتاح، "وحماية السلام الاجتماعى" والوحدة الوطنية، كما احتوى على نداء واضح بتقنين الشريعة كنزوة لسياسة "الأسلمة من أعلى" التى اتبعتها السادات إلى حد كبير من أجل معارضة للتأثير المتنامى للإخوان المسلمين فى كافة المستويات فى المجتمع المصرى^(١).

ترك انسحاب أعضاء مجلس الشعب والقادة من منبر الوسط القديم إلى الحزب الوطنى الجديد الرئيس بدون المعارضة المخلصة التى تنقصه فى لحظة عورضت فيها شرعيته بقوة ليس من العالم العربى فقط بل فى مصر نفسها، حيث بدأ رفض الاستسلام لإسرائيل والتخلى عن القضية الفلسطينية فى تجميع قوى المعارضة المختلفة. وفى هذا الإطار، نشأ حزب للعمل فى ديسمبر ١٩٧٨ بقيادة للقائد الوطنى القديم إبراهيم شكرى الذى كان ما يزال مناضلا فى الحركة شبه الفاشية "مصر الفتاة" حتى ١٩٥٢^(٢). وتظهر بوضوح "بصمة" السادات فى نشأة حزب العمل الاشتراكى إذا نظرنا إلى أن مجموعة من أعضاء مجلس الشعب بالحزب الوطنى بقيادة نسيب الرئيس "محمود أبو واقية" دخلت إلى المجموعة الجديدة لتسمح لها بالحصول على الحد الأدنى المطلوب من النواب^(٣).

وقد مثل توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية محطة أساسية فى الحياة السياسية للبلاد، وهى البلاد التى أصبحت معزولة عن العالم العربى. على أن هذا وصم أيضا اختيار الرئيس الواضح لنظام يصعب تمييزه عن نظام دكتاتورى مطلق. ورغم استقبال المنتصرين الذى احتفظ له به "شعبه" عند عودته إلى

(١) انظر Beattie, op. cit., p. 238; Waterbury, The Egypt..., cit., p. 370-ss.

(٢) بخصوص حزب العمل الاشتراكى انظر دراسة Singer, Hanna Fikri, The Socialist Labor Party: a Case Study of a Contemporary Egyptian Opposition Party, Cairo, AUC Press, 1993.

(٣) وفقا لقانون الأحزاب السياسية احتاج حزب العمل الاشتراكى إلى عشرين عضوا ولكنه حصل فى النهاية على ٢٨ عضوا، انظر Beattie, op. cit., p. 240.

الوطن^(١)، كان رد فعل السادات في الحقيقة سلبيا للغاية تجاه الجدل البرلماني الناتج عن توقيع المعاهدات، والذي انتهى بالتصويت المعارض لسبعة عشر عضوا في برلمان مكون من ٣٥٠ عضو. وتظهر مرارة الرئيس وغضبه تجاه هذه المعارضة مع أنها كانت أصغر من أن تكون حتى أقلية، مستوى عدم تسامحه وعدم قدرته على تمييز ذاته عن النظام.

ولهذا لم يكن الرئيس راضيا بنتائج الاستفتاء الذي أتى بإجماع ٩٩,٩ % من الناخبين المصريين بالموافقة على معاهدة السلام^(٢) وأراد الانتقام من عار الأصوات المعارضة وتنقية المجلس من "الملحدين" وقرر الرئيس حل البرلمان، وعقد انتخابات جديدة في يونيو ١٩٧٩ رغم أن قانون الانتخابات منحه هذا الحق فقط في حالات الطوارئ. حصل السادات على ما أُراده حيث اختفى اليسار من البرلمان الجديد لصالح حزب العمل الاشتراكي معوضا عنه بتسع وعشرين مقعدا وبقي فقط عضوان ممن صوتوا ضد كامب ديفيد تم انتخابهما كليهما من صفوف المستقلين في جولة انتخابية حزينة شهدت أسوأ عمليات تزوير وترويع بدأت في تاريخ البلاد^(٣).

(١) يجدر بنا في هذا الصدد أن نذكر التأكيد الساخر للناصرى يحيى الجمل الذي كان عضواً في حكومة السادات حتى ١٩٧٥، والقاتل بأن المظاهرات الوحيدة التي خرجت بناءً على مبادرة الجماهير تماما وبإخلاص في مصر المعاصرة كانت تلك التي تلت وفاة المطربة أم كلثوم، انظر للمقابلة المذكورة في Beattie, op. cit., p. 233. وعلى أي حال، إذا كان من الممكن إرجاع مظاهرات الابتهاج التي قوبل بها الرئيس عند عودته من القدس عام ١٩٧٧ إلى الأمل الذي ولدته هذه المباراة لدى جزء كبير من الشعب، فمن الجائز أن نعبر عن تشككنا في شعبية الرئيس في مارس ١٩٧٩.

(٢) انظر Martin Muñoz, G., op. cit., 344.

(٣) انظر Martin Muñoz, G., op. cit., 335. انظر أيضا محمد سيد أحمد، "مستقبل النظام الحزبي في مصر"، القاهرة، دار المستقبل العربي، ١٩٨٤.

ويرجع التعنت الخاص في مواجهة اليسار من قبل النظام، سواء في الكلمات أو الأفعال^(١)، إلى شخصية السادات وهواجسه تجاه "الشيوخيين" الذين استمر في النظر إليهم - محاطا بجيش من الحاشية حتى أعوام السبعينيات - على أنهم الخطر الأعظم لبقاء نظامه مقللا من التهديد المحتمل للمنظمات الإسلامية، الشرعية أو السرية^(٢)، التي ظن أنه يمكنه معارضتها بسياسة "إعادة الأسلمة من أعلى".

كذلك ينبغي أن نتذكر أن السادات اتبع طريقين متوازيين غير متسقين في سياسته الاجتماعية كما يتضح من المواد التشريعية التي تم تقديمها في ١٩٨٠. ففي نفس العام تمت الموافقة على تعديلات مهمة في حقوق الأسرة لتأمين حقوق المرأة من قواعد الشريعة الإسلامية التي تقرط في تفضيل الرجال^(٣)، بينما أصبحت الشريعة الإسلامية المصدر الأساسي للتشريع تحت ضغط الأزهر والإخوان. وكان هذا التناقض يعكس، وفقا لوجهة نظر البعض، "الصراع" على التأثير على الرئيس الذي أصبح في ذلك الوقت مغتربا عن شعبه بل وعن نخبته ذاتها بين الميول الإسلامية لعثمان أحمد عثمان" الرجل الوحيد الموثوق فيه من جانب الرئيس في الفترة الأخيرة وبين زوجته "جيهان" التي رغبت في دفع للرئيس تجاه إصلاحات ذات طابع علماني^(٤).

وبالإضافة إلى ذلك، وفي نفس العام ١٩٨٠، وصلت عملية تشريع الديكتاتورية" إلى الذروة بالموافقة على ما سمي "بقانون العيب" الذي يجرم أي نوع

(١) انظر الفصل الرابع.

(٢) من الجدير بالذكر أن الحكومة أمرت بمصادرة "الدعوة" لسان حال الإخوان المسلمين للمرة الأولى في أبريل ١٩٧٩ بعد انتقادهم الصريح للاتفاقية المصرية الاسرائيلية.

(٣) بخصوص هذا الموضوع انظر Cilardo, Agostino, "The Evolution of Muslim Family Law in Egypt", OM, IV N. S. (1985), p. 67-124.

(٤) انظر أحمد بهاء الدين، "محاورياتي"، ص ١٨٨.

من المعارضة للنظام سواء في مصر أو في الخارج^(١) وبحصول الرئيس على منصب رئيس الوزراء في مايو ١٥ مايو^(٢). واقرن الموقف الاقتصادي الخطر العائد إلى قطع المساعدات العربية بسبب معاهدة السلام مع إسرائيل والفشل التام للانفتاح، مع ظرف دولي صعب نشأ عن انتصار الثورة الإسلامية في إيران، والنتيجة السلبية لمفاوضات الحكم الذاتي الفلسطيني بسبب التعتن الإسرائيلي، وشال إدارة كارتر المشغولة بحملة دعائية انتخابية صعبة. وبالإضافة إلى ذلك، استمر الرئيس رغم أنه كان محاطا بجوقته في الصحافة والحكومة في الوسوسة إزاء التهديد الشيوعي^(٣)، والذي تجسد في نظره في الغزو السوفييتي لأفغانستان (ديسمبر ١٩٧٥) و كان المجتمع المصري يتألم بعمق تحت التأثير المزيج للنظام نفسه والوجود المتغلغل لمنظمات ذات جذور مختلفة في الجامعة، وفي أحياء متعددة بالمدن^(٤). وقد ظهرت عودة الأسلمة تلك في المدن المصرية الشمالية في صورة تبنى فئات واسعة من المجتمع لعادات ورموز دينية، كما ظهر في عودة للحجاب النسائي - أيضا - لدى الفئات الاجتماعية الدنيا، وبالتجمعات المتكررة في المساجد من أجل المشاركة في الاحتفالات المهمة. وبالموازاة مع ذلك أضيفت خطب الشيوخ الشبان إلى التخلف الاقتصادي الاجتماعي في قرى وصعيد مصر العليا قلعة التقاليد المحافظة في البلاد" الأمر الذي أضفى على "الصحة الإسلامية" ملامح معادية للمسيحية. وبالتالي كانت الشرطة في السبعينيات تتخذ موقف المتفرج عاجزة أمام أحداث عنف طائفي عديدة بدت مهددة لقرون من التعايش السلمى حتى أدت إلى تطرف الكنيسة القبطية ذاتها التي أصبحت هدفا آخر لغضب الرئيس بين ١٩٧٩ و ١٩٨١^(٥).

(١) انظر Martin Muñoz, G., op. cit., p. 337.

(٢) انظر Beattie, op. cit., p. 260-261.

(٣) شن النظام في ١٩٨٠ حملة اعتقالات جديدة ضد مناضلي اليسار الراديكالي انظر الفصل الرابع.

(٤) انظر Beattie, op. cit., p. 263-265.

(٥) انظر Heikal, Autumn of Fury, cit., p. 161-165.

وقبل أن أصف النهاية الدرامية لمسيرة السادات، من الضروري تقديم استعراض موجز للميلاد الجديد للإسلام السياسى المصرى وأيديولوجيته وتقرعاته، وخاصة أنه على أيدي القوى الأكثر عتفا وتطرفا الناشئة من هذه الحركات سينتهى حكم السادات^(١).

ومن الناحية النظرية كان صانع الميلاد الجديد للفكر الأصولي^(٢) بلا منازع، فى مصر والعالم العربى، هو سيد قطب (١٩٦٦-١٩٠٦) مرشد الإخوان المسلمين الذى أعدمه نظام عبد الناصر فى ١٩٦٦. وهو الذى طرح رؤية لا يمكن فصلها عن فكرة الغلبة المطلقة للإرادة الإلهية على السلوك الانسانى، وعلى الطاعة التامة من جانب الإنسان. وباسم هذه الإرادة يكون بالتالى على المسلم أن "يجاهد ضد كل من يتجاهلون أو لا يطبقون الرسالة الإلهية"^(٣). وقد مدّ قطب عمليا مفهوم الجاهلية - عصر الجهل قبل الإسلامى بسبب شركه ووثنيته - إلى الوقت الحاضر. وبناء على هذا التحليل زعم الإخوان المسلمون وأتباعهم أن قادة العالم العربى (والإسلامى) قاموا بإفساد الرسالة الإلهية فى القرون المبكرة بعد وفاة الرسول متهمين إياهم بالنفاق والكفر (ومن هنا اشتقت: تكفير)، وهكذا رأوا احتمال الجهاد ضدهم داخل دار الإسلام، لإعادة المجتمع إلى الطريق الصحيح أى "إلى سبيل الله". وعلى العكس من ذلك كان المفهوم التقليدى للجهاد يرى التفرقة بين دار الإسلام التى هى أيضا "دار السلام" و بين "دار الحرب" التى يمكن إعلان الجهاد فيها. هذه

(١) لا يعتبر مصطلح "ملك" غير مناسب إذا تذكرنا أنه تم إلغاء أى حدود زمنية لإعادة انتخاب الرئيس فى منصبه باستفتاء تم فى ١٩٨٠ مما جعل من وجود رئاسة "مدى الحياة" أمراً ممكناً.

(٢) ليس هنا محل مناقشة صعوبة تعريف الظاهرة التى يفضل تعريفها "بالراديكالية الإسلامية" أو "الإسلام الراديكالى"، انظر اعتبارات كلاويو لو جاكونو، Lo Jacono, Claudio, "I cosiddetti fondamentalismi islamici", in Fondamentalismi, numero monografico di Parolechiave, n. 3 (1993), p. 35-36.

(٣) انظر سيد قطب "معالم فى الطريق" فى Voci Branca, Paolo (a cura di), dell'Islam moderno, Genova, Marietti, 1997, p. 197-198.

لنقطة أساسية لأنها الملمح الرئيسي لكل المجموعات الإسلامية "الأصولية الجديدة"^(١).

وفي الحالة المصرية من الواضح أن الحركة الإسلامية بدأت من الجامعات، أيضا وأساسا بإحياء من السلطة في مواجهة نشاط المجموعات الماركسية والناصرية قبل حرب أكتوبر. وبدأت تبرز في السبعينيات - إلى جانب الجماعات التابعة أو القريبة من الإخوان المسلمين - جماعات وجماعات صغيرة، يحركها نداء جهادي ينظر إلى الصراع المسلح على أنه وسيلة لاستعادة أسلمة الدولة والمجتمع، بعيدا عن أى سيطرة حكومية.

ورغم أن رحلة السادات إلى القدس مثلت كما يؤكد "كيبل" Kepel الحد الفاصل لتحديد نشوء هذا التيار الراديكالي^(٢) البديل للإخوان والمضاد لإسلام الدولة أى الأزهر، فإن بولدر ذلك بدأت حتى قبل مبادرة الرئيس.

والحقيقة أن أولى المنظمات الراديكالية التي ظهرت في ١٩٧٧ كانت "جماعة المسلمين" التي سمّتها السلطات "التكفير والهجرة" وفقا لأحد الشعارات الأساسية للجماعة^(٣). وقد طورت هذه الجماعة تحت قيادة شكري مصطفى تحليل قطب عن الطبيعة الكافرة للدولة، ودفعته إلى الحد الأقصى مكفرة ليس فقط القيادة السياسية، بل المجتمع كله. واتباعا لهذا المنطق كان على مناضلي الجماعة الانسحاب أو الهجرة إلى مجتمعات مغلقة، والتحضير من هناك للجهاد من أجل إصلاح المجتمع تبعا لمبادئ الإسلام الصحيح. وعندما اتهم محمود الذهبي العالم الأزهرى ووزير الأوقاف السابق شكري مصطفى بأنه من الخوارج في يوليو

(١) انظر Kepel, Jihad..., cit., p. 25-27.

(٢) انظر Ibidem, p. 89.

(٣) بخصوص هذه المجموعة انظر Camera d'Afflitto, Isabella, "at-Takfir wa al-

Hijrah e l'integralismo musulmano in Egitto", OM, LVII (1978), p. 145-

153 . انظر أيضا تحليلات كيبل Kepel in Le Prophete..., cit., p. 70-102.

١٩٧٧ اختطفه مناضلو جماعة المسلمين مطالبين بتحرير المناضلين الذين تم إلقاء القبض عليهم من قبل مقابل إطلاق سراحه، وعندما رفضت السلطة، تم اغتيال الذهبي على يد المناضلين الإسلاميين مثيرين موجة من الاحتجاج والاستنكار لدى الرأي العام المصري^(١).

وانتهت مسيرة التكفير والهجرة بإلقاء القبض على الجزء الأكبر من المناضلين والحكم بالإعدام على شكري مصطفى في أوائل عام ١٩٧٨، الأمر الذي أوضح بشكل درامي أن النظام لم يكن قادراً على أن يستغل الحركة الإسلامية لصالحه^(٢). أما على المستوى الاجتماعي فيبدو أن التحالف الإسلامي بين البرجوازية المتدينة والمعروفة بالإخوان المسلمين والشباب المديني المهمش المناضل في الجامعات قد تفكك بالتجذر المستمر للإنتلجنسيا الإسلامية الشابة عند مغادرتها للجامعة.

ومن هذه الإنتلجنسيا أتى المهندس عبد السلام فراج الذي قدم التبرير النظري للجماعات الإسلامية المسلحة، وكان الجهاد (تنظيم الجهاد) أكبر هذه الجماعات^(٣). قام عبد السلام فراج القادم من أسبوط في صعيد مصر بتأليف كتاب (الفريضة الغائبة) بين عامي ١٩٨٠ و ١٩٨١. وقد حقق بهذا الكتيب - المبنى في جزء كبير منه على عقيدة الفقيه ابن تيمية (١٢٦٨-١٣٢٨ م) الذي عاش في عصور غزو المغول - الانفصال التام سواء عن الإخوان أو عن التقليد الإسلامي الأزهرى "المعتدل" حيث قام فراج بتعريف الفريضة الغائبة على أنه الجهاد الذي كان ينبغي على المنظرين المسلمين إعلانه أولاً على الحكام المناققين الذين يعلنون أنهم مسلمون لكنهم يخونون مبادئ الإسلام. ومن الواضح أن التحليل السابق رغم

(١) انظر Beattie, op. cit., p. 225.

(٢) انظر التحليل اللامع لـ غالى شكري Shukri, Egypt..., cit. p. 293-302.

(٣) بخصوص الجهاد انظر محمد مورو، "تنظيم الجهاد: أفكاره، جذوره، سياساته"، القاهرة، الشركة الدولية العربية للنشر، ١٩٩٠.

أنه مبنّى على افتراضات نظرية عامة، إلا أنه يشير بشكل محدد إلى الموقف المصري طارحاً ضرورة أو بشكل أدق (فريضة) التخلص من السادات بأي ثمن.

وقد أتى هذا التجنر في الحركات الإسلامية منذ اللحظة التي وجد فيها النظام المصري نفسه بعد توقيع الاتفاقات مع إسرائيل يواجه أزمة شرعية أخرى خطيرة، وازدادت تفاقمًا بمصاعب السياق الدولي. والحقيقة أن الرئيس اعتمد على إعادة انتخاب كارتر في خريف ١٩٨٠ حتى يلف من تعتت بيجن سواء في الاتفاقيات بخصوص الحكم الذاتي الفلسطيني أو أساساً بخصوص ضمانات الرجوع الفعال لسيناء إلى مصر في أبريل ١٩٨٢. وفي هذا السياق، أدى انتصار ريجان، واهتمامه الضئيل في البداية بالقضية العربية الإسرائيلية إلى إضعاف (الهيئة) الدولية لـ السادات ومنصبه في الوطن. وهنا تم تنظيم "جبهة تحرير وطنية" جمعت تحت لواء معارضة "ترتيبات كامب ديفيد" القوى الليبرالية والماركسية، وحتى الإخوان المسلمين، وبالإضافة إلى ذلك، تخلى حتى حزب العمل الاشتراكي عن معسكر السلطة رافضاً دوره كمعارضة مخلصية" ليصطف بشكل واضح ضد "خيانة" الرئيس للقضية العربية. ومثلت جريدة حزب العمل الأسبوعية "الشعب" بين عام ١٩٨٠ وسبتمبر ١٩٨١ منتدى حقيقياً حيث جرى التوفير لكل قوى المعارضة إمكانية تقديم مواقفها الحقيقية^(١).

ومع هذا، وكما سنرى فيما بعد، لم تتجج المعارضة في تكوين "جبهة تحرير وطنية" حقيقية يمكنها أن تستولى على السلطة بالتحديد لأن الانقسامات الأيديولوجية كانت واسعة للغاية بين مختلف المجموعات، كما أن برامجها كانت ستغدو متباعدة للغاية في حالة الاستيلاء على السلطة. ومن الجدير بالذكر هنا وزن النموذج الإيراني الذي قام بتهميش القوى العلمانية أو الليبرالية وحتى الماركسية من جانب الخوميني رغم مشاركتهم بنشاط في الثورة ضد الشاه^(٢).

(١) انظر Beattie, op. cit., p. 272-273.

(٢) للحصول على تحليل أعمق لهذه المسألة خاصة من وجهة نظر اليسار، انظر الفصل الرابع.

وتدهور موقف البلاد إلى أقصى حد في ١٩٨١ بالمواجهات شبه اليومية بين المناضلين الإسلاميين والأقباط مخاطرة بجذب مضر إلى حرب أهلية دموية. وقد وقع أخطر هذه الأحداث في يونيو ١٩٨١ في القاهرة فيما يسمى بـ "منبحة الزاوية الحمراء" حيث نتج عن الصدامات بين المسلمين والمسيحيين التي استمرت أياما عديدة سقوط ٣٥ قتيلا بالإضافة إلى خمسين جريحا. وفي نفس الفترة جاء القصف الإسرائيلي لمطار بيروت أولا ثم قصف المفاعل النووي الإيراني وللذان وقعا بعد قمة السادات - بيجين ليقللا بصورة كبيرة من الهامش المتناقص أساسا للإجماع على النظام.

قرر السادات في هذا الموقف - معزولا تماما في بلده وخائفا من أن لا يستمر في البقاء - وفي حركة يائسة، أن يبدأ موجة اعتقالات جماعية في ٢ سبتمبر ١٩٨١، وفي ظرف ساعات قليلة وجد ١٥٣٦ فردا، يمثلون تقريبا كافة تيارات المجتمع المدني المصري من كافة الاتجاهات السياسية، أنفسهم يتشاركون في تجربة السجن.

وكان بين المعتقلين العديد من مناضلي اليسار، والجماعات الإسلامية، وأعضاء حزب الوفد، وصحفيون مؤثرون مثل محمد حسنين هيكل، وحتى البابا القبطي شنودة تم نفيه في دير في الصحراء^(١).

ومثل قرار الرئيس، والذي ربما أثر عليه وزير داخلية النبوي إسماعيل^(٢) بشكل ما، "شهادة وفاة"^(٣). وجرى بالتالي تنفيذ حكم الإعدام، الذي ألهمه عبد السلام فراج وصاغه الشيخ الشاب عمر عبد الرحمن، بواسطة إحدى خلايا الجهاد خلال

(١) لوصف المعتقلين أنفسهم لاعتقالات سبتمبر ١٩٨١ انظر: Heikal, Autumn..., cit., p. 232-241.

(٢) فؤاد علام، في مقابلة شخصية مع الكاتب، القاهرة ١٤ يناير ٢٠٠٣.

(٣) لتكوين تصور دقيق عن الفترة بين الاعتقالات واغتيال السادات، انظر عادل ممدوح، أيام السادات الأخيرة، القاهرة، دار فرمان، ٢٠٠١.

الاستعراض العسكرى فى السادس من أكتوبر ١٩٨١. وقد أثبت فشل محاولة عصيان مسلح فى أسبوط تهدف إلى قلب نظام الحكم كيف أن تحليلات الشبان الراديكاليين عن احتمال قيام ثورة إسلامية فى وقت قريب فى وادى النيل كانت مفتقرة إلى أى أساس.

وعلى أى حال، فرغم مبادرات المصالحة تجاه المعارضة، والتي تجلت فى الإفراج عن المعتقلين فى سبتمبر، فى أبريل ١٩٨٢، أوضحت اختيارات الرئيس الجديد مبارك أن التحولات التى أدخلها السادات على النظام السياسى والاجتماعى المصرى قد استمرت فى البقاء بعد وفاته التراجيدية.

الفصل الثاني

المثقف المعاصر ومولد الماركسية في مصر

١- المثقف العربي: تعريف صعب

يقع مفهوم المثقف العربي في "منطقة حدود" و"التباس" بين الحياة الثقافية والسياسية ويخضع لتحليل عدة فروع علمية متنوعة ابتداءً من علم الاجتماع مروراً بالعلوم السياسية وتاريخ الفكر والأفكار وانتهاءً بالتاريخ الاجتماعي.

ورغم أن محور البحث الحالي هو تحليل وضع المثقف في مصر ما بعد الاستعمار إلا أن من الضروري أن نتتبع الأبعاد الاجتماعية- الفلسفية التي تعرف المثقف العربي المعاصر وأن نتتبع، على الأقل بشكل مختصر، سياق مولدها في القرن الثامن عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر.

يعتبر مصطلح "مثقف" هو الأكثر استخداماً في الصحافة العربية المعاصرة للإشارة إلى المثقف بالإضافة إلى لفظ مفكر (المشتق من مادة فكر) ولفظ "أديب" بمعناه الكلاسيكي (والذي يعنى حرفياً مهنياً وأديباً)^(١).

(١) من أجل تحليل لهذه المسألة المعقدة، انظر Ruocco, Monica, L'intellettuale arabo tra impegno e dissenso. Analisi della rivista libanese al-fd...b (1953-1994), Roma, Jouvence, 1999, p. 14. وانظر أيضاً الدراسة الوافية لـ لييب طاهر "العالم والمثقف والانتلجنسي" لعدد من المؤلفين "الثقافة والمثقف في الوطن العربي"، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٢، ص ١٧-٣٤.

ومن الجدير بالذكر هنا أن العالم العربي الإسلامي الكلاسيكي قد أنتج "المتقنين" الخاصين به قبل ظهور المتقنين المعاصرين. وقد أعطى التراث العربي والإسلامي الذي لا تعتبر مصر مستثناة منه، تسمية متقف أو لنقل عالم (عارف) لدارس العلوم الدينية أي المتخصص في الثيولوجيا (متكلم) والفقهاء الإسلاميين (فقيه)^(١).

ويتعلق الجدل حول صورة المتقف العربي المعاصر قبل أي شيء بالأسئلة عن دوره في المجتمع وعلاقته بالسلطة الموجودة^(٢).

(١) بخصوص المتقنين في الإسلام الكلاسيكي انظر على سبيل المثال Urvoy, Dominique, *Les penseurs libres dans l'Islam classique*, Paris, Albin Baffioni, Carmela, *I grandi pensatori dell'Islam*, Roma, Michel, 1996 Sanaugustin, Floréal (ed.), *Les intellectuels en*, Edizioni Lavoro, 1996 Orient musulman. Statut et fonction, Le Caire, IFAO, 1998 التحليلات المثيرة لـ مصطفى مرتضى على عن المتقف والسلطة "دراسة تحليلية لوضع المتقف المصري في فترة ١٩٧٥-١٩٩٥" القاهرة، دار قباء، ١٩٩٨، ص ٢٤-٣٥ التي استخدم فيها عالم الاجتماع المصري بتوسع تأملات ابن خلدون لوصف نشأة المتقف التقليدي في الفترة الكلاسيكية.

(٢) بخصوص المتقف العربي المعاصر، انظر "المتقف العربي: دوره وعلاقته بالسلطة والمجتمع" لعدد من المؤلفين، الرباط، المجلس القومي للثقافة العربية، ١٩٨٨؛ "المتقف والثقافة في الوطن العربي" لعدد من المتقنين، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٢؛ Alatas, Syed H., *Intellectuals in Developing Societies*, London, Cass, 1977 محمود أمين العالم "الوعي والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر"، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٨٦؛ Barresi, C. Ferial, "Gli intellettuali fra consenso e disimpegno", in: *Politica Internazionale*, 3, 1978, p. 72-76؛ ناجي بن نصر، "أوهام المتقنين" تونس، الطبعة الثانية، ١٩٨٦؛ محمد عابد الجابري "الخطاب العربي المعاصر"، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٢؛ سعد الدين إبراهيم "الإنتماء العربي. المتقنون والسلطة"، عمان، منتدى الفكر العربي، ١٩٨٨؛ زهير م. الكتبي، "المتقف العربي والسلطة"، مكة، ١٩٩٥؛ Labdaoui, Abdellah, *Les nouveaux intellectuels arabes*, Paris, L'Harmattan, 1996؛ Laroui, Abdallah, *The Crisis of the Arab=*

وفي العالم العربي يمكن للتحدث عن "طبقة مثقفين" تتصف، وإن بدرجات متفاوتة، بدرجة عالية من الإدراك الذي يمكن تعريفه "بالوعي الطبقي"^(١).

بينما يبدو أن هذا الوعي بالذات لم يتوفر للمثقف العربي وهو الأمر الذي أدى به في رأي الباحث الاجتماعي اللبناني سمير خلف إلى "اغتراب تام عن المجتمع الذي ينتمي له". وقد تبني سمير خلف تعريف ريمون آرون Raymond فالمتقف تبعاً لهذا الأخير هو "الذي يحيا على ومع إعمال العقل"^(٢). وكما لاحظ فيما كان يكتب في الستينيات أنه في البلدان العربية في فترة ما بعد الاستعمار يوجد فقط "إنتلجنسيا من البيروقراطيين والتكنوقراط واعية سياسياً" ولكن لا توجد نخبة حقيقية من المثقفين والمبدعين ودعاة الثقافة^(٣). ومن الجائز أن يكون هذا المنظور النخبوي^(٤) للمثقف تعديلاً مناسباً لتحليل أنطونيو جرامشي Antonio

=Intellectual: Traditionalism or Historicism?, Berkeley, University of Sabour, California Press, 1976 (1974); Ruocco, M. op. cit. M'hammed, The Ontology and Status of Intellectuals in Arab Academia and Society, Ashgate, Gower Publishing, 2000; Scarcia Amoretti, Biancamaria, "Il ruolo politico e sociale dell'intellettuale", in: Cultura e potere nel mondo arabo, Dossier di Politica Internazionale, 1-2, 1989, p. 33-39؛ جورج طرابيشي، "المثقفون العرب والتراث"، لندن، رياض الريس، ١٩٩١؛ مراد وهبة "الشعب والمثقفون والتغير الاجتماعي" القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٨.

(١) انظر: Khalaf, Samir, "The Growing Pains of Arab Intellectuals", in: Diogenes, 54, Summer 1966, p. 60.

(٢) انظر: Aron, Raymond, The Opium of the Intellectuals, New York, Norton & Co. 1957, p. 206.

(٣) انظر: Khalaf, S., op. cit., p. 75-77. كذلك رأى ليب فرقاً بين المثقفين والإنتلجنسيا في "العالم والمثقف والإنتلجنسي"، سبق ذكره.

(٤) يوجد نص كلاسيكي ذو طابع محافظ عن شخصية المثقف وهو Benda, Julien, Il tradimento dei chierici, Torino, Einaudi, 1976 (الطبعة الأصلية ١٩٢٧). وفي مقال لامع ومثير للجدل نشر حديثاً، راجع البريطانيين جيريمي بينينجز و أنتوني كيمب-ويلتش "قرن المثقف" لتوضيح حدود مفهوم المثقف عند جوليان بندا=

Gramsci الواضح الذى يميز بين هؤلاء الذين يقومون بنشاط إبداعى حقيقى، وبين "المنظمين للثقافة"^(١). ويمكن كذلك تطبيق التفرقة الجرامشوية الشهيرة "بين المثقف التقليدى" و"العضوى" على العالم العربى بعد الحرب العالمية الثانية^(٢)، فيمكننا أن نعثر على المثقف التقليدى فى المثقفين التقليديين "رجال الدين" فى المؤسسات الثقافية الإسلامية والقومية، وعلى المثقف العضوى فى "الطبقة الجديدة" من التكنوقراط والبيروقراطيين التى نتجت عن الأنظمة العربية القومية التى أقرزتها عملية تصفية الاستعمار^(٣).

والذى استلهموه من اليمين أو اليسار على السواء. انظر "The Century of the Intellectual. From the Dreyfus Affair to Salman Rushdie" in Jennings, J. – Kemp-Welch, T. (eds), Intellectuals and politics. From the Dreyfus Affair to Salman Rushdie, London and New York, Routledge, 1997, p. 1-21. وتجدر الإشارة أيضا إلى مساهمات ريتشارد بيلامى فى نفس الطبعة Richard Bellamy, "The intellectual as social critic. Antonio Gramsci and Michael Walzer" alle p. 25-43 e di Martin Hollis, "What truth? For whom and where?", p. 289-299.

(١) انظر أنطونيو جرامشى Gli intellettuali e l'organizzazione della cultura, Roma, Editori Riuniti, 1977, p. 21-22.

(٢) انظر Ivi, p. 3-ss. بخصوص تأثير الفكر الجرامشى على العالم العربى انظر "جرامشى وقضايا المجتمع المدنى"، لعدد من المؤلفين، ندوة القاهرة، قبرص، دار عيال، ١٩٩١؛ غالى شكرى "إشكالية الإطار المرجعى للمثقف والسلطة"، الثقافة والمثقف فى الوطن العربى" لعدد من المؤلفين، المصدر السابق الذكر ص ٤٩ وما يليها؛ Brondino, Michele – Labib, Tahar (eds), Gramsci dans le monde arabe, Tunis, Alif/ Les Editions de la Méditerranée, 1994 مرتضى على، المصدر المذكور سابقا ص ١٠٧-١١١. انظر أيضا Said, Edward W., Dire la verità. Gli intellettuali e il potere, Milano, Feltrinelli, p. 19-20.

(٣) انظر أحمد صائق سعد، "دراسات فى الثقافة العضوية"، بيروت، دار الفارابي، ١٩٨٨.

وختاماً، حتى لو اعترفنا بالحدود الواقعية لاستقلال وتحرر المثقف من السلطة السائدة التي يميل إلى أن يكون "محكوماً بها"^(١)، فإننا لا نستطيع أن نغفل التعريفات الحماسية و"النضالية" لـ جان بول سارتر Jean-Paul Sartre و إدوارد سعيد Edward W. Said اللذين قاما بربط صورة المثقف في أوقات مختلفة وبطرق متباينة بـ "التمرد ضد قيم القوة التي تعبر عنها الأيديولوجية السائدة"^(٢).

على أي حال، ربما ينبغي توسيع التعريف من أجل القيام بتحليل مفهوم المثقف العربي بعد الحرب العالمية الثانية حتى يشمل على "كل الذين كان لهم دور في نشر الثقافة"^(٣) والذين شاركوا بنشاط في الجدل السياسي^(٤).

(١) انظر Pierre Bourdieu cit. in Ruocco, M., op. cit., p. 15.
(٢) بالنسبة لـ إدوارد سعيد انظر Said, Edward W., Dire la verità. Gli intellettuali e il potere, Milano, Feltrinelli, 1994.
انظر، على سبيل المثال، J. P. Sartre, Difesa dell'intellettuale, Milano, Bompiani, 1999 (ed. or. Paris 1972.), p. 43-67 (لترجمة العربية، بيروت ١٩٧٣)، بالنسبة للدور الرمزي لـ سارتر بالنسبة للمثقفين التقدميين العرب في الخمسينيات والستينيات، انظر على سبيل المثال لطفى الخولي "المثقفون والعمل السياسي"، "الطلعة"، العدد ٥ (مايو ١٩٦٧) ص ٣٠-٣٨ المكتوب بمناسبة زيارة سارتر و سيمون دي بوفوار لمصر في أبريل ١٩٦٧. انظر أيضاً مقال إدوارد سعيد Said, Edward W., Sartre and the Arabs: a footnote", al-Ahram Weekly, n. 482, 18-24, (May 2000) طبعة إلكترونية، حيث يدين فيها الناقد الفلسطيني بوضوح الموقف "الموالي للصهيونية بسذاجة" لـ سارتر. وانظر الفصل الثالث من هذه الدراسة.

(٣) انظر Khalaf, S., op. cit., p. 62.

(٤) يحتوى مقال مصطفى مرتضى على عرض دقيق وشامل يحل فيه الدراسات الأساسية عن المثقف التي صدرت في العالم العربي وخاصة مصر، انظر 'Ali, M., op. cit., p. 123-154.

٢: مولد المثقف المعاصر

أ: اللقاء مع الغرب

حدد اللقاء مع الغرب والذي تتم مطابقته عادة مع الحملة النابوليونية على مصر في ١٧٩٨^(١)، مولد نوع جديد من المثقف العربي، متشرب بالثقافة الأوروبية وذو ميول ليبرالية وعلمانية وميول معارضة للتقاليد. كما ينبغي إرجاع التوتر الذي بقي حتى الآن في العالم الثقافي العربي، بين قيم الثقافة التقليدية وما تملبه العقلانية والحدثة، إلى القرن الثامن عشر^(٢).

فقد بدأت الصورة الجديدة للأديب المتأورب الذي تشكل في الأكاديميات الفرنسية وعاد إلى الوطن تشكل بديلاً لرجل الدين التابع للمنهج الديني للبحث. ومع انتشار التعليم العالي والجامعي على النمط الأوروبي في بداية القرن التاسع عشر

(١) الدراسة التي رأت أن الحملة النابوليونية مثلت بداية النهضة العربية والتي أيدها جزء كبير من المستشرقين وعارضها الحيد من المتقنين العرب ومن بينهم لويس عوض وكذلك بعض الدارسين الأوروبيين مثل Hamilton Gibb. انظر Camera d'Afflitto, Isabella, Letteratura araba contemporanea. Dalla nahyah ad oggi, Roma, Carocci, 1998, p. 20-21; Awad, Louis, "Cultural and intellectual developments", in Vatikiotis, Panayotis J. (ed.), Egypt since the Revolution, London, Allen & Unwin, 1968, p. 144-145; Donini, Pier Giovanni, Il mondo islamico. Breve storia dal Cinquecento ad oggi, Roma-Bari, Laterza, 2003, p. 12-13.

(٢) انظر Khalaf S., op. cit., p. 61. بخصوص تأثير التراث الإسلامي على الفكر العربي المعاصر انظر، على سبيل المثال، Jabri, Mohammed Abed, La ragione araba, Milano, Feltrinelli, 1996؛ عزيز العظمة، "التراث بين السلطان والتاريخ" الدار البيضاء، دار القرطبة للطباعة والنشر، ١٩٨٧؛ جورج طرابيشي، المصدر السابق الذكر.

إلى جانب الدراسات التقليدية التي تمنحها الجامعات الإسلامية مثل الأزهر والزيتونة، صار من الممكن لكل خريج وبالتالي لكل تكنوقراطي أو بيروقراطي أن يحمل لافتة "متقف".

أما بالنسبة للعلاقة بين المثقفين والسلطة فإن من الضروري أن نعترف مع ج. ديلانو Delanoue G. بأنها "غامضة جدا في كل البلدان العربية تقريبا"^(١). وفي مجرى ما يسمى بالنهضة العربية، شجعت الحكومة وبالذات حكومة محمد علي في مصر، على نمو طبقة جديدة من المثقفين المتأوربين حتى تحقق إصلاحاتها، معطية الفرصة لمولد وعى قومي ولوصول الحداثة، بعد سنين الانحطاط تحت الحكم العثماني^(٢).

وفي مرحلة الاحتلال الأوروبي ساندت الدولة - التي استمرت في البقاء بشكل أو بآخر كما حدث في مصر - أو النخب القومية، الإنتلجنسيا الجديدة من أجل تنشيط الوعي القومي وإحياء المقاومة الثقافية والسياسية ضد الاستعمار الأجنبي. وقد أظهر المثقف العربي في هذا العصر طبقا لـ ديلانو "نزعة زندقة" جليلة^(٣). فإذا كان من جانب يعارض التغلغل السياسي للمستعمر الأوروبي فإنه من الجانب الآخر يخضع للجانبية التي لا تقاوم لحضارته. وهو يحاول اكتشاف "سر أوروبا" باحثا عن فهم سبب سبقها وتفوقها على العالم الإسلامي. ولم يخل مثل هذا البحث، الذي

(١) انظر Delanoue, Gilbert, "Presentation", in al-Bichri, Tariq et al., *Les intellectuels et le pouvoir: Syrie, Égypte, Tunisie, Algérie*, Le Caire, CEDEJ, 1986, p. 12.

(٢) اعترض الاقتصادي وعالم الاجتماع المصري سمير أمين في مقال حديث على هذه الرؤية مؤكدا أن النهضة لم تسهل وصول الحداثة إلى العالم العربي، بل قامت بإجهاضها. انظر Amin, Samir, "Islam, stato e società. Radiografia del mondo arabo", in la rivista del manifesto, n. 22, novembre 2001, p. 45-46.

(٣) انظر Delanoue, Gilbert, "Presentation", in al-Bichri, Tariq et al., op. cit., p.

قامت به شخصيات متقدة الحماس مثل جمال الدين الأفغاني، من مفارقات حيث تعرف هؤلاء على التفوق الأوروبي في العلمانية والثورة العلمية لكنهم شعروا أيضا بالخداخ الإمبريالي في هذه الحضارة الذي يدفعهم إلى الدفاع عن القيم التي تأسست عليها حضارتهم^(١).

وأخيرا، مع تصفية الاستعمار، صار دور المثقف العربي يجرى تهميشه بصورة متزايدة: أصبح الجزء الأكبر من المثقفين أمام خيار "الرقابة الذاتية الحذرة" أو خيار اتخاذ موقع أكثر راديكالية في مواجهة السلطة مستقطبين في تيار الإسلام للراديكالي أو التيارات المتعددة اليسار من القومي حتى التيار الماركسي.

وفي هذا المسار يتقابل "مصيران محتملان" للمثقف العربي المعاصر منذ عهد الاستعمار حتى اليوم، وهما المنفى والغربة^(٢). فإما الاختيار الحر أو الجبري لترك بلاده، وهي السمة التي صاحبت المسار الفني والسياسي لبعض كبار المثقفين العرب من شعراء مثل أدونيس و البياتي^(٣) وروائيين مثل عبد الرحمن منيف،

-
- (١) ٢٠: انظر Rodinson, Maxime, *Marxism and the Muslim World*, New York, Monthly Review Press, 1981, p. 67-68 (ed or. Paris, Seuil, 1972).
- (٢) انظر، على سبيل المثال، Avino Maria, "Il colonialismo e gli intellettuali arabi: l'esilio e la difesa dell'identità nazionale", in Ruocco, Monica (a cura di), *Migrazioni. Idee, culture, identità in Medio oriente e Nord Africa*, numero monografico di Meridione. Sud e Nord nel Mondo, III, F. Corrao عن أدونيس و ر. مارتيث ليو R. Martinez Lillo عن محمود درويش و ب. فيفياني P. Viviani عن خليل مطران و M. Ruocco عن محمد برادة و ب. جيورجيو P. Giorgio بخصوص الرواية العراقية المعاصرة و ف. أدابو F. Addabbo بخصوص الأدب النسائي السعودي والمعاد تجميعها في قسم "المنفى في الأدب العربي" p. 11-68 "L'esilio nella letteratura araba".
- (٣) انظر عبد الوهاب البياتي، "سيرة ذاتية: القيثارة والذاكرة"، لندن، البراز، ١٩٩٤.

وحتى الناقد إدوارد سعيد^(١) الذي تعتبر سيرته أمثلة على حياة جزء كبير من النخبة الفلسطينية، أو ربما العزلة في الداخل في مجتمعه ذاته مع ما يترتب عليه ذلك من غربة، وهو المصير المشترك للعديد من الكتاب والفنانين والمناضلين السياسيين، المجبرين على العمل في ظروف شديدة الصعوبة تقريبا في كل البلدان العربية التي نشأت من عملية تصفية الاستعمار.

ب: التيارات الثقافية في مصر بين القرن التاسع عشر والعشرين

تمثل التيارات الثقافية في مصر بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين، باستثناء بعض الخصوصيات، نموذجا للصراعات في العالم العربي بين طبقة المثقفين والسلطة وللتشرنم داخل الإنتلجنسيا^(٢).

(١) انظر السيرة الذاتية للمؤلف، Sempre nel posto sbagliato, Milano, Feltrinelli, 2000 (العنوان الأصلي: Out of Place, London, Granta, 1999).

(٢) بخصوص المثقفين في مصر انظر مصطفى عبد القوي، "المثقفون وعبد الناصر"، الكويت، دار سعاد الصباح، ١٩٩٣؛ مصطفى عبد الغني، "مثقفون وجواسيس"، القاهرة، دار الأمين، ١٩٩٧؛ إسماعيل صبري عبدالله، "المثقف والسلطة"، "الطلعة"، عدد تذكاري خاص (٢٠٠٠) ص ٥٤-٦٣؛ Gervasio, Gennaro, "Tra repressione e autocensura: intellettuali e politica in Egitto (1952-1967)", Gonzalez-Quijano, Yves, Les gens du, OM, XX, n. s. (2001) p. 329-349 livre. Édition et champ intellectuel dans l'Égypte républicaine, Paris, CNRS, 1998؛ عادل حمودة "عظمة المثقفين وثورة يوليو"، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٥؛ سماح إبريس، "المثقفون والسلطة" بحث في روايات الفترة الناصرية، بيروت، دار الآداب ١٩٩٢؛ صلاح عيسى "مثقفون وعسكر" القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٥؛ Jacquemond, Richard, Entre scribes et écrivains. Le champ littéraire dans l'Égypte contemporaine, Paris, Sindbad/Actes Sud, 2003؛ Makarius, Raoul, La jeunesse intellectuelle d'Égypte au lendemain de la deuxième Guerre mondiale, Paris, Ed. de l'EHESS, 1960؛ مصطفى مرتضى على، المصدر السابق الذكر؛ =Roussillon, Alain, Reforme sociale et identité :

وقد مُنح المثقفون المصريون في النصف الثاني من القرن الثامن عشر فرصة "تتوير استبداد" حكم محمد علي وإسماعيل باشا بفضل حرية البحث والتعليم بالتحديد والتي استطاعوا جعلها تثمر، وذلك بالإضافة إلى إمكانية الإقامة الطويلة في البلدان الأوروبية^(١). وعلى هذا النحو أرادت الحكومة المصرية الوليدة تأكيد تميزها الجوهرى عن الباب العالي والولايات العثمانية الأخرى سواء بسبب التراث الحكومى العريق ("مصر أم الدنيا") أو لوجود طبقة من المثقفين فى البلاط الخديوى يمثلون صفوة "الثقافة العربية الجديدة". وقد تلاقى فى القاهرة الألباء والفنانون من كل أنحاء الشرق ومن الإمبراطورية العثمانية بالذات^(٢).

وقد صارت هذه الطبقة الجديدة من المثقفين "طلبة موجّهة" للدولة الجديدة التى اعترمت بتقديم نفسها، كما اعترّم إسماعيل، كـ "ملحق لأوروبا فى أفريقيا"^(٣).

وفضل علماء الأزهر فى فترة "تتوير الاستبداد" (١٨٠٥-١٨٧٩) السماح بالإصلاح الخديوى بدلا من إظهار ولائهم للحكومة العثمانية باسم وحدة الأمة الإسلامية، سامحين بعلمنة جزئية للحياة الثقافية، دون معارضة للتدخل فى شئون البلاط. وفى مواجهة الإسلام الرسمى المتحالف مع الدولة صارت العديد من

=essai sur l'émergence de l'intellectuel et du champ politique modernes en Égypte, Casablanca, Fennec, 1998؛ غالى شكرى، *المثقفون والسلطة فى مصر*، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٩٠.

(١) بخصوص الإصلاحات الاجتماعية الاقتصادية لهذه الفترة، انظر ملخصا واقيا فى Toledano, Ehud R., "Social and economic change in the «long nineteenth century»" in Daly, M. W. (ed.), *The Cambridge History of Egypt*, vol. 2, Cambridge, Cambridge University Press, 1998, p. 252-284.

(٢) انظر، Minganti, Paolo, *I movimenti politici arabi*, Roma, Ubaldini, 1971, p. 11-13; Camera d'Afflitto, L., *Letteratura...*, cit., p. 22-24.

(٣) انظر Delanoue G., "Les intellectuels et l'Etat en Égypte aux XIX et XX siècles", in al-Bichri T. et al., op. cit., p. 73.

الطرق الصوفية، مدعومة بمساندة شعبية، تمثل ضمانات كبرى لخليفة إسطنبول ومعارضة للسلطة الخديوية^(١). وقد تأكد ولاء الأزهر للوطنية المصرية في أحداث الثورة العربية (١٨٨٢) وثورة سعد زغلول (١٩١٩) وفي إذعانهم ومساندتهم للرئيسية للحكم الناصري بعد ثورة ١٩٥٢.

أما فيما يخص التيارات الثقافية، فقد اتفق العديد من الدارسين على وجود مواجهة جذرية بين التيار العلماني الحديث والتيار الديني التقليدي حتى نهاية القرن الثامن عشر في مصر.

وقد وجد الناقد لويس عوض^(٢) في هذا الاستقطاب المبدئي بنور الانقسام التي أفسحت المجال في سياق القرن العشرين لمولد التيار الليبرالي والإسلامي الراديكالي والاشتراكي وهي التيارات التي كانت في مواجهة مع بعضها البعض ومع السلطة حتى ثورة ١٩٥٢ حين تم قمع هذه التيارات. وفي نظر لويس عوض يوضع في الخط نفسه مع متقنين مثل الشيخ الأزهرى رفاعة الطهطاوى^(٣) الإصلاح الإسلامى لمحمد عبده^(٤)

(١) لويس عوض، المصدر السابق الذكر، ص ١٤٥-١٤٦.

(٢) نفس المصدر.

(٣) رفاعة الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٣)، شيخ نشأ نشأة أزهرية، مؤسس دار الألسن بالقاهرة، والصانع الرئيسى لفكر النهضة الوطنية المصرية، ونشر أفكار الثورة الفرنسية، انظر: Camera d'Afflitto, I., Letteratura..., cit., p. 42-47; Vial, C., "Rifâ'a al-Tahtâwî (1801-1873), précurseur du féminisme en Égypte", in: Maghreb-Machrek, 87, 1980, p.37-ss سميح أبو حمدان الحديثة، "رفاعة رافع الطهطاوى رائد للتصحيح الأوروبى فى مصر"، بيروت، ١٩٩٢.

(٤) محمد عبده (١٨٤٩-١٨٠٥)، عالم دين، ومؤرخ للحركة السلفية، دعا إلى تجديد الإسلام عبر "الاجتهاد" بدلاً من التقليد، انظر: Adams, C. C., Islam and Modernism in Egypt: a Study of the Modern Reform Movement inaugurated by Muhammad 'Abduh, New York, Russel & Russel, 1968 Kerr, M. H., Islamic Reform: The Political and Legal theories of Muhammad 'Abduh and Rashid Rida..., Berkeley, University of California Press, 1966.

وتتوير طه حسين^(١) وليبرالية أحمد لطفى السيد^(٢) واشتراكية سلامة موسى الطوباوية^(٣). ومن ناحية أخرى يقع في خط واحد مع المحافظ أحمد فارس الشدياق^(٤) فكر حسن البنا^(٥) والتيارات الأخرى للإسلام للراييكالى^(٦).

-
- (١) طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣)، عميد الأدب العربى، ينتمى إلى المدرسة الفكرية لمحمد عبده و لطفى السيد، وأول مصرى يصبح أستاذا للأدب العربى بجامعة القاهرة، ويتمثل إسهامه الأساسى فى إدخال البعد التاريخى فى التاريخ الثقافى والنقد الأدبى العربى، وفى توجيه السياسة التعليمية فى مصر بحس وطنى وليبرالى، وفى هذا المجال، نشر كتابه المهم "مستقبل الثقافة فى مصر"، فى ١٩٤٤. انظر Camera d'Afflitto, I., Letteratura..., cit., p. 161-164; Gabrieli Francesco, "Taha Husayn, umanista egiziano", in: OM, XXX (1950), p. 81-83.
- (٢) أحمد لطفى السيد (١٨٧٢-١٩٦٣) منظر الشخصية الوطنية المصرية، مؤسس الليبرالية، أسس فى ١٩٠٧ "الجريدة" التى أصبحت لسان حال حزب الأمة المعتدل انظر Camera d'Afflitto, I., Letteratura..., cit., p. 168-169.
- (٣) سلامة موسى (١٨٨٧-١٩٥٨)، قبطى ملحد، مؤسس الاشتراكية المصرية، أسس فى ١٩٢٠ الحزب الاشتراكى المصرى مستوحيا نظريات سان سيمون أكثر من العقيدة الماركسية، عمله الأساسى "الاشتراكية" صدر فى ١٩١٣، انظر Contu, Giuseppe, "Gli aspetti positivi e i limiti del laicismo in Salamah Musà (1887-1958)", in Annali dell'Istituto Universitario Orientale, Napoli, vol. 40, suppl. 24, fasc. 3, 1980. انظر أيضا.
- (٤) أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤-١٨٨٧)، سورى من أصول مسيحية تحول إلى الإسلام، وانتقل إلى مصر، أصبح فى القرن التاسع عشر المدافع الرئيسى عن "ال خليفة العثمانى" على العكس من المواقف الوطنية للأزهر. Camera d'Afflitto, I., Letteratura..., cit., p. 47-50 e p. 66-70.
- (٥) حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩)، مدرس ابتدائى، المؤسس والمرشد العام للإخوان المسلمين منذ ١٩٢٨ وحتى وفاته، مؤيد لضرورة العودة إلى ينبائع لاستعادة قوة الإسلام فى مواجهة الليبرالية والماركسية، بخصوص الأدبيات الغزيرة عن البنا والإخوان المسلمين، انظر على سبيل المثال Kepel, Gilles, Le Prophète et Pharaon, Paris, La Découverte, 1984 e Mitchell, E. P., The Society of the Muslim Brothers, London- New York, Oxford University Press, 1969.
- (٦) كذلك يتفق الناقد غالى شكرى بشكل كبير مع لويس عوض فى تحليلاته رغم انطلاقه من منظور ماركسى. انظر المقال السابق الذكر "المتفقون والسلطة".

وبالتوازي مع أعمال التحديث، ينبغي التتويه بالدور المحوري الذي قام به المتفقون المصريون من أجل خلق الحس الوطني المصري^(١)، الذي تشكل في المقام الأول مع مجئ الاستعمار البريطاني (١٨٨٢). وفي نفس العام تزامن مولد الحركة الوطنية المصرية وثورة عرابي (١٨٤١-١٩١١) والوطنيين^(٢) مع بداية نشأة الحركة العمالية مع إضرابات آلاف عمال المناجم في بورسعيد^(٣).

وقد تحالف جزء كبير من الإنتلجنسيا المصرية الجديدة ذات التوجهات الليبرالية والإصلاحية مع حركة التحرر الوطني الوليدة، الأمر الذي خلق جدلا سياسيا واجتماعيا خصباً وجد مساحة له في صحافة نابضة بالحياة رغم أنها كانت ما تزال وليدة. والواقع أن للربع الأخير من القرن التاسع عشر شهد تأسيس العديد من المجلات المستقلة أو المرتبطة بالأحزاب السياسية الناشئة التي بدأت في الشكل حول الشخصيات الفكرية الكبرى لذلك العصر^(٤). وبين المطبوعات الكبرى التي ظهرت بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ينبغي أن نذكر على الأقل جريدة الأهرام التي تأسست في ١٨٧٥ في الإسكندرية على يد الأخوين اللبنانيين سليم و بشارة تكلأ، وجريدة "المقطم" التي تأسست في القاهرة في عام

(١) انظر العمل الكلاسيكي Ahmed, Jamal M., The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, London, Oxford University Press, 1960.

(٢) بخصوص "ثورة عرابي" انظر، على سبيل المثال، صلاح عيسى "الثورة العرابية"، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢.

(٣) عن تكوين الطبقة العاملة بمصر انظر Beinin, Joel- Lockman, Zachary, Workers on the Nile. Nationalism, Communism, Islam and the Egyptian Working Class, 1882-1954, Princeton, Princeton University Press, 1987, p. 23-43.

(٤) انظر Camera d'Afflitto, I., Letteratura..., cit., p. 27-36; Kudsi-Zadeh, A.A., "The Emergence of Political Journalism in Egypt", Muslim World, 80 (1980), p. 47-55; Kelidar, Abbas, "The Political Press in Egypt, 1882-1914", in Tripp, Charles (ed.), Contemporary Egypt: Through Egyptian Eyes, London, Routledge, 1993, p. 1-21.

١٨٨٩ والتي اتخذت مواقف تقدمية بوضوح في المجال الاجتماعي. وإذا كان نشاط هذه الصحف قد نما أيضا في ظل الاحتلال البريطاني، الذي كان موضوعها المفضل، فقد كان ذلك بفضل وجود العديد من المثقفين غير المصريين في صفوف المحررين والكتاب الخاضعين لنظام الامتيازات الأجنبية وبالتالي لم يكن من الممكن أن يمسه السلطان القضائي الاستعماري البريطاني^(١). ومن أجل تخطي مقاومة فرنسا المنافس التقليدي للندن في السعي إلى الهيمنة على مصر، أمنت الحكومة البريطانية احترام نظام الامتيازات الذي يستثنى المواطنين الأجانب ومحاسبيهم المحليين من التشريع الساري في البلاد^(٢).

وتشغل جريدة اللواء التي تأسست في ١٩٠٠ على يد المحامي مصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٠٨) الذي أصبح الناطق بلسان الجناح الأكثر راديكالية للحركة الوطنية المصرية والذي تجمع حوله كبار مثقفي العصر الذين طالبوا بجلاء القوات البريطانية وبأن تكون "مصر للمصريين"، موقعا خاصا في مجال الصحافة الوطنية. واشتملت المجموعة الملتقة حول اللواء، بين آخرين، على أحمد لطفي السيد و محمد فريد (١٨٦٨-١٩١٩)^(٣) ولفترة معينة على الخديوي الشاب عباس حلمي الثاني الذي تقارب هو ومصطفى كامل من خلال وجهة نظرهما المعادية لبريطانيا. ومن هذه النواة ولد في ١٩٠٦ الحزب الوطني، الذي أخذ اسمه وجزءا من برنامجه السياسي من الحركة العربية^(٤). ولولا شخصية مصطفى كامل القيادية

(١) انظر Meijer, Roel, *Secular Liberal and Left-Wing Political Thought in Egypt, 1945-1958*, London, RoutledgeCurzon, 2002, p. 14-16.

(٢) عن نشأة وتطور نظام الامتيازات انظر Lutsky, Vladimir, *Storia moderna dei paesi arabi*, Milano, Teti, 1975, p. 27-28.

(٣) انظر Corrao, Francesca Maria, *La rinascita islamica. Il nazionalismo di Muhammad Farid*, Palermo, Quaderni del Laboratorio Antropologico Universitario, 1985.

(٤) انفصل لطفي السيد مبكرا عن المجموعة متخذاً مواقف أقل راديكالية ذات انحياز بريطاني متزايد، أسس في ١٩٠٧ حزب الأمة. وفي نفس العام أسس البلاط منبره =

وشعبيته لما نجح الحزب الوطني في أن يكون أكثر من نادٍ للمتقنين حتى وإن كان هؤلاء مهتمين بمشاكل الجماهير. وقد أدخلت وفاة المؤسس المفاجئة في فبراير ١٩٠٨ وقمع السلطات البريطانية مع اقتراب الحرب العالمية الثانية، الحركة الوطنية المصرية في مرحلة جزر.

وحتى إذا لم نرغب في محاولة تحليل الجدل السياسي والثقافي حول ما يطلق عليه "المرحلة الليبرالية" (١٩٢٢-١٩٥٢)^(١) يجب أن نذكر بأن نشاط المتقنين و بالذات الوفيين والسعديين المزدهر على صفحات المجلات القديمة أو الجديدة كان من الملاحظ فيه ظهور ميول نسوية وما قبل نسوية^(٢).

وكما مهدت المعاهدة مع بريطانيا في ١٩٣٦^(٣)، لنهاية الحركة الوطنية الليبرالية المصرية فقد رسمت الخط الفاصل الأول في تاريخ الثقافة المصرية في هذا القرن. ودفعت الصدمة الشديدة التي تلت التسوية الجزء الأكبر من المتقنين الوطنيين المنادين باستقلال حقيقى وبالسيادة إلى معارضة متطرفة^(٤).

=الخاص مع تأسيس حزب الإصلاح. انظر Lutsky, V., op. cit., p. 262-263; Daly, M. W., "The British occupation, 1882-1922" in Idem (ed.), op. cit., p. 244-245.

(١) من أجل إعادة تفسير موجزة وواقية انظر Beinin, Joel, "Egypt: society and economy, 1923-1952", in Daly, M. W. (ed.), op. cit., p. 309-333.

(٢) انظر Camera d'Afflitto, L., Letteratura..., cit., p. 182-ss.

(٣) فيما كان الجانب الأكبر من المتقنين ينتظر الجلاء القريب لقوات الاحتلال، قررت المعاهدة إعادة نشرها في منطقة القتال محافظة على الحق البريطانى في "الدفاع عن الأرض المصرية"، انظر الترجمة الإيطالية للمعاهدة في OM, XVI (1936), p. 652-666.

(٤) انظر Awad L., op. cit., p. 152.

وقد العديد من هؤلاء ثقتهم في الأحزاب الليبرالية التقليدية مفضلين الدخول في منظمات سرية مثل التيارات شبه الفاشية^(١)، والإخوان المسلمين والحركة الشيوعية الوليدة^(٢). وكان الاختيار الأسهل بالنسبة للكثيرين هو الانضمام للمنظمات شبه الفاشية والإخوان المسلمين، وذلك لأن الجزء الأكبر من الإنتلجنسيا كان من الطبقة البرجوازية الصغيرة والمتوسطة وكذلك لأنهم رأوا في النظامين الحاكمين في إيطاليا وألمانيا حليفين ثمينين ضد الإمبرالية البريطانية^(٣).

٣: نشأة الاشتراكية والماركسية في مصر

بعد التخمير السياسي والثقافي الذي تلا السنوات المضطربة للحرب العالمية ومع ولادة أو إعادة ولادة الحركات الوطنية والتي بدأت في كل المشرق في نشر الأفكار الاشتراكية، في المقام الأول في أوساط النخبة الحضرية الكوزموبوليتانية المثقفة المصرية والشامية وبين العمال المتخصصين بالذات ذوي الأصول الأوروبية. ورغم الدور التاريخي للأحزاب والحركات العنصرية ذات الروح

(١) أسس أحمد حسين و فتحي رضوان في عام ١٩٣٣ حركة "مصر الفتاة" ذات التوجه الإسلامي وشبه الفاشي والتي انضم إليها جمال عبد الناصر في شبابه. انظر Minganti, P., I movimenti politici arabi, cit., p. 31-ss.; Jankowski, James, Egypt's Young Rebels "Young Egypt", Stanford, Hoover Institute Publications, 1975.

(٢) بخصوص بحث للحركة الماركسية المصرية في نهاية أعوام الثلاثينيات انظر أدناه.

(٣) انظر Smith, Charles D., "The «Crisis of Orientation». The shift of Egyptian Intellectuals to Islamic Subjects in the 1930s", LMES, 4 (1973), p. 382-410. بخصوص موقف جزء من المثقفين المصريين في المواجهات مع الفاشية والنازية انظر Ayalon, Ami, "Egyptian Intellectuals versus Fascism and Nazism in the 1930s", in Dann, Uriel (ed.), The Great Powers in the Middle East 1919-1939, New York, Holmes & Meier, 1988, p. 391-404.

للماركسية، هذا الذي أُعتبر ثانويا في أغلب الأحيان، إلا أنها شكلت المنظمات الأولى التي اتخذت لها شكلا تنظيميا محددا في الشرق العربي كما اتخذت "دورا محوريا في تشكل ونمو الحياة السياسية والأيدولوجية في العالم العربي الحديث"^(١).

وليس من الممكن في سياق هذا البحث تتبّع تطور الحركات الاشتراكية والشيوعية العربية بشكل كامل غير أن من المهم أن نشير إلى بعض المعطيات المشتركة في نشأة هذه المنظمات. ففي البداية انبثقت هذه المنظمات في دوائر المثقفين ذوي النمط الأوروبي أو ذوي الأصول الأوروبية، كما في مصر وفلسطين، حيث شكلت عناصر من الأقلية اليهودية دور الطليعة في نشر الأفكار الاشتراكية. كما "استحوذت عليها" تقريبا في فترة نشأتها أسطورة "النقاء للعقائدي"^(٢) وخضعت بشكل عقائدي لإملاءات الأممية الشيوعية (الكومنترن) التي لم تراع الخصوصية الثقافية والدينية ولا اللحظة التاريخية الخاصة بالبلدان العربية مما أفسح مجالا ضيقا للحركة والتطوير الأكثر أصالة. وختاما، من الضروري أن ننوه قبل تركيز انتباهنا على تاريخ الحركات اليسارية المصرية، بوجود تعاون وتواصل حميمين بين المجموعات في مصر وفلسطين وسوريا ولبنان ويعود هذا أيضا إلى سهولة تنقل المناضلين في هذه الولايات العثمانية السابقة^(٣).

(١) انظر، Salem, Paul, Bitter Legacy. Ideology and Politics in the Arab World, (١٩٩٤، Syracuse University Press, 1994, p147.

(٢) انظر، Ibidem, p. 150.

(٣) توفر دراسة كلاسيكية صورة مختصرة عن تطور الشيوعية في المشرق وهي Agwani, Mohammed S., Communism in the Arab East, London, Asia Publishing House, 1969، وتصف تاريخ الحركات في مصر، ولبنان، وسوريا، والعراق، والأردن، وفلسطين، وقد اتخذ مقال حديث لـ عبد الله التركماني بعنوان "الأحزاب الشيوعية في المشرق العربي"، بيروت، مركز الآن، ٢٠٠٢، نفس مقاربة عجواني، حيث توجه الاهتمام إلى سوريا والعراق، والعلاقة بين القومية والشيوعية. انظر أيضا العمل للرائد لـ والتر لاكور Laqueur, Walter Z., Comunismo e nazionalismo nel Medio Oriente, Roma, Opere Nuove, 1959، حيث =

أ: المسائل الخاصة بالتعريف وتقسيم المراحل

لكي نتتبع تاريخ تطور الحركة الماركسية في مصر ينبغي مواجهة بعض الأسئلة المبدئية.

في البداية اتفق المناضلون أنفسهم مع التأريخ المصري والعربي والغربي على تفضيل تعريف الحركة أو الحركات على الحزب أو الأحزاب^(١). ويبدو أن ذلك يؤكد أيضا اختيار الكثير من المجموعات، بما فيها الكبيرة منها، على تسمية نفسها بالحركة وليس الحزب. كما أن أي قراءة لمسيرة الشيوعية المصرية مهما كانت سطحية تظهر درجة شديدة من التفتت والتعددية في المجموعات المكونة أساسا من متقنين أوروبيين أو ذوي ثقافة أوروبية، والتي كانت تتنافس مع بعضها البعض منشغلة عادة بخلافات عقائدية^(٢).

وقبل كل شيء كان هذا الميل المتواتر إلى الانقسام الداخلي، العلامة المميزة للماركسية المصرية منذ العشرينيات وإلى يومنا هذا، هو ما يبرر هذا الميل إلى استخدام مصطلح "الحركة" محل مصطلح "الحزب". والحقيقة أنه حتى إذا كان

يخصص الكاتب فصلا لكل من مصر، والسودان، وإسرائيل، والأردن، وسوريا، ولبنان، والعراق، وتركيا، دون محاولة وصف ملخص الصورة. ختاماً نتذكر أول محاولة إعادة بناء للتاريخ تصدر من داخل اليسار العربي نفسه وهي إلياس مرقص "تاريخ الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي"، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٤.

(١) رفعت السعيد في مقابلة شخصية مع المؤلف القاهرة ٢ مايو ٢٠٠٠، وانظر Laqueur, W. Z., op. cit., p. 51.

(٢) وعلى سبيل المثال فقط، تذكر دراسة حديثة وقيمة للشهادات صدرت عن لجنة توثيق الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥ من مركز الدراسات العربية بالقاهرة (مركز البحوث العربية) ٤١ منظمة ماركسية مختلفة في الفترة بين عام ١٩٢٠ وعام ١٩٦٥. انظر: عاصم الدسوقي، فخرى لبيب، "شهادات ورؤى من تاريخ الحركة الشيوعية في مصر - الجزء الأول" القاهرة، مركز البحوث العربية (وبالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية حتى ١٩٦٥)، ١٩٩٩ ص ٢٢٧-٢٣٠.

واضحاً في المرحلة الأخيرة للحركة (من ١٩٦٧ وما تلاها) وهي الموضوع المحدد لهذا البحث، تفضيل مصطلح "الأحزاب" إلا أن المناضلين الأفراد يعرفون كل المنظمات في مجموعها "بالحركة الثالثة" أو "المرحلة الثالثة" للحركة الماركسية.

وترتبط مسألة التسمية المصطلحية ارتباطاً وثيقاً بمسألة التقسيم الزمني للمراحل، والتي دار بشأنها جدل كبير. وفي الواقع يميز الجزء الأكبر من المناضلين الماركسيين المصريين، مؤيدين برأى المؤرخ "الرسمي" اليسار المصري رفعت السعيد، ثلاث مراحل أو حركات في تاريخ الشيوعية في مصر. ووفقاً لهذه الرؤية تتزامن المرحلة الأولى مع المنظمات الصغيرة في العشرينيات التي نشأت وانتشرت سريعاً، والثانية في المجموعات العديدة التي نشأت في الأربعينيات وحتى الحل الذاتي لتلك التي استمرت في البقاء حتى ١٩٦٥ من أجل الانضمام إلى الحزب الواحد والمؤسسات الناصرية، بينما تتفق المرحلة الثالثة مع اليسار الجديد الذي نشأ بعد النكسة والتي ما تزال ممتدة إلى الآن.

من الواضح أن هذا التقسيم مبنى على أجيال النشاط أكثر من كونه مبنياً على الأفعال السياسية المحددة، إلى درجة أن المؤرخين غير المصريين حتى وإن كانوا ينتمون إلى دائرة الماركسية، يتبنون وإن كان ذلك على الأقل بشكل غير جازم، على سبيل المثال، ربط الخبرات الثورية للمجموع في الأربعينيات مع خبرة الدعم التام الذي منحه جزء كبير من الماركسيين للنظام الناصري رغم القمع في الخمسينيات والستينيات^(١). ولهذا فإن من المفضل في هذا البحث أيضاً أن نتجنب التقسيم الكلاسيكي وأن نفرّد قسماً خاصاً للتجربة الماركسية في عهد عبد الناصر.

ولكى نستكمل الجدل بخصوص التقسيم الزمني للحركة الماركسية ينبغي أن نتذكر الموقف الذي انطلق منه المتقنون التروتسكيون، وإن كانوا أقلية من اليسار

(١) انظر، على سبيل المثال، Salem, P., op. cit., p. 150.

المصري، حيث عارضوا التقسيم السابق الذكر وحددوا الخط الفاصل في المسيرة الشيوعية المصرية ليس بقرار الحل الذاتي في ١٩٦٥ ولكن بانتهاء الوصاية السوفيتية على الحركة بانهيار الاتحاد السوفيتي^(١).

ب: دور الأقليات: نشأة وقمع "الحركة الشيوعية الأولى"

سبق اهتمام المتقنين بالأفكار الاشتراكية وإنشاء حركة عمالية شبه منظمة في مصر كما في الولايات العربية الأخرى التابعة للإمبراطورية العثمانية، انتصار الثورة البلشفية في روسيا بسنوات عديدة. ففي المجال النقابي قدم العمال المتخصصون الأجانب بالذات من اليونانيين والإيطاليين والأرمن واليهود^(٢)،

(١) انظر بشير السباعي، "ماركسية أم ستالينية"، في نفس المصدر "مرايا الإنتلجنسيا"، الإسكندرية، دار النيل، ١٩٩٥، ص ٨٩. وفي جدل معن مع رفعت السعيد يقسم الكاتب، وهو مؤسس العصبة التروتسكية في أعوام السبعينيات، الحركة الماركسية المصرية لمرحلة أولى تغطي أعوام العشرينيات، وحركة ثانية منذ نهاية الثلاثينيات حتى ١٩٨٩، وحركة ثالثة تبدأ بعد سقوط "الدولة الستالينية للاتحاد السوفيتي".

(٢) بخصوص تاريخ ودور هذه الأقليات انظر Donini, Pier Giovanni, Le minoranze nel Vicino Oriente nel Maghreb. Problemi metodologici e questioni generali, Salerno, Laveglia, 1985; Idem, Le minoranze, Milano, Jaca Book, 1998; Bengio, Ofra- Ben-Dor, Gabriel (eds), Minorities and the State in the Arab World, Boulder, Lynne Rienner, 1999. وعن الأقليات في مصر انظر Krämer, Gudrun, The Jews in Modern Egypt 1914-1952, London, I. B. Tauris, 1989 Pizzo, Paola, L'Egitto agli egiziani!, Torino, Zamorani, 2003 و المخصص لدور المجتمع المسيحي المصري في نشأة الفكرة الوطنية. تبعاً لبنتين و لوكمان Benin e Lockman (1987, p. 35) أقام في مصر في عام ١٩٠١ حوالي ١٤٧٠٠٠ أوروبي (منهم ٦٣٠٠٠ يوناني و ٣٥ ألف إيطالي) و حوالي ٣٤ ألف من منطقة سوريا وفلسطين (الشام)، و ٧٧٠٠ أرمني، و ١٨٠ ألف سوداني، وعلى الأقل ٣٠ ألف يهودي من أصول مختلفة.

للموظفين فى شركة قناة السويس وأحواض بناء السفن فى الإسكندرية وغيرها، الأفكار الاشتراكية فى منظماتهم قبل - النقابية؛ وإن كان علينا أن نذكر أن أنشطة هذه المنظمات نادرًا ما كانت موجهة إلى العمال المصريين؛ بل على العكس فضل هؤلاء القادة النقابيون مثل سكوفوبولوس Skouphopoulos اليونانى، فى كثير من الأحيان، اعتبار مؤسساتهم أقسامًا خارجية للمنظمات السياسية والنقابية فى الوطن الأم. وعلى أى حال فقد شهدت السنوات الأولى للحرب العالمية الأولى العديد من الإضرابات تركزت أساسًا فى العاصمة والإسكندرية ومدن القناة مؤدية إلى إضفاء طابع جذرى على الحركة العمالية التى بدأت فى تمصير نفسها بشكل مطرد حتى أيام ثورة سعد زغلول بسبب الرحيل المفاجئ للعديد من الأجانب إلى الجبهة.

وفى الثورة الوطنية، لعب العمال دورًا مهمًا كما أظهر الإضراب الكبير فى قطاع المواصلات الذى أغلق القاهرة والإسكندرية فى أغسطس ١٩١٩، ولذى اتحد فيه للمرة الأولى الأجانب مع أبناء البلد بنفس الدافع الذى وحد بين المشاعر المعادية لبريطانيا والمطالب للعمالية البحتة التى تتضمن مساواة المراتب بين العمال الأجانب والمصريين^(١).

والرأى أن الجناح العمالى للحزب الاشتراكى الناشئ انبثق من تجربة إضرابات ١٩١٩ وقد سبقت تأسيسه "مجموعات الدراسات الاشتراكية" التى نظمها وأدارها اليونانيون واليهود وأشهرها "كلارتيه" Clarté التى تأسست فى الإسكندرية فى ١٩٢٠.

وفىما يتعلق بالأحداث الاشتراكية فى المجال الثقافى يعتقد المؤرخ رفعت السعيد أن أول النصوص الاشتراكية المكتوبة المنشورة فى مصر باللغة العربية نص باسم مجهول بعنوان "الاقتصاد السياسى" ظهر فى ١٨٩٠ على صفحات

(١) انظر Ibidem p. 88-106.

جريدة المؤيد^(١). وفي هذا النص يعرض الكاتب بشكل مبسط أسس العقيدة الماركسية ويؤكد أن الشيوعية يمكن أن تكون وسيلة مثلى لتحقيق العدالة للشعوب "الشرقية" أيضا^(٢).

بعد هذه الحادثة الفردية، كان الطلاب المصريون الموفدون للدراسة في أوروبا هم من بدأوا في نشر الأفكار الاشتراكية إثر عودتهم في بداية العقد الأول من القرن العشرين. ونظرا لأن هؤلاء الشباب شكلوا جزءا من الطبقات الميسورة فقد اقتربوا من الأشكال غير الراديكالية من الاشتراكية خاصة طبعة الجمعية الفابية البريطانية للاشتراكية، التي نبنت الصراع العنيف بين الطبقات ورمت إلى إقامة الاشتراكية بطرق سلمية. وتعتبر الشخصية الأكثر أهمية في هذه المجموعة القبطي سلامة موسى^(٣)، الذي قام بتعريف جزء كبير من المثقفين المصريين والعرب بالفكر الاشتراكي. وفي المقال القصير ذي العنوان البسيط "الاشتراكية" والمنشور في القاهرة في ١٩١٣ أكد الكاتب الشاب في تناغم مع الفكرة الفابية أن إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج هي الخطوة الضرورية الأولى نحو تحرر الفرد. وقد تمثل هدف سلامة موسى في كتاباته في أن يعرض بأقصى درجة من

(١) انظر رفعت السعيد تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر ١٩٠٠-١٩٢٥، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٥. عن أصول الحركة الشيوعية في مصر، انظر Botman, Selma, The Rise of Egyptian Communism 1939-1970, Syracuse, Syracuse University Press, 1988, p. 1-16; Ismael, Tareq Y. -El-Sa'id, Rif'at, The Communist Movement in Egypt 1920-1988, Syracuse, Syracuse University Press, 1990, p.1-36; Laqueur, W. Z., op. cit., p. 51-67; Agwani, M. S., op. cit., p. 3-9. الحركة الشيوعية المصرية: رؤية تحليلية نقدية، عدد خاص من "قضايا فكرية"، العدد (٢١ يوليو ١٩٩٢) ص ٢١-٥٨.

(٢) رفعت السعيد، تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر" المذكور سابقا. هنا نشير إلى أن الكاتب اضطر في غياب مكافئ عربي للمفردة لاستخدام الكتابة الصوتية "كوميونيزم". بخصوص تشكل المعجم الماركسي بالعربية، انظر القسم التالي في البحث الراهن.

(٣) انظر الإشارة ٣٤ في هذا الفصل.

الوضوح علاقة الاستغلال التي مثلت قاعدة النظام الطبقي في مصر حيث تحالفت أقلية صغيرة من ملاك الأراضي مع رأس المال العالمي من خلال السلطة الاستعمارية موقعة الشعب كله تحت نير الاستعباد. لكن مهما شكلت تحليلات سلامة موسى أهمية أساسية للنمو المستقبلي للعقيدة الاشتراكية في مصر والعالم العربي كله فلم تكن هي العمل الأول الماركسي حقاً.

على العكس كان العمل الأول الذي يمكن إرجاعه للفكر الماركسي المصري منشوراً في ١٩١٥ من قبل مصطفى حسين المنصوري (1890-؟) وهو باحث شاب لم يكن قط في أوروبا غير أنه كان على اتصال بكتابات ماركس من خلال الترجمات الأولى والدوائر الثقافية للأجانب المقيمين في مصر^(١). وقد مثل العمل المعنون باسم "تاريخ المذاهب الاشتراكية" المحاولة الأولى في هذا البلد الشمال-أفريقي التي تصف بشكل بسيط فكر ماركس مع محاولة توضيح بعض النقاط المثيرة للجدل التي يطرحها الإسلاميون المحافظون ضد الماركسية^(٢). وأكد المنصوري بصورة خاصة أن الأممية الماركسية لم تتعارض مع حب الوطن ومع عالمية الإسلام؛ وبعد ذلك طرح الباحث على نفسه مشكلة تحقيق الأفكار الاشتراكية في مصر وصرح بأن الفكر الماركسي ليس مصنوعاً من مبادئ جامدة بل من مبادئ يمكن تعديلها وفقاً لظروف البلدان المختلفة. وفي خاتمة الكتاب يطرح المنصوري برنامجاً تقريبياً للحزب الاشتراكي المستقبلي الذي لم تكن الظروف قد نضجت بعد مع ذلك لتأسيسه. ومن اللافت للنظر أنه إلى جانب موضوع إصلاحات الحكم بالمفهوم الماركسي اتجه الاهتمام إلى تحسين أوضاع النساء والأطفال^(٣).

(١) انظر الأجزاء المقتبسة من العمل في رفعت المعبود، أرشيف اليسار، سيرة ذاتية لمناضلي اليسار، القاهرة، العربي، ١٩٩٩، ٦٦-٧٠. بخصوص المنصوري انظر أيضاً، بشير السباعي "مرايا .."، المصدر السابق الذكر، ص ٧٧-٨٣.

(٢) بدأ رشيد رضا -الحواري الرئيسي لـ محمد عبده- في عام ١٩١٠ ينشر في مجلة "المنار" التي كان يرأسها كتاباته العديدة المضادة للاشتراكية مستخدماً في ذلك أشد القوالب المكررة سطحية.

(٣) انظر الترجمة الإنجليزية للبرنامج في Ismael, T.Y.- el-Sa'id, R., op. cit., p. 159-162.

وقد أفضى اتجاه جزء كبير من الإنتلجنسيا فى سنوات الحرب العالمية الأولى إلى أن تكون أكثر راديكالية إلى مولد الخلايا الاشتراكية الأولى المنظمة فى القاهرة والتي بدأت فى توثيق الصلات بـ "جماعات الدراسات" التى أحيها القادة النقابيون الراديكاليون فى الإسكندرية حتى تأسيس الحزب الاشتراكي المصري فى ١٩٢١. ونُشر برنامج "ح. ا. م" فى الأهرام فى ٢٩ أغسطس ١٩٢١ ووقعه سلامة موسى وثلاثة متقنين آخرين من تيارات اشتراكية مختلفة: على الغناني وعبد الله عنان وحسنى العرابي. لكن المؤسس الأكبر للحزب وهو للصائغ اليهودي ذو الأصول الروسية جوزيف روزنتال Joseph Rosenthal^(١) لم يكن ضمن الموقعين. وكان روزنتال قد وصل إلى مصر فى ١٨٩٩ أو ١٩٠٠ حاملا الجنسية الإيطالية^(٢) التى استبدل بها الجنسية المصرية بعد ذلك مكرسا نفسه لنشر الأفكار الاشتراكية بين العمال السكندريين. وبعد نجاحه فى التوفيق بين الفئتين الأوروبيين والعمال المحليين وفى تنظيم العديد من الإضرابات أثناء وبعد الحرب أسس نقابة ذات طابع اشتراكي بشكل واضح هي "الاتحاد العام للعمل" (CGT)^(٣).

من الثابت أن جناحا أكثر اعتدالا يمثلته موسى والمجموعة الثقافية القاهرية وجناحا "راديكاليا" وهو الذى طابق نفسه دائما مع البلشفية والذى تشكلت قيادته من قيادات العمال الأجانب فى الإسكندرية تعايشا فى "ح. ا. م". وربما بسبب هذا الدافع انطوى البرنامج المنشور فى ١٩٢١ على العديد من التناقضات والنواقص. أولا، لم يكن برنامج "ح. ا. م" فى المسألة الوطنية مميزا عن نظيره للوفدى من حيث المطالبة بطرد القوات الإمبريالية من البلاد ووحدة وادى النيل وإلغاء المعاهدات السرية. وعلى المستوى العقائدى، يخلص البرنامج - بعد تقديم النقاط

(١) للحصول على سيرة ذاتية مختصرة لـ روزنتال، انظر رفعت السعيد، أرشيف... المنكور سابقا ص ٥٨-٦٥.

(٢) انظر Botman, S., The Rise..., cit., p. 2.

(٣) انظر Beinin, J.-Lockman, Z., op. cit., p. 139.

الكلاسيكية للبرنامج الاشتراكي - إلى أن الحزب يريد تحقيقها بدون الصراع العنيف للطبقات. وقد أدت رغبة أغلبية الأعضاء في الانضمام إلى الكومنترن إلى خروج موسى وجزء كبير من المجموعة القاهرية إلى درجة أنه تقرر نقل مقر المنظمة إلى الإسكندرية.

ورغم أن هذا يعتبر انقساماً لأفراد قليلين فإن انسحاب المجموعة المعتدلة دمج الحركة الماركسية بسمة للتشردم التي ستصبح في العقود التالية السمة المميزة والقيد الأساسي للماركسية المصرية.

وفي نهاية عام ١٩٢٢، عندما تمت دعوة العراقي إلى موسكو لطلب الاعتراف من الكومنترن^(١)، كان الحزب تحت قيادة روزنتال وأنطون مارون المحامي ذى الأصول السورية. وجاء ميل المجموعة الراديكالية إلى منح الأولوية للبرنامج الأممي والمعادي للرأسمالية على البرنامج الوطني المعادي للإمبريالية والذي اتفق مع مبادئ الكومنترن للنقاء الأيديولوجي، على حساب تفاعل كبير مع فترة الحماس الوطني. وبعد أن تم تمثيل هذا الجناح في المؤتمرات الأولى في السنتين التاليتين للثورة باعتباره تحالفاً بين الماركسيين والبرجوازية الوطنية، استقر الأمر في المؤتمر الرابع (١٩٢٢) على العكس من ذلك؛ على أن الشيوعيين في "الدول الناشئة" يجب أن يهدفوا إلى الثورة الاجتماعية والاستيلاء على السلطة حيثما أتيح لهم ذلك دون التحالف مع الحركات الوطنية ذات الطابع البرجوازي^(٢).

(١) عن نشأة وتطور الكومنترن، انظر Claudin, Fernando, The Communist Movement: from Comintern to Cominform, London, Peregrine Books, 1975; Mc Dermott, Kevin - Agnew, Jeremy, A History of International Communism from Lenin to Stalin, London, MacMillan Press, 1996.

(٢) كان موقف الحزب الشيوعي المصري مناقضاً لنصوص لينين في المؤتمر الثاني للكومنترن (١٩٢٠) التي تنص على "أن من الضروري في الدول المستعمرة والمتخلفة التحالف مع القوى للديموقراطية والبرجوازية"، واعتمد على معارضة=

وربما كان ينبغي أن تذكر هنا أن دول الشرق الأوسط لم تجذب اهتمام القيادة السوفييتية التي اهتمت بشكل أكبر بالهند والصين. ففي مؤتمر شعوب الشرق الذي عقد في باكو من ١ إلى ٧ سبتمبر ١٩٢٠ مثل ثلاثة متحدثين عرب فقط حوالي ١٥٠٠ مشترك^(١).

ومن أجل الانضمام إلى الأممية الشيوعية كان ينبغي على "ح. ا. م" قبول "الواحد وعشرين شرطا" الشهيرة وبالتحديد تغيير اسمه من "ح. ا. م" [الحزب الاشتراكي المصري] إلى الحزب الشيوعي المصري، واستئصال العناصر المنحازة إلى اليمين وهو الأمر الذي أدى إلى إقصاء روزنتال نفسه الذي عبر بما يرقى إلى مرتبة أعلى من الشك عن تشككه في فائدة تبني الخط "البيوريتاني" الذي تمليه موسكو على السياسة المصرية التي تسودها المشاعر الوطنية التي يعبر عنها الوفد.

وكان البرنامج الجديد للحركة الذي تم تبنيه في بدايات ١٩٢٣ أكثر راديكالية وتطرفا بكثير من البرنامج القديم لـ "ح. ا. م" وصولا إلى إعادة المطالبة بتأميم قناة السويس في الوقت الذي اكتفى فيه القادة الوفديون بالمطالبة بإخلاء القناة من الأسلحة الأجنبية. كذلك اقترح "ح. ش. م"، في المجال الاقتصادي والاجتماعي، برنامجا سياسيا متقدما للغاية خاصة ذلك الخاص بحقوق النساء والمواطنين. وقد طالب الشيوعيون بإسقاط كافة الديون عن جميع الفلاحين الذين

=المنسوب الهندي روى وقد عارض هذا الأخير رأي القائد السوفييتي مؤكدا أنه في العديد من الدول المستعمرة ومن بينها الهند كانت القوى البورجوازية متواطئة ومتحالفة مع القوة المحتلة مما يجعل من المستحيل عقد أي نوع من التحالف معها. انظر، Lazitch, Bruno – Drachkovitch, Milorad, Lenin and the Comintern, 1972, 1968 ; Collotti vol. 1, Stanford (CA), Hoover Institution Press, 1972, 1968 Pischel, Enrica - Robertazzi, Chiara (eds), L'internationale communiste et les problèmes coloniaux 1919-1935, Paris, Mouton, p.385-389 .Ibidem, p. 42 (١)

يمتلكون أقل من ٣٠ فدانا والإعفاء الشامل من الضرائب لمن يمتلكون ما لا يزيد عن عشرة أفدنة^(١). وبرغم أن البرنامج كان متطرفا جدا ولم يجتنب للحزب الوليد أعضاء كثيرين فقد لعب دورا جوهريا في المجال العمالي والنقابي في الإسكندرية وصولا إلى السيطرة على الاتحاد العام للعمال وتنظيم العديد من الإضرابات أثناء عام ١٩٢٣. وكما يذكر المؤرخ أمين عز الدين، ففي هذا العام استطاع الاتحاد العام للعمال أن يعتمد على ٢٠٠٠٠ عضو^(٢)، وهو الأمر الذي أفزع السلطة الاستعمارية مما دفعها إلى توزيع نسخ من الفتوى الصادرة في ١٩١٩ عن الشيخ محمد بخيت مفتي مصر والتي أعلن فيها تحريم البلشفية^(٣).

أدى انتشار هذا المنشور إلى تأثير معاكس للمتوقع منه حيث أراد العديد من العمال وبخاصة المصريين أن يتحدثوا للمرة الأولى عن الشيوعية والبلشفية مقررين أن يقتربوا من هذه العقيدة. وقد أدى كل هذا إلى مولد جدل عن العلاقة بين الاشتراكية والدين، وأعطى لمناضلي "ح. ش. م" والمتقنين الاشتراكيين المستقلين مثل سلامة موسى فرصة أن يتخطوا الحدود الضيقة لنشراتهم الدعائية والنظرية ويصلوا إلى صفحات الصحافة القومية الكبرى. وفي ١٩٢٤ مع وصول سعد زغلول إلى السلطة وتكثيف الدستور الذي وضع حدودا صارمة على الأنشطة السياسية والنقابية، قرر "ح. ش. م" أن يستمر على خطه المعادي للرأسمالية مقاطعا الانتخابات ومدينا المصالح البرجوازية للوفد التي تلحق الأضرار بالعمال والمواطنين.

(١) انظر Laqueur, W., op. cit., p. 56-57; Ismael, T.Y.- el-Sa'id, R., op. cit., p. 21-22. للاطلاع على تحليل للأوجه الاجتماعية لبرنامج الحزب الشيوعي المصري انظر عاصم الدسوقي "المشروع الوطني والاجتماعي في برنامج الحزب الشيوعي المصري في العشرينيات والثلاثينيات" في محمود أمين العالم، "سبعون عاما"، المصدر المذكور سابقا، ص ٢٨-٤٥.

(٢) انظر أمين عز الدين، تاريخ الطبقة العاملة المصرية ١٩١٩-١٩٢٩، القاهرة، دار الشعب، ١٩٧٠، ص ١٢٧.

(٣) انظر الترجمة الإنجليزية في ملحق Ismael-el Sa'id, op. cit., p. 163-167.

وأمام الموجات الجديدة من الإضرابات في المدن الكبرى للبلاد والتي طالب فيها العمال بتقليل ساعات العمل ومطالب أخرى تعتبر "تقليدية" لم يتردد سعد باشا "زعيم الأمة" في استدعاء القوات البريطانية لإيقاف الشغب، وتم إلقاء القبض على قادة "ح. ش. م" بتهمة "العمالة للأجانب وخونة الأمة المدفوع لهم من قبل الاتحاد السوفييتي"^(١). ورغم أن العقوبات المحكوم بها كانت مخففة، فقد المحامي أنطون مارون حياته في السجن في عام ١٩٢٤ وأصبح "الشهيد الأول للحركة الشيوعية المصرية"^(٢). ومحروما من قيادته قرر "ح. ش. م" تبني الإستراتيجية التي اقترحها لينين ودعم الوفد كلما أمكن في جهوده المعادية للإمبريالية ومن أجل بناء "الأمة المصرية" غير أن من الواضح أنه بعد وصول الزعماء الوطنيين إلى السلطة لم يكن لديهم أدنى اهتمام بالتعاون مع حركة تنظر إليها الدعاية البريطانية على أنها طابور خامس سوفييتي في مصر. ومن هذا المنطلق، قرر حزب الحكومة تدمير الماركسيين حيثما كانوا أكثر قوة في صفوف العمال. ومن أجل هذا الهدف أسس الوفد في مارس ١٩٢٤ الاتحاد العام للعمال مزودا بجريدة موجهة إلى العمال باسم "العمال" دعته في عهدها الأول إلى وضع أنفسهم تحت إمرة القيادة الشرعية الوحيدة محذرة من السير وراء هؤلاء الذين كسروا القوانين والقواعد الدستورية^(٣).

وعلى كل حال فرغم إغلاق المقر الرئيسي للحزب الشيوعي المصري من قبل السلطة نجحت اللجنة المركزية الجديدة التي تشكلت بالمساعدة المباشرة من جانب الكومنترن الذي دعا قسطنطين فايس زوج ابنة روزنتال إلى البلاد في استعادة النشاط الدعائي مع تأسيس صحيفتين بالعربية، الأولى التي تم تعميدها باسم

(١) وفقا لـ رفعت السعيد، اعتمد الحزب الشيوعي المصري على ٧٠٠ مناضل في ١٩٢٤، انظر رفعت السعيد "الحركة الشيوعية المصرية عبر سبعين عاما"، في محمود أمين العالم، "سبعون عاما..."، المصدر المذكور سابقا، ص ٢٣.

(٢) هاتى شكر الله، في مقابلة شخصية مع الكاتب، القاهرة، ٦ مايو ٢٠٠١.

(٣) انظر Ismael - el-Sa'id, op. cit., p. 28-29.

"الحساب" وكانت مسجلة رسمياً تحت إدارة المثقف السوري رفيق جبور وموجهة إلى الجمهور الأعرض، بينما كانت "العلم الأحمر" صحيفة سرية موجهة إلى المناضلين وإلى التوزيع في المصانع.

ومع الانقلاب الذي حدث في البلاط وأتى بـ زيور باشا بدلاً من زغلول في نهاية ١٩٢٤^(١)، ومع الوجود المكثف للمناضلين الأجانب في صفوف "ح. ش. م" قامت قوات البوليس بالتعاون مع قوات المخابرات البريطانية بإلقاء القبض على كل أعضاء اللجنة المركزية في ٣٠ مايو ١٩٢٥، وتم إعلان أن "ح. ش. م" غير شرعي وهو ما أدى إلى انتهاء الحركة الشيوعية الأولى في مصر.

وفي السنوات التالية، حاول الكومنترن بشكل متكرر إحياء المنظمة مرسلًا إلى هذا البلد الأفريقي-الشمالي العديد من المناضلين اليهود أعضاء الحزب الشيوعي الفلسطيني^(٢) بصحبة مواطنين سوفيت وللاجئين المصريين الذين اعتنقوا الشيوعية في الخارج، لكن كل هذه الجهود لم تثمر عن شيء، ونستطيع القول إنه في ١٩٢٨ كان لم يعد هناك أي منظمة شيوعية حقيقية في مصر، إلى درجة أنه في المؤتمر السادس للكومنترن المنعقد في هذا العام نفسه تم تمثيل "ح. ش. م" من قبل الحزب الشيوعي الفلسطيني^(٣).

وحتى بتحليل سريع لأحداث المرحلة الأولى للحركة الشيوعية المصرية ظهرت -وفقاً لرأي سيلما بوتمان Selma Botman- الميول الثلاثة الأساسية للمنظمات الماركسية في مصر. وهي الميل إلى التشرنم الداخلي، ونُدرة الاتصال

(١) أجبر زغلول على الاستقالة تحت ضغط القوى الاستعمارية بعد اغتيال الحاكم البريطاني للسودان السير لي ستاك في القاهرة في ١٩ نوفمبر ١٩٢٤. انظر Vatikiotis, P. J., The History..., cit., p. 276.

(٢) عن أصول الحركة الماركسية الفلسطينية انظر المصدر السابق الذكر لـ التركماني وانظر أيضاً Laqueur, W. Z., op. cit., p. 113-133; Lockman, Zachary, Comrades and Enemies, Berkeley, University of California Press, 1996.

(٣) انظر Ismael - el-Sa'id, op. cit., p. 31.

بين المناضلين الشيوعيين والجمهور، والبروز المطلق للمتقين، الذين سيظهر من بينهم فيما بعد الطلبة الجامعيون في الصفوف الماركسية^(١).

وينبغي أن نضيف إلى هذه السمات المميزة الثلاث حقيقة أنه سواء في المرحلة الأولى أو الثانية يلاحظ وجود عناصر من الأقليات الإثنية والدينية تحتل القيادة في الحركة وهو الأمر الذي يساعد على تفسير لماذا لم تصبح الماركسية مطلقاً وإلى يومنا هذا حركة جماهيرية حتى لو حققت أفكارها انتشاراً واسعاً واستقبالا جيداً خاصة لدى المتقين.

ج: مصادر الماركسية المصرية: تعريب وترجمات

لا تستطيع دراسة تهدف إلى تتبُّع نمو أيديولوجيا أوروبية في أرض عربية إلا أن تتشغل بإعادة بناء تشكُّل مقدرات ضرورية لا غنى عنها في نمو وترويج وإعادة تفسير الأفكار الجديدة.

وربما حان الوقت لكي نذكر أن اللغة السياسية العربية الحديثة هي ثمرة للقاء مع الفكر الأوروبي. وكان رواد النهضة في مصر بدءاً بالطهطاوى هم فعلا الصناع الرئيسيون لهذا اللقاء وكانوا بالتالي أول من واجهوا مشكلة كيفية ترجمة واعتماد المصطلحات الأوروبية الجديدة في اللغة العربية. وبالنسبة للأسماء ذات الطابع السياسي أو الثقافي فقد فضلوا منذ البداية الكتابة الصوتية للمصطلح الأوروبي بالحروف العربية، لتحديد اختلاف هذه المفاهيم عن المفاهيم المماثلة في التراث العربي.

وبالنسبة للفكر الاشتراكي، سبق أن ألمحنا إلى أن الصحافة المصرية شرعت في الانشغال به عند حوالي نهاية القرن التاسع عشر، مدفوعة بأحداث مثل

(١) انظر Botman, op. cit., p. XX.

كومونة باريس، واغتيال القصر ونشأة النقابات العمالية الأولى. وقد اكتفت الصحافة المصرية والسورية-الليبية بالكتابة الصوتية لأسماء الأيديولوجيات الأوروبية الجديدة، وبالتالي ظهرت مصطلحات "سوسياليست" (اشتركي) و"كومونيست" أو "كومونيست" (شيوعي) و"تيهيليست" (علمي) مستخدمة عادة كترادفات بدون توضيح للفروق.

ومن الواضح أن كتاب ومحرري المجلات أراحوا تأكيد أن ظاهرة الحركات الاشتراكية المعارضة كانت غريبة تماما "وغير قابلة للترجمة" إلى الوضع العربي عن طريق اختيارهم للكتابة الصوتية للأسماء حتى دون معرفة معناها العميق بشكل جيد. ورغم ذلك فمع مرور الوقت ظهرت المحاولات الأولى للترجمة وذلك فقط من أجل توضيح معنى هذه الحركات السياسية للجمهور العربي المثقف مقترحين في أغلب المرات أنها تعتبر أفكارا خطيرة بالنسبة للعرب. واقترح المثقف السوري أديب إسحاق (١٨٥٦-١٨٨٥) الذي كان من بين المؤيدين الأوائل للعروبة^(١)، الاستخدام المؤقت لكلمة "خوارج"، أي اسم أول مجموعة انقسامية في تاريخ الإسلام، للتعبير عن التيارات الاشتراكية في كتابتها^(٢).

وتماشيا مع مثال إسحاق، استخدم فارس الشدياق أولا في ١٨٧٩ مصطلح الاشتراكية المشتق من جذر يوصل فكرة الانقسام^(٣). والحقيقة أن هذا المصطلح نفسه استخدم للمرة الأولى في اللغة التركية في صيغة اشتراكي أموال (انقسام الملكية) لكن هذه الكلمة سرعان ما استبعدت واستخدمت بدلا منها كلمة سوسياليست، والتي انتقلت إلى اللغة التركية الإصلاحية عند أتاتورك^(٤). أما بالنسبة للعربية فعلى العكس من ذلك دخل المصطلح فوراً في الصحافة والمقالات السياسية

(١) انظر Camera d'Afflitto, I., Letteratura..., cit., p. 31.

(٢) انظر Moghith, Anwar, "Marxisme égyptien et marxisme occidental. Traduction et idéologie", Égypte/Monde arabe, n° 30-31 (1997), p. 72.

(٣) انظر Ibidem.

(٤) انظر مادة "اشتراكية" في الموسوعة الإسلامية، الطبعة الثانية.

للدلالة على الميول الاشتراكية، التي ولدت في أوروبا، في مجملها؛ ولكن دون التخلي الكامل، على الأقل حتى بداية القرن التاسع عشر، عن استعارة المصطلحات الأوروبية.

وفي البداية اشتملت الاشتراكية أيضا على النظرية الشيوعية الماركسية حتى اقترح إسحق الدلالة على الشيوعية بكلمة إباحية وهي مشتقة من جذر يعبر عن إسقاط واغتصاب الملكية الخاصة. وكانت النية الهجائية في هذا العرض واضحة، لكون المصطلح المقترح لم يكن محايدا بل كان يشير إلى أصل ذو معنى سلبي تماما.

وعلى أي حال، لم يكن من الضروري إيجاد مصطلح تقني لكلمة "شيوعية" قبل ثورة أكتوبر وإنشاء الكومنترن الذي أجبر الأحزاب التي أرادت الانضمام إليه على أن تسمى نفسها "شيوعية" بشكل صريح. وهكذا فبينما تقرر في فلسطين تسمية الحزب بالإباحي؛ مع للبحث عن نفي العنصر السلبي من فكرة الإباحة، رجّح آخرون مصطلح "الشيوعية" والصفة المشتقة منه "الشيوعي"، من أصل مصطلح يدل بشكل ما على الملكية المشتركة والجماعية ولكن بغير دلالات سلبية^(١).

وبالمناسبة حان الوقت للتذكير بأنه في مصر، حين كان يجب على الحزب الاشتراكي في ١٩٢٣ أن يغير اسمه للدخول في الأممية الشيوعية تم تفضيل صفة "الشيوعي"، التي فرضت بعد ذلك في كل البلدان العربية.

وإذا كان تقديم مصطلحات عربية جديدة للدلالة على الأفكار قد تم في وقت سريع بشكل أو بآخر فلم يكن من السهل على العكس من ذلك تقديم المفاهيم الأساسية للعقيدة الماركسية عبر ترجمات واضحة من الأصول. ويرجع ذلك في الحقيقة إلى واقع أن كوادرات الأحزاب الشيوعية العربية وخاصة في مصر، كانت مكونة تماما - تقريبا - من مثقفين ذوي أصول أوروبية أو متأوربة فلم يشعروا

(١) انظر مادة "شيوعية" في الموسوعة الإسلامية، الطبعة الثانية.

بالحاجة إلى نشر الأفكار المؤسسة للفكر الماركسي بين المناضلين العرب مفضلين التركيز على معالجات نسبية للمشاكل النقاوية وبشكل أقل على المسألة الوطنية بغرض الدعاية. ولهذا فليس من المثير للدهشة أن لا تصدر التجربة الأولى لترجمة عربية لعمل كلاسيكي ماركسي من الحقل النضالي بل قام بها أحمد رفعت وهو مثقف ذو تأثير محدود على الجدل السياسي وميوله الإسلامية تفوق ميوله الاشتراكية. اختار رفعت ترجمة "الدولة والثورة" للينين، وتم نشر النص في ١٩٢٢ بعنوان ("مذكرات لينين عن الحروب الأوروبية: ماضيها وحاضرها") وهكذا تجنب ضرورة ترجمة كلمة "ثورة" إلى العربية^(١). وبعيدا عن أي موالاة للأفكار اللينينية، بُني اختيار رفعت، بالإضافة إلى أن هذا العمل متوفر في لغة متاحة له وهي الفرنسية، على التقدير الذي أثاره موقف الاتحاد السوفييتي للمعادي للاستعمار بوضوح وهو الموقف الذي اتضح في المؤتمر السابق للذكر لشعوب الشرق الذي انعقد في باكو في ١٩٢٠ في بداية الكومنترن.

وتتضح المعرفة القليلة بالنظريات الاشتراكية من تحليل الترجمات التي يتم فيها شرح مصطلح الدولة، على سبيل المثال، بشكل متناقض حيث تُستخدم كلمات عربية مختلفة للدلالة على كلمة "الدولة" نفسها وبنفس الطريقة لم يستطع رفعت ترجمة "الطبقة البرجوازية" بشكل مناسب وترجم "المنهج الديالكتيكي" بـ "المنهج المنطقي" متسببا في بلبلة واضحة لدى القراء من غير ذوي الخبرة^(٢). ورغم الحدود التي عرضناها باختصار، كانت ترجمة "الدولة والثورة" مهمة لأنها تمثل المحاولة الأولى لإنشاء معجم مفردات عربية ماركسية، مع تجنب المصطلحات الأوروبية قدر المستطاع والبحث بدلا من ذلك عن ترجمة الأفكار الناشئة في

(١) انظر Moghith, A., *Marxisme...*, cit., p. 76. بخصوص النشأة والتطور الدلالي لكلمة "ثورة" في اللغة العربية، انظر Lewis, Bernard, *Il linguaggio politico dell'Islam*, Roma – Bari, Laterza, 1991, p. 111.

(٢) انظر رفعت السعيد، "الحركة الشيوعية"، المصدر السابق الذكر، ص ٣٢.

الغرب بلغة القرآن كما في حالة "ثورة" والتي نالت حظا وفيرا في الصحافة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين.

ولا يمكننا القول بوجود "قاموس" عربي ماركسي في مصر إلا مع الحرب العالمية الثانية، عندما صار المناضلون الشيوعيون أنفسهم -فور تمصير قيادات الأحزاب- يواجهون مشكلة ترجمة الكلاسيكيات إلى اللغة العربية^(١)، إلى جانب الجهد الذي بذله الاتحاد السوفيتي في ترجمات دار التقدم، التي فاق اهتمامها بنشر التفسيرات الستالينية للبلشفية ما عداها.

٤. بين الاستعمار والتحرير: الحركة الشيوعية الثانية:

أ- من نشأة الحلقات الثقافية حتى تأسيس المنظمات الماركسية

تقف اتفاقية ١٩٣٦ الأنجلو-مصرية وراء الموقف الجذري للبورجوازية المصرية الصغيرة والإنتلجنسيا التي جاء أغلبها من هذه الطبقة الاجتماعية نفسها^(٢). وفي حين طابق جزء كبير من المتقنين أنفسهم مع الوفد منذ ثورة ١٩١٩، إلا أنهم انخرطوا - مع قيام الحزب الذي أسسه زغلول بتصفية قضية الاستقلال- في نشاط سياسي كان من غير الممكن أن يتم لحتواؤه في الأحزاب الموجودة بالفعل. واتجه جزء معقول من الإنتلجنسيا، مدفوعا بإعجابه المخلص بشكل أو بآخر بالمواجهات بين معارضة النظم النازية والفاشية للإمبريالية

(١) بخصوص عمل رشيد البراوي عالم الاقتصاد ومترجم "رأس المال" لـ ماركس (١٩٤٧) وكلاسيكيات أخرى انظر التحليل الوافي، Meijer, R., The Quest..., cit., p. 66-90 و Moghith, A., Marxisme..., cit., p. 82-89. وبعيدا عن السياق المصري ينبغي أن نذكر أن أول ترجمة عربية للبيان الشيوعي لـ ماركس وإنجلز صدرت عام ١٩٣٢ ترجمة خالد بكداش سكرتير الحزب الشيوعي السوري اللبناني والذي كان أهم تشكيل ماركسي في العالم العربي في ذلك الحين.

(٢) انظر Beinin, J. – Lockman, Z., op. cit., p. 313.

البريطانية، مقتربا من الحركات التي استلهمت هذه الأفكار ومن ضمنها "مصر الفتاة"^(١).

شكل جزء صغير من طبقة المثقفين ذات الجذور المدنية القوية نواة لإحياء الحركة الشيوعية التي اندثرت بعد القمع السياسى فى سنوات العشرينيات. وإذا كان من الصعب التحقق من مظاهر الاستمرار بين مناضلى العشرينيات وبين مناضلى الثلاثينيات والأربعينيات، مهما كان ذلك موضع جدل، فعلى العكس من ذلك يسهل تحديد خصائص مشتركة للنشأة فى المرحلتين. وهكذا فكما تغلغلت الأفكار الماركسية فى مصر عبر المجتمعات الأجنبية السكندرية، تمت الخطوات الأولى لإحياء الشيوعية المصرية فى سنوات الثلاثينيات بشكل مشابه من قبل المثقفين والعمال الأجانب المقيمين فى مصر بالفعل منذ عدة أجيال، والذين كان أغلبهم ينتمون إلى الديانة اليهودية. وكما لاحظ المناضل المؤرخ يوسف درويش فقد كان من المستحيل على اليهود المصريين الدخول فى منظمات ذات توجهات فاشية "واقصر البديل على الشيوعية أو الصهيونية"^(٢). غير أنه كان من الواضح أن اعتناق الصهيونية يعنى بالتالى التخلي عن الأرض التى يعيشون فيها منذ سنين، وهذا هو السبب الذى لعب من أجله جزء كبير من اليهود المصريين دورا بارزا إن لم نقل قاطعا فى مولد "الحركة الشيوعية الثانية". ومن ناحية أخرى، شارك جزء من كل العالم الثقافى من نوى الأصول اليهودية بشكل جماعى فى الحركات الاشتراكية والماركسية فى هذه الفترة، بسبب البرامج المضادة للتمييز. كذلك أعطى هذا التواجد الواسع للمناضلين من أصول يهودية وثقافية عالمية لكل التكوينات

(١) بخصوص هذه الحركة انظر الإشارة رقم ٥٠ فى هذا الفصل وانظر أيضا Tedeschini Lalli, Mario, "La politica italiana in Egitto e il movimento delle Camice Verdi", Storia Contemporanea, 6 (1986).

(٢) ذكر يوسف درويش، فى مقابلة خاصة مع المؤلف، القاهرة ٢١ مايو ٢٠٠١، أن الجانب الأكبر من يهود مصر كانوا معارضين لمولد دولة عبرية فى فلسطين.

السياسية الماركسية لهذا العصر بُعْداً عالمياً وأمماً وهو الأمر الذى سيتضاءل فى حالة مصر فى الخمسينيات مع مجئ تمصير الحركة الشيوعية فى مجملها وتبنى برنامج أكثر قومية كثمرة للتلوث بنظرية الوحدة العربية الناصرية والبعثية.

ويمكن تتبع بشائر "الحركة الثانية" فى النشاط الثقافى، البحت تقريباً، لبعض الدوائر والصالونات الثقافية التى أحيها المتقنون الأوروبيون والعرب من نوى الميول الأوروبية الذين ألقاهم انتشار الفاشية والنازية فى أوروبا وهو القلق الذى أصبح مثيراً للربح أكثر من أى شئ آخر للمواطنين من نوى الأصول اليهودية. ومن الواضح أن الموقف السياسى الاجتماعى المصرى كان فقط ثانوياً فى أفق هذه الدوائر التى بقى مجال تركيزها الأساسى هو القارة العجوز.

وكان أول نادٍ جدير بالذكر، دون شك، هو ذلك الذى أقامه بول جاك ديكومب Paul Jacot Descombes فى نهاية ١٩٣٥ باسم اتحاد أنصار السلام. وقد شاركت هذه المجموعة ذات التوجهات الديمقراطية البحتة والمعادية للفاشية التى كان لها مقران أحدهما بالقاهرة والآخر بالإسكندرية، فى الشبكة العالمية للحقوق لأنصار السلام التى أسسها فى أمستردام الزعيم الهندى جواهر لال نهرو Jawaharlal Nehru^(١). وقد تكوّن النادى من الناحية الأساسية من أجنبى ومتمصرين وتميز بينهم الشبان المتقنون الثلاثة من نوى الأصول اليهودية: أحمد صادق سعد (١٩١٩-١٩٨٨) وريمون دويك Raymond Duwayk (١٩١٨)، ويوسف درويش (١٩١٠-٢٠٠٦).

ولم يُردِّ ديكومب أن تصبح مجموعته حزباً شيوعياً فعلاً، لأن انتباهه كان موجهاً إلى المسائل العالمية، فى الأعوام التى احتكرت فيها الحرب الأهلية

(١) انظر شهادة يوسف درويش فى عاصم السوفى، فخرى لبيب، "شهادات ورؤى من تاريخ الحركة الشيوعية فى مصر - الجزء الثانى" القاهرة، مركز البحوث العربية بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية حتى ١٩٦٥، ١٩٩٩، ص ٢٢٠-٢٢١.

الإسبانية اهتمام اليسار في العالم أجمع. كذلك اعتقد ديكومب، لأنه اعتبر نفسه أجنبيا ويمتلك وعيا سطحيا فقط بالواقع المصري، أن حركة شيوعية حقيقية ينبغي أن تتبع من مجال "محلي" أصيل أو على الأقل أن يُحييها مناضلون "مستوعبون" مثل المثقفين الثلاثة السابقين الذكر من نوى الأصول اليهودية^(١).

ومع الحل الذاتي للجماعة التالية لبداية الحرب، انضم عدد من الأعضاء إلى مجموعة الدراسات "Le Groupe d'Études"، المعروفة بالاسم العربي "جماعة البحوث"، وإن كان الجزء الأكبر من المناقشات يتم بالفرنسية، اللغة المشتركة للإنترنت العالمية والتقدمية لهذا العصر في القاهرة كما في إسطنبول ودمشق. وكان المنظور المعنوي في المجموعة الجديدة هو دراسة للمجتمع المصري بشكل عميق، دون التخلي عن المسائل العالمية. ومع هذا فإنه ينبغي أن نتذكر أن الاتفاق الألماني السوفييتي في ١٩٣٩ أدهش العديد من المناضلين الماركسيين في مصر كما في أماكن أخرى مما وضعهم أمام اختيارات صعبة وبالذات العديد من المناضلين نوى الأصول اليهودية الذين رأوا بلا شك في النازية الألمانية عدوهم الأسوأ^(٢).

وبالإضافة إلى مجموعة الدراسات، ومنذ التجمع الأول لـ ديكومب، تكون في نفس الوقت الاتحاد الديمقراطي الذي نبتت منه المنظمات الماركسية الكبرى في سنوات الأربعينيات. كما تكونت في نهاية الثلاثينيات الدائرة التروتسكية السريالية "الفن والحرية" التي أحييتها مجموعة صغيرة من الفنانين والمثقفين المصريين (الفرانكفونيين) من الطليعة وقد برز من بينهم الشاعر جورج حنين (١٩١٤-١٩٧٣)^(٣).

(١) انظر Botman, op. cit., p. 9. قدرت سلمى بوتمان "الشعور بالمسؤولية" لدى ديكومب، بينما يبدو أن رفعت السعيد يأخذ على السويصري حقيقة أنه لم يكن يريد تأسيس منظمة شيوعية حقيقية. انظر رفعت السعيد، تاريخ المنظمات اليسارية المصرية ١٩٤٠-١٩٥٠، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٧، ص ١٧٠ ومايليها.

(٢) بخصوص رد فعل الشيوعيين اليهود، مع إشارات إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني كذلك، انظر Laqueur, op. cit., p. 161-167.

(٣) بخصوص دور التروتسكيين في الحركة الثانية. انظر بشير السباعي، "مرايا..."، المصدر السابق الذكر.

ومن الضروري، قبل أن نصف تطور وأيديولوجيات التجمعات الماركسية الكبرى، أن نؤكد أن تتبّع قصص كل المجموعات وشبه المجموعات التي نشأت من انقسامات واتحادات لانهائية، يظل خارج نطاق هذا البحث ويهم فقط عشرات أو حتى أحاد من المناضلين^(١).

ولكن من الضروري تحديد تطور المنظمات الأكثر أهمية وتأثيراً في الحياة السياسية المصرية، بحيث نتناول أهم قانتها ونحلل الفروق السياسية والأيدولوجية من خلال إنتاجهم السياسى والفكرى.

مثلت الحركة الثانية ذروة تاريخ الشيوعية المصرية وفقاً لرأى الأغلبية العظمى من المناضلين الماركسيين^(٢)، سواء من حيث عدد النشاط والمتعاطفين للذين اتبعوها، أو لأنها حققت أقصى تعبئة واندماج بين العناصر الثلاثة التي كونت بنيتها كالعامة: الطلاب والعمال والمنفقون.

(١) ينكر الكتاب السابق الذكر بإشراف لييب والدسوقي *شهادات ورؤى*، الجزء الأول، حوالى ٣٠ منظمة ذات توجه ماركسى، وإن لم يكن هذا التوجه معلناً عنه، تأسست بين عامى ١٩٤٠ و١٩٥٠ فى مصر. ويمثل كتاب سلمى بولمان السابق الذكر المحاولة الأنجح والأكثر توازناً لإعادة بناء مسار تحولات الرموز والجماعات الماركسية. بينما تبدو محاولة رفعت السعيد لمعالجة هذه الفترة (المتضمنة فى أغلبها داخل كتاب *تاريخ المنظمات اليسارية المصرية ١٩٤٠-١٩٥٠*) متأثرة بعضوية الكاتب اللاحق فى مجموعة محددة (مجموعة كورييل). انظر بهذا الخصوص *شهادات مارسيل إسرائيل تشيريازي فى لييب والدسوقي شهادات ورؤى* الجزء الأول، ص ٣٢-٣٧، التى يبحث فيها إسرائيل عن "تصحيح" بعض الأخطاء للمذكورة فى نص السعيد، وأخيراً بخصوص دور اليسار فى الحركة الوطنية المصرية فى هذه الفترة، انظر دراسة محمد يوسف الجندى، *"اليسار والحركة الوطنية فى مصر (١٩٤٠-١٩٥٠)"*، للقاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٩٦.

(٢) يتكرر هذا الحكم أكثر من مرة فى أعمال رفعت السعيد ويشاركه فيه مناضلون آخرون فى لقاءاتى معهم، سواء "قدامى" مثل يوسف درويش، وسعد زهران، ومحمد سيد أحمد، أو من "جيل السبعينيات" مثل أحمد بهاء شعبان، لتحليل أهمية تجربة أعوام الأربعينيات للتطور التالى للحركة الماركسية فى مصر انظر الاستنتاجات فى نهاية هذا العمل.

وهكذا فكما كان الأمر بالنسبة لمجموعة الدراسات، أدار الاتحاد الديمقراطي ثلاثة شخصيات هم شباب يهود ذوو نشأة برجوازية وثقافة فرنسية تعرفوا على الأفكار الاشتراكية في أغلب الظن بواسطة بعض الأساتذة الفرنسيين في ليسيه القاهرة^(١). وكان هؤلاء هم: هنري كورييل Henri Curiel (١٩٧٨-١٩١٤)، ابن تاجر فرانكوفوني غني لديه جواز سفر إيطالي، صاحب مكتبة الميدان في وسط القاهرة، هليل شوارتز Hillel Schwartz (١٩١٣) و مارسيل إسرائيل تشيريازي Marcel Israel Ciriazi (١٩١٣) ذي الجنسية والثقافة الإيطالية.

اتفق المتقنون الشبان الثلاثة على ضرورة دراسة الواقع المصري وتحليله في ضوء النظرية الماركسية اللينينية، لكنهم اختلفوا بعمق حول أي إستراتيجية يتبنونها من أجل تأسيس حزب شيوعي حقيقي في البلاد. وقد رأى كورييل أن من الضروري تجنيد أعضاء مصريين بالذات من بين العمال والحد من اشتراك الأجانب وبالذات غير المتمصرين منهم، وقد اعتبر شوارتز هذا الموقف شوفينيا، مفضلا على العكس الاستمرار في عملية دعاية وتعليم داخل الأوساط الثقافية العالمية التي ستمثل بالتأكيد "الطليعة الواعية" للحزب الجديد. وختاما فقد كان مارسيل إسرائيل أكثر راديكالية في برنامجه تمصير الحزب وإضفاء الطابع البروليتاري عليه، وكان ينبغي في نظره أن يكون المناضلون للجند مصريين تماما ومنتمين إلى الطبقة العمالية.

وانطلاقا من هذا الانقسام الأول في عام ١٩٤٢ وبالتزامن مع دخول الاتحاد السوفيتي في الحرب ضد النازية الفاشية، تكونت ثلاث مجموعات: للحركة المصرية للتحرير الوطني الناشئة بين المناضلين الأجانب والمعروفة بينهم باختصار EMNL وبين المناضلين المصريين باختصار "حمتو"، بقيادة هنري كورييل، و"إيسكرا" ("الشرارة" باللغة العربية) التي أحيها هليل شوارتز، وتحرير

(١) محمد سيد أحمد، مقابلة خاصة مع المؤلف، القاهرة، ٤ مايو ٢٠٠٠. انظر أيضا .Mejier, The Quest..., cit., p. 103; Botman, op. cit., p. 7

الشعب" بقيادة مارسيل إسرائيل، وبدأت تتشكل إلى جانب هذه المجموعات الثلاث مجموعة رابعة بقيادة درويش و سعد و دويك ستسمى فيما بعد "الفجر الجديد"^(١)، وهي مكرسة أساسا للنشر التدريجي للأفكار الماركسية بين المثقفين والعمال المتخصصين^(٢).

ورغم الفروق الظاهرة فإن من المناسب أن نلاحظ في الحال أن كل هذه المجموعات اختارت أهدافا ذات طبيعة مدنية ومألوفة بالنسبة لها، متجاهلة الغالبية العظمى من الجماهير المستغلة والتي كان الوضع البروليتارى مفروضا عليها وكانت تعيش في الريف- الذى احتفظ أيضا بالنظام الإقطاعى - دون أى تأمين عمل ولا أمل في تحسين وضعهم الراهن.

وفي الوقت نفسه يجب أن نتذكر أنه رغم أن مصر لم يكن لها ممثل رسمى في الكومنترن في نهاية سنوات العشرينيات فقد نظر كل المثقفين والمناضلين الماركسيين لهذا العصر، باستثناء العشرات القليلة من التروتسكيين، إلى موسكو على أنها "قبة الشيوعية" وإلى ستالين على أنه بطلها. والحقيقة أن النشطاء والمتعاطفين للماركسيين أعلنوا منذ البداية في مصر كما في البلدان المستعمرة الأخرى أنهم "محايدون" في الحرب العالمية الثانية^(٣)، مؤكدين أنهم اعتبروها "حربا

(١) هنا يجدر بنا أن نشير إلى مفارقة تتمثل في أن نفس المجموعة التروتسكية، بنبرتها الأممية الظاهرة، وميلها الفرانكوفونى، كانت المجموعة الوحيدة التى قادها مثقفون مصريون في حين أن كل المجموعات الأخرى كانت من تأسيس مناضلين يهود متمصرين بشكل أو بآخر.

(٢) للاطلاع على السيرة الذاتية لهؤلاء المؤلفين انظر "الشهادات التى جمعها السعيد فى" هكذا أتكلم"، المصدر السابق الذكر، و "السوقى فى" شهادات ... " المصدر السابق الذكر (خاصة الجزء الأول والثانى).

(٣) يجدر بالذكر هنا أن هذا كان الموقف الرسمى للبلاط المصرى الذى رفض إعلان حرب على إيطاليا، وحتى عندما اخترقت قواتها أراضي مصرية تمنى، فى بعض الحالات، انتصارها، من منطلق مجرد المعاداة لبريطانيا.

بين الإمبرياليين للقدامى والجدد" وكذلك لتفادى الإحراج الناشئ عن معاهدة عدم الاعتداء (مولوتوف-ريبينترروب Molotov-Ribbentrop) فى ١٩٣٩^(١).

ومع فتح الجبهة الألمانية السوفيتية فى نهاية ١٩٤١ والانتصارات الأولى للجيش الروسية، أصبح من السهل اتخاذ موقف واضح إلى جانب القوات التى تكافح "من أجل الحرية" ضد الديكتاتورية النازية الفاشية، وهكذا صار من الممكن تحريك قطاعات متنامية من رأى العام والطبقات العاملة نحو تبني وجهة النظر السوفيتية ودفعها إلى التخلي عن موقفها الساذج الذى يفضل أى قوى تعارض القوة الاستعمارية لبريطانيا العظمى دون أن يضع فى الاعتبار النكسات السياسية والاقتصادية لاحتلال إيطاليا-ألماني محتمل.

وبسبب الغزو الإيطالى للبلاد فى ١٩٤٢، قرر العديد من اليهود المتمصرين أو المقيمين فى مصر، ويمكن العثور بينهم على العديد من المكافحين والمتعاطفين مع الحركة الماركسية الوليدة، اللجوء إلى فلسطين. ومهما اعتبر هذا لجوءاً مؤقتاً فقط بالنسبة لعديد من هؤلاء، وبقاء جميع القادة فى مصر، إلا أن نزيف الكوادر فى المجموعات التى ما تزال فى طور التكوين جعل من حركة الدعاية أمراً عاجلاً بهدف تجنيد نشطاء مصريين جدد من خارج الدائرة المحدودة للمتقنين المتأوربين.

ب- نحو الوحدة: حركة طلابية وحركة عمالية

هناك اتفاق بين الغالبية العظمى للدارسين والمناضلين على تحديد عام ١٩٤٢ عام الولادة الجديدة للشيوعية المصرية وإن كان ذلك قد تم بصورة مفككة وبدون تصريح من الاتحاد السوفيتي^(١).

(١) كان هذا الإحراج واضحاً جداً للمناضلين اليهود فى مصر ودول الشرق الأوسط الأخرى، انظر Laqueur, op. cit., p. 161-164.

وقبل مناقشة المجموعات المنفردة السابقة الذكر بإيجاز، من المفيد أن نذكر بناء على أى اختلافات نظرية نشأ الانقسام الأول. والحقيقة أن المشكلة النظرية الرئيسية للحركات الماركسية فى البلدان المستعمرة كانت حتى نهاية العشرينيات هى تحديد المراحل الضرورية للحركة حتى تحقيق الثورة الاشتراكية. وكما قلنا فقد حلت محل الاتجاه "المكسمالى" الأول الذى رفض أى اتفاق أو تحالف مع الحركات الوطنية ذات الأصول البرجوازية باسم الثورة الاشتراكية فى مرحلة واحدة، النظرية المسماة بالجبهات الشعبية واكتساب دعم كل القوى الوطنية المعادية للاستعمار وبدء ما سمي بـ "البرجوازية الوطنية".

وقد تبني الكومنترن هذا الموقف رسميا فى مؤتمره السادس (١٩٣٥) وهو الذى أدى إلى نجاح القوى التقدمية الفرنسية بقيادة ليون بلوم Léon Blum فى (١٩٣٦) مع الدعم الخارجى للحزب الشيوعى الفرنسى.

ولا شك فى أن تأثير النموذج الفرنسى كان أساسيا فى نشأة الأيديولوجية والنهج السياسى الخاصين بـ "حمتو"^(٢)، هذه المنظمة التى قادها يهود بلغة وثقافة فرنسيين والتى كان مقدرًا لها أن تصير الحركة الكبرى فى صفوف الماركسية المصرية فى منتصف الأربعينيات. وقد قام نجاح هذه المجموعة بلا شك على أساس القدرة التنظيمية غير العادية لمؤسسها هنرى كوريل بالإضافة إلى قدرته الاقتصادية التى أتته من تركة الأسرة. ومع هذا كان مبدأ "حمتو" منذ البداية هو

(١) اعتبر كل من رفعت السعيد و سلمى بوتمان بأثر رجعى أن عدم تدخل الاتحاد السوفيتى فى مسيرة الماركسيين المصريين ميزة، من منطلق الحرية والاستقلال. لكن لا جدال فى أن كوريل والقيادة الآخرين رغبوا فى الاعتراف بهم ورأوا فى موسكو نقطة مرجعية. وتذكر سلمى بوتمان ضمن عدم الاهتمام من جانب الاتحاد السوفيتى التشرنم الزائد و"قوضى" الحركة الماركسية والوجود الزائد لمناضلين غير مصريين فى صفوف الحركة انظر Botman, op. cit., p. 39-ss. وأيضا يوسف درويش فى مقابلة شخصية مع الكاتب، القاهرة ٢١ مايو ٢٠٠١.

(٢) انظر Meijer, The Quest..., cit., p. 103-104.

التوسع في تجنيد المناضلين من صفوف المصريين والطبقة العاملة. وقد اتبعت كلا من هذين الهدفين مجموعة كوريل التي ولدت بوصفها ناديا للمتقنين اليهود المتصرين بدرجة أو بأخرى، ولكن لا ينبغي أن ننسى إذا أردنا فهم سبب نجاح "حمّو" أن كوريل أصر على مسألة التحرر الوطني حتى في اختياره لاسم الحركة، مفضلا عدم التمسك الزائد بالخصائص الماركسية^(١). وعلى أى حال كان برنامج "حمّو" بخصوص المسألة الوطنية أكثر راديكالية من برامج الأحزاب الرسمية حيث رفض كل حل تفاوضي مع القوة الاستعمارية وطالب بانسحاب غير مشروط للقوات البريطانية من مصر. وبعد، يجب أن نعترف بنكاء وبعد نظر كوريل الذي قرر تنمية الحركة بدءًا من "الخلايا" سواء بين المتقنين والطلبة أو في المصانع بهدف بناء قاعدة حقيقية من المناضلين، قبل أن يبدأ في حركة سياسية حقيقية. ومن هذا المنطلق نظم "مدرسة كوانر" في أرضه العائلية في المنصورة، ومن هناك تخرّج منظمو الخلايا منذ ١٩٤٣^(٢). وقد تبنت فاعلية هذه الإستراتيجية من خلال نجاح الحركة الماركسية لأول مرة في التاريخ في اختراق المجال العمالي القاهري، وبالذات في مصانع شبرا الخيمة التي شهدت خلال سنوات الحرب العالمية الثانية تدهورا سريعا لظروف العمال للمزعزعة أصلا^(٣). وقد ظهر نجاح "حمّو" في هذا المجال من خلال نجاح المنظمة في إرسال أحد أعضائها بمناسبة المؤتمر الأول لاتحاد النقابات العالمي المنعقد في باريس في ١٩٤٥^(٤).

(١) انظر Botman, op. cit., p. 38-40.

(٢) انظر Ibidem, p. 39-40; Ismael-El-Sa'id, op. cit., p. 52.

(٣) انظر Beinín-Lockman, op. cit., p. 395-ss. بخصوص دور الحركة العمالية في تطور النشاط الماركسي في مصر، انظر، على سبيل المثال، طه سعد عثمان، "خواطر عن علاقة الطبقة العاملة المصرية بالحركة الاشتراكية الثانية"، و محمود أمين العالم، المصدر السابق الذكر، ص ١٩٣-١٩٨.

(٤) انظر Beinín-Lockman, op. cit., p. 330-335.

وإذا كانت "حمتو" قد كرست نفسها لإنشاء قاعدة ماركسية من أجل تحقيق هدف تنظيم الجماهير، فإن المجموعة الأخرى الأكثر أهمية ("إيسكرا")، بقيت حتى عام ١٩٤٥ ناديا للمتقنين من الناحية الأساسية، مع غلبة الأجانب المهتمين بـ "خلق" فكر ماركسي مصري من شأنه أن يساعد على تشكيل حزب شيوعي حقيقي. ومع هذا فإذا كان من الصحيح أن "إيسكرا" جذبت ألمع المتقنين المصريين في ذلك العصر، منتجة الأعمال الحقيقية الأولى عن النظرية الماركسية في وادي النيل، لا يمكننا أن نجادل أن وجودها بين الجماهير كان منعما من الناحية العملية حتى إعادة ميلاد الحركة الطلابية في ١٩٤٥. وفي هذه اللحظة ومع تصاعد النشاط الجماهيري نتيجة ضعف القصر والسلطة الاستعمارية اللذين أضعفتها الحرب، نظمت حركة وطنية حقيقية تنطلق من الجامعة التي شهدت مولد صحافة راديكالية ذات أصول ماركسية ولكن أيضا بميول أخرى عارضت بوضوح الأحزاب التقليدية واحتكارها للحياة السياسية. وفي هذا السياق انضم العديد من الذين سيصبحون رموزا كبرى للإنتلجنسيا المصرية في الخمسينيات وبعدها إلى "إيسكرا" التي كانت مزودة في الوقت نفسه بدار نشر مستقلة "دار الأبحاث العلمية" التي أنتجت بالإضافة إلى الترجمات العادية أول تأملات للماركسيين المصريين عن وضع بلادهم^(١).

وأخيرا فقد تجمعت المجموعة الماركسية الأخرى ذات الأهمية الكبرى التي قادها أيضا متقنون يهود متمصرون حول صحيفة "الفجر الجديد" التي أسسها في مايو ١٩٤٥ سعد و درويش و دويك مع انضمام المتقن المصري أحمد رشدي صالح^(٢) مؤسس للنشرة التي يعتبرها البعض أهم إصدار ماركسي في مصر قبل

(١) يجب أن نذكر كتاب "أهدافنا الوطنية" على الأقل ضمن الكتب التي نشرها مناضلو "إيسكرا"، "بيان (مانيفستو)" المجموعة حرره شهدى عطية الشافعى و محمد الجبيلى. لتحليل الإنتاج النظرى الماركسى فى الأربعينيات انظر: Meijer, op. cit., p. 106-128.

(٢) انظر: Botman, op. cit., p. 160.

تأسيس "الطلبة" (١٩٦٥)^(١)، معلنة وصول نشاط دعائي تحقق بصورة أساسية في صفوف العمال وما يدعى بالطلبة الوفدية، ومنذ اللحظة التي انشغل فيها قادة المجموعة قليلاً بـ "النقاء العقائدي" مفضلين تكريس أنفسهم لنشر العقائد الاشتراكية والماركسية في صفوف الطبقة العاملة. وقد شهد انضمام الزعماء العماليين المشهورين في شبرا محمود العسكري ويوسف المدرك إلى الفجر الجديد واشترك الثاني في المؤتمر النقابي السابق الذكر في باريس، على تفوق هذه المجموعة بين عمال التجمعات الصناعية الكبرى من القاهرة إلى المحلة.

ولم تجلب نهاية الحرب العالمية الثانية أي ميزة لمصر التي ظلت تحت الاحتلال البريطاني رغم محاربتها للغزو النازي الفاشي بصحبة بريطانيا. وأدى غضب وإحباط قطاعات كبيرة من السكان من هذا الوضع وكذلك عجز البرلمان والأحزاب البرلمانية عن إيجاد حل مناسب لمسألة الاستقلال الوطني والأزمة الاقتصادية الطاحنة التالية للحرب؛ إلى تجنير السياق السياسي والثقافي المصري الذي أنتج موجة من الإضرابات والتظاهرات وأحداث التمرد في المدن الكبرى بين عامي ١٩٤٥-١٩٤٦. ولعبت المجموعات الماركسية المتعددة رغم انقسامها دوراً مهماً في تنظيم حركة الجماهير التي عثرت على تعبيرها النهائي مع مولد "اللجنة الوطنية للعمال والطلبة" في بداية عام ١٩٤٦. وقد برز بين أعضاء اللجنة ثلاثة

(١) يوسف درويش، المقابلة السابقة الذكر. وينبغي أن نذكر أنه حتى هذه المجموعة كان لديها دار النشر الخاصة بها هي دار القرن العشرين، حيث نشرت العديد من الترجمات للأعمال الماركسية الكلاسيكية، وأول أعمال عن التاريخ المصري من رؤية ماركسية، خاصة إنتاج رشدي صالح. بخصوص القيمة المعاصرة لهذه الأعمال انظر: Monciaud, Didier, "Contribution politique, héritages historiques et enjeux de mémoires: à propos de la recent reimpression d'ouvrages des années 1940 d'Ahmad Rushdi Salih", OM, XXI n. s. (2002), p. 459-467.

مجموعات ماركسية بصحبة "الطلبة الوفدية" ومجموعات وطنية أخرى^(١). وبلغ هذا المد الجماهيري ذروته في إضراب ٢١ فبراير ١٩٤٦ الذي لجأت الحكومة بعده إلى القمع العسكري للقوى الديمقراطية مما أوقع العديد من الضحايا^(٢).

وأنت بداية القمع البوليسي ضد الحركة الوطنية وبالذات في المواجهات مع اليسار والإخوان المسلمين إلى مصادرة المجلات الماركسية الكبرى^(٣)، وفي الوقت نفسه صارت مناقشة إمكانية توحيد المنظمات المختلفة المجبرة على السرية أمرا طارئا.

وهكذا، في الوقت الذي استأنفت فيه حكومة النقراشي باشا الجديدة مفاوضاتها الفاشلة مع لندن اتحدت "حمتو" مع "إيسكرا" وبعض الجماعات الصغيرة الأخرى في مايو ١٩٤٧ مكونة "الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني" التي عرفت بالاسم المختصر "حنتو". ورغم رفض مجموعة "الفجر الجديد" القديمة الانضمام إلى الحركة الجديدة واستمرارها في جذب المزيد من المناضلين^(٤)، مثلت المنظمة الجديدة بكل تأكيد أغلبية الماركسيين في مصر، حيث ضمت وفقا لبعض الشهادات

(١) انظر طه سعد عثمان، "اللجنة الوطنية للعمال والطلبة" في الدسوقي، "عمال وطلاب"، المصدر السابق الذكر، ص ٣٢-٤٨.

(٢) بخصوص القيمة الرمزية أيضا ليوم ٢١ فبراير ١٩٤٦ في تاريخ اليسار والحركة الوطنية في مصر، انظر شهادات عبد الوالد بصيلة، ومحمد الجندي، وفاطمة زكي، في المصدر السابق الذكر، الدسوقي، "عمال وطلاب" ص ١٥-٣٢.

(٣) بقرار من رئيس الوزراء صدقي، صودرت "الفجر الجديد" في يوليو ١٩٤٦، والجريدة العمالية "الضمير" ودار النشر "إيسكرا" بالإضافة إلى جرائد قومية ناطقة بلسان مجموعات أخرى، انظر Botman, op. cit., p. 65-66.

(٤) بعد اعتقالات يوليو ١٩٤٦، قرر قادة هذه المجموعات تشكيل منظمة ماركسية سرية متميزة عن المنظمات الموجودة بالفعل، ولها قاعدة أكثر عمالية من الأخرى، عرفت هذه المنظمة أولا باسم الطلبة الشعبية للتحرر (ط. ش. ت) ثم "طلبة العمال" وأخيرا باسم "الديموقراطية الشعبية". ووفقا لما يذكره أحد المؤسسين، كانت هذه التغييرات المتعددة ضرورية للهروب من القمع البوليسي واختراقات قوى الأمن. درويش في المقابلة السابقة الذكر، انظر أيضا Botman, op. cit., p. 57-58.

حوالى أربعة آلاف عضو نشط فى ١٩٤٧^(١). ومن الناحية التنظيمية كانت "حدثو" نسخة من "حمتو" القديمة بالبنية المكونة من الخلايا ووحدات المناضلين كما أراد كورييل واستطاعوا فى هذا الوقت الاعتماد على انتشار واحترام جريدة "الجماهير" التى كانت ناطقة باسم "إيسكرا" التى أدارها شهدى عطية الشافعى أحد ألمع المثقفين فى زمنه. وتبنت "حدثو" من البداية البرنامج السياسى "للجبهة الموحدة" مع الوفد من منطلق المعاداة لبريطانيا. واتفقت وجهة نظر الكومنترن مع الشيوعيين المصريين أو على الأقل غالبيتهم فى إعطاء مسألة الاستقلال الوطنى الأولوية على "المسألة الاجتماعية". ورغم النجاح الملموس الذى حققته المنظمة الجديدة والذى شهد عليه تصاعد قمع قوى الأمن، إلا أن الاتحاد لم يدم لفترة طويلة لدوافع مختلفة. ففى البداية كانت هناك مناقشة شديدة بين كورييل و شوارتز حيث طمح كل منهما إلى أن يأخذ دور قائد الحركة كما كان لحرب فلسطين أثر كبير على الحركة الماركسية فى مصر أيضا^(٢). وقد ورط قيام دولة إسرائيل فى مايو ١٩٤٨ والاعتراف بها من قبل الاتحاد السوفيتى، كل الأحزاب الشيوعية العربية فى موقف بالغ الصعوبة، غير أن الموقف كان أكثر صعوبة بالنسبة للأحزاب المصرية التى بقت قيادتها فى يد مثقفين من أصول يهودية "مشكوك فى ولائهم الوطنى" من نواح عديدة. واستغلت الحكومة المصرية من جانبها هذين العاملين لبدء موجة جديدة وضخمة من الاعتقالات ضد الماركسيين بين ١٩٤٨-١٩٤٩. غير أنه قبل القمع البوليسى خرجت عدة مجموعات انقسامية من "حدثو" وأعلنت طرح وتضخيم الانقسامات الموجودة منذ بداية سنوات الأربعينيات. وقد تمثل أحد نقاط الاختلاف فى الموقف الشوقينى لبعض أعضاء "حمتو" السابقين وبعض المجموعات الصغيرة الأخرى التى طالبت بطرد الأجانب (وكان أغلبهم تقريبا من اليهود) من الكوادر القيادية فى الحزب إن لم يكن من القاعدة. وإذا كان من

(١) انظر Ismael- El-Sa'id, op. cit., p. 59.

(٢) بخصوص هذا الموضوع انظر أحمد شرف، "الشيوعيون المصريون والقضية الفلسطينية" فى محمود أمين العالم، المصدر السابق للذكر، ص ٢٥٤-٢٦٥.

الصحيح أن هذه الحركة كانت تهدف جزئياً إلى تجنب الاتهامات بالصهيونية من قبل الحكومة والإخوان المسلمين والحركات فوق القومية مثل مصر الفتاة، فقد كانت - وفقاً لكلمات يوسف درويش - عبارة عن "خيانة للأمية والأخوة الاشتراكية" التي ولدت منها "الحركة الثانية" الماركسية المصرية^(١). وقد بدأ تمصير الحركة الشيوعية مع الانقسامات الداخلية واكتمل بالقمع الحكومي الذي ألقت آثاره مابين عامي ١٩٥٠-١٩٥٢ إلى أن يفقد كورييل و شوارتز - وتقريباً كل الأعضاء الماركسيين الآخرين من نوى الأصول الأجنبية والذين تم اعتقالهم من قبل ونفيهم بعد ذلك من مصر - الجنسية وكل الحقوق السياسية والمدنية وأولها حق العيش في البلاد التي خاضوا من أجلها العديد من الصراعات السياسية وواجهوا السجن.

وهكذا، إذا كانت بداية العقد الجديد قد شهدت وجوداً ماركسياً نشيطاً في مصر رغم أن الاعتقال والنفي كانا يحدان منه بقوة، فإنه يبدو أن الحركة فقدت قدرتها على أن تضع نفسها في طليعة المجتمع المدني المصري كأداة نقل للحدائق والتحرير الاجتماعي كما كانت في منتصف الأربعينيات. ومن المحتمل جداً أن الانعطاف "القومي"، وإن كانت الظروف التاريخية والمحلية قد دفعت إليه، كان مبنياً على هذا التراجع الذي يمكن قراءته بشكل معين باعتباره "فقدان الهوية" للماركسيين المصريين من أجل الانضمام إلى المحيط الواسع للفكر القومي. وهكذا، كما كانت الحركة في سنوات الأربعينيات تمثل للعديد من المناضلين قمة النشاط الشيوعي في مصر فقد مثل تراجعها سواء الأيديولوجي أو التنظيمي عبئاً على أجيال المستقبل من المناضلين حتى اليوم.

(١) يوسف درويش، المقابلة السابقة الذكر.

الفصل الثالث

الماركسية والنظام الناصري

توجد العديد من الدراسات الموثقة عن مصر الناصرية سواء باللغة العربية أو اللغات الأوروبية الرئيسية تحال على الأقل جزئيا مسألة العلاقة بين نظام يوليو والمتقنين من كافة الاتجاهات بدءًا بالماركسية^(١). ولهذا فإن هذه الصفحات، ومع تحاشي أن تكون تلخيصا للدراسات سابقة الذكر، تهدف إلى تقديم إطار مرجعي لفهم الجو السياسي الثقافي الذي تكون فيه جيل السبعينيات بشكل أفضل وهو الجيل الذي كرس الجزء الأخير من هذا البحث لتناوله.

ومن المناسب في هذه النقطة أن نذكر مقدما أن الهيمنة السياسية الأيديولوجية التي حققها النظام الناصري جعلت من هذا النظام الإطار المرجعي القسري، وغير الواعي في بعض الأحيان، للأغلبية العظمى من المناضلين الذين دخلوا الحلبة السياسية بعد هزيمة ١٩٦٧، ولعدد أكبر ممن دخلوها بعد صعود أتور السادات إلى السلطة.

(١) يكفي أن نذكر في هذا الصدد الدراسة الكلاسيكية لـ أنور عبد الملك -Anwar 'Abdel-Malek, Esercito e società in Egitto. 1952-1967, Torino, Einaudi, 1968 ومقالات عادل حمودة السابقة الذكر، "أزمة المتقنين"؛ سماح إريس، مصطفى عبد القنى، فتحى عبد الفتاح "شيوعيون وناصريون"، القاهرة، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٩٠؛ محمد سيد أحمد "ثورة ٢٣ يوليو والمتقنون"، "أدب ونقد"، العدد ٤١، أكتوبر ١٩٨٨، ص ٦٢-٤٥ والدراسة الحديثة والموثقة لـ صلاح عيسى، "لطفى الخولى والطليعة والماركسيون محاولة لتفسير وإنصاف التاريخ" فى "الطليعة"، عدد خاص فى الذكرى السنوية الأولى لوفاة لطفى الخولى (٢٠٠٠) ص ٦٤-٨٥؛ وأخيرا انظر الشهادات المذكورة فى "عبد الناصر واليسار المصرى"، عدد من المؤلفين، القاهرة، مؤسسة روزاليوسف، ١٩٧٧.

وهكذا تعد استعادة الأسس السياسية الأيديولوجية لنظام عبد الناصر وأسس علاقته الملتبسة بالإنكلجنسيا التقدمية - من هذا المنظور - أمرا أساسيا لفهم كيفية تدهور هذه العلاقات في السبعينيات ولو بشكل جزئى.

١: المثقفون والماركسية والسلطة الناصرية حتى ١٩٦٥

مثلت السنوات التى تلت الهزيمة فى حرب فلسطين والتى تُوِّجت بهدنة رودس "غير المجيدة" مع دولة إسرائيل قمة النشاط والعنف السياسى فى مصر، كنتيجة منطقية جزئيا لآمال سنوات الحرب العالمية الثانية المحبطة.

ذلك أن قضية الاستقلال القومى كانت بعيدة عن الحل حتى بعد الأقول الأكيد للقوة "البريطانية"، بل كانت من قضايا الساعة أكثر من أى وقت آخر فى إطار عالمى تم فيه إخال مصر و"النظام المتوسطى" فى المنظور الجديد للحرب الباردة والمعسكرين المتصارعين.

وتجدد الغليان الثورى الذى كان قد وصل إلى قمته فى ١٩٤٦ متجاوزا عجز الأحزاب الليبرالية التى كانت تمثل رأى العام، وظهر الإخوان المسلمون بقوتهم المسلحة التى شاركت فى حرب فلسطين فكانوا بين القوى الأكثر تأثيرا فى صفوف الحركة الراديكالية فى بداية العقد الجديد، إلا أن الإخوان المسلمين أضعفهم بشدة موت المؤسس والمرشد حسن البنا الذى اغتيل فى فبراير ١٩٤٩ على يد عملاء الحكومة.

كما وُجِدت فى مصر عشية ثورة ١٩٥٢ طبقة واسعة من المثقفين تحوز على قدر كبير من التأييد الشعبى ومتشربة بمفاهيم راديكالية مستقاة بشكل أو آخر من الاشتراكية الديموقراطية حتى الليبرالية المعتدلة والإصلاحية الإسلامية وصولا إلى "التيارات المتطرفة" للشيوعيين والإخوان المسلمين^(١)؛ ومن الجائز أن المثقفين كانوا "الغائب الكبير" فى ثورة يوليو.

^١: انظر Awad L., op. cit., p. 155.

إلا أن موضوع الثورة بدا حاضرا في كتابات عدة مثقفين من نوى الميول الاشتراكية الديمقراطية مثل لويس عوض وعبد الرزاق حسن، بل وفي مقالات المحافظين مثل مصطفى أمين وقبل كل ذلك في كتابات إحسان عبد القدوس؛ الشخص الوحيد الذي تمنى حدوث تدخل عسكري^(١).

وقد رحبت غالبية المثقفين بأنباء التغيير الثوري رغم أن حركة الضباط الأحرار كانت تتحرك في السر، ورغم أن قليلين للغاية كانوا يعرفون ما سيحدث^(٢). ولكن يبدو رغم ذلك أن بعض الضباط القريبين من المواقع اليسارية مثل يوسف صديق وخالد محيي الدين قد انضموا في نفس الوقت إلى "حدثو" التي تم إبلاغها بالانقلاب حتى قبل عشية حدوثه^(٣). وقد جمعت هذه المنظمة وفي اضطراب ما بعد النكبة مناضلين وأنصارا جددا من كل قطاعات المجتمع من بيروقراطية الدولة حتى الجيش فاستطاعت أن تعتمد على ما يقرب من ٣ آلاف عضو في ١٩٥٢^(٤).

وعلى أي حال، سرعان ما انتهى شهر العسل بين الماركسيين المصريين والنظام الجديد في ١٢ أغسطس ١٩٥٢، عندما أضرب عمال كفر الدوار مطالبين برفع المرتبات وديموقراطية واسعة في المصنع والسماح لهم بمساعدة الضباط الثبان، مثقفين الاعتقال الفوري عوضا عن ذلك^(٥). وبالإضافة إلى أن إعدام قائدى الاحتجاج خميس والبقرى في سبتمبر التالى بتهمة عضويتها في حزب شيوعى محظور كان نذيرا "محزنا" بالطبيعة الأوتوقراطية للنظام الجديد، فقد أقتع العديد من

(١) سماح إدريس، المصدر السابق الذكر، ص ٣٤-٣٥.

(٢) انظر: Rossi, Ettore, "Pareri sugli avvenimenti egiziani del luglio 1952", in OM, XXXII (1952), p. 157-164.

(٣) سماح إدريس، المصدر السابق الذكر، ص ٥٤.

(٤) انظر: Ismael-El-Sa'id, op. cit., p. 69؛ Laqueur, W., op. cit., p. 46.

(٥) انظر: OM, XXXII, (1952), p. 205؛ انظر أيضا: Beinini J.-Lockman Z., op. cit., p. 421-426.

مناضلي اليسار المصري أن الجيش لم يكن مهتما بدعم "حركة ثورية للجماهير" تطمح إلى ثورة اجتماعية حقيقية^(١).

ورغم قمع الإضرابات، ظل الخط الرسمي لـ "حدثو"^(٢) وكذلك للبراليين والإخوان المسلمين متضامنا مع الحكومة خاصة بعد إصدار قانون الإصلاح الزراعي في ٩ سبتمبر^(٣).

وكان هذا الإصلاح في الواقع أحد أركان البرامج السياسية للحركات اليسارية المصرية منذ الثلاثينيات، وقد أدى تحقيقه من قبل الحكومة الثورية الجديدة إلى تخفيف انتقادات الماركسيين للضباط الأحرار. وقد فرض هؤلاء الآخرون الرقابة على الصحافة والدوريات عبر إنشاء وزارة الإرشاد القومي بقيادة صلاح سالم، الذي وضع مكتب رقابة في كل جريدة ومجلة لخلق رأي عام موالي للثورة، ومن هذا المنظور تم قمع كل إصدارات أقصى اليسار في أكتوبر

(١) انظر Hussein M., *La lotta di classe...*, cit., p. 114-115. وقد أقيمت أحداث كفر الدوار للقيادة السوفييتية "بالسمات الرجعية المعادية للديمقراطية والديماجوجية" للنظام المصري الجديد، مما أثار الشكوك حول وجود السى آى إيه وراء انقلاب يوليو؛ انظر Donini, *I paesi arabi*, Laqueur, W. Z., op. cit., p. 398-399. cit., p. 111.

(٢) كلف اتخاذ "حدثو" لهذا الموقف هذه المنظمة وصمها بتمثيل الجناح اليميني للماركسية المصرية، في حين أن الجزء الأكثر راديكالية فيها (والذى كان يمثل أقلية) عارض منذ البداية انقلاب الضباط الأحرار. من شهادة سعد زهرا (أحد قادة ح. ع. م "الرأية" المعتقل من عام ١٩٥٣ إلى ١٩٥٥)، مقابلة شخصية مع المؤلف، القاهرة ١٥ مايو ٢٠٠١.

(٣) انظر Tiana Michele, "Note OM, XXXII; 9-10, (1952), p. 264 أيضا؛ انظر 'Abd en-Nasser a Mohamed sulla riforma agraria in Egitto da Gamal 'Anwar es-Sadat", in: OM, LVII, (1977), p.247-268.

١٩٥٢ والتي تبنت في نفس الوقت موقفا انتقاديا قويا في مواجهة ثورة يوليو ولم تتردد في تسميتها انقلابا^(١).

كما تزايد عدااء جزء كبير من الإنتلجنسيا المصرية المقتنعة بأن الديمقراطية الحقيقية ينبغي أن تتسم بوجود نظام برلماني يقوم على تعددية حزبية مع القرار الحكومي بحل كل الأحزاب والحركات السياسية باستثناء الإخوان المسلمين في يناير ١٩٥٣^(٢). ويرجع استثناء الإخوان إلى حقيقة قرب أكثر من عضو في النخبة العسكرية الجديدة مثل الرئيس التالي أنور السادات أو حسين الشافعي من الحركة التي أسسها حسن البنا سواء بالإنتماء السابق إليها أو بطبيعة تكوينهم السياسي. وبالإضافة إلى ذلك، كانت حركة الإخوان بلا شك هي الحركة السياسية التي تمتلك أكبر قاعدة شعبية وقوة فائقة على تحريك الجموع، وهو الأمر الذي لم يفت الضباط الثوار. واعتمدت الحركة الإسلامية من جانبها على قدرتها على السيطرة على ما أسمته بـ "الثورة المباركة" فارضة أيديولوجيتها ورجالها.

وعلى أي حال تلا الاعتقالات التي ألقى القبض فيها على العديد من المناضلين الماركسيين اتفاق منظمات اليسار بما فيها "حتو" هذه المرة على استتار الطبيعة الفاشية للنظام الجديد^(٣).

(١) يقابل مصطلح "انقلاب" في الدعاية الماركسية العربية الانقلاب الإسباني-أمريكي أي: الانقلاب العسكري الهادف إلى إنشاء نظام أوتوقراطي انظر Lewis, Bernard, II *linguaggio politico dell'Islam*, Roma-Bari, Laterza, 1991, p. 111 أيضا كلمة "ثورة" في The Encyclopedia of Islam. 2nd Edition. وللإطلاع على إعادة قراءة مبتكرة لكلمتي "انقلاب" و"ثورة"، انظر نديم البيطار، *الأيديولوجية الانقلابية*، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٦، وملحق الخضر الجيوسي "معنى الأيديولوجية الانقلابية" ومضمونها، "الآداب"، العدد ٦ (يونيو ١٩٦٦)، ص ٣-٥.

(٢) إعلان اللواء نجيب عن حل الأحزاب السياسية، في OM, XXXIII (1953), p. 38-39.

(٣) للإطلاع على التفاصيل انظر رفعت السعيد *تاريخ منظمات اليسار المصري ١٩٥٠-١٩٧٥*، القاهرة، الأمل، ١٩٨٦؛ انظر أيضا Botman, op. cit., p. 119-ss. حول الطبيعة المعقدة والمتغيرة للعلاقات بين المثقفين الماركسيين ونظام يوليو=

وقرب نهاية عام ١٩٥٣، ورغم استمرار السرية التي اتسمت بها خيارات النظام الجديد، كان من الواضح أن السلطة الحقيقية في يد مجلس قيادة الثورة وكان عبد الناصر هو الشخص الرئيسي فيه رغم قلة من لاحظوا ذلك خارج المجموعة القيادية^(١).

وبعد إبعاد الإخوان المسلمين أيضا في بداية ١٩٥٤ إثر محاولة الاعتداء على حياة عبد الناصر^(٢)، قرر النظام أن يوقف الرقابة وهو ما سمح للمتقنين من كافة الاتجاهات بالمشاركة في الجدل حول شكل الحكومة في الدولة الجديدة. وتحالف اللواء محمد نجيب تكتيكيا مع اليسار في الصراع على السلطة ضد عبد الناصر والإخوان المسلمين والوفديين السابقين مطالبين بالعودة إلى النظام الدستوري وحل مجلس قيادة الثورة^(٣)، وهو ما طالب به الجزء الأكبر من الإنتلجنسيا المصرية.

وقدّر الانتصار النهائي لـ عبد الناصر في ١٩٥٤ أول أزمة خطيرة بين المتقنين والسلطة وأولى الاعتقالات بين المناضلين في كل التيارات، مع تفتت خاص في المواجهات مع الشيوعيين^(٤).

في أوائل الخمسينيات، انظر المقال الموثق لـ رويل ميير Roel Meijer, op. cit. ويقوم المؤرخ الهولندي، في سياق جدال مع التاريخ الوطني المصري (انظر مثلا أعمال رمضان) أو الماركسي الغربي (انظر مثلا الأعمال المختلفة المذكورة لـ جول بينين Joel Beinin)، بإعادة بناء العملية التي اختارت الإنتلجنسيا الماركسية والعلمانية وفقا لها، ليس بدون مجادلات وترددات، الاستبداد العصري للنظام الناصري.

(١) انظر شهادة إحصان عبد القدوس في العمل المذكور سابقا لـ سماح إبراهيم، ص ٣٦.
(٢) انظر OM, XXXIV, (1954), p. 18-19. ربما حتمت قيادة الإخوان سواء الموقع المسيطر لـ عبد الناصر في مجلس قيادة الثورة أو التوجه السلطوي للنظام، ومن هنا قرار اغتيال الرئيس المقبل.

(٣) بخصوص الخلاف بين نجيب ومجلس قيادة الثورة، انظر OM, XXIV(1954), p. 107-111 e 168-170; Vatikiotis, P. J., The History of Modern Egypt, cit., p. 384-388.

(٤) سماح إبراهيم، المصدر السابق الذكر، ص ٣١ وعادل حمودة، المصدر السابق الذكر، ص ١٠٨. وبخصوص اعتقال المناضلين الشيوعيين انظر OM, XXXIV,

وكان أول ضحايا القمع العسكرى ضد الحقل الثقافى المصرى هم قادة نقابة الصحفيين برئاسة نقييها محمود أبو الفتوح، رئيس تحرير الجريدة اليومية للمصرى (الجريدة الرسمية السابقة للوفد) والتي كانت أكثر الجرائد انتشارا فى القاهرة فى هذا العصر. وحكم على أبو الفتوح الذى طالب عدة مرات بعودة الحياة البرلمانية وأثار الشكوك حول كفاءة نظام الإصلاح الزراعى بالسجن عشر سنوات^(١). وتم حل النقابة وإعادة فرض الرقابة التى وضعت كافة وسائل النشر تحت السيطرة التامة لوزارة الإرشاد القومى بعد التطهير الهائل للصحافة^(٢) الذى أصاب حتى الصحفيين المتعاطفين مع عبد الناصر مثل إحسان عبد القدوس. وبمكنا تأكيد أنه حتى هزيمة يونيو ١٩٦٧ لم يتجاسر أى صحفى على انتقاد النظام.

وباختصار، تخلص الرئيس بنهاية ١٩٥٤ من كل صوت مخالف، وبين أولئك المتفقين الذين أجبروا على الصمت سواء داخل أو خارج السجون، وفقا لـ ب. ج. فاتيكيوتيس P.J. Vatikiotis، كان فى مصر فى ١٩٥٥ حوالى ٣ آلاف سجين سياسى أغلبهم من الشيوعيين والليبراليين المتصلين بالنظام القديم أو المتعاطفين مع الملكية^(٣).

أما من وجهة نظر حكومية، فقد نتجت أزمة ١٩٥٤ مع المتفقين بسبب "موقفهم الانعزالي تجاه الشعب واهتمامهم بطبقة يفضلونها على المصلحة العامة"^(٤). ووفقا لـ محمد حسنين هيكل صديق عبد الناصر والناطق باسم النظام

= 373 e 315, 275, 115 (1954). انظر أيضا خطاب عبد الناصر بخصوص

النشاط الشيوعى فى مصر فى Ivi, p. 209.

(١) انظر OM, XXXIV, (1954), p. 209.

(٢) انظر سماح إريس، المصدر السابق الذكر، ص ٣٧ و Dabous, Sonia, "Nasser

and the Egyptian press", in Tripp, Charles (ed.), Contemporary Egypt:

.Through Egyptian Eyes, London, Routledge, 1993, p. 104

(٣) انظر Vatikiotis, P. J., The History of Modern Egypt..., cit., 387.

(٤) انظر Dabous, S., op. cit., p. 110.

وكذلك رئيس مؤسسة الأهرام، فقد فشل المثقفون المصريون في القيام بواجبهم المتمثل في منح الثورة البراجماتية للضباط الأحرار نظرية^(١)؛ فقد أخفت البراجماتية المفترضة للثورة المصرية، التي امتتحها بشدة عدة نقاد^(٢)، فراغا أيديولوجيا وبرنامجيا عميقا و"غياب نظرية واضحة ترى ما هو أبعد من الأحداث"^(٣). ومن ناحية أخرى لم يمتلك الضباط الأحرار أى إلهام أيديولوجي وبالتالي لم تستطع الثورة اتباع برنامج سياسي اجتماعي محدد سوى عدة توجهات عامة مثل الإصلاح الزراعي.

وقد أنتج الخواء الأيديولوجي للثورة تكتيكا سياسيا انتهازيا اتبعته أيضا في علاقاتها مع المثقفين، كما كان عبد الناصر مقتنعا بأن الجيش هو طليعة الثورة، وبالتالي تم تجريد الإنتلجنسيا المصرية من كل أدوارها عدا المساندة المطلقة للنظام.

وفي الممارسة، تركت النخبة العسكرية، مجالا "لأبناء الثورة" فقط مفضلة الاعتماد على أهل الثقة بدلا من أهل الخبرة حتى في المجالات الثقافية الاجتماعية. والواقع أنه، رغم عدم الكفاءة الواضحة للعسكريين في المجال الثقافي، صار هؤلاء "خبراء في كل قطاع من المسرح إلى البالية"^(٤).

ووفقا لـ عادل حمودة، فقد مثل تفضيل النظام أهل الثقة على أهل الخبرة واحدا من ثلاثة دوافع رئيسية لأزمة العلاقات الأولى بين المثقفين والنظام^(٥). ويبقى الدافعان الرئيسيان الآخران، مع ذلك، هما المطالبة من جانب تقريبا كل الإنتلجنسيا المصرية بعودة الجيش إلى التكنات والعودة إلى نظام برلماني متعدد الأحزاب.

(١) انظر Abdel-Malek, A., *Il pensiero politico...*, cit., p. 188.

(٢) انظر Awad L., *op. cit.*, p. 156.

(٣) انظر سماح إريس، المصدر السابق للذكر، ص ٣٦.

(٤) عادل حمودة، المصدر السابق للذكر، ص ٢٤٩.

(٥) نفس المصدر.

وكان للتحول السلطوى فى ١٩٥٤ نتيجته المنطقية أيضا فى العالم الأكاديمى، والطلابى، والمهنى، الذى كان "الملاذ" التقليدى للطبقة المتفقة المصرية، وفيما يتعلق بالجامعة، على سبيل المثال، تم إحلال رجال النظام^(١) محل العديد من الأساتذة فيما تم إغلاق الجمعيات الطلابية المستقلة ووضع النقابات المهنية تحت السيطرة الحكومية للصارمة.

على أن اليسار المصرى عاد إلى الاقتراب من السلطة بشكل ملحوظ بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٨. والواقع أن مشاركة عبد الناصر فى مؤتمر باندونج بصحبة القائدين الصينى واليوغوسلافى فى أبريل ١٩٥٥ والاتفاقية العسكرية مع تشيكوسلوفاكيا^(٢) كان لهما أثر كبير على الماركسيين حتى أولئك الذين كانوا فى المعتقل^(٣). فقد قرر اليسار بمناسبة حرب السويس تحية خلافته مع عبد الناصر جانبا ليشترك فى "الصراع الشعبى ضد العدوان الصهيونى" معتقدا أن من الضرورى الوقوف فى صف واحد ضد الإمبريالية الاستعمارية^(٤).

واكتسب الرئيس المصرى بموقفه المعادى للغرب تعاطفا جديدا داخل صفوف الماركسيين الذين تحول جزء منهم إلى الناصرية. ومع حرب السويس بدأ "ثانى شهر عسل بين الشيوعيين والسلطة"، حسب كلمات الصحفى صلاح عيسى، والذى قدر له أن يستمر حتى بداية عام ١٩٥٩^(٥).

وشهد قرار عبد الناصر بتولية الماركسى البارز خالد محيى الدين رئاسة تحرير جريدة المساء فى نهاية عام ١٩٥٦ على التوجه الجديد للنظام فى مواجهة

(١) انظر OM, XXXIV, 8-9, (1954), p. 373.

(٢) انظر OM, XXXV, 10, (1955), p. 458-460.

(٣) انظر سماح إدريس، المصدر السابق الذكر، ص ٥٦ و Ismael-El-Sa'id, op. cit., p. 107-108.

(٤) انظر Bein J.- Lockman Z., op. cit., p. 458.

(٥) انظر صلاح عيسى ولطفى الخولى، المصدر السابق الذكر، ص ٦٦-٦٧.

اليسار، الذي أصبح مسموحاً له بطباعة أعماله. وقد استطاع العديد من المثقفين الماركسيين والليبراليين الوصول إلى القراء عبر صفحات جريدة المساء، رغم الرقابة، وإن لم يجرؤ أحدهم على انتقاد السياسات الحكومية بوضوح^(١).

لكن الشيوعيين لم يفتهم، خاصة من كانوا في المعتقلات أن التقرب المفاجئ للرئيس تجاه اليسار المصري كان مجرد تكتيك ضمن سياسته البراجماتية، دون اهتمام حقيقي قابل للاستمرار؛ كما أظهرت موجة اعتقالات صيف ١٩٥٧^(٢).

وعلى أي حال كان لشهر العسل مع النظام أثره الجانبى فى الإسراع بالمناقشات بين المنظمات الماركسية المختلفة، التى استمرت فى البقاء وإن بصعوبة متصاعدة وبشكل سرى. وكانت نتيجة المجادلات مولد "الحزب الشيوعى المصرى المتحد" فى ١٩٥٧^(٣) بعد اندماج التشكيلين اليساريين الأساسيين "حتو" و"الرابة" مع جماعات صغيرة أخرى. وقد حيا الحزب الجديد فى منشوراته الأولى الرئيس بوصفه "بطلا قوميا ومن فرسان النضال العالمى ضد الإمبريالية"^(٤). وفى ذروة ذلك الاندفاع غير المسبوق نحو وحدة الصف الماركسى، وهو الأمر الذى تم فى الحقيقة بتأثير الموقف الخارجى أكثر منه نتيجة تقارب حقيقى بين القوى والشخصيات، وبين القوى والشخصيات الأخرى المنافسة^(٥)، وفى ٨ يناير ١٩٥٤ انضم "حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى"، وهو تنظيم آخر يتمتع بقوة

(١) بخصوص أهمية تجربة "المساء" انظر المصدر السابق وشهادات لطفى الخولى نفسه رئيس التحرير المقبل لـ "الطلیعة" والمشارك النشط فى تجربة محيى الدين فى المقابلة التى أجراها معه كارم يحيى "أبعاد سياسية فى تجربة الطلیعة"، "الطلیعة"، ٢٠٠٠، ص ١٠-١١.

(٢) انظر OM (XXXVII), 1957, p. 602-603.

(٣) انظر Ismael-el-Sa'id, op. cit., p. 109-ss.

(٤) انظر سماح إبريس، المصدر السابق الذكر، ص ٥٦.

(٥) انظر Ismael-el-Sa'id, op. cit., p. 107-108. انظر أيضا المقابلتين الشخصيتين مع سعد زهران ويوسف لرويش السابقتين الذكر.

عددية ذات شأن إلى الوحدة، وهكذا اتخذ الحزب اسم "الحزب الشيوعي المصري". ورغم الحياة القصيرة للحزب الشيوعي المصري بسبب التناقضات التي لا يمكن تخطيها سواء التناقضات الأيديولوجية أو الشخصية وبسبب حملة القمع الجديدة والمثابرة للنظام، فقد مثل ٨ يناير ١٩٥٨ يوماً تاريخياً في مسيرة الماركسية المصرية، حيث ظهرت الحركة لأول مرة موحدة في حزب واحد معبر عن الطليعة الراديكالية المتقدة أو العمالية^(١).

ويقف مشروع إقامة الجمهورية العربية المتحدة الذي عجل به حزب البعث السوري^(٢) للحد من القوة السياسية المؤسسية المتنامية للحزب الشيوعي السوري^(٣)، وراء كل من شهر للعمل الثاني بين الماركسيين والنظام، وانتهاء تجربة الحزب الشيوعي المصري. فقد راق مشروع الوحدة في البداية لجزء

(١) لتمثيل القيمة شبه الأسطورية لهذا الاتحاد يكفي أن نذكر أن أحد أحزاب الحركة الثالثة في أعوام السبعينيات اتخذت اسم "العمال: ٨ يناير" تخليداً لذكرى الوحدة بين الشيوعيين المصريين.

(٢) انظر بخصوص البعث الذي كان حزباً اشتراكياً للنهضة العربية أسسه في دمشق في عام ١٩٤٧ ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار، Seale Patrick, *The Struggle for Syria*, London, Oxford University Press, 1966; Hopwood, Derek, *Syria 1945-1986*, London, Unwin Hyman, 1988؛ سامي الجندى، البعث، بيروت، ١٩٦٩؛ Minganti, Paolo, "Unità araba e socialismo nell'ideologia del Ba'th siriano", in: OM, LV (1975), p. 208-227; Olson, Robert, "The Ba'th in Syria 1947-1979. An Interpretative Historical Essay", in: OM, LVIII, (1978), p. 645-681 e LIX, 6 (1979), p. 439-474.

(٣) انظر Donini, P.G., *I paesi arabi cit.*, p. 90; Ismael, Tareq Y., *The Arab Left*, Syracuse, Syracuse University Press, 1976, p. 24 e Kerr, Malcolm H., *The Arab Cold War. Gamal 'Abd al-Nasir and his Rivals*, 1958-1970, London- New York, Oxford University Press, 1971 (III ed.), p. 7-10.

لا بأس به من اليسار المصري رأى فيه خطوة في الصراع ضد الإمبريالية^(١)، رغم قرار عبد الناصر بحل الحزب الشيوعي السوري، بالإضافة إلى عدة تكوينات سياسية أخرى، ولكنّ بينما كانت وحدة الشعبين (والحكومتين) هي الهدف النهائي للناصرية وربما البعثية فإنه ما كان لها إلا أن تمثل بالنسبة للإنتلجنسيا الماركسية انتصاراً جزئياً على طريق التغيير الفعال في العلاقات بين الطبقات الموجودة^(٢).

وقد اتسع الشقاق بين السلطة والمتقنين الماركسيين بشدة بسبب تعاطف الأخيرين مع النظام العراقي لـ عبد الكريم قاسم المتحالف مع الماركسيين العراقيين والمنافس المعلن لـ عبد الناصر والبعث في المشهد العربي^(٣). وكانت المحصلة لهذه

(١) انظر وثيقة الحزب الشيوعي المصري "القومية العربية"، في Abdel-Malek, A., "Unità araba: gli aspetti ideologici", in Triulzi, Alessandro - Tranfaglia, Nicola (a cura di), Storia dell'Africa, Firenze, La Nuova Italia, 1978, p. 448.

(٢) عن المفهوم الناصري "المجتمع الاشتراكي بلا طبقات"، انظر على سبيل المثال خطاب ٢٣ ديسمبر ١٩٦١، في: OM, XLII, (1961) p. 239-240، انظر أيضاً Campanini, Massimo, La teoria del socialismo in Egitto, Palermo, Centro culturale al-Farabi, 1987, p. 59; Reissner, Johann, "Il dibattito intraslamico sul moderno ordine socio-economico in Ende Werner - Steinbach Udo (a cura di), L'Islam oggi, Bologna, Edizioni Dehoniane, 1993, p. 248; Carrè, Olivier, "Pouvoir et idéologie dans l'Egypte de Nasser et de Sadat", in AA.VV., L'Egypte d'aujourd'hui. Permanence et changements 1805-1976, Paris, Editions du CNRS, 1977, p. 251-252.

(٣) عن العراق المعاصر، انظر، على سبيل المثال، Lo Jacono, Claudio, Partiti politici e governi in 'Iraq 1920-1975, Roma-Torino, Istituto per l'Oriente-Fondazione G. Agnelli, 1975; Batatu, Hanna, The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq, Princeton, Princeton University Press, 1978; Kelidar, Abbas (ed.), The Integration of Modern Iraq, London, Croom Helm, 1979; Donini, Pier Giovanni, "Sviluppo industriale e rapporti sociali in Iraq", in Collotti Pischel, Enrica, (a cura=

الاختلافات الأيديولوجية على المستوى الداخلى هي رفض الماركسيين لحل منظماتهم من أجل الدخول فى "مؤسسات الثورة". وكان هذا هو الدافع الرئيسى الذى أطلق أقصى قمع عاناه الشيوعيون المصريون فى الحقبة الناصرية^(١).

ومن الواضح أن دعم الحزب الشيوعى المصرى لم يكن كافيا بالنسبة للرئيس لكى يغير فكرته عن التمرد المحتمل اليسار الذى يمكن أن يستغل الحرية المنوحة له من النظام ليستولى على السلطة. وبالتالي غير الجزء الأكبر من المناضلين الماركسيين موقفهم وبدأوا يرون للرغبة الناصرية فى الهيمنة خلف قناع القومية العربية وشعار الوحدة. وكانت معضلة طريقة الاستجابة لعروض النظام تقف وراء انفجار التناقضات غير القابلة للحل بين المجموعات المتنوعة الموحدة فى الحزب الشيوعى المصرى والتى انتهت فى عام ١٩٥٨ بانفصال مجموعة "حتتو" الأقرب إلى موقف التعاطف مع الناصرية عن الحزب^(٢).

وقد صدمت اعتقالات ١٩٥٩ كافة اتجاهات اليسار المصرى ومنها عناصر غير ماركسية مثل لويس عوض، وحتى غير راديكالية مثل أسرة تحرير جريدة المساء، وصولا إلى قادة "حتتو" رغم خروجهم من الحزب الشيوعى المصرى

= di), La democrazia degli altri, Milano, Franco Angeli, 1996, p297-

.Tripp, Charles, Storia dell'Iraq, Milano, Bompiani, 2003؛319

(١) انظر الشهادات التى ذكرها صلاح عيسى فى "لطفى الخولى .."، المصدر السابق الذكر، ص ٧٠. ينكر عيسى بالتحديد أن السادات بالنيابة عن الرئيس منع بشكل معلن فى خريف ١٩٥٨ محمود أمين العالم العضو البارز فى ح.ش.م. الموحد من الانضمام للحزب الوحيد للنظام (الاتحاد القومى). فمن وجهة نظر حكومية لا يمثل إصرار المنظمات الماركسية المستقلة على التواجد سوى رغبتهم فى الاستيلاء على السلطة أجلا أو عاجلا.

(٢) انظر رؤية إسماعيل-السعيد عن انقسام "حتتو" - Ismael-el-Sa'id, op. cit., p. 119- 142-143 e Botman, op. cit., p. 121. للاطلاع على التفاصيل من وجهات نظر مختلفة انظر الشهادات المثيرة التى جمعها السعيد فى "هكذا تكلم الشيوعيون" القاهرة، الأمل، ١٩٨٩.

ليحافظوا على دعمهم للرئيس. استمرت فترة الاعتقال في سجون عديدة في الصحراء حتى عام ١٩٦٤ واتسمت في البداية بالتعذيب وسوء المعاملة من كل نوع والتي دفع ثمنها شهدي عطية الشافعي أحد ألمع مناضلي الماركسية المصرية، الذي مات تحت التعذيب في ١٥ يونيو ١٩٦٠^(١). وبعد هذه الفترة الأولى من الصعوبات الشديدة، تحسنت شروط المعيشة إلى درجة أن الأديب صنع الله إبراهيم يؤكد أن السنوات الخمس التي قضاها في معتقل اللواحات شكلت "لحظة التكوين الأكثر أهمية في حياته"^(٢). ومن المفارقات أن الماركسيين كانوا أكثر "حرية" في أن يتلاقوا ويتناقشوا داخل معسكرات الاعتقال، عن الفترة التي كانوا يعملون فيها في سرية صارمة بسبب سرية أحزابهم. وقد انخرطوا مع ذلك في هذه الفترة في مناقشات حول طبيعة النظام الناصري وحول إمكانية التعاون معه. وحتى في السجن تجددت الخلافات التقليدية بين الجناح المعتدل لـ "حتتو" الذي أصر على السمات المعادية للإمبريالية وبالتالي السمات التقدمية للنظام، والجناح الراديكالي للحزب الشيوعي المصري الذي رأى عبد الناصر "ممثلاً لبرجوازية الدولة العميلة للإمبريالية"^(٣).

وأظهر فشل تجربة الجمهورية العربية المتحدة أزمة النظام الذي أظهرت سياسته كل أوجه قصور البرلمانية، إلا أنه مثل في الوقت نفسه أحد العوائق الكبيرة أمام عودة الاقتراب المحتملة نحو اليسار، غير أنه في عام ١٩٦١، وبعد سنوات من الاهتمام الفاتر من جانب النظام بالمتقنين، الذين فضل الرئيس على

(١) بخصوص نشاط شهدي عطية الشافعي قبل الثورة، انظر المصدر السابق؛ بخصوص عملية ومغزى "استشهاد" لليسر المصري انظر ملف "شهدي عطية: حياة وموت مناضل"، "الطليعة"، العدد ١ (يناير ١٩٧٥)، ص ٨٢-١١٢.

(٢) صنع الله إبراهيم، مقابلة شخصية مع المؤلف، القاهرة ١١ مايو ٢٠٠١؛ عن التعذيب الذي عانوه انظر شهادة يوسف درويش، المقابلة السابقة للذكر.

(٣) صلاح عيسى، في المصدر المذكور سابقاً، "لطفى.."، ص ٦٧.

لإجماعهم "تصفيق الشعب"^(١) وولاء البيروقراطية والتكنوقراط، حاولت السلطة اقترابا محددا تجاه اليسار المصري.

والحقيقة أنه بعد شعار "بناء الاشتراكية"^(٢)، أصبح النظام بحاجة إلى استخدام عدد محدود من مثقفي اليسار المختارين من بين مَنْ لم يعارضوا النظام بشكل صريح، والذين تواجدوا في تلك اللحظة خارج السجون.

ومما يستحق الذكر أن عودة اقتراب النظام من اليسار جاء في اللحظة التي وجد فيها المثقفون الشيوعيون خارج السجن أو داخل السجن أنفسهم ينجذبون إلى الشعارات الجديدة ذات الصبغة الماركسوية والاشتراكية التي أطلقها النظام في بداية العقد الجديد.

ومن منظور التحول الاشتراكي للدولة المصرية احتاج النظام إلى عدة شخصيات مفردة يمكن أن تُوكل إليها مهام إدارية بمسؤوليات محددة أكثر من احتياجه إلى عسكريين أو تكنوقراط غير مستعدين من وجهة نظر ثقافية وعلمية لأن يكونوا على مستوى القيام بها.

ويصف صلاح عيسى بوضوح ودقة خطوات النظام في معاودة الاقتراب من الماركسيين المصريين^(٣)، وهي المهمة التي أوكلها عبد الناصر لمحرم الأهرام محمد حسنين هيكل، الذي قرر التوجه إلى الصحفي الماركسي لطفى الخولي، الذي تم إطلاق سراحه في ١٩٦٠ بواسطة هيكل، بسبب عدم انضمامه لأي من المنظمات السرية. وقد قبل الخولي، منجذبا بلا شك إلى ما بدا أنه لتعطاف النظام

(١) انظر Vatikiotis P. J., Nasser and his generation, cit., p. 193.

(٢) عن "القوانين الاشتراكية" يوليو ١٩٦١، انظر OM, XLI, (1961), p. 761-769.

(٣) صلاح عيسى، في "لطفى..."، المصدر المذكور سابقا، ص ٦٩-٧٦ انظر أيضا رؤية مصطفى عبد الغنى النقيّة والمثيرة للجدل، المصدر السابق للذكر، ص ٤٤٦ وما يليها.

نحو اليسار، أن يحرر صفحة "الرأى"^(١) في الجريدة القاهرية اليومية "الأهرام" بادئا مع رئيس التحرير جدلا شارك فيه عدة أنصار لليسار حول ما أسموه "بأزمة المتقنين".

وبالإضافة إلى هذا وفي مقال صدر في ٢ يونيو ١٩٦١ بعنوان ذى مغزى هو "تنويب التلوج" وصف هيكى بشكل دقيق ما هى الشروط التى تقبل بها السلطة للمصالحة مع المتقنين. لم يطلب النظام من هؤلاء تعاوننا كما تم فى العهد الخديوى والليبرالى، بل نوعا من "التفاعل مع الثورة"^(٢). وبينما كان يطالب المتقنين بخلق العقيدة الثورية، كان فى الحقيقة يطلب منهم باسم السلطة الولاء للثورة ولقيادتها، ومن هذا المنطلق لا تعنى كلمة التفاعل سوى الدعم المطلق وغير المشروط؛ ومن الناحية العملية طلب عبد الناصر من اليسار المصرى التخلّى عن أى معارضة صريحة أو غير مباشرة فى مواجهة الثورة، فى سبيل أن ينصهروا فيها، دون أى مطالبة من جانبهم بالنقد أو المشاركة فى اللحظات المصيرية.

ومع الانفصال السورى فى سبتمبر ١٩٦١^(٣)، دخل النظام الناصرى فى أزمة سياسية وأيدىولوجية عميقة زاد منها فراغه الثقافى الذى لم يستطع الحزب الواحد (الاتحاد القومى) أو النخبة العسكرية ملأه.

وبالتالى تمثل "غواية" متقنى اليسار من جانب السلطة عبر قلم هيكى دورا شديدا الأهمية. ومن ناحية أخرى بدا غريبا إلى حد ما أن تتخذ مصر طريق الاشتراكية، بينما كان اشتراكيوها فى السجن وفى معسكرات الاعتقال، أما إذا كانوا أحرارا فقد كانوا مبعدين عن الحياة العامة، ولم يكن من باب المصادفة أن

(١) عن نشأة ومغزى تجربة صفحة "الرأى" وارتباطها بمولد خليفتها "الطليلة"، انظر شهادة الخولى نفسه فى كالم يحيى، المصدر السابق الذكر، ص ١٢.

(٢) انظر م. ح. هيكى فى مصطفى عبد الغنى، المصدر السابق الذكر، ص ٤٥١.

(٣) انظر Minganti, Paolo, "Il distacco della Siria dalla Repubblica Araba Unita", in: OM, XLI (1961), p671-706.

يتحدث الصحفي والمؤرخ أحمد بهاء الدين - الذي كان جزءاً من المجموعة التي تواصل معها هيكل بهدف "تنويب التلوج" - كثيراً عن الحالة المصرية على أنها "اشتراكية بدون اشتراكيين"^(١)، ساعياً إلى لفت الانتباه إلى التعذيب والقهر الذي عانى منه مناضلو اليسار في مصر. وللحقيقة أنه رغم وعود هيكل للمغربة، شارك القليل من المثقفين بشكل فعال في الجدل حول الميثاق في ١٩٦١-١٩٦٢، الذي كانت اللجنة التحضيرية له تحت قيادة السادات والسيطرة التامة للعسكريين والبيروقراطيين المواليين للنظام.

وفي هذا السياق، عندما طالبت مجموعة المثقفين بإلغاء قانون العزل السياسي الذي ألزم الجزء الأكبر من الإنتلجنسيا المصرية بالصمت، رفض عبد الناصر شخصياً أي نقد باسم "الدفاع عن الثورة ضد أعداء الشعب"^(٢).

وقد استنسخ ميثاق العمل الوطني، الذي تمت الموافقة عليه في ١٩٦٢، جزئياً دساتير دول اشتراكية أوروبية، وإن كان قد تم تحريره بقلم هيكل نفسه كما يرى البعض^(٣)، واحتوى على العديد من الإحياءات واللغة ذات الصبغة الماركسية أحياناً، والتي ترمى إلى إغراء جزء كبير من اليسار المصري^(٤). قرأ العديد من مناضلي "حتو" في الميثاق تحولاً نوعياً للنظام تجاه اليسار بينما طالب الحزب الشيوعي مناضليه بدعم مشروط "الدولة" الاشتراكية الجديدة^(٥).

(١) انظر المقابلة مع أحمد بهاء الدين في مصطفى عبد القوي، المصدر السابق للذكر، ص ٤٧٤-٤٥٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٤٥٩-٤٦٥.

(٣) هذا هو رأي مصطفى عبد القوي، الذي تكرر أيضاً في سياق مقابلة شخصية مع المؤلف، القاهرة، ٣ مايو ٢٠٠١.

(٤) انظر ميثاق العمل الوطني، القاهرة، هيئة الاستعلامات، ١٩٦٢. الترجمة الإنجليزية الرسمية منشورة في ملحق Rejwan, Nissim, Nasserist Ideology. Its Exponents and Critics, New York and Toronto, J. Wiley & sons, 1974, p. 227-234. ويظهر في OM, XLII, 5, 1962, p.462-468، مشروع الميثاق الذي تلاه عبد الناصر في المؤتمر القومي للقوى الشعبية.

(٥) Botman, S., op. cit., p. 144. ينبغي أن نذكر مع هذا أن العديد من مناضلي ح. ش. م احتفظوا بمواقفهم المعادية لـ عبد الناصر رغم الشعارات المسبحة بالاشتراكية التي تبناها للنظام. انظر المقابلة الشخصية المذكورة مع يوسف درويش.

وعلى هذا الأساس كان ينبغي لتزويد التلوج تحت إشراف هيكل في ١٩٦١ أن يتحقق في ١٩٦٤ بمناسبة زيارة خروشوف لمصر من أجل افتتاح المرحلة الأولى من سد أسوان. والحقيقة أنه تم إطلاق سراح أغلبية الماركسيين من السجون على سبيل تحية لسكرتير الحزب الشيوعي السوفيتي.

ومع قبول إطلاق سراح الشيوعيين عقدت السلطة معهم "صفقة" بحسب كلمات رفعت السعيد^(١). والحقيقة أن هدف النظام من إطلاق سراح الإنتلجنسيا الماركسية لم يختلف كثيرا عن هدف الأزمة التي هندسها هيكل في ١٩٦١. وهكذا منحت الدولة الحرية لمناضلي اليسار في ١٩٦٤ متوقعة منهم في المقابل "الولاء للثورة" أي المساندة المطلقة للنظام. فقد تم إطلاق سراح الشيوعيين بهدف واعد إدخالهم في مجال الصحافة المؤممة والمنظمات الاشتراكية التي أنشئت في ١٩٦٢. وفي الحقيقة كتب العديد من هذه التوقعات أن تتمخض عن أوهام.

وكان نشوء منبر ماركسي رسمي جزءا مهما من "الصفقة"، بهدف نشر الاشتراكية والدفاع عنها، ومن هذا المنطلق وتحقيق الرغبة المعلنة من جانب الرئيس تم تأسيس مجلة "الطلیعة" التي اختار لها الرئيس حتى الاسم^(٢)، والتي أسندت إدارتها إلى لطفي الخولي، وعبر صفحات "الطلیعة" التي كان من المقرر لها أن تصبح "منبر الماركسية المصرية الرسمية"^(٣)، حصل العديد من المثقفين - بغض النظر عن حقيقة كونهم من طلیعة الثورة كما يوحي اسم الإصدار - على إمكانية العودة إلى الكتابة مستمتعين بحرية نسبية^(٤).

(١) مقابلة شخصية مع المؤلف، القاهرة ٢ مايو ٢٠٠٠.

(٢) يؤكد الخولي في المقابلة التي تكرر ذكرها مع كرم يحيى أن هيئة التحرير الناشئة أرادت تسمية الجريدة باسم الطريق، انظر كرم يحيى، المصدر المذكور سابقا، ص ١٣.

(٣) المصدر السابق الذكر، مصطفى عبد القی، المصدر السابق الذكر، ص ٤٨٠.

(٤) Botman, S., op. cit., p. 155.

وكان لا هيكل أيضا دور مهم جدا في عملية استعادة الماركسيين إلى المجري العام للثورة. فقد تم إعلان مولد "الطلیعة" في مقال لرئيس التحرير ظهر في الأهرام في ٢٩ يناير ١٩٦٥ أكد فيه أن "المجتمع المصري لم يعد يخشى الشيوعية والشيوعيين"^(١)، وأضاف هيكل رغم ذلك، أنه ليس هناك مكان في مصر لحزب شيوعي منظم لأن الاتحاد الاشتراكي العربي، الحزب الوحيد الناصري، كان كافيا لتلبية كل مطالب المجتمع المصري"^(٢).

وفي الحقيقة لم يكن تقيد الماركسيين بـ"الصفقة" وكونهم مستعدين لدخول مؤسسات الدولة كافيين للسلطة، إذ طالب الزعيم سواء بضغط من يمين للنظام، أو بعدم تقته هو الشخصية في أي شكل منظم خارج سيطرته المباشرة، بحل واضح لكل الأحزاب الشيوعية.

في خطاب النظام - كما أكد الخولي نفسه في أحد الحوارات - كان يجب على المناضلين المصريين أن يتوقفوا عن أن يكونوا شيوعيين ليصبحوا ماركسيين "وهي كلمة دخلت في اللغة الرسمية للدلالة على الشيوعيين غير المنظمين"^(٣). وهكذا فبعد مناقشة قصيرة متوقعة النتائج^(٤)، في الشهور الأولى من ١٩٦٥، قرر كل من "حتتو" أولا ثم الحزب الشيوعي المصري ثانيا الحل الذاتي "بهدف جعل تركيز كافة القوى الاشتراكية في مصر داخل حزب اشتراكي موحد أمرا أكثر سهولة"^(٥).

(١) Dabous S., op. cit., p. 113.

(٢) Ibidem.

(٣) انظر كالم يحيى، المصدر السابق الذكر.

(٤) أكد كل من إسماعيل والسعيد أن قادة "حتتو" انضموا إلى الاتحاد الاشتراكي منذ إطلاق سراحتهم مما جعل أهمية الجدل حول قرار الحل مع أعضاء الحركة الآخرين شبه منعدمة.

(٥) الوثائق الأصلية تمت إعادة نشرها في محمود أمين العالم (تحرير) المصدر سابق للذكر ص ٣٩٨-٤٠٠ وتوجد ترجمات إيطالية جزئية له في Abdel-Malek A., =

شرحت اللجنة المركزية للحزب في وثيقة الحل قرارها المبني على الثقة الممنوحة للدولة ونوابها في بناء مجتمع اشتراكي في مصر. لكن الشيوعيين طالبوا- مقابل حل أحزابهم- بحقهم في أن يصبحوا التيار الرئيسي للفكر الاشتراكي المصري^(١)، وكان هذا بوجه خاص اقتناعا راسخا لدى مجموعة "حدثوا" بالذات والتي كانت بالفعل قد اندمجت في "الطليعة"، وجزئيا في الاتحاد الاشتراكي: الحزب الناصري الوحيد^(٢).

وكما كان الأمر في حالة الوحدة بين الأحزاب المختلفة في ١٩٥٧-١٩٥٨ لم يكن تأثير الأحزاب الشيوعية الأخرى العربية والمتوسطية على قرار حل الحركات المصرية ذاتيا في ١٩٦٥ تأثيرا بسيطا. وبذل الحزب الشيوعي الإيطالي الجزء الأكبر من الضغط عبر أعضائه دخل المجتمع الإيطالي في مصر، والموجود أغلبهم في الإسكندرية منذ القرن التاسع عشر^(٣). وكان خلف ضغط الحزب الشيوعي الإيطالي اعتبار مصر الناصرية، دولة ذات اتجاه اشتراكي واضح، وملتزمة بحركة ثورية ومعادية للإمبريالية^(٤).

=Il pensiero politico arabo contemporaneo, cit., p. 263 e in OM, XLV (1965), p. 347.

(١) المصدر السابق.

(٢) لا يبدو أننا نخاطر مخاطرة كبيرة إذا استنتجنا أنه يقف وراء قرار الحل إلى جانب الأسباب "الرسمية" الخوف من قمع جديد ضد مناضلي اليسار. ووفقا لبعض الشهادات فإن "الماركسيين المستقلين" خارج السجون مثل الخولي بدأوا فوراً حملة ترهيب قادها هيكل باقتدار، بهدف إقناع الرفاق السابقين بحل الأحزاب، انظر: إسماعيل و السعيد، المصدر السابق الذكر، ص ١٢٥.

(٣) نفس المصدر ص ١٠٦-١٠٩.

(٤) انظر: Pajetta, Gian Carlo, Socialismo e mondo arabo, Roma, Editori Riuniti, 1970 وتعقيب Pier Giovanni Donini in OM, LII (1972), p. 233-234 ، الذي ألقى الضوء على حدود تحليلات مسئولى العلاقات الخارجية في الحزب الشيوعي الإيطالي.

لكن العكس حدث، فحسب كلمات سلمى بوتمان Selma Botman "دمر الرئيس الشيوعية كمنظمات ومنع الماركسيين من أن يطرحوا أنفسهم كبديل سياسى ممكن"^(١).

٢: اليسار المصرى بعد ١٩٦٥

تحقق أكبر تجسد "للصفقة" بين الجانب الأكبر من الشيوعيين والنظام الناصرى فى إنشاء الدورية الشهرية "الطلیعة" فى بداية عام ١٩٦٦. وقد أمنت السلطة لهيئة التحرير التى سيطر عليها بفاعلية الماركسيون الخارجون من المعتقلات، وبتتسيق من لطفى الخولى، هوامش واسعة من الاستقلال الذى أمنتها حماية "هيكل".

وقد قدر للماركسيين (الشيوعيين السابقين) أن يواجهوا خيبة مبكرة أخرى: فأولاً، ظهر مبكراً أمام أعينهم أن نجاحات الدولة "على طريق الاشتراكية" تافهة وسطحية بالإضافة إلى أن النظام استمر، بشكل ملحوظ، فى الحد من نشاط الجناح الماركسى الرسمى، موكلاً للمناضلين مهامً خالية من أى مسؤولية، باستثناء تحرير "الطلیعة".

علم الماركسيون - أثناء الاتفاقات مع النظام - بنية عبد الناصر فى إنشاء منظمة طلیعة سرية دخل الاتحاد الاشتراكى، يمكنها خلق أيديولوجية مصر الاشتراكية كما أشار الميثاق فى ١٩٦٢. وقد تأسس التشكيل السياسى فعلاً من قبل الرئيس بالاسم الرسمى "طلیعة الاشتراكيين" لكنه عُرف بشكل غير رسمى باسم "التنظيم الطليعى"^(٢). وكان الخولى وجزء كبير من المجموعة المستقبلية لـ "الطلیعة" مقتنعين بأنهم يستطيعون أن يحصلوا على دور من الطراز الأول داخله، لكن

(١) انظر Botman, S., op. cit., p. 147.

(٢) رفعت السعيد، مقابلة شخصية مع المؤلف، مصدر سبق ذكره.

خبيثتهم اتضحت وتحققت عندما وجوا على رأس التنظيم شعراوى جمعة، الصديق الشخصى للرئيس والخصم القوى للشيوعية والإنتلجنسيا المصرية كمستول فى عدة وزارات فى الفترة بين ١٩٦٤ و ١٩٧١. ومن الناحية العملية، وضع عبد الناصر رجلا موثوقا فيه من جانبه على رأس التنظيم لتحديد تأثير الماركسيين الذين ظل يُنظر إليهم ويعاملون على أنهم "متآمرون محتملون"^(١).

وقد أكد ذلك الرئيس نفسه فى زيارة لهيئة تحرير "الطلبة" فى ١٩٦٦ مجيبا على لحتجاج المتقنين الماركسيين الذين اشتكوا من وزنهم الخفيف فى المؤسسات، موضحا أى دور ينبغي لهم أن يقوموا به فى رأيه، وهو ليس بالتأكيد المشاركة فى القيادة بل دور "بطرس الرسول" ألا وهو "الدعاية الثورية"^(٢). وهكذا يمثل عام ١٩٦٦ فى رأى التحليل اللامع لصلاح عيسى، حدا فاصلا مهماً فى تجربة ما سمي بالماركسية الرسمية التى جسدتها مجموعة "الطلبة"^(٣).

حتى زيارة الرئيس لهيئة التحرير، كان الماركسيون مايزالوا مقتنعين بقدرتهم على لعب دور حاسم فى تحديد الاتجاه السياسى للنظام، رغم أن ٣٦ شيوعيا سابقا فقط استطاعوا الدخول فى التنظيم الطليعى، بينما تم رفض مجرد الانضمام إلى الاتحاد الاشتراكى بالنسبة للكثيرين^(٤).

وكان لا مناص من أن يأتى التأكيد الواضح لسوء النية بشكل أكثر درامية فى أكتوبر عام ١٩٦٦ نفسه، مع اعتقال العديد من المناضلين الماركسيين بينهم عدد ممن دخلوا مؤسسات النظام. وقد تمثل هدف هذه العملية القمعية فى فك "الخلايا الشيوعية السرية الموالية للصين" التى لم تقبل بحل الأحزاب، وكان بين

(١) مقابلة مع شعراوى جمعة، فى Ismael-el-Sa'id, op. cit., p. 128.

(٢) هذه السلسلة من الأحداث رواها رئيس تحرير الجريدة نفسه "الخولى" فى المصدر السابق الذكر، كارم يحيى، ص ١٦.

(٣) انظر صلاح عيسى ولطفى الخولى، المصدر السابق للذكر، ص ٧٤.

(٤) نفس المصدر، ص ٧٣.

للمعتقلين مثقفون لامعون مثل الناقد صبرى حافظ، والصحفى صلاح عيسى، والكاتب غالب هلسا، ويحيى الطاهر عبد الله، وجمال الغيطانى^(١). ومع ذلك ضرب النظام اليسار المصرى الرسمى بشدة أيضا، باعتقال عدد من أعضائه الأكثر أهمية من بينهم رئيس تحرير "الطلیعة" لطفى الخولى، وسكرتير التحرير محمد الخفيف، ومؤسس المعهد العالى للدراسات الاشتراكية إبراهيم سعد الدين وآخرون. ويعود الاعتقال فى حالة "الشيوعيين السابقين" إلى تدهور العلاقة مع قيادة التنظيم الطليعى، المنظمة التى هيمنت عليها كما سبق القول عناصر معادية لليسار، والتى كانت مخترقة من جانب المخابرات^(٢).

وقد أظهرت اعتقالات ١٩٦٦، كما يؤكد سماح إدريس أن النظام حقق منذ البداية عزل للمثقفين ثم استردادهم وفى النهاية "إقصاءهم"^(٣)؛ وكان الهدف من هذه الإستراتيجية تبرير إقصاء من لم يُظهروا مساندة صريحة وغير مشروطة حتى فى قطاع الدعاية.

على أية حال تخلى ماركسيو "الطلیعة" بعد الاعتقالات عن كل محاولة للعمل السياسى المباشر، ورضوا بأن يصبحوا "منبرا مستقلا" داخل المؤسسات. ولا شك فى أن مثقفى هيئة التحرير أصبحوا بعد أزمة ١٩٦٦ منبهيين دائما إلى عدم تخطى الخط الأحمر غير المرئى فى معارضة النظام الناصرى، مطبقين ما عرفه صلاح عيسى "بسياسة الاستيعاب المتبادل"^(٤).

(١) انظر صلاح عيسى، "مثقفون"، المصدر المذكور سابقا، ص ٦٥-٦٦ و Stagh, Marina, The Limits of Freedom of Speech: Prose Literature and Prose Writers under Nasser and Sadat, Stockholm, Almqvist and Wilksell, 1993, p. 76؛ انظر أيضا OM, XLVI, (1966), p. 480. فى أحد اللقاءات أكد الغيطانى أنه كان بين رفاقه فى الخلية "ألمع كتاب العصر فى مصر"، انظر "الحياة" ٢٨ مايو ١٩٩٠، ص ١٢.

(٢) عبّر الخولى نفسه عن هذا التقسيم فى المقابلة المذكورة مع كارم يحيى، ص ١٤-١٥.

(٣) سماح إدريس، المصدر المذكور سابقا، ص ٧٤ ومايلياها.

(٤) انظر صلاح عيسى و لطفى الخولى، ص ٧٤ ومايلياها.

وقد منح هذا الموقف الذى كان الماركسيون مجبرين عليه عمليا، إمكانية النشر باستقلال ملحوظ، ولكن كان عليهم فى المقابل أن يمنحوا النظام القاعدة الأيديولوجية التى تنقصه. وبالإضافة إلى ذلك، يعود الفضل فى تقديس عبد الناصر باعتباره "مناضلاً" وبطل العالم الثالث حقا للكتابات المنشورة فى "الطليعة" والعلاقات الدولية للماركسيين مع الطليعة التقدمية فى العالم كله^(١). ويكفى فى هذا السياق أن نسجل أن زيارة جان بول سارتر Jean Paul Sartre و سيمون دى بوفوار Simone de Beauvoir لمصر فى ربيع ١٩٦٧ نشأت بعد اتصالات بين رمز المثقفين الملتزمين، والعديد من أعضاء هيئة تحرير "الطليعة"^(٢).

وبالإضافة إلى أشياء أخرى، فقد صنع اهتمام وكفاءة محررى "الطليعة" فى مواضيع السياسة الدولية، مع اهتمام بارز بحركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث من أفريقيا جنوب الصحراء إلى أمريكا اللاتينية، من المجلة أداة جديدة، لا يمكن الاستغناء عنها مطلقا بالنسبة للرأى العام والأكاديميين فى العالم العربى^(٣).

(١) يمكننا أن نتتبع هذا حتى الافتتاحيات الأولى المنشورة، انظر على سبيل المثال لطفى الخولى "عبد الناصر مناضلا ورئيسا للجمهورية"، "الطليعة"، العدد ٢، فبراير ١٩٦٥، ص ٥ ومايلها. لتوضيح أهمية المجلة كنقطة مرجعية لتقدمى العالم الثالث، يكفى أن نذكر الندوة المخصصة لـ "ثورة التحرر الوطنى والاشتراكية" الذى نظمه الخولى فى القاهرة عام ١٩٦٦ والذى شهد مشاركة كافة قادة الأحزاب التقدمية وحركات التحرر الوطنى فى أفريقيا، وقد نشرت أعمال الندوة فيما بعد فى المجلة، العدد ١١ (نوفمبر ١٩٦٦)، ومثلت شهادة مهمة للمحاولة الأولى الذى سعى إلى توسيع الجدل حول "الطريق العالم-الثالثى نحو الاشتراكية" بالإضافة إلى المجال المصرى والعربى على وجه الخصوص.

(٢) انظر "حوار سارتر مع المثقفين والعمال"، "الطليعة"، العدد ٤ (أبريل ١٩٦٧)، ص ١١٨ ومايلها.

(٣) على وجه التحديد، مثلت الملفات العربية عن الدول السائرة فى طريق التنمية، وهى الترجمة العربية للوثائق التى أنتجتها حركات التحرر الوطنى العديدة من فيتنام حتى كوبا وانتهاءً بمنغوليا وكوريا الشمالية، إحدى الميزات الكبرى لمجلة "الطليعة"، خاصة إذا تذكرنا أن الوضع الحقيقى لهذه البلدان والحركات فى أعوام الستينيات=

فى المجال الأيدىولوجى الصرف، يعود لمجموعة المجلة فضل إعطاء تعريف نظرى أكثر قبولا للمصطلح الفضفاض: "الاشتراكية العربية"، حيث صكوا مكانه تعبير "التطبيق العربى للاشتراكية".

وفى هذا السياق كان من المنطقى أن يدين جانب كبير من "اليسار الجديد"، الذى نشأ بعد النكسة، مجموعة لطفى الخولى، بحكم غير قابل للاستئناف، بقيامها بدور رئيسى فى تزييف الصورة الحقيقية للنظام الناصرى بوصفه بالاشتراكى والثورى، ضاربة صفحا عن طبيعته الشمولية والاستبدادية^(١).

وإذا كان قد فرض على الماركسيين أن يولجوا الحقيقة القاسية للنظام الناصرى الشمولى، فلم يستطع جزء آخر من الإنتلجنسيا التقدمية أن يخلص نفسه من واجب تكرار وتضخيم" الشعارات التى أنشأها النظام بين عام ١٩٦٢ و ١٩٦٧، ولا من توفير الدعم المطلق للسلطة. ويمكننا - مع مصطفى عبد القى - أن نرجع هذا السلوك للمتقين المنتمين إلى ما سُمى "باليسار الوطنى"^(٢). ويمكن أن يظهر هذا التعبير فى الخطاب السياسى العربى منطويا تقريبا على تناقض لطفى، إلا أنه يُستخدم كثيرا فى الخطاب العربى المعاصر للتمييز بينه وبين اليسار الماركسى والاممى الذى يُتهم عادةً من قبل الأنظمة الحاكمة بكونه "فى خدمة قوى أجنبية"^(٣). وكان على صبرى الأمين العام للاتحاد الاشتراكى العربى يمثل مرجعا رسمياً لمتقى هذا الاتجاه؛ وعبر صفحات جريدة الجمهورية اليومية، روجوا

=كان غير معروف بالمرّة من جانب الإنتلجنسيا العربية التى لم تعرف اللغات الأوروبية وكان حصولها على النصوص المنشورة فى الخارج يعد مستحيلا لأسباب عديدة.

(١) على سبيل المثال شهادة حسنين كشك، مقابلة شخصية مع المؤلف، للقاهرة، ٢ يونيو ٢٠٠١.

(٢) مصطفى عبد القى، المصدر السابق الذكر، ص ٤٩١-٤٩٢.

(٣) بخصوص قضية التصنيف السياسى، انظر شهادة المؤرخ عبد العظيم رمضان فى "مصر فى عهد السادات"، الجزء الثانى، المصدر المذكور سابقا، ص ٧-٩.

لخيارات النظام في السياسة الداخلية والخارجية، كما حدث في الجدل العنيف المضاد للولايات المتحدة^(١).

وينبغي أن نذكر أن العلاقات كانت شديدة الصعوبة بين هذه التيارات ومجموعة "الطلبة" سواء بدوافع أيديولوجية أو داخلية في النظام. وقد انعكس التنافس بين علي صبري وهيكمل أيضا على المثقفين الواقعيين في "حمايتهم"، مع استثناء وحيد ملحوظ، هو محمود أمين العالم الماركسي الذي أطلق سراحه في ١٩٦٤، وقد تعاون مع مجلة لطفى الخولى رغم كونه شديد القرب من علي صبري ونشره بانتظام في الجمهورية.

ويُعتبر محمد أنيس (١٩٢١-١٩٨٦) أستاذ التاريخ بجامعة القاهرة ورئيس مشروع تصحيح التاريخ المصري" رمزا بالنسبة لهذا التيار، وقد دعا إلى تبني العقيدة الاشتراكية الجديدة في العلوم الاجتماعية، وإلى سياسة إقصاء صارمة ضد الأكاديميين الذين رفضوا تحقيق الاشتراكية في مناهجهم^(٢). وقد لاقى المشروع الطموح الذي يرمى إلى إعادة كتابة التاريخ الوطنى بما يتفق مع المقولات الواردة في الميثاق الوطنى ١٩٦٢ حماسا خافتا في المجال الأكاديمى، حيث كان لا يزال تغلب على جانب كبير منه مشاعر ليبرالية ذات أصول وفدية. وبصورة خاصة فإن المؤرخ محمد الشرقاوى، رغم مشاركته في الموافقة على ضرورة كسر احتكار المستشرقين الغربيين للتأريخ للدول العربية والعالم الثالث بشكل عام، حذر زملاءه من خطر كتابة "نسخة أرثوذكسية" لسيرة مصر المعاصرة. ورغم نجاح وانتشار الأعمال التى ألهمتها أفكار محمد أنيس، يعتقد المؤرخ أنتونى جورمان Anthony

(١) انظر مقالات محمد أنيس عن الإمبريالية الأمريكية الشمالية وصلتها بالصهيونية والتى ورد ذكرها فى Crabbs Jr., Jack, "Politics, History and Culture in Nasser's Egypt", International Journal of Middle East Studies, 6 (1975), p. 398-399.

(٢) انظر Carré, O., op. cit., p. 254. عن محمد أنيس انظر مصطفى عبد الرحيم محمد أنيس مؤرخا ومناضلا، الهلال، ٩٤ (نوفمبر ١٩٨٦)، ص ٦٠ ومايلها.

Gorman في دراسة حديثة ولامعة، أنه لا يجب التقليل من وزن هذه "المحطة الاشتراكية"، وإن كان من المشكوك فيه حقيقة أنها ساهمت في تطوير واضح للتاريخ الوطني في مصر^(١).

لكن حتى العلاقات بين اليسار الوطني والسلطة لم تكن محصنة من المشاكل، فلم يتجنب النظام ضرب "متقفيه العضويين" عندما احتاج في الفترة ما بين عامي ١٩٦٤ و ١٩٦٦ إلى التعامل مع للنظم للرجعية العربية الذين وصمهم محمد أنيس وأنصاره بكونهم "عملاء الإمبريالية الأمريكية"^(٢).

وباختصار قامت السلطة في الفترة السابقة على حرب الأيام الستة بإعادة ملء السجون^(٣) بالمتقفين الذين كانت قد أطلقت سراحهم لتوها واثقة في مساندتهم ثم تراجعت عن ذلك. وأصاب موجة القمع الجديدة بشكل خاص الشيوعيين الذين قرروا حل منظماتهم من أجل الانخراط في "التيار الاشتراكي الوحيد".

ويمكننا أن نؤكد أن النظام الناصري لم يترك للإنجليز بديلا عن الخيار بين "الصمت" وما أسماه هيك بـ "التفاعل". وبالتالي فإنه حتى في "الفترة الاشتراكية" حكم على كل محاولة لكشف السمات الأوتوقراطية والاستبدادية للسلطة خلف حجاب الشعارات التقدمية بالصمت.

(١) انظر Gorman, Anthony, *Historians, State and Politics in Twentieth Century Egypt. Contesting the Nation*, London, RoutledgeCurzon, 2003, p. 55-61.

(٢) انظر Crabbs Jr., J., op. cit., p. 398-399. عن العلاقات العربية البينية في الستينيات وخاصة عن العلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة والمملكتين السعودية والهاشمية، انظر Kerr, M. H., op. cit.

(٣) رغم استفادة التيار الإسلامي الراديكالي في عام ١٩٦٥ من عفو عام إلا أنه ضرب في العام التالي بقمع وحشي تصاعد مع إعدام سيد قطب، مرشد الإخوان المسلمين، انظر OM, XLVI (1966), p. 479.

وإذا كان الخط السياسى للنظام يتبع خطة حركة متممة مضمرا سحق معارضة اليسار بعد أن حاول ضمها إليه بلا جدوى، فلم يبد موقف المتقنين الماركسيين هذا الاتساق والتكامل بعد إطلاق سراحهم فى ١٩٦٤؛ فقد فضل العديد من الماركسيين التقدميين قبول عروض الحكومة بشغل أماكن بمسؤوليات محدودة بعيدة عن الحياة السياسية عوضا عن العودة إلى السجن^(١). وكذلك قبلت مجموعة "الطليعة" - منبر الماركسية الرسمية بصفة أساسية رغم أن ذلك قد تم بشكل حافل بالمشاكل والصراعات - أن تقوم بدور "القديس بولس" الذى رسمه لها الرئيس.

وكانت هناك إشارة دائمة إلى نص الميثاق فى كتابات هؤلاء الكتاب، وقد أظهر هذا الاختيار رغبة جزء كبير من اليسار المصرى فى التوصل إلى حل وسط بين اللغة الماركسية وكلمات النظام^(٢).

ومن هذا المنطلق تصعب تبرئة اليسار من المشاركة فى مسئولية اختفاء جيل حقيقى فى الحياة السياسية المصرية. ومما لا يقبل الجدل، حقيقة أن الجزء الأكبر من الحقل السياسى والثقافى الماركسى المصرى تخلى عن دور الناقد فى مواجهة السلطة، مفضلا موقفا متذبذبا بين المساندة الفاترة والرقابة الذاتية. وبهذا المعنى يمكننا أن نتفق مع حكم مصطفى عبد القى الذى أكد أن الستينيات شهدت اختفاء المتقف المتمرد^(٣)؛ وعلى نفس المنوال اعتقد سماح إريس أن الإنتلجنسيا

(١) انظر Rodinson, Maxime, "The Political System", in Vatikiotis, P. J. (ed.), Egypt since the Revolution, p. 108.

(٢) انظر بهذا الخصوص التحليل الكفء والموثق Rami Ginat, op. cit., p. 134-143.

(٣) انظر مصطفى عبد القى، المصدر المذكور سابقا، ص ٥١٧. ويوضح هذا المؤرخ والصحفى النماذج المختلفة من المتقنين الذين تميزت بهم المرحلة الناصرية، وهذه النماذج لم تتبلور لأنه وفقا لـ عبد القى، يغير المتقف موقعه وفقا لموقف السلطة كما يراه. و"الاستنتاج المرير" الذى يتوصل إليه عبد القى هو أن الستينيات شهدت تحلل المتقف "المتمرد" فى مصر الذى أصبح وفقا للظروف "صامتا" أو "متصالحا" أو "داعما" للنظام، إلا أن التحليل الذى نستنتجه على ضوء مشاركة الإنتلجنسيا المصرية فى مسئولية اختفاء وخيانة الديموقراطية يبدو "آليا" ومفتقرا للحكمة. ذلك أن مقال=

الماركسية مسئولة بشكل ما عن هزيمة ١٩٦٧ لأنها قبلت أن تكون جزءاً من النظام الناصري متخاية عن المعارضة السياسية^(١).

ويبدو من الضروري أن نبتعد عن التحليلات التي تدّين بحكم بلا استئناف طبقة المثقفين المصريين بأكملها بأنهم شركاء في فساد النظام الناصري. فهذا التفسير ليس مقبولا بشكل كامل سواء على الصعيد السياسي أو الأدبي. ففي الحقيقة دافع العديد من المناضلين الماركسيين منذ السبعينيات عن نفس مواقفهم في عهد عبد الناصر، منبهين إلى حقيقة أنهم بعيدون تماما عن تعاون واشتراك حقيقي معه "فقد قضى العديد من المثقفين الشيوعيين فترة الستينيات في السجون ومعسكرات الاعتقال"^(٢). ومن الضروري أن نتذكر كيف كان اليسار العربي بأكمله في الستينيات متحمسا للرئيس المصري، فلم يكن من السهل على أى مثقف مهاجمة عبد الناصر سياسيا وأيديولوجيا منذ اللحظة التي اعتبر فيها الجميع هذا الأخير رمزا للثورة العربية وللصراع ضد الصهيونية والإمبريالية^(٣).

=عبد الغنى رغم دعمه بمصادر عديدة وجبل قوى ولاقت للنظر يفقر إلى مقاربة سوسيولوجية أدبية ونقدية-أدبية موجودة في أعمال أخرى. بالنسبة للمقاربة السوسيولوجية انظر الأعمال المذكورة سابقا لـ سماح إدريس وصلاح عيسى، "مثقفون و....."، ومارينا ستاج. بينما اتبع منهج النقد الأدبي عز الدين إسماعيل "الشعر العربي المعاصر"، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨١؛ وغالى شكرى، "المثقفون والسلطة في مصر" للقاهرة، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٩٠. كما يمكننا قراءة الملاحظات النقدية التي تشاركها الرأى بخصوص مقال عبد الغنى في مصطفى مرتضى على، المصدر السابق الذكر، ص ١٤٤-١٤٥.

(١) انظر سماح إدريس، المصدر المذكور سابقا، ص ٦١.

(٢) رفعت السعيد، المقابلة الخاصة السابقة للذكر.

(٣) المصدر السابق. بخصوص الأيديولوجية الناصرية لليسار العربي، انظر طارق إسماعيل.

ورغم أن المتقنين لم يتخذوا طريق الجدل الواضح فإن التحليل المدقق للأعمال الروائية والمسرحية للكتاب المصريين في العهد الناصري يُظهر وجود نقد للنظام حتى لو كان مقتنعا باستخدام المجاز والرمز والإيهام تجنباً للرقابة^(١).

٣: اليسار في مواجهة النكسة^(٢)

حدثت الهزيمة التي عانى منها العرب في حرب الأيام الستة، تبعاً للمؤرخ المغربي عبدالله العروي بداية مرحلة جديدة في التاريخ العربي المعاصر. وتزايدت الأزمة الأخلاقية التي تلت الهزيمة حتى وصلت إلى "فترة من النقد الذاتي المعذب" تبعاً لمفردات العروي، وكانت الناصرية هي الضحية الرئيسية لهذه الفترة^(٣).

(١) على سبيل المثال يستخدم سماح إدريس في تحليله روايات "ميرامار" لـ نجيب محفوظ، و"ثجمة أغسطس" لـ صنع الله إبراهيم، و"الزيتى بركات" لـ جمال الغيطاني. انظر سماح إدريس، المصدر السابق للذكر، ص ١٤٩-١٧٥. ويمثل محفوظ، خاصة في رواية "ميرامار"، النماذج الأساسية لمصر الناصرية باستخدام ضيوف بنسيون في الإسكندرية وهو ماسمى الكتاب باسمه. ويبرز من النص نقد قوى ضد الثورة ورئيسها الذي يمكن تتبع أثره بشكل مجازي في شخصية سعد و "الطبقة الجديدة" الثورية والممثلة في شخصية سرحان البحيري، العضو الشاب في مجلس إدارة شركة مؤمنة، الذي انتخبه عمال ومناضلو الاتحاد الاشتراكي، والذي يحاول النصب على الشركة التي يعمل لديها لمصلحته الشخصية. انظر أحمد م. عطية، "نجيب محفوظ وطريق الثورة" في "الآداب"، العدد ٥، ١٩٦٧، ص ٩-١١. انظر أيضاً Mehrez, Samia, Egyptian Writers between History and Fiction. Cairo, AUC Press, 1994.

(٢) من أجل سلاسة العرض نواجه في هذه الفترة فقط رد فعل اليسار الرسمي مؤجلين تحليل ردود فعل "اليسار الجديد" للفصل القادم.

(٣) انظر Laroui, Abdallah, The Crisis of the Arab intellectual: Traditionalism or historicism?, Berkeley, University of California Press, 1976, p. VII، والمراحل الثلاث التي سبقت الأزمة وفقاً للكاتب هي: النهضة (١٨٥٠-١٩١٤)، والصراع من أجل الاستقلال (١٩٤١-١٩٥٨)، والحركة الوحشية (١٩٥٨-١٩٦٧) التي كان بطلها جمال عبد الناصر.

وإذا كان من الصحيح أن الناصرية قد دخلت في أزمة عميقة كأيدولوجية عربية شاملة، فإن من الضروري أن نذكر أنها نجحت في البقاء كنظام في السلطة، فقد أوضحت المظاهرات الشعبية التي رفض فيها معظم المصريين تنحي الرئيس في ليلة ٩ يونيو أن التجربة السياسية الناصرية لن تنتهي بالهزيمة العسكرية. وعرف عبد الناصر كيف يستخدم شخصيته الكاريزمية في هذا الموقف أيضا. ونجح في اختصار الهزيمة إلى حدث عسكري بحث ملقيا بالمسئولية على قادة الجيش بصحبة "القوى الإمبريالية العالمية التي تحالفت مع الدولة للصهيونية ضد العرب"^(١).

ومثلت الهزيمة ضربة قاسية أيضا لليسار الرسمي الذي كان قد أخذ على عاتقه واجب "تجميل صورة سياسات النظام بأقنعة تقمية". ورغم الغياب الكامل لأي انتقادات للرئيس فإن تحليل صفحات "الطلیعة" يظهر أن الموضوع الرئيسى للمقالات المنشورة مباشرة بعد الهزيمة هو "النقد الذاتى" للمتقین بلا منازع. كذلك يجب أن نسجل أن النقد الذاتى كان موضوع مقال رئيس للتحريیر المنشور عشية الحرب، والذي وبخ فيه لطفى الخولى المتقین "التقدميين" على غياب الوضوح في تقييمهم للاختلالات الموجودة في المؤسسات، وحثهم على العودة إلى لعب دورهم كضمير نقدي للشعب وللثورة^(٢).

على أن مجموعة "الطلیعة" لم تصل أبدا إلى إلقاء مسئولية للهزيمة على عبد الناصر فقد قامت بإزاحة واضحة لحدث الهزيمة لصالح التركيز على وطنية تتهم إسرائيل والإمبريالية العالمية بالتصعيد العسكري^(٣). وفي مقال مثير نشر بعد

(١) انظر الفصل الأول من هذه الدراسة.

(٢) انظر لطفى الخولى "تحو... نقد ذاتى للشعب"، "الطلیعة" العدد ٥ (مايو ١٩٦٧)، ص ٨-١٠. عن هذا النص نفسه انظر التعليق بأثر رجعى لنفس الكاتب في كلام يحيى، المصدر المذكور سابقا، ص ١٥٠.

(٣) انظر افتتاحية يوليو ١٩٦٧ "الثورة قائمة .. المعركة مستمرة والنصر حليفنا" الموقعة باسم "الطلیعة".

الهزيمة تجنب المؤرخ المناضل أبو سيف يوسف أى نغمة متهاونة، وفى تمجيده للدور الثورى للجماهير التى نزلت إلى الميادين فى ٩ و ١٠ يونيو استغل الموقف لمهاجمة الإنتلجنسيا^(١). فقد كان المتقنون وفقا لهذا الكاتب "مندهشين" و"مرتعبين" من الشعارات الشعبية التى استخدمت فى ٩ و ١٠ يونيو لأنهم استهانوا بدور الجماهير وقدرتها على معارضة الادعاءات المضادة للثورة من قبل البرجوازية الصناعية والزراعية الكبيرة. فقد قامت الجماهير - كما استنتج أبو سيف يوسف - بصنع ميلاد جديد للثورة فوق رماد الهزيمة.

بدأ المتقنون الماركسيون بعد تخطيهم الصدمة الأولى لفترة ما بعد الحرب التحرى بموضوعية أكبر عن أسباب الهزيمة؛ ولم يستطيعوا بالطبع إلقاء المسؤولية على النظام كليا ووجهوا انتقاداتهم ليبروقراطية وتكنوقراط الثورة متهمين إياهم بإضعاف المؤسسات والمجتمع المصرى، مكونين "الطبقة الجديدة" التى اغتنت بشكل غير قانونى على حساب "تحالف الشعب العامل" الذى كان يجب أن يشكل أساس الثورة^(٢).

وفى مقال طويل وجدلى منشور بعد الـهبة بستة أشهر هاجم لطفى الخولى بلا مواربة طبقة البيروقراطية والتكنوقراط الجديدة قائلا إنها "تمتعت وما زالت تتمتع بامتيازات غير قانونية على حساب الشعب". وقد لاحظ رئيس التحرير أن مصالح هذه الطبقة الجديدة لا تتوافق بالتأكيد مع مصالح الجماهير ومتقفيهم الطليعيين، لأن الطبقة البيروقراطية كانت ضد "الاشتراكية"^(٣).

(١) انظر أبو سيف يوسف، "على طريق ٩ يونيو العظيم"، "الطلیعة"، العدد ٧ (يوليو ١٩٦٧)، ص ٧-٩.

(٢) ظهر هذا الموضوع منذ أول افتتاحية بتوقيع رئيس التحرير بعد الهزيمة. انظر لطفى الخولى، "٥ يونيو: الحقيقة والمستقبل"، "الطلیعة"، العدد ٨ (أغسطس ١٩٦٧) ص ٥-١٠. للحصول على تحليل أكثر اكتمالا ووضوحا انظر على سبيل المثال عبد الرحيم غنایم، "حول قضية الطبقة الجديدة"، "الطلیعة"، العدد ٢ (فبراير ١٩٦٨)، ص ٨٢-٩٣.

(٣) انظر لطفى الخولى، "حسابات ستة شهور عن العدوان والمقاومة"، "الطلیعة"، العدد ١٢ (ديسمبر ١٩٦٧)، ص ٥٦-٧١.

كذلك كان الجدل ضد برجوازية الدولة الجديدة التي نشأت نتيجة التأميمات الذي قامت به ثورة ١٩٥٢، موجودا على صفحات "الطلیعة" قبل هزيمة يونيو. ذلك أن المتقین الماركسيين الذين اندمجوا في المؤسسات الناصرية، مقتنعين بأنهم قادرون على الحصول على دور رئيسي في النظام، سرعان ما اكتشفوا أن الجيش بفرعيه من البيروقراطية والتكنوقراط احتفظ إلى جانب الرئيس بكل سلطة اتخاذ القرار على كل المستويات.

وبرز مطلبان من جانب "الشيوعيين السابقين" في الكتابات المنشورة في "الطلیعة" في الفترة التي تلت النكسة. فمن ناحية طالبوا بشدة بإصلاح المؤسسات والحزب الواحد بشكل ديموقراطي لصالح انتقال فعال للسلطة إلى أيدي الجماهير. ومن الجانب الآخر دعا الماركسيون إلى التحول الاشتراكي للدولة كهدف أول وإن كانت مصر تواجه العدوان والاحتلال الإسرائيلي^(١).

وكان موضوع اشتراك الجماهير الشعبية في إدارة الدولة - الذي أقره ميثاق العمل الوطني في ١٩٦٢ - هو القاسم المشترك بلا منازع في الإنتاج الماركسي بعد الحرب. فقد رأى هؤلاء في اللومين المجيدين ٩ و ١٠ يونيو اللذين نزلت فيهما الجماهير إلى الشارع لمساندة رئيسهم في مواجهة العدوان الإسرائيلي التأكيد على الدور الحاسم الذي تستحقه الجماهير^(٢).

(١) قُتِمَت ردود أفعال المتقین في المجلة في سياق جدل طويل شاركت فيه كل الأصوات الأكثر أهمية للماركسية المصرية. انظر كراس المناقشة "ما العمل"، "الطلیعة"، العدد ٨ (أغسطس ١٩٦٨)، ص ٢٢-٦٠. وتشير بين المقالات الأكثر إثارة للاهتمام إلى مقال زكي مراد، "ماذا قالت ثورة ٩ و ١٠ يونيو؟" ص ٢٢-٢٥ عن ضرورة إصلاح وإعادة تنشيط الاتحاد الاشتراكي، ومصطفى طيبة، "المعنى الجديد للوحدة الوطنية والوحدة القومية"، ص ٥١-٥٣ عن العلاقة الحاسمة بين الكفاح الوطني المصري والكفاح العربي.

(٢) انظر أبو سيف يوسف "على طريق ٩ يونيو العظيم" المصدر السابق الذكر. انظر أيضا الفصل الأول القسم ١: أ.

وطالب المتقنون الثوريون لأنفسهم بدور الطليعة الأيديولوجية في إطار حزب طليعي اشتراكي بالإضافة إلى المطالبة بدور بارز للجماهير العاملة. وهذا الحزب هو الذي كان يمكن أن يوجد إلى جانب الاتحاد الاشتراكي، وكان يمكن أن يوضع كضمان للثورة ولسماتها الاشتراكية والديموقراطية وفقا لميثاق ١٩٦٢^(١). وقد استعاد الشيوعيون السابقون في مطالبتهم بحزب الطليعة الفكرة التي أغرام بها الرئيس عندما كان الجزء الأكبر منهم لا يزال في السجن، إلا أن استئناف هذا الطالب يعد دليلا دامغا على التجربة الفاشلة للتنظيم الطليعي^(٢).

ورأت مجموعة المجلة في بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ استجابة من جانب الرئيس لجزء من مطالبهم وبالذات فيما يخص إصلاح الحزب الواحد وإنشاء لجان شعبية و"طليعية"، وفي الوقت نفسه برز في المقالات الجدل المستمر ضد مراكز القوى داخل الاتحاد الاشتراكي التي أعاقَت التغيير الديمقراطي للدفاع عن المزايا التي حصلت عليها بشكل غير قانوني.

ويمكن استنتاج أهمية البيان للشيوعيين السابقين بسهولة من الملف الضخم المخصص للتحليلات والتوجهات التي تطرق إليها الميثاق، والذي ظهر في "الطليعة" في عدد مايو ١٩٦٨^(٣). طالب محمد الخفيف بشكل واضح، في المساهمة الأكثر تمثيلا للملف، بأن يتحول كل ما كتب في البيان إلى حقيقة معيشة والنقطة الأهم في البيان يجب أن تكون - وفقا للعضو الماركسي - مشاركة كبيرة للشعب في إدارة الدولة إذا لم نرد تجاهل رسالة مظاهرات الجماهير في يونيو ١٩٦٧^(٤). ويظهر تفاؤل الماركسيين في مواجهة البيان وانتخابات الاتحاد الاشتراكي - بشكل

(١) انظر المقال الجماعي، "تظرات في الوضع الداخلي الراهن"، "الطليعة"، العدد ١١ (نوفمبر ١٩٦٧) ص ١٠-١٦.

(٢) انظر شهادة الخولي في كارم يحيى، المصدر السابق الذكر، ص ١٦.

(٣) انظر "٣٠ مارس في التطبيق"، "الطليعة" العدد ٥ (مايو ١٩٦٨) ص ١٣-٤٣.

(٤) انظر محمد الخفيف، "حتى يتحول البرنامج إلى الواقع"، المصدر السابق، ص ١٤-١٨.

واضح - فى مقال رئيس التحرير المنشور بعد النكسة بعام، والذي استطاع لطفى الخولى أن يعرض فيه على جمهوره من المثقفين "الثوريين" تقييما إيجابيا فى مجمله للتطورات السياسية بعد الحرب سواء فى الداخل أو الخارج^(١).

إلا أن عدم تطبيق البرنامج الذى احتواه الميثاق وتركيز عبد الناصر على السياسة الخارجية على حساب الوضع الداخلى^(٢) كان لهما، مع مرور الوقت، أثر تمثل فى إنكفاء إدراك المثقفين الماركسيين لهامشيتهم وإقصائهم من جديد من جانب النظام^(٣).

وقد دفعت صعوبة الموقف الاقتصادى الداخلى النظام الناصرى إلى تفضيل عودة الطبقة البرجوازية التقليدية التى كان قد جرى تهميشها إلى ذلك الحين دون أن تختفى عودة محدودة إلى المشهد السياسى لمواجهة إعادة التسلح الجديدة وصعوبات اقتصاد الحرب. ودفع عدم استقرار الموقف الذى شعر به للرئيس إلى وضع ثقته مرة أخرى فى المخلصين للنظام، أى فى طبقة البيروقراطية والتكنوقراط، التى ينس الشيوعيون السابقون منها بشدة على حساب "الخبراء" المثقفين.

وقد أدت الصعوبة المتزايدة للإبقاء على خط سياسى مستقل وواضح داخل النظام بسبب "الرقابة فى زمن الحرب" التى أرادت "ألا يعلو صوت فوق صوت المعركة" إلى صعوبة التعرف على الدلائل الواضحة لبداية الخلاف بين اليسار الرسمى والسلطة. إلا أنه يمكن تتبع بعض آثاره فى المقالات المنشورة فى المجلة فى عام ١٩٦٨، ويمكن استنتاجه من مسيرة رئيس تحريرها.

(١) انظر لطفى الخولى، "يونيو ١٩٦٧ .. يونيو ١٩٦٨"، "الطليعة"، العدد ٦ (يونيو ١٩٦٨) ص ٥-١٤.

(٢) انظر الفصل الأول القسم ٢: ب.

(٣) انظر على سبيل المثال الانتقادات اللاذعة الموجودة فى ميشيل كامل "مشاكل القوى الوطنية داخل التحالف الوطنى"، "الطليعة"، العدد ٥ (مايو ١٩٦٩) ص ٩-١٩.

وفيما يتعلق بموقف الماركسيين إزاء "المشروع التقمى للوحدة العربية" عند عبد الناصر، الذى تم طرحه جانبا منذ قمة الخرطوم فى ١٩٦٧، بدأت مجموعة "الطليعة" رغم احترامها لشخصية الرئيس، فى رؤية نموذج للصراع بديل للناصرية، وبالتحديد نموذج المقاومة المسلحة الفلسطينية. وكان لطفى الخولى قد تخطى لأول مرة مواقف النظم العربية بالفعل فى افتتاحية مهمة فى مايو ١٩٦٨ ليكرس شرعية المقاومة الفلسطينية المسلحة، متعرفا فيها على الرد العربى الحقيقى على العدوان الإسرائيلى^(١). ومع مرور الأشهر وتزايد خيبة أمل "الشيوعيين السابقين" فى المواجهات مع النظام، الذى تحكمت فيه أكثر مجموعة على صبرى. بدأ رئيس التحرير فى التخلي عن أى إشارة إلى النظام المصرى فى مقالاته داعيا القوى الثورية العربية إلى التمثل بالثورة، بالمقاومة الفلسطينية المسلحة ودعمها طارحا بدائل جذرية للسياسة المتصالحة مع الولايات المتحدة الأمريكية التى استهأها عبد الناصر^(٢). ويتضح من المقالات المنشورة فى عام ١٩٦٩ أن هيئة التحرير حرصت دائما على تجنب الصدام المباشر مع النظام ليتخذوا موقف "المعارضة المسئولة" التى اتسمت بها العلاقة بين الماركسية الرسمية المصرية والنظام حتى منتصف السبعينيات^(٣).

صحيح أن السياسة الخارجية مثلت بشكل ما أرضية كان من الأسهل فيها إدارة حوار مع مجموعة على صبرى، حيث كان كل من الماركسيين وقادة الاتحاد الاشتراكى نوى ميول سوفيتية، غير أنه فى هذا المجال أيضا، ساهم إعجاب الماركسيين المتزايد بنماذج الصراع البديلة للنموذج الناصرى، مثل النماذج المتجسدة فى المقاومة المسلحة الفلسطينية والفيتنامية والكوبية، فى تأجيج التوتر بين المجموعتين.

(١) انظر لطفى الخولى، "تحو جبهة عربية. حول المقاومة الفلسطينية"، "الطليعة"، العدد ٥ (مايو ١٩٦٨) ص ٥-٨.

(٢) انظر، على سبيل المثال، افتتاحية لطفى الخولى، "جبهة عربية يهودية عالمية ضد الإمبريالية والعنصرية"، "الطليعة"، العدد ٤ (أبريل ١٩٦٩) ص ٥-١٠.

(٣) انظر عيسى لطفى، نفس المصدر.

لما بالنسبة للجدل السياسى الداخلى، فبالإضافة إلى القاسم المشترك فى الجدل ضد طبقة البيروقراطية والتكنوقراط وضد برجوازية الدولة، اتخذ الماركسيون موقفاً نقدياً بكل وضوح ضد النظام فى المواجهات مع حركة ١٩٦٨ الطلابية. ولم يكن الأمر يتعلق باتخاذ موقف الطلاب، لكن مجرد حقيقة إتاحتهم مساحة فى الصحافة للأصوات التى أرادت السلطة إخمادها باسم للوطنية والوحدة الوطنية، مثلت تحدياً غير خفى تماماً لهيمنة الحزب الواحد فى الحياة السياسية القومية. فلم يكن من باب المصادفة أن يتم إجبار سعد زهران مؤلف الملف الضخم عن الحركة الطلابية القومية والعالمية المزود بالوثائق واللقاءات، على اختيار حياة المنفى فى الجزائر فى مواجهة التهديد بخسارة كل حق سياسى ومدنى فى بلاده^(١).

ومن الأحداث الأخرى التى يمكن أن نلمح فيها بسهولة تحدياً للنظام، رغم احترام مكانة الرئيس، الملف الثمين الذى أهده "الطلبة" إلى الجيل الجديد من الأدباء^(٢). فبالإضافة إلى ميزة التعريف بالأصوات الجديدة فى الأدب والنقد الأدبى المصرى يمثل نشر الآراء السياسية للكتاب الشبان وتقييمهم للثورة حركة شجاعة بلا منازع من جانب الماركسيين، ولم يكن هذا ممكناً قبل عام ١٩٦٧. والواقع أن الأدباء الشبان انتقدوا فى شهاداتهم احتكار النظام للمجال الأدبى، وافتتاحه الضئيل على الخارج، رغم التزامه المعلن بالوحدة العربية وتأييد العالم الثالث. وبالإضافة إلى ذلك فإن وجود عدة مناضلين ماركسيين تم اعتقالهم فى ١٩٦٦، مثل جمال الغيطانى وصبرى حافظ، بين صفوف المتحاور معهم كان يمثل، فى حد ذاته،

(١) يظهر الملف الخاص بالحركة الطلابية بعنوان "شباب ١٩٦٨ يهز العالم" فى العدد الثامن والتاسع (١٩٦٨) من "الطلبة". وفى مقابلة شخصية (القاهرة ١٥ مايو ٢٠٠١) أكد لى سعد زهران الذى أجبر على منفى طويل فى الجزائر التهديد بالطرد من الاتحاد الاشتراكي (وهو ما يساوى المنع من النشر) بسبب المقالات المنشورة. ومن الجدير بالذكر أنه حتى نهاية عام ١٩٦٥ كان عضواً فى الحزب الشيوعى المصرى "الرأية" وهو تشكيل راديكالى جداً فى الحركة الماركسية الثابتة.

(٢) انظر "هكذا يتكلم الأدباء الشبان"، "الطلبة"، العدد ٩ (سبتمبر ١٩٦٩)، ص ٨٧-١٤.

تحدياً للنظام رغم تطيف جدهم بواسطة تعليقات بعض أعضاء الحرس القديم، الذين ظلوا جزئياً على مسافة من مواقع الجيل الجديد^(١). وقد مثل لطفى الخولى استثناء بين هؤلاء فى كتابته فى خاتمة الملف، حيث اتخذ العديد من المواقف النقدية للمتقنين الشبان، الذين أسماهم بجيل الغضب، وحدد سبب الاضطراب الذى تمخض عنهم فى غياب الديمقراطية والجدل السياسى فى المجتمع المصرى^(٢).

أظهرت المساحة المعطاة من "الطليعة" لهؤلاء الكتاب المعاكسين للتيار والرقابة الواضحة التى عانى منها سعد زهران بسبب انضمامه إلى جانب الطلاب، أن الهزيمة قد زادت من صعوبة محافظة الماركسيين على خط مستقل، حتى فى حدود "النقد البناء" مع الضعف النسبى لمركز الرئيس، وصعود مجموعة على صبرى. وبمرور الوقت ومع تزايد مطالب الإنتلجنسيا بإصلاح الاتحاد الاشتراكى وصل عدم صبر وتشكك على صبرى النقطة التى طلب فيها من لطفى الخولى أن يترك هيئة الأهرام التى كان رئيس تحريرها يقوم بتأمين الحماية للماركسيين، وبعد رفض الصحفى استطاع أمين الاتحاد الاشتراكى فى مايو ١٩٧٠ أن يجد طريقة يلقى بها القبض على لطفى الخولى بهدف التشهير بـ "اليسار الرسمى"^(٣).

ورغم أن إلقاء القبض على رئيس تحرير "الطليعة" لا يعنى فشلها فإن أى محاولة للمصالحة بين الماركسية وسياسات النظام بنت نوعاً من التلقيق، وذلك

(١) لنأخذ، على سبيل المثال، مقال للكاتب لويس عوض، نفس المصدر، ص ٦٩-٧١، الذى اتهم فيه الناقد الشهير المتقنين الشبان بالسطحية؛ ومقال لطيفة الزيات، ص ٧٤-٨٠، الذى أبدى فيه الكاتبة على العكس من ذلك تفهماً كبيراً لغضب الأجيال الجديدة.

(٢) انظر لطفى الخولى، "جيل الثورة والتمرد والهجرة المغلقة"، نفس المصدر، ص ٨٠-٨٧.

(٣) ألقى القبض على الخولى بسبب تسجيل إحدى محادثاته الشخصية مع نوال المحلاوى سكرتيرة هيكى أكد فيها رئيس تحرير "الطليعة" أن للنظام كان سبب نقص الديمقراطية فى مصر، انظر شهادة الخولى فى كلام يحيى، المصدر سابق الذكر، ص ١٦-١٧.

أيضا بسبب تأثير الخطوات باتجاه الحوار على صعيد الصراع العربي الإسرائيلي^(١)، وقد أظهر ذلك - في واقع الأمر - لاختيار الماركسيين الدفاع عن الثورة الفلسطينية، حتى وهي معرضة للهجوم من جانب دعاية الحكومة^(٢).

رواضعين في الاعتبار رؤية عبد الله العروى الذي رأى في النكسة حدا فاصلا حقيقيا في التاريخ العربي فيما بعد الاستعمار، لا نستطيع إلا أن ننكر الأزمة الأوسع، التي أصابت العالم العربي بأكمله في الفترة التي تلت النكسة. ومن الواضح مما سبق أن انتقادات الإنتلجنسيا المصرية للناصرية كنظام سياسي أو أيديولوجي كانت جزئية وغير مباشرة، وكذلك من المفهوم أن الهجمات الأعنف للفكر والممارسة السياسية الناصرية، جاءت من خارج مصر.

ذلك أن الجدل الذي اندلع بعد الحرب في دول عربية أخرى، بالذات سوريا ولبنان - وفقا لـ فؤاد عجمي - كان يمثل "حدثا فريدا في تاريخ الفكر العربي"^(٣). ذلك أن ميل المجتمع العربي إلى النقد الذاتي كان مخدودا دائما، لكن أجيال المثقفين الجديدة التي تكونت بعد تحقيق الاستقلال، بدأت في مناقشة "الإنجازات" والقيم التي استندت إليها الأنظمة القومية، والقول بأنها مسئولة عن الهزيمة.

ولم تعد للهزيمة فقط دلالة عسكرية - من هذا المنظور - كما ادعى الرئيس المصري، فقد أصابت المجتمع العربي بأكمله، وفي المقام الأول مثقفيه الذين مثلوا طبيعته الثقافية. وهكذا جرى إخضاع كل مظاهر الحضارة العربية للنقد غير المسبوق: التقاليد، الإسلام، اللغة، الفرد وختاما تجربة النظم التقدمية.

(١) نذكر أنه في صيف عام ١٩٧٠، قبل عبد الناصر "مبادرة روجرز"، مجمدا بعدها علاقاته بالمقاومة الفلسطينية. انظر الفصل الأول للقسم ٢: ب من هذا البحث.

(٢) انظر، على سبيل المثال، الافتتاحية غير الموقعة "الشعب الفلسطيني يدافع عن ثورته"، "الطليعة"، العدد ١٠ أكتوبر ١٩٧٠، ص ٥-٩.

(٤) انظر Ajami, F., op. cit., p. 15.

وبعد العمل الأكثر تمثيلاً "الموقف الراكبي" لليسار الجديد، مقال الفيلسوف صادق جلال العظم المعنون بـ "النقد الذاتي بعد الهزيمة" والمنشور في ١٩٦٨^(١). ومثل نص العظم الذي ألهمه إعجابه الواضح بـ "الثورات المتحركة" في الصين وكوبا وفيتنام، في الوقت نفسه، هجوما عنيفا على الفكر السياسي القومي والنظام الناصري كذلك بسبب شعاراته المفرغة التي تسبح بالاشتراكية. كتب العظم قائلاً إن النظم العربية "تبنت فقط المظهر الخارجي للاشتراكية" غير أنه من الناحية الجوهرية لم يتغير العالم العربي مطلقاً^(٢). كذلك انتقد الفيلسوف السوري - الذي انضم لاحقاً إلى المقاومة الفلسطينية في الأردن في ١٩٦٩ - بمرارة غياب مسؤولية القادة القوميين بعد الهزيمة: فلم يكونوا فقط مسئولين عن الهزيمة العسكرية، لكنهم قبل كل شيء كانوا عاجزين عن خلق "مواطنين معاصرين" وتحقيق "روابط تضامنية بين الدولة والمواطنين" بهدف تحرير الإنسان العربي من "قيود التقاليد والتخلف"^(٣). ويمكن السبب الأول للنكسة في رأي العظم فعلاً في التخلف الاجتماعي والثقافي. وهكذا كان الخطأ للرئيسي للنظم "التقدمية" ولطبقة المثقفين التي ساندتها، هو تصورهما أنه من الممكن تحقيق الثورة السياسية وإقامة الاشتراكية، دون القيام بثورة أخلاقية وثقافية أولاً.

وهاجم الباحث السوري - على هذا النحو - العقلية العربية التقليدية ومقاربتها القدرية للعالم التي يترتب عليها اغتراب غير قابل للشفاء بين الفرد والحدث. وكانت النظم التقدمية بقيادة النظام الناصري مدانة في عيون العظم بقيامها بتثبيت الوضع الراهن حتى بعد أحداث يونيو ١٩٦٧.

(١) صادق جلال العظم، "النقد الذاتي بعد الهزيمة"، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٨.

(٢) نفس المصدر ص ١٣٢-١٣٣.

(٣) صادق جلال العظم، مقابلة شخصية مع المؤلف (روما ١٨ أكتوبر ٢٠٠٢).

وأصبح الهجوم المبرر على القيم التقليدية هو القاسم المشترك في الأوساط الراديكالية العربية بين عام ١٩٦٨ وبداية السبعينيات^(١). إلا أن التحليلات لم تكن كلها مؤثرة وأصيلة، كتحليلات العظم، ففي جزء كبير من اليسار العربي، وجدت رؤية دوجماتيكية للعقيدة الماركسية، دفعت عددا من المثقفين إلى تفسير الهزيمة بشكل سطحي، وكأنها انحراف عن "الطريق القويم" للأرثوذكسية الماركسية^(٢).

وكان للجدل السياسي والثقافي حول الهزيمة في أوجه حين وصلت سريعا في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ أخبار وفاة جمال عبد الناصر. ولم يكن اختيار "الطلیعة" إهداء العدد التالي لرمز الرئيس رافعة إياه إلى مصاف الأبطال الخالدين للثورة العربية، والفارس في الصراع ضد الصهيونية والإمبريالية، فقط لأنه أمر لا بد منه، ولا بسبب تأثير التجمهر الضخم في جنازة الرئيس، فبشكل ما وعلى للعكس من ذلك أعادت للماركسية الرسمية تأكيد وجودها داخل المؤسسات، نتيجة مبادرة للرئيس الراحل، كما طالبت في نفس الوقت بتدخل كبير في قيادة الثورة^(٣).

(١) في هذا السياق لا نستطيع إلا أن نشير إلى طلب تجديد الحضارة العربية من الشاعر السوري اللبناني أدونيس (الاسم المستعار لـ علي أحمد سعيد)، كاتب البيان الشهير "بيان ٥ حزيران"، الذي يمثل قمة الحساسية الراديكالية للمثقفين بعد النكسة. انظر أدونيس، "بيان ٥ حزيران"، ١٩٦٧، "الأداب"، العدد ٧-٨ (يوليو-أغسطس ١٩٦٧)، ص ٧-١٢؛ وافتتاحيتي العديدين الأولين لمجلة "مواقف" التي أسسها في نهاية ١٩٦٨، والتي جمعت للمثقفين الأكثر راديكالية للمنطقة السورية اللبنانية.

(٢) انظر، على سبيل المثال، نديم البيطار، "من النكسة إلى الثورة"، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٨.

(٣) انظر "الطلیعة"، العدد ١١ (نوفمبر ١٩٧٠) خاصة الافتتاحية ص ٥-٨، والقسم المعنون "عبد الناصر والمثقفون" ص ٥٠-٥٤، وتصل عملية "تقديس" عبد الناصر إلى قممتها المطلقة من جانب اليسار الرسمي ويصل إليها أبو سيف يوسف، "عبد الناصر مناضلا ضد الاستعمار الجديد"، "الطلیعة"، العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٧٢) ص ١٤-٢١، وينبغي أن نذكر في النهاية أنه عند وفاة الرئيس كان لطفى الخولي ما يزال في المعتقل الذي كان سيخرج منه بعدها بقليل (نوفمبر ١٩٧٠) بفضل محمد حسنين هيكل.

الفصل الرابع

الماركسية فى عهد الثورة المضادة

هذا الفصل مكرس لوصف وتحليل تطور الحركة الماركسية فى مصر فى السبعينيات. وهكذا سيتم تكريس جزء من المعالجة للمجموعات والأحزاب الماركسية التى سنعتبرها جزءا من الحركة الشيوعية الثالثة، دون إغفال تجربة ما يسمى باليسار الرسمى. ويتمثل المرجع الرئيسى لهذا الأخير، الذى كان النتاج المنطقى للصفقة الناصرية بين النظام والماركسيين، فى مجلة "الطلیعة" ثم حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى، المعروف باسم "التجمع" فى الفترة التى تبدأ من ١٩٧٦-١٩٧٧.

وسوف نركز انتباهنا سواء على التطور الكلى للحركة، أو تحليل التجمعات المفردة باحثين عن إبراز الفروق الرئيسية فى النقاط الأكثر أهمية لإنتاجهم الثقافى وممارساتهم السياسية. وسيتم تكريس جزء من التحليل أيضا، لوصف العلاقة بين اليسار والنظام. الساداتى، وكذلك وإن بشكل مختصر العلاقة بين المتقنين الماركسيين وتيارات المعارضة الأخرى^(١).

(١) وصفنا من قبل جانبا كبيرا من أحداث السبعينيات وسوف نعيد استدعاءها بشكل مختصر عند الضرورة مع نقاط تحيل إلى الأقسام المخصصة لها.

١. السادات واليسار والمثقفون قبل حرب أكتوبر

أ- اليسار الرسمي بين السلطة والمعارضة

تطلبت إستراتيجية السادات لانتزاع السلطة، التحالف الانتهازي بشكل أو بآخر مع كل القوى السياسية التي تعارض سيطرة مجموعة على صبرى^(١). تقرب السادات من اليسار الرسمي المتجمع أساسا داخل هيئة تحرير مجلة "الطليعة" - وفقا لهذا المخطط - وبشكل أقل في مؤسسات ثقافية أخرى تابعة للدولة. وإذا لم ننتبه إلى هذا الافتراض "التكتيكي" سيكون من الصعب فهم لماذا عرض السادات وزارة الاقتصاد على إسماعيل صبرى عبد الله، ونصّب لطفى الخولى، رئيس تحرير مجلة "الطليعة"، ومحمد الخفيف، العضو البارز في هيئة تحرير تلك المجلة، عضوين في اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربى، وسيكون من الصعب باختصار فهم كيف استطاع الرئيس تحمل وجود تيار يعبر عن وجهة نظر تتناقض تماما مع رؤيته سواء فى السياسة الداخلية أو الخارجية بعد انقلاب مايو ١٩٧١.

ينبغى أن نستذكر الآن، أنه إذا كانت لدى عبد الناصر الرغبة فى جعل المثقفين نوى الاتجاهات الماركسية والاشتراكية بوجه عام "حواريى الثورة" مستشرفا لهم وظيفة "ناشرى الكلمة الناصرية" بالتسويق مع هيكل من منبر الأهرام، فقد كان الرئيس الجديد أقل اهتماما بكثير بالتفاعل مع أو ضم مثقفين نوى شعارات أو مرجعيات سياسية اجتماعية مختلفة تماما غير شعاراته ومرجعياته^(٢). ولا يمكن إنكار أن عبد الناصر أسس صرحا ثقافيا "حقيقيا" مكونا من مجلات ومؤسسات ومندليات مكرسة لكل مجالات التعبير الفنية والثقافية بغرض تربية الجماهير

(١) انظر الفصل الأول القسم ٣ - أ.

(٢) انظر M. Stagh, op. cit.

بالتعاليم الجديدة "للاشتراكية العلمية العربية" وفقا لكلمات الميثاق. من الواضح أن الهدف غير الخفى لهذا المشروع الشاق كان تأمين الإبقاء على هيمنة النظام الاجتماعى الاقتصادى المسيطر على المجتمع^(١)، ومن الواضح أيضا بالتالى أن اهتمام الرئيس الجديد بتحقيق هذه الهيمنة كان ضئيلا أو منعدما، وإذا شئنا مزيدا من الدقة؛ شعر الرئيس منذ البداية بأنه لا يستطيع أن يثق فى الإنتلجنسيا التى تكونت فى سنوات التحول الاشتراكى الذى بدأ السادات ينظر إليها كجزء ضخم من التركة الناصرية الثقيلة، التى سيتعرض أجلا أو عاجلا لعملية تصفية الطابع الناصرى عن مؤسسات المجتمع.

وبالإضافة إلى ذلك ونقلا عن كلمات هانى شكر الله^(٢) فقد عانى النظام الذى خرج من "حرب الأيام الستة" مهزوما أزمة هيمنة خطيرة لم تظهر فقط فى "اليومين المجيبين" التاسع والعاشر من يونيو ١٩٦٧ حين قرر الشعب إعادة تنصيب القائد المهزوم إلى "العرش" بل ظهرت أساسا فى مظاهرات الطلبة والعمال فى عامى ١٩٦٨-١٩٦٩ حيث استطاعت النخبة الحاكمة أن ترد فقط بإطلاق حرب الاستنزاف فى القناة وبوعد غامض بانفتاح ديموقراطى متضمن فى بيان ٣٠ مارس.

وكما أوضحنا ونحن نتحدث عن موقف مجموعة "الطليعة"^(٣) بعد النكسة، فقد فشل النظام الناصرى فى التجاوب مع مطالب المتقنين الذين طالبوا بالمشاركة السياسية واختار الدعم من جانب طبقة التكنوقراط المرتبطة بمجموعة على صبرى، وبانفتاح معقول، لكن حاسم على رأس المال للمطى وفى هذا السياق بدأ حتى أولئك الماركسيون والاشتراكيون الذين قبلوا فى النهاية بدور "القديس

(١) يُستخدم مفهوم الهيمنة هنا بالمعنى الجرامشى. انظر تحليلات عبد الملك - Abd el- Malek in Esercito e società in Egitto, cit.

(٢) انظر Shukrallah, Political..., cit.

(٣) انظر الفصل الثالث القسم ٣.

بطرس^(١) الذى منحهم إياه النظام، فى الابتعاد بشكل تدريجى، باحثين عن مرجعيات بديلة من خارج البلاد. ووفقا لهذا المنطق مثل نموذج المقاومة الفلسطينية بالتأكيد نمونجا أكثر تشجيعا من "الطريق الجديد" الناصرى. ورغم ذلك، مثل الموت المفاجئ للرئيس صدمة للغالبية العظمى من طبقة المثقفين المصريين، ويعود ذلك أيضا لفترة عدم اليقين والحيرة التى بدت على الأبواب. وقد دفع هذا الشعور بالضيق والعداوة فى مواجهة مجموعة على صبرى، الموالية للسوفييت فى السياسة الخارجية لكن المعادية للماركسية بشدة داخل الوطن والمعتولة أيضا عن الاعتقالات التعسفية للشرطة السياسية، جزءا من المثقفين التقدميين المصريين إلى تفضيل صعود السادات إلى الرئاسة والسلطة المؤثرة بعد التخلص من مجموعة على صبرى فى مايو ١٩٧١^(٢).

ولا يمكن إنكار أن منبر اليسار لم يتخذ موقفا واضحا فى مواجهة الانقلاب رغم قبول دخول إسماعيل صبرى عبدالله^(٣)، على مضض، فى التشكيل الوزارى الجديد. ولا يفسر ذلك فقط وجود مناضلين ماركسيين قريبين من مجموعة على صبرى مثل محمود أمين العالم^(٤)، بل كذلك وجود مواقف متباينة داخل "الطلیعة" - كما اعترف لطفى الخولى نفسه فى مقابلة نشرت فيما بعد^(٥). وعلى أى حال، فليس من المجازفة أن نؤكد بناءا على المنشور فى المجلة فى الشهور التالية

(١) المصدر السابق.

(٢) من مقابلات مع أعضاء هيئة تحرير "الطلیعة". نجحت المجلة فى تخصيص صفحات قليلة فقط للتطبيق على "تغيير" مايو فى عدد (يونيو ١٩٧١) ص ١١٣ ومليها، بينما خصصت الافتتاحية للانتخابات الجديدة ص ٥-٩ وملف ضخ (ملف خاص) عن مسألة الديمقراطية ومشروع الدستور الجديد الذى أعلنه الرئيس فى العدد التالى.

(٣) انظر المقابلة المذكورة فى Beattie, op. cit., p. 75، الذى يوضح فيه الاقتصادى أنه تتاور مع عضو الضباط الأحرار السابق خالد محيى الدين قبل قبول التعيين.

(٤) يؤكد محمود أمين العالم بشدة، فى مقابلة شخصية، الحكم الإيجابى على على صبرى ومعارضته لانقلاب السادات (القاهرة ، ٩ مايو ٢٠٠٠).

(٥) انظر الطلیعة (٢٠٠٠) ص ١٨.

للاتقلاب على رجحان نغمة حذرة لكن متفائلة بشكل ما وولقة تحفزها اتفاقية الصداقة المصرية السوفيتية التي وقع عليها السادات بعد أيام قليلة من الانقلاب.

والحقيقة أنه رغم جانبية الثورة الماوية و"الحرب الشعبية" في فييتنام استمرت الغالبية العظمى من المناضلين في التيارات الرسمية والمتشككين سياسيا بين نهاية الأربعينيات والفترة الناصرية في النظر إلى الاتحاد السوفيتي على أنه طليعة للاشتراكية العالمية وحليف ثمين للدول العربية. فإذا كانت هذه "العقيدة" ستخضع للنقاش، وإن جزئيا، من جانب اليسار الجديد بسبب الموقف السوفيتي في منطقة الشرق الأوسط، فإنه يجب كذلك التأكيد على قصر نظر أو سذاجة العديد من ممثلي "الحرس القديم" في المواجهات مع النظام للسادات. ولا يمكن إنكار الدهاء الذي استطاع به الرئيس أن يفتح الكثير من تجديدهات بمحتوى اشتراكي وديموقراطي مبهم وصولا إلى "نسخة راديكالية" للميثاق الناصري هي برنامج العمل الوطني الذي تم الإعلان عنه بفخامة في يوليو ١٩٧١^(١). غير أن من شأن تحليل مدقق للدستور "الدائم" الجديد يُظهر بوضوح الشرخ الأول في عملية "التحول الاشتراكي" التي جند لها عبد الناصر المتقنين الماركسيين، خاصة الشعار الجديد "العلم والإيمان"، وكان إدخال الإسلام كـ "مصدر رئيسي للتشريع" أول "ثقل" إلى اليمين" في خطاب النظام^(٢). ومما يؤكد ذلك، وضع السادات عضوين على قمة الحزب الواحد الذي استمر يحمل اسم الاتحاد الاشتراكي العربي ينتميان إلى النخبة البرجوازية التقليدية؛ أي للطبقة التي اعترفت الاستناد إليها.

ومن أجل فهم أسباب ما يبدو أنه قصر نظر من الممكن أن نسير في طريقين. فعلى المستوى السياسي عوض الرئيس الماركسيين بسبب مساندتهم في

(١) انظر برنامج العمل الوطني، القاهرة، هيئة الاستعلامات، ٢٣ يوليو ١٩٧١، ص ٥٨. يمثل البرنامج وفقا للناقد غالي شكري "اللحظة القصوى في عملية خداع

السادات في مواجهة التقدميين". انظر Shukri, Egypt..., cit., p. 56-58.

(٢) انظر O. Carré, Pouvoir..., cit. انظر أيضا الفصل الأول القسم ٢.

موقف الانقلاب بتصعيد مراكزهم في أمانة الاتحاد الاشتراكي^(١) بالإضافة إلى تعيين شخصية ماركسية لأول مرة في التاريخ المصري في الحكومة وزيراً للتخطيط رغم كونه منصباً هامشياً.

ويمكننا أن نفهم - من هذا المنطلق - مستوى معيناً من المساندة التي يمكن أن ترجح نظرية "الطليعة الاشتراكية" داخل المؤسسات، والتي حمل لواءها لطفى الخولي^(٢) بالذات وتابعها بوعى في السنوات التالية عندما تحول هذا المفهوم إلى وعى بتكوين "معارضة من داخل النظام".

إن مقارنة أكثر نظرية لمسألة دعم الحرس القديم الماركسي لـ السادات لا تستطيع إغفال اعتبار حقيقة أن رؤية جزء كبير من الماركسيين القدامى في بداية عام ١٩٧٢ وكذلك بعدها بعامين للرئيس الجديد كوريث مختار للزعيم الكبير، مثلت في رأيهم عنصراً من عناصر الاستمرار في "النهج التقدمي" لثورة يوليو. فقد حنس القليل فقط من العناصر الأكثر انتقائية مثل الناقد غالى شكرى أن "الثورة المضادة" كانت قد بدأت بالفعل قبل وفاة عبد الناصر، وأن السياسات الساداتية مثلت

(١) نظر Beattie, op. cit., p. 79-80.

(٢) من مقابلة خاصة مع فاروق عبد القادر، المحرر والمسئول عن القسم الثقافي في "الطليعة" منذ عام ١٩٧٢ إلى عام ١٩٧٧، القاهرة، ٧ مايو ٢٠٠٠. ومن المثير ملاحظة أن هذا النوع من "الإستراتيجيات" التي كانت ترمى إلى إضفاء خصائص ثورية اشتراكية على النظام من جانب الماركسيين عبر مجرد وجودهم في المؤسسات الحكومية، قد تم استخدامها على العكس من ذلك في وقتها من قبل كتاب ينسبون إلى "نظرية المؤامرة" مثل و. لاكور W. Laqueur و ش. شامير Sh. Shamir لبيان انتماء مصر الناصرية ثم الساداتية إلى المعسكر السوفييتي الاشتراكي في إطار الحرب الباردة، بالنسبة لـ لاكور انظر المصدر السابق الذكر Laqueur, Comunismo e nazionalismo..., وبالنسبة لـ شامير انظر "The Marxists in Egypt: the «Licensed infiltration» Doctrine in Practice", in Confino, M.-Shamir, S. (eds), The U.S.S.R. and the Middle East, cit., p. 293-319.

"استمرارا في التراجع" عنها^(١)؛ بمعنى أن الشرخ الكبير كان متضمنا في النكسة والسياسات الحكومية ذات الصبغة المحافظة التي تلتها.

وأنتجت المجلة بشكل إجمالي تحليلا ممتازا للتغيرات الاجتماعية التي بدأها النظام الناصري محددة في "الطبقة الجديدة" الصاعدة للبيروقراطية والتكنوقراط، الشريحة التي تضخمت على حساب الثورة. لكن الظن بأن هذه الطبقة قد انتهت أو حتى ضعفت فقط بالقضاء على مراكز القوى، يشير إلى الاستهانة بالسيطرة التي مارسها هذه الطبقة على المؤسسات من الداخل، ويقال من أهمية الطبقة الجديدة كعنصر أساسي في القاعدة الاجتماعية للنظام السادتي. بالغ "الشيوعيون السابقون" في تقييم دورهم كمجموعة ضغط في مواجهة النظام واستمروا في منحه صبغة "تقدمية" صرفة، وإذا تحدثنا بالألفاظ المستخدمة في جمل أعوام الستينيات، فقد استطاعوا حتى التفكير في وجود "مجموعة اشتراكية على قمة الدولة".

ويجب القول - مع ذلك - إن الدستور الجديد احتوى على امتيازات ديموقراطية واضحة استفاد منها الطلبة في تشكيل نوادٍ أو "أسر" دخل حرم الجامعة واضعين بداية المرحلة الكبرى للنشاط الجامعي في الأعوام الأولى من الستينيات وبلغت أوجها بين عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣.

وكانت الحركة الطلابية مرتبطة بوضوح بنشوء "اليسار الجديد" أو "الحركة الشيوعية الثالثة" والتي سيتم تناولها لاحقا، إلا أنه من الضروري أن نقف الآن على حقيقة أنها أدت إلى تبلور للسياسة المضادة للمتقنين واليسار خاصة من جانب النظام، الذي وجه أولا ضربة لدور الوساطة مع السلطة الذي قامت به "الطليعة".

(١) بشكل أكثر تحديدا ووفقا لرؤية شكري فقد أقيمت الثورة المضادة على الثورة (والمقصود بها النظام الناصري) وتمركزت في عناصر اليمين "الرجعية والمتطرفة" التي انتمى إليها السادات ونائبه حسين الشافعي. ولم يقد الناقد الذي ترك "الطليعة" ومصر في عام ١٩٧٢ بنشر هذه التأملات إلا في المنفى اللبناني ثم الباريسي، مصرحا بأنه أنضجها بعد الانقلاب، عندما قرر ترك البلاد واليسار الرسمي وبصبح ماركسيا مستقلا. انظر Shukri, Egypt..., cit., passim.

ورغم استمرار المجلة في أداء دور إضفاء طابع من "الشرعية والمظهر التقدمي" على نظام تتزايد أزمته، لم تستطع المجموعة الماركسية أن تبقى محصنة في وجه النداءات للديموقراطية والتنمر المنتشر الذي عبرت عنه الحركة الطلابية كما تم في عام ١٩٦٨. وسمح افتقاد الرئيس الجديد للكاريزما والشعبية، بالإضافة إلى نداءاته المتكررة بمؤسسات مفتوحة وديموقراطية للأجيال الجديدة، بتفجير للطاقات السياسية المكبوتة من قبل النظام الناصري. وأتاحت القضية الوطنية، فرصة أسهل وأكثر مباشرة لمعارضة النظام العاجز عن خوض الحرب من أجل استرداد الأراضي المحتلة. على أنه بالمقارنة مع حركة ١٩٦٨ طرحت الحركة الطلابية الجديدة القضية الديموقراطية بوضوح وتجاوزت كما رأينا حدود المطالب الضيقة للحياة الجامعية.

وقد مثلت مسألة "إزالة آثار العدوان الصهيوني" الموضوع الرئيسي لتأملات اليسار الرسمي الذي تضاعفت بالنسبة له جزئيا أهمية "الثورة البديلة" الفلسطينية منذ هزيمة "أيلول الأسود"، ولهذا السبب كان من الطبيعي أن تحتضن "الطلیعة" قضية الطلبة.

ويؤكد صلاح عيسى في مقاله عن تجربة "الطلیعة" أن لطفى الخولى كان أحد الصناع الرئيسيين لما يسمى "بخطاب الحكيم"^(١)، وهي الوثيقة التي وقعتها أسماء لامعة في مجالات الفن والأدب والصحافة في مصر، وطالبت الرئيس بالإفراج عن الطلاب الجامعيين الذين ألقى القبض عليهم في ديسمبر ١٩٧٢. وكما ذكرنا كان رد فعل السادات غاضبا للغاية لدرجة أنه في الرابع من فبراير التالي قرر طرد كل الموقعين على البيان من الاتحاد الاشتراكي عدا "الأيقونتين" محفوظ

(١) انظر كارم يحيى، المصدر السابق الذكر، ص ١٨-١٩. للرسالة المنشورة في جريدة الأنوار ٩ يناير ١٩٧٣، أعيد نشرها في أحمد بهاء الدين شعبان، "شهادة من جيل الغضب"، المذكور سابقا. انظر أيضا Shukri, Egypt, cit., p. 121-141، والفصل الأول القسم الثالث في هذا البحث.

والحكيم. وكان للطرد من الحزب للوحيد يساوى المنع من النشر في مصر إلى أجل غير مسمى وهو الذى أدى ضمن أشياء أخرى إلى لجوء المثقفين المصريين إلى عواصم عربية وأوروبية أخرى. وقد تأثر العديد من المشاركين في "الطلیعة" بدءًا من رئيس التحرير بالطرد، وتلا ذلك أن اختارت العناصر الأقل التزامًا بخط التفاعل مع السلطة، مثل غالى شكرى الذى كان مسئولًا عن القسم الأدبى الممتاز بالمجلة حتى هذه اللحظة، حياة المنفى الاختيارى^(١).

وكان خطاب "سحب الثقة" الموجه من المثقفين إلى النظام يمثل فى وقت واحد قمة الصراع بين السلطة والإنتلجنسيا التى تكونت فى العهد الناصرى واللحظة الأكثر حدة فى أزمة الشرعية الخاصة بالسادات، بعد ثورة التصحيح فى مايو ١٩٧١.

ومع أن القرارات القاسية بالطرد الجماعى للأسماء الكبرى فى الثقافة المصرية من مؤسسات الدولة تثبت مدى خواء الشعارات الساداتية المسبحة بالديموقراطية، ويستبق الأسلوب الأوتوقراطى الذى سيميز به الرئيس بعد حرب أكتوبر، فلا يمكن اعتبارها مسئولة بشكل كامل عن بداية السياسة الثقافية لـ السادات، وبالتفكيك المنظم للناصرية حيث سيأتى ذلك فقط بعد الاستيلاء على الشرعية بفضل العبور والأسطورة التى تم بناؤها حوله. والدليل على هذا أنه تمت إعادة المطرودين بمرسوم رئاسى عشية الحرب بهدف "توحيد" الجبهة الوطنية وكعلامة على المصالحة.

ومن المثير أن نذكر فيما يخص هذه المرحلة الأولى للعلاقات بين اليسار الرسمى والسلطة أن المذكرة التى رفعها لطفى الخولى وممثلون آخرون لليسار للرسمى - سواء داخل أو خارج "الطلیعة" - إلى الرئيس بعد قرار ٤ فبراير

(١) انظر، فى هذا السياق، الملف المكرس لـ "هجرة العقول": "هجرة العقول لماذا؟" فى "الطلیعة" العدد ٤ (أبريل ١٩٧٣) ص ١٦-٤٠.

لتوضيح "موقف اليسار المصرى" من الوضع الراهن^(١). وتعد هذه الوثيقة التى تمت إعادة نشرها مؤخراً، وثيقة أساسية حيث تعيد إنتاج فكر لطفى الخولى بخصوص نظام يوليو، وعن دور اليسار والفكر الماركسى فى تكوين أيديولوجية للدولة الناصرية ومؤسساتها فى صفحات قليلة.

ونقرأ فى بداية الوثيقة:

إذا كان "اليسار" يعنى - بوجه عام - التقدم، فإن ثورة يوليو ١٩٥٢ تُعتبر "يساراً"، وذلك بكل ما أنجزته فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية، بكل المعارك السياسية التى خاضتها ضد القوى الإمبريالية العالمية والاستعمار الجديد والصهيونية، ضد قوى الإقطاع والرأسمالية^(٢)

ومنذ البداية تتضح رغبة متقفي اليسار الرسمى فى تأكيد انتمائهم إلى الثورة، مدمجين إياها فى الفكر المعروف بشكل عام بالفكر اليسارى والتقدمى. ولتأكيد هذه النقطة استشهدت المذكرة - كمراجع لها - بالميثاق الوطنى وبيان ٣٠ مارس (١٩٦٨) دون إغفال برنامج العمل الوطنى الذى نشره السادات فى ١٩٧١، كما امتلأ سواء فى الأسلوب أو المحتوى بالإشارات لنصين ناصريّين^(٣). إلا أن الماركسيين أظهروا وعياً وإن جزئياً بواقع القوى الاجتماعية السياسية الصاعدة، عندما أكدوا وجود ميول يمينية ومعادية للثورة فى الاتحاد الاشتراكى بالذات،

(١) الخطاب المؤرخ ١٨ فبراير ١٩٧٣، والذي أعيد نشره فى "الطلعة" (٢٠٠٠)، ص ٩٢-٩٧، بعنوان "مذكرة مرفوعة إلى سيادة الرئيس أنور السادات حول مواقف اليسار المصرى" وتحمل فى ذيلها توقيع الخولى، وعبد الرحمن الشرقاوى (رئيس تحرير "روز اليوسف")، وأبو سيف يوسف، وأعضاء آخرين بارزين من مجموعة "الشيوعيين السابقين" مثل فيليب جلاب، وأديب ديمترى، وأحمد طه أحمد.

(٢) نفس المصدر ص ٩٢.

(٣) وفقاً لصلاح عيسى كان أحمد بهاء الدين، للصحفى اليسارى (غير الماركسى)، الذى كان فى هذه اللحظة مقرباً جداً من الرئيس هو الذى كتب البرنامج. من مقابلة شخصية، القاهرة ٢٣ مايو ٢٠٠١.

ويمكننا أن نقرأ في المنكرة أن هذه القوى هي التي كان ينبغي على النظام "تصفيتها" في أقرب فرصة^(١). وبالإضافة إلى ذلك وقبل مواصلة الحديث عن الوضع الراهن وعن الحركة الطلابية، طالب الماركسيون بالخيار "غير التكتيكي" ولكن "المبدئي" بالتخلي عن بنيتهم للمنظمة المستقلة في ١٩٦٥ للانضمام إلى التيار الاشتراكي الوحيد الذي يمثل الاتحاد الاشتراكي، ولا يشير هذا الطلب الاهتمام كما تثيره حقيقة اتهام المتقنين للنظام للمرة الأولى في وثيقة علنية بعد عدة سطور، بعدم احترامه لاتفاقياته لا قبل ولا بعد النكسة مانعا العديد من المناضلين من الانضمام إلى الاتحاد الاشتراكي ومعتبرا الماركسيين بمثابة مواطنين من الدرجة الثانية^(٢). لكنهم قرروا البقاء كجزء من النظام كدلالة على المسؤولية، وباسم وحدة القوات الوطنية في الساعة الصعبة للهزيمة وكذلك بسبب الإرادة الشعبية باستمرار الصراع والسير في اتجاه الاشتراكية والمعبر عنها في مظاهرات ٩ و ١٠ يونيو ١٩٦٧ "ذات الأرضية اليسارية الواضحة" حسب تعبير "الطليعة". وقبل الحديث عن الحقائق، شرح الماركسيون لماذا دعموا السادات، وبهذا الخصوص يعد أمرا أساسيا اعترافهم بالفوائد غير المنتظرة تقريبا، التي يمكن الحصول عليها من الرئيس الجديد ليحتلوا مكانهم اللائق داخل الحزب الوحيد والحكومة، إلا أنهم أسسوا جزءا كبيرا من دعمهم على نص برنامج التحرك الوطني، وعلى الأمل الذي سيتم تحطيمه باستمرار فيما بعد بأن يحافظ الرئيس على الخط السياسي الاشتراكي للحكومة من هجمات اليمين المحافظ والرأسماليين القدامى والجدد.

وبقراءة راهنة يظهر أن أهمية هذه الوثيقة لا تكمن في المراقبة الحماسية لصالح الطلاب الذين مثلوا التعبير عن "اليسار التلقائي"، وللطاقات الديموقراطية للمجتمع، بل في الاحتمال الذي تمنحه الوثيقة لتقييم دور اليسار الرسمي في المرحلة الأشد حرجا للنظام الساداتي. ومرة أخرى تظهر بوضوح تحليلات لامعة

(١) انظر "منكرة مرفوعة.."، المصدر سابق الذكر، ص ٩٣.

(٢) المصدر السابق ص ٩٣-٩٤.

للمعاملات الاقتصادية والاجتماعية التي تتم في النخب القريبة من النظام، إلا أنه تم إضعافها بنوع من "الإيمان" شبه الديني بالنصوص، والحقيقة أن الماركسيين أشاروا إلى الميثاق وكأنه نص مقدس وطالبوا الرئيس بالحفاظ على "قدسيتة". وبهذا المنطق أظهروا ابتلاعهم تماما أو بشكل جزئي لطعم إستراتيجية السادات لتمثيل دور "التقدمي" في المناقشات والتصريحات الرسمية، بينما كان يضم إلى السلطة في الحقيقة العديد من عناصر اليمين التقليدي والموالي للغرب. من الصعب أن نحكم ما إذا كان الأمر يخص "قصر نظر" أمام النوايا الحقيقية لـ السادات الممثل الحقيقي لهذا اليمين الذي سيرى "الماركسيون القدامى" عودته بعد حوالي عشرين عاما أو أن لطفى الخولى ومجموعته بالغوا في تقييم دورهم وأهميتهم في سياق داخلي يتبدل بسرعة. ومن وجهة النظر هذه، ينبغي القول بأن الرسالة التي تم تحليلها سابقا احترمت خط الاتساق مع خيار التحالف مع النظام الذي تم في ١٩٦٥، أو بكلمات أخرى أكدت رغبة رئيس تحرير "الطلیعة"، وجزء كبير من "الشيوعيين السابقين" في البقاء بأي ثمن داخل مؤسسات السلطة، مهما كانت تركيباتها مختلفة تماما عن المؤسسات الناصرية^(١).

وعلى العكس، كما لاحظ غالى شكرى - بشكل صحيح - فقد أعطى السادات على الأقل إشارتين، قبل قمع الحركة الطلابية، تكشفان نواياه الحقيقية^(٢). ووفقا لـ غالى شكرى، كان يوم ٨ يوليو ١٩٧٢ الذى طالب فيه السادات الاتحاد السوفيتى بسحب خبرائه هو اليوم الذى "أسقط فيه السادات قناعه"^(٣). ولا يمكن إنكار الأهمية السياسية أو الرمزية لهذا التحرك، ولكن يجب أن ننكر أن وجود الخبراء السوفيت لم يكن مؤيدا من جانب جزء كبير من الرتب العليا في الجيش،

(١) من مقابلة شخصية مع فاروق عبد القادر، (الناقد الألبى الذى حل محل غالى شكرى في رئاسة القسم الألبى في "الطلیعة")، القاهرة، ٧ مايو ٢٠٠٠.

(٢) انظر Shukri, Egypt..., cit

(٣) Ibidem

ولهذا لا يتفق هذا التحرك فقط مع مخطط التقارب مع واشنطن وفقا لمشروع يمين النظام، بل يمكن أن يبدو كإشارة للثقة في العسكريين الذين كانوا لا يزالوا يعانون من آثار هزيمة ١٩٦٧.

وبالإضافة إلى ذلك عرضت وثيقة للاتحاد الاشتراكي في سبتمبر ١٩٧٢ - وهي وثيقة لم يتم التصديق عليها أبدا غير أن "الطلیعة" نشرتها - تغيير الاتجاه القائم داخل الحزب، وفي الوقت نفسه جعلت خوف الماركسيين من مراجعة النصوص الدستورية الناصرية أمرا مفهوما. وكانت تأثيرات مجموعة من العناصر التي كانت منتمة إلى الإخوان المسلمين ودخلت في الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي في أغسطس ١٩٧٢ مثل عبد العزيز كامل، وكمال أبو المجد^(١) أكثر من واضحة في "دليل العمل السياسي والفكري والتنظيمي"^(٢). وبشكل أكثر تحديدا فقد أفصح الرطانة الماركسية، وهي الصيغة التي اتصف بها الميثاق الناصري وبرنامج ١٩٧١، مكانها لتحل محلها لغة قريبة من أسلوب دعاية الإخوان المسلمين^(٣)، بينما اشتمل المحتوى على مراجعات واضحة للقواعد التي قامت بتأمين تفوق الملكية العامة على الملكية الخاصة، مبرزًا الدور الإيجابي المنتظر لطبقة المقاولين.

ويمكننا الآن أن نفهم المخاوف التي أظهرها الخولي وماركسيو "الدولة" في مرسومهم إلى الرئيس، ولكن بصرف النظر عما إذا كان هذا المرسوم قد حقق غرضه فقد أكدت هذه الوثيقة الساداتية أنه لن يستطيع أن يعتمد على هذه المجموعة من المثقفين لإعادة تصميم مصر الجديدة.

(١) يظهر النص الكامل في قسم من المجلة بعنوان "أوراق سياسية من الاتحاد الاشتراكي"، "الطلیعة"، العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٧٢)، ص ٩٦-١٠٥.

(٢) انظر: Shukri, Egypt., cit, p. 84-85; Beattie, op. cit., p. 79-81.

(٣) تتحدث نوثيقة على سبيل المثال عن "المستويات الاجتماعية" وليس عن الطبقات.

ب- الحركة الطلابية وإحياء اليسار الراديكالى

يرى للعديد من الشخصيات التى كانت مشاركة فى الساحة السياسية فى أعوام السادات وكذلك العديد من الدارسين خطأ من الاستمرار والتطابق بين الحركة الطلابية فى ١٩٦٨ والحركة الطلابية فى بداية السبعينيات^(١). وبالتوازي مع ذلك يتبغى أن نبحث عن إرهاصات "الحركة الشيوعية الثالثة" فى شعارات اليسار الجديد المرفوعة فى جامعة القاهرة باستلهم واضح من الحركة الطلابية الأوروبية فى فبراير ١٩٦٨^(٢).

غير أن المناضلين السابقين أنفسهم الذين شهدوا فى العديد من الأحوال كلا المرحلتين فى الجامعات المصرية يعلمون فى الوقت ذاته الفرق الجوهرى بين اللحظتين، فالفرق الأوضح والأهم كذلك هو - بلا جدال- عدم وجود الرئيس الكاريزمى غير المسموح بمهاجمته: جمال عبد الناصر، فى عامى ١٩٧١-١٩٧٣. وينبغى القول هنا إن الزعيم لم يكن أبدا الهدف المباشر للغضب الطلابى والشعبى لكنه كان جهة الوصول للعديد من المطالب من قبل الشباب الأصغر "أبناء" الأمة، مثل مطلب المشاركة بشكل أنشط فى الحرب من أجل استرداد الأرض والكرامة الوطنية، اللتين فقدتا فى ١٩٦٧. وعلى العكس من ذلك كان السادات هو الهدف المفضل لغضب وسخرية أجيال أوائل السبعينيات، التى رأت فى الرئيس الجديد رمز "التردد" و"الاستسلامية" فى مواجهة الأعداء فى الداخل والخارج.

(١) من المقابلتين المذكورتين مع أحمد عبدالله وأحمد بهاء الدين شعبان، انظر أيضا Erlich, op. cit.؛ وسلامونى، المصدر السابق الذكر؛ و Shukri, Egypt..., cit., p. 93.

(٢) مقابلتان مع صلاح العمروسى وحسنين كشك، وهذا الأخير يحدد رغم ذلك أنه كان من الممكن أن نلمح بداية حركة ماركسية جديدة منظمة فقط بنهاية عام ١٩٦٩.

لقد تم عرض الأحداث الرئيسية المتعلقة بالحركة الطلابية بالفعل في مكان آخر^(١)، أما الأمر الذي يهمنا فهو أن نتتبع دلالة هذه الأحداث فيما يتعلق بتطور الحركة الديموقراطية والفكر العلماني في مصر، وكذلك طبيعة العلاقة بين الطلاب واليسار القديم والجديد.

وبالطبع فإن مرحلة النشاط الطلابي في بداية السبعينيات لا تعد علامة فقط على ميلاد جديد للحركة الشيوعية، فهي أيضا ميلاد جديد للإسلام السياسي وهذا ما نهمله غالبا، ومن المؤكد أن لواقع هذا التزامن بين ظهور الحركتين مغزى كما سنرى، على أن النظام أقام تحالفا شيطانياً مع الحركات الإسلامية في الجامعة للهجوم على الديموقراطية والماركسية^(٢).

كانت الغالبية العظمى من الطلاب الذين بدأوا التزامهم السياسي في الجامعات في تلك الأعوام ينتمون إلى اليسار، لأن تكوينهم السياسي في السنوات الأخيرة للنظام كانت له صبغة ماركسية^(٣)، كما كانت نماذج النضال الآتية من الدول العربية أو باقي دول العالم، سواء في الشرق أو الغرب، ماركسية أو على الأقل اشتراكية. فقد كانت أساطير الجيل الجديد هي الفدائي الفلسطيني ونظيره الفيتنامي، ومثلهم الأعلى بمفهوم الحركة الثورية المباشرة كان إرنستو تشي جيفارا Ernesto Che Guevara الذي تسامى إلى دور أسطورة الجيل بسبب موته المبكر في بوليفيا. وربما كان الوصف الأنسب لهذا اليسار للطلابي هو أنه "يسار

(١) انظر الفصل الأول القسم ٣- ب والهوامش التابعة لها.

(٢) نرى بين العديد من الدراسات والشهادات حول الموضوع إعادة البناء اللامعة لمسار الحدث التي قدمها أحمد عبدالله "الجامع والجامعة: نقد الإسلاميين والمتقنين في مصر"، القاهرة، المركز المصري العربي، ١٩٩٤.

(٣) نذكر على سبيل المثال الدورات الصيفية التعليمية للاشتراكية التي نظمها معهد الدراسات الاشتراكية برئاسة إبراهيم سعد الدين العضو البارز في مجموعة "الطلبة".

تلقائي"، بسبب السهولة التي انجذب بها الشباب إلى الأفكار الاشتراكية والماركسية على هذا النحو^(١).

ومن المهم أن نلاحظ الآن أن اليسار الطلابي، مثل جزء كبير من "الحركة الشيوعية الثالثة"، ركز على المسألة القومية أو الوطنية "القضية الوطنية"، على حساب "القضية الاجتماعية" للمرة الثانية في التاريخ الماركسي المصري. والحقيقة، حسب كلمات الزعيم الطلابي أحمد بهاء الدين شعبان، أن المناضلين المصريين الشباب ولجوا إلى عالم الأيديولوجية الماركسية من "باب الوطنية"^(٢)، ويعتبر هذا أمرا مفهوما نظرا للاحتلال العسكري لسيناء، إلا أنه مع مرور الوقت ظهر أن التركيز على القضية الوطنية والوحدة العربية فقط كان يمثل عقبة أمام تطور التأثير الماركسي على الطبقات التابعة.

وفي هذا الصدد لا نستطيع إلا أن نشدد على حقيقة، أنه بينما كان اليسار للرسمي ما يزال يعتقد وإن جزئيا في الخط الاشتراكي للرئيس الجديد كما كان مستمرا في تأمين الدعم له، كان عمال المراكز الصناعية قد بدأوا في معاشنة واقع الأزمة الاقتصادية، بادئين من جديد آليات صراع الطبقات. ويؤكد الباحث الاجتماعي الماركسي عبد الغفار شكر عن حق على وجود مسار مستمر للإضرابات والمظاهرات والنشاط في المصانع المصرية منذ ١٩٧١ حتى الانتفاضة الكبرى في يناير ١٩٧٧^(٣).

(١) التعريف نقلا عن صلاح العروسي، مقابلة شخصية مع المؤلف، القاهرة، ٩ مايو ٢٠٠١.

(٢) مقابلة شخصية مع المؤلف، القاهرة، ١٢ مايو ٢٠٠١.

(٣) انظر شهادته المنشورة في أعمال مؤتمر العمال والطلبة في الحركة الوطنية المصرية، تحرير عاصم الدسوقي، القاهرة، دار المحروسة، ١٩٩٨، ص ١٥١-١٥٤. بالإضافة إلى كونه مصدرا ثمينًا للمعلومات، فتح هذا المؤتمر الطريق إلى تحليل تجربة الحركة الوطنية في مصر في السبعينيات.

وإذا عدنا إلى الحركة الطلابية، فإن مما لا يمكن إنكاره أنها أمدت منظمات " اليسار الجديد" بجزء كبير من المناضلين. وهكذا كانت تمثل قوة حقيقية من ناحية عدد المنضمين الجدد وحيويتهم من جهة، وكانت تقوم في الوقت نفسه بتأمين الهيمنة المطلقة للمتقين على الحركة على حساب العمال والمواطنين. ويمكننا في الحقيقة أن نؤكد أن النشاط الطلابي بالإضافة إلى تطعيمه الحركة الماركسية المستقلة الوليدة، كان أساسيا لأنه كسر لأول مرة الاحتكار المطلق للنظام على المجتمع السياسي والمدني. ومن الواضح أن النوادي واللجان التي أنشئت في جامعات مصر بين ١٩٧١ و ١٩٧٢، مثلت أول محاولات لإنشاء منظمات سياسية غير سرية، مستقلة تماما عن النظام الذي أنشأه جمال عبد الناصر، بهدف تنظيم المجتمع بأكمله داخل إطار المؤسسات الحكومية. غير أن أهمية الحركة الطلابية كانت تتمثل كما أكد أحمد بهاء شعبان في إعلان واكتساب حق التعبير عن رأيهم بشكل سلمي خارج السيطرة الضيقة لرقابة النظام^(١). وإذا كان من الصحيح أن المولد الحقيقي لليسار الجديد جاء في الجامعة، فمن الضروري أن نسجل أن الحلقات الماركسية استمرت منذ الفترة الأخيرة في الحقبة الناصرية. ولذلك فقبل تحليل العلاقة بين اللجان الجامعية والمنظمات الماركسية، ينبغي معالجة نشوء هذه الأخيرة.

وينبغي مع ذلك أن نبدي ملاحظة مهمة. لقد قمتُ بإعادة بناء الميلاد الجديد وللتطور التاريخي للحركة الشيوعية الثالثة بطبيعة الحال على أساس مقابلات عديدة أجريتها بشكل شخصي مع المناضلين في هذه المنظمات^(٢). ويرجع هذا إلى

(١) مقابلة شخصية مع المؤلف، القاهرة، ١٢ مايو ٢٠٠١.

(٢) بالإضافة إلى ذلك، من المهم أن ننكر أن بعض الأسماء المذكورة في هذا الفصل هي أسماء مستعارة أو بشكل أدق أسماء حركية، وقع بها المناضلون الدراسات والمنشورات في بعض الأحيان مثلا في حالة مؤسسي ت. ش. م انظر الملحوظة التالية. وقد حذفت عدة أسماء لأسباب أمنية، ويطلب بعض المناضلين أو تخليت طوعا عن طلب معلومات أخرى غير أساسية لهذا البحث يمكنها أن تخلق أمن المصادر التي زودتني بالمعلومات.

حقيقة أنه لم يتم نشر دراسات أو مذكرات عن خبرة اليسار الراديكالي في السبعينيات، باستثناء الجزء الأخير من كتاب طارق إسماعيل ورفعت السعيد الذي سبق أن استشهدنا به غير مرة، ولكن حتى هذه الإصدارات لا تبدو فقط مصادر غير موثوق بها بالنظر إلى قلة معلوماتها، بل يعتبر نقصها الأساسي في كونها غير محايدة بشكل واضح، ولصالح الحزب الذي كان ينتمي إليه أحد المؤلفين إلى درجة تخصيص سطور قليلة للمجموعات الراديكالية الأخرى أو عدم ذكرها أصلاً^(١).

وينبغي أن نعود إلى نهاية "الحركة الشيوعية الثانية" على أي حال من أجل العثور على جذور "اليسار الجديد" مرة أخرى، وقد رأينا أن المنظمين الكبيرتين اللتين عانتا إلى حد ما من القمع الناصري القاسي: "الرأية" و"حدثو" قد قررتا في بداية عام ١٩٦٥ حل نفسيهما حتى ينضم مناظلوهما إلى التيار الاشتراكي الواحد الذي يمثله الاتحاد الاشتراكي العربي، الحزب الناصري الوحيد^(٢). ومع ذلك، فرغم دخول جزء من الماركسيين "بشكل شخصي" في الاتحاد الاشتراكي وعثورهم على المنبر الذي وعد به النظام اليسار في "الطليعة"، لم يُسمح لجزء كبير من "الشيوعيين السابقين" بدخول الحزب، الأمر الذي ترتبت عليه استحالة حصولهم على وظيفة ثابتة محترمة في المؤسسات الثقافية التي احتكرتها الدولة. وقد أسس هؤلاء الساخطون - بصحبة مَنْ عارضوا قرار الحل من البداية ولكن فضلوا التصويت لصالحه - من أجل تطهير الحزب من عناصر اليمين^(٣) وبعض الأعضاء

(١) بالتحديد في الفصل السابع المعنون "الحركة الثالثة ١٩٦٥-١٩٨٨"، ص ١٢٧-١٥٠، يخصص المؤلفان أقل من صفحة لكل من حزب العمال الشيوعي المصري والحزب الشيوعي "٨ يناير"، بينما لزمنا الصمت تماماً حيال وجود العصبة التروتسكية والأحزاب المنشقة عن أنقسام الحزب الشيوعي المصري، الذي خصصا له كل الفصل تقريباً.

(٢) انظر الفصل الثالث، القسم ٢.

(٣) إبراهيم فتحي، مقابلة شخصية مع المؤلف، القاهرة، ٣٠ مايو ٢٠٠١.

الجند - فى نفس العام، ١٩٦٥، منظمة جديدة تعرف باسم "وحدة الشيوعيين". وكان تكوين هذه المجموعة غير متسق على الإطلاق حيث انضم إليها الأعضاء على أساس من الرفض دون وجود مرجعية برنامجية ذات قيمة. ومن اللافت للنظر رغم ذلك، ملاحظة انضمام متقفي جيل الستينيات اللامعين مثل جمال الغيطاني ويحيى الطاهر عبد الله من الكتاب، والناقد صبرى حافظ والصحفى صلاح عيسى وآخرين بالإضافة إلى عدة شخصيات من المناضلين الماركسيين القدامى، مثل الناقد إبراهيم فتحى إلى هذه المنظمة^(١).

ولكن هذه المنظمة عاشت حياة قصيرة، لأن عام ١٩٦٦ شهد آخر حملة كبيرة مضادة للماركسية من جانب النظام الناصرى، الذى وضع فى المعتقل بتهمة إنشاء منظمة سرية موالية للصين ليس فقط المناضلين الذين رفضوا الحل، بل كذلك - كما سبق وقلنا - عدة قيادات من اليسار الرسمى، ومن بينهم رئيس تحرير مجلة "الطليعة" لطفى الخولى، ومؤسس معهد الدراسات الاشتراكية إبراهيم سعد الدين، والناقد غالى شكرى^(٢).

وبانتهاء وحدة الشيوعيين فى ١٩٦٦ يمكننا أن نؤكد غياب أى تشكيل ماركسى مستقل حتى نهاية الستينيات، رغم وجود عدة شهادات تشهد بعكس ذلك^(٣).

(١) مقابلات مع صلاح عيسى، جمال الغيطاني، إبراهيم فتحى.
(٢) انظر الفصل الثالث القسم ٢. بالنسبة للاتهام "بالمأوية" أكد إبراهيم فتحى أن عادل رفعت وبهجت النادى فقط (وهما اللذان عُرفا باسم القلم: محمود حسين) يمكن اعتبار أنهما تبني الفكر الماوى. من المقابلة للشخصية السابقة الذكر مع المؤلف.
(٣) رغم تأكيد بعض مناضلى الحرس القديم وجود حلقة ماركسية واحدة على الأقل، إلا أنني، على أساس العديد من المقابلات وفى غياب أى وثيقة تثبت العكس، أشارت حسنين كشك (أحد مؤسسى ج.ع.ش.م) الرأى القائل بأنه لم تتشكل أى منظمة ماركسية جديدة قبل النكسة، ومنذ حركة الجماهير فى ١٩٦٨. حسنين كشك، من مقابلة شخصية مع المؤلف، القاهرة، ٢ يونيو ٢٠٠١.

وبدأت تتكون حلقات ماركسية فقط بعد هزيمة ١٩٦٧ وانحدار الهيمنة الناصرية على المجتمع الذي اتضح من خلال إحياء الحركة الطلابية والعمالية في ١٩٦٨. غير أنه لن يكون من المناسب اعتبار هذه المجموعات الصغيرة للمتقنين - المعزولة والمفتقرة إلى أى برنامج فعال أو إنتاج سياسى - منظمات حقيقية. وبالإضافة إلى الاضطرار إلى السرية الذى دفعت إليه كفاءة جهاز قمع النظام، أصبح من المستحيل عمليا التواصل بين الجماعات المختلفة، التى عادة ما تجاهلت الواحدة منها وجود الأخرى. وكانت الطريقة الوحيدة للتواصل بين المجموعات تتشكل عمليا من الصداقات الشخصية بين الأعضاء والعضوية المترامنة لبعض الأعضاء فى أكثر من حلقة^(١). ومع ذلك يمكن اعتبار هذه الحلقات بنورا لإحياء الحركة الشيوعية فى مصر، ومن هنا يمكننا أن نتطرق إلى الوصف التفصيلي "شجرة أنساب" الأحزاب الشيوعية المصرية الثلاثة الكبيرة التى نشطت فى السبعينيات وما بعدها.

وبالنسبة للحرس القديم المعارض لقرار حل الأحزاب منذ ١٩٦٥ فقد تجمعوا فى مجموعة سميت بـ "الاستمرار" بقيادة رجائى طنطاوى وقد سعت هذه المجموعة - كما نرى فى الاسم الذى اختارته - إلى نوع من الاستمرار مع تجربة الخمسينيات والستينيات ومن هذه الحلقة التى تكونت فى البداية من عشرة متقنين وبفضل التطعيم بعدة قادة للحركة الطلابية فى ١٩٧١-١٩٧٢ سينشأ الحزب الشيوعى "٨ يناير" الذى سنتحدث عن أيديولوجيته وممارساته السياسية لاحقا.

ومن الأمور الأكثر تعقيدا إعادة إنشاء عدة حلقات ومجموعات تكونت أساسا من أعضاء "حدثو" السابقين والحزب الشيوعى المصرى القديم. وباختصار كوّن عدد من المتقنين المحبطين من التجربة داخل مؤسسات النظام والذين أصبحوا

(١) المصدر نفسه.

راليكاليين نتيجة صدمة الهزيمة بقيادة ميشيل كامل^(١) في ١٩٦٥-١٩٦٩ حلقة سميت بـ "الشروق". دعا ميشيل كامل إلى للمشاركة في نشاط المجموعة عددا من زملائه السابقين من بينهم يوسف درويش وأديب ديمتري ونبيل صبحي^(٢)، بهدف النقاش حول إمكانية إعادة تأسيس منظمة شيوعية مستقلة عن النظام. وبالتوازي مع "الشروق"، نشأت جماعتان أخريان عُرفتَا باسم "الجماعة بلا اسم" و"السمر" التي ربما كانت كبرى الحلقات الماركسية المرتبطة بشكل ما بالحرس القديم^(٣). وقد كبرت هذه الحلقات التي تكوّن أغلبها من مناضلي الحركة الثمانية بفضل انضمام الطلاب وانضمام العمال جزئيا في الأوائل المبكرة للسبعينيات، إلى درجة أنها بدأت في طرح مسألة تشكيل حزب حقيقي وفعلي، يوجد داخله الجزء الأكبر من الكوادر الماركسية القديمة، التي للذين جحدوا في ذلك الوقت قرار الحل. وقد أبت مشاركة مناضلين من المجموعات الثلاث في عدة إضرابات كبرى حتى ١٩٧١ والقمع الذي تلا ذلك من قوى الشرطة التي قامت باعتقال عدد منهم إلى تسريع المناقشات حول إمكانية توحيد الحلقات. وقد بلغت هذه المناقشات أوجها في الوحدة التي تمت في أبريل ١٩٧٢^(٤)، رغم المعارضة من جانب الأعضاء الأصغر منا الذين شاهدوا بحذر عملية "التحويل البيروقراطي" للمنظمة، والدور السلطوي الذي يمارسه القادة القدامى لـ "حتو" و"الراية". وقد أعلنت هذه التوترات

(١) من المثير ملاحظة أن ميشيل كامل نفسه كان في هذه اللحظة سكرتيرا لتحرير "الطليعة".

(٢) المقابلتان الشخصيتان السابقتان الذكر مع يوسف درويش ونبيل صبحي، القاهرة، ١٣ يونيو ٢٠٠١.

(٣) يؤكد إسماعيل والسعيد (op. cit, p. 129 e ss.) أن Ismael e al-Sa'id أن المجموعة بلا اسم كانت الأكبر في الثلاثة، وبالتالي السلف الرئيسى للحزب الشيوعي المصري، لكن معظم الذين تمت مقابلتهم يحددون أن "الشروق" كانت هي المجموعة الأكثر تأثيرا، والوثائق الموجودة في حوزتي لا تحمل أى توقيع قبل عام ١٩٧٥ فلا يمكنها المساهمة في حل المسألة بشكل حاسم.

(٤) انظر Ismael- el- Sa'id, op. cit., p. 129.

بين أجيال مناضلي الحزب الشيوعي المصري المستقبلي مبكرا عن الانقسامات التي سيعاني منها الحزب في منتصف السبعينيات^(١). فقد قامت الوحدة بين المجموعات الثلاث الصغيرة أكثر من أى شئ آخر على أساس العلاقات بين القادة الماركسيين القدامى الذين وضعوا كشرط أساسى للانضمام إلى الحزب الشيوعي الناشئ الإدانة القاطعة للحل الذاتى فى ١٩٦٥. وبعد هذا النقد الذاتى فقط كان يمكن لأعضاء "حتو" والحزب الشيوعي المصري القديم الانضمام إلى المنظمة الجديدة^(٢). وبالنظر لطبيعة هذه الأخيرة تقرر التقدم فى خطوات، وعدم الإعلان مباشرة عن مولد حزب، سواء لتجنب القمع، أو وهو الأهم للتأكد من استمرار وكفاءة الكيان السياسى الناشئ لتوه. وقد بدأ الحزب فى نشر بيانات ورسائل قصيرة عن حقيقة الأوضاع فى مصر وبصفة غير دورية حتى عام ١٩٧٢ تحت اسم "أحمد عرابى للمصرى". و ظهرت لأول مرة الدورية الناطقة باسم المجموعة، والتي جرى تعميدها باسم "الانتصار" فقط أثناء وبعد حرب أكتوبر وتلتها النصوص النظرية الأولى.

ويتضح مما سبق وصفه خط الاستمرار القائم بين الحركة الشيوعية الثانية والثالثة. ويمكن ملاحظة ذلك فى وجود عدة قيادات من الحرس القديم فى المجموعات التى ستصبح فيما بعد الحزب الشيوعي المصري والحزب الشيوعي ٨ يناير^(٣).

(١) يصف أحمد كامل، على سبيل المثال، وهو أحد المسؤولين عن انقسام المجموعة (ثم الحزب، المؤتمر) من الحزب الشيوعي المصري فى ١٩٧٦، عملية الاتحاد بين المجموعات الثلاثة فى ١٩٧٢ "بالوحدة الفوقية"، مقابلة شخصية مع المؤلف، القاهرة، ١٦ مايو ٢٠٠١.

(٢) رفعت السعيد، من مقابلة شخصية مع المؤلف، القاهرة، مايو ٢٠٠٠.

(٣) التشكيل الماركسى الوحيد الذى نشط فى الحركة الثالثة بلا أى علاقة مع التجربة الناصرية هو العصبة التروتسكية التى ستتحدث عنها لاحقا.

وعلى العكس من ذلك يمكن للمصدر الرئيسى الثالث للحركة الماركسية الجديدة أن يتباهى وبمبررات قوية بعنصر من التجديد والاتصال عن التجربة السابقة، وإن كان ذلك فى إطار حدود سنيينها لاحقاً.

على أن نشأة هذه المجموعة الأخيرة، التى غيرت اسمها إلى "حزب العمال الشيوعى المصرى"، مثيرة للاهتمام بشكل خاص، لما لها من وجه أبى بجانب الوجه السياسى البحث. ويمكننا الرجوع بجذور حزب العمال الشيوعى المصرى، وتفرده بلا منازع إلى التجربة القصيرة لوحدة الشيوعيين، وبالتحديد إلى ملهمها إبراهيم فتحى. فبعد الهزيمة كرس نفسه بصحبة عدد من زملائه لتجربتين متوازيتين، لكن بنقاط التقاء. فمن جانب سعى إبراهيم فتحى إلى تنمية الجيل الجديد من الطليعة الأدبية المصرية باحثاً عن تحرير نشاط الأدباء من احتكار الدولة للثقافة، ومن ناحية أخرى ألهم أفكاره بعض المناضلين الذين سعوا إلى تأسيس تنظيم شيوعى جديد. ومن المهم أن نميز بين هذين المشروعين رغم أن إبراهيم فتحى نفسه والعديد من المتقنين الآخرين عايشاهما فى وقت واحد. وبالنسبة لموضوع الحفاظ على مكان مستقل للطليعة الأدبية، قام هذا الناقد الألبى الماركسى بالمشاركة فى إصدار الكتاب غير الدورى "جاليرى ٦٨"^(١)، ثم بتأسيس جمعية "كتاب الغد" وفى الوقت نفسه كان فكره هو الملهم الحقيقى وراء الحلقة الماركسية "خميس والبقرى"^(٢)، التى بادر إلى تأسيسها فى ٨ ديسمبر ١٩٦٩ خليل كلفت وحسنين كشك وزين العابدين فؤاد وعبد السلام الشهاوى، وقد تغير اسمه بعد

(١) بخصوص تجربة "جاليرى ٦٨" انظر Barresi, C. Ferial, "La narrativa egiziana contemporanea", OM LVIII (1978), p. 17-26; Casini, Lorenzo, "Introduzione" a AA.VV., Fuori degli argini. Racconti del '68 egiziano, Roma, Edizioni Lavoro, 2003, p. VII-XVI.

(٢) أسماء القائدين العماليين اللذين شنتهما عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٥٢ فى كفر الدوار بعد الإضراب الأول الذى أعلن بعد ثورة الضباط الأحرار.

أشهر إلى التنظيم الشيوعي المصري "ت. ش. م"^(١) وسرعان ما انضم إليه في أوقات مختلفة مناضلون بارزون على رأسهم إبراهيم فتحى وسعيد العليمى (الذى كان فى السجن فى تلك الفترة) وصلاح العروسى وفتح الله محروس. وقد استطاع "ت. ش. م" منذ لحظة نشأته أن يعتمد على بنية تنظيمية داخلية وعلى عدة تحليلات سياسية ونظرية، أنتجها المناضلون وبشكل أساسى إبراهيم فتحى، عن القضايا الأكثر أهمية فى حينها. وقد توسعت المنظمة أساسا بانضمام مناضلين جدد، تم تجنيدهم فى المجال الجامعى منذ بداية السبعينيات. وسيتم تقديم تحليل شامل للإنتاج الفكرى لهذه الحركة لاحقاً، غير أن من الضرورى أن نؤكد من الآن أن بعض المواقف المحددة لـ "ت. ش. م" (أو "ح. ع. ش. م" لاحقاً) توضح لنا أسبقية فى الجامعات المصرية فى النصف الأول من السبعينيات. فقد كان أعضاء هذه المجموعة التى وصفها طارق إسماعيل ورفعت السعيد "بالشبان المتطرفين والمفتقرين إلى الخبرة السياسية"^(٢)، هم صانعى محاولة التجديد والانقطاع عن التقاليد الماركسي المصرية.

ولم يتميز "ت. ش. م" ("ح. ع. ش. م") برفض قيام الشيوعيين المصريين القدامى بـ "تجميل صورة النظام الناصرى" فحسب بل تميز كذلك بالإدانة الحاسمة والقاطعة لأولئك المناضلين الذين تخلوا عن وظيفتهم النقدية والثورية ذاتها من أجل القبول بالانضمام إلى النظام، بمقابل ضئيل أو مقابل لا شئ. ومنذ البداية بدت لعيون المناضلين الشبان تجربة مجموعة الشيوعيين السابقين بقيادة ميشيل كامل بالبحث عن منظمة مستقلة بعد الهزيمة "اتجاها على يمين الحركة" بلا أى منظور

(١) يتضح من مقابلات شخصية مع إبراهيم فتحى، وصلاح العروسى، وحسنين كشك، وكذلك من المقابلات مع مناضلين من تشكيلات أخرى أن صفة "تشيماوى" التى استخدمت مبكراً للتعبير عن المناضلين أو أيديولوجية المنظمة حتى بعد تحولها إلى حزب مشتقة من هذا الاختصار.

(٢) Ismael - al- Sa'id, op. cit., p. 131

ثورى^(١). وكان الاختلاف الأكبر بين "ت. ش. م" واليسار للرسمى والحرس القديم الذين كانوا يعيدون تنظيم أنفسهم فى رؤية النظام الناصرى، وهى القضية التى ستصبح موضوعا للتأمل والجدل سواء داخل المجموعة أو مع الأفراد الآخرين فى اليسار. فمن الواضح أنه على النقيض من تجربة الخمسينيات والستينيات وتفرعاتها فى أعوام السادات، نفت مجموعة ت. ش. م. أى صبغة تقدمية عن النظام الناصرى حاكمة عليه بأنه التعبير عن "البرجوازية البيروقراطية" وأنه مقدر له أن يعود إن أجلا أو عاجلا إلى التحالف مع قوى الإمبريالية العالمية والبرجوازية الكمبرادورية فى فترة ما قبل الثورة فى الوطن. وفى النصوص الأولى المتاحة كان من المتوقع "حل السلطة لتناقضها مع الإمبريالية العالمية" بعد هزيمة يونيو^(٢)، مع عودة مصر إلى المعسكر الغربى والصعود المترامز للقوى الرجعية للرأسمالية القديمة والجديدة داخل البلاد. وستتم متابعة تطور هذه التحليلات لاحقا فى إطار مقارنة مع التشكيلات الأخرى فى "الحركة الثالثة" غير أن من المهم أن نؤكد على تفرد هذه القراءة لـ "ت. ش. م" لأن هذا سمح للمجموعة بأن تطور تحليلا مقنعا وفعالا لتطور النظام الخاضع لـ السادات واصفين إياه بـ "الاستمرار الطبيعى للسياق الذى بدأه سلفه" بينما نادى الحزب الشيوعى المصرى مع اليسار الرسمى بالدفاع عن "المكاسب الناصرية"^(٣).

(١) من اللقاءات مع مؤسسى ت. ش. م، خاصة صلاح العروسى وحسنين كشك.
(٢) انظر مرسى مصطفى على (اسم مستعار لـ إبراهيم فتحى) "كيف تحل سلطة البرجوازية تناقضاتها مع الإمبريالية!" فى ح. ع. ش. م، "مسار....." المصدر المذكور سابقا ص ٧-٩. يظهر هذا النص المختصر بلا تاريخ فى بداية مختارات من الوثائق أصدرها مناضلو ح. ع. ش. م فى نهاية ١٩٧٧ ونشر فى بيروت فى ١٩٧٩.

(٣) تظهر النسخة الأكثر اكتمالا لهذه النظرية فى مرسى مصطفى على (إبراهيم فتحى) "طبيعة السلطة الطبقة فى مصر" (١٩٧١) وقد أعيد طبعها بمقدمة لـ صالح محمد صالح (خليل كلفت)، كراسات غير دورية، الطريق، العدد ٤ (يوليو ١٩٨١)، انظر أذناه فى هذا الفصل.

ولكى نختم هذا العرض للمجموعة الثالثة فى اليسار الجديد، من الضرورى أن نبرز الحدود التى أحاطت بنشأتها من منظور التنظيم الداخلى والإستراتيجية الدعائية والانتماء الاجتماعى للمناضلين. وبداية، ورغم ادعاء الرغبة فى تمثيل الحزب الحقيقى للطبقة العاملة فى مصر فقد نشأ هذا الحزب من مجموعة من الطلبة المدنية المتفقة ذات وجود محدود فى المصانع ووجود رمزى فقط فى المناطق الريفية^(١). صحيح أن ت. ش. م. اندمج فى عام ١٩٧١ مع حلقة عمالية ماركسية نشطة فى الإسكندرية^٢ لكن كل القيادات (اللجنة المركزية) والغالبية العظمى من المناضلين كانوا منذ البداية متقنين نوى نشأة مدنية وانتماء إلى البرجوازية المتوسطة أو الصغيرة وطلاب جامعيين لهم نفس الانتماء الاجتماعى. وفى النهاية بالنسبة للتنظيم الداخلى للمجموعة أتت ضرورة العمل السرى وفى ظروف غاية فى السرية مع الالتزام بنموذج "المركزية الديموقراطية" إلى إعادة إنتاج بنية الحزب الستالينى مع بيروقراطية مفرطة منذ البداية وقدرة محدودة للسيطرة والتوجيه السياسى من قواعد المناضلين على اللجنة المركزية.

وعلى أى حال هناك اتفاق واسع على التأكيد على أن ت. ش. م. حقق نجاحات كبيرة بين الطلاب بدءًا من العام الدراسى ١٩٧١-١٩٧٢. وقد يرجع هذا النجاح إلى صغر سن معظم أعضائه تقريبًا بالمقارنة مع "الحرس القديم" الماركسى أو لوجود "قرين شرعى" مثل "كتاب الغد" أو أخيرًا بسبب "الراييكالية" التى أغوت العديد من الشباب المصدومين بوعود النظام الناصرى المنقوصة. وبينما استمرت الحلقات التى تشكل منها الحزب الشيوعى المصرى فى تصور إمكانية وجودهم داخل مؤسسات النظام وإن فى موقع يزداد هامشية باستمرار، عبر مجلة "الطلبة"

(١) حسنين كشك، المقابلة السابقة الذكر.

(٢) فى تلك الفترة (وبالتحديد فى ١٩٧٣)، تعرض ت. ش. م. لاعتقال قيادته (إبراهيم فتحى، و خليل كلفت، و سعيد العليمى) فى حين كان حسنين كشك مطلوبًا غير أنه نجح فى الهرب من الاعتقال.

وجود عدة عناصر ماركسية في الاتحاد الاشتراكي أو حتى داخل الحكومة، فقد برز الـ"ت. ش. م" كـ "انقطاع" حقيقى مع التقليد "التعاونى" الذى اتسمت به التكوينات الشيوعية فى أعوام عبد الناصر^(١).

وما زالت مسألة العلاقات بين الحركة الطلابية والمجموعات المختلفة للحركة الشيوعية الثالثة تخضع للجدل بين ممثلى جيل السبعينيات^(٢). فعلى البعد بمسافة ثلاثين عاما ما برحت مواقع المثقفين والمناضلين تبدو وكأنها تعيد جدل الأجيال الذى كان موجودا فى الأحزاب الشيوعية السرية فى أعوام السبعينيات. والواقع أن جزءا ممن بدأوا نشاطهم السياسى فى سنوات الجامعة اتهم منظمات اليسار الجديد بأنها لم تترك المناضلين للجدد ينضجون نضجا سياسيا وأيديولوجيا "كافيا" وأنقلت عليهم بالحمل البيروقراطى والميل إلى الانقسام الداخلى. وتحديدًا، وبكلمات أحمد بهاء شعبان وأحمد عبد الله^(٣)، اللذين كانا من قيادات الحركة الطلابية فى القاهرة من ١٩٧١ حتى ١٩٧٤، قطع تنظيم الكوادر فى خلايا سرية - ومفرطة السرية تدار تبعا للنظام الستالينى - الطريق على احتمال تنمية خبرة ووعى ديموقراطى خالص فى الأجيال الجديدة. وربما كان كتاب أروى صالح المسمى "المبتسرون" يقدم المثال الأفضل على هذا التذليل. ويصف النص المعتمد على مذكرات المؤلفة والتى كانت أيضا طالبة ومناضلة فى حلقات اليسار الطلابى، وبشكل درامى ليس فقط اكتشاف النشاط السياسى من قبل الشباب، ولكن كذلك

(١) حسنين كشك، المقابلة السابقة الذكر.

(٢) انظر المناقشة التى تلت مداخلة أحمد بهاء شعبان فى الأعمال المذكورة الخاصة بمؤتمر "عمال وطلبة فى الحركة الوطنية المصرية"، ص ١٦٠ وما يليها.

(٣) فى نفس الكتاب يتهم شعبان اليسار الراديكالى بالتحديد بمنع نمو للحركة الطلابية، نقلا إليها الميل إلى الصراع الداخلى والانقسام، واليسار الرسمى الذى انضم فيما بعد إلى حزب التجمع منذ عام ١٩٧٦ بعجزه عن استغلال الطاقات الديموقراطية للطلاب، رغم تقديمه لهم قاعدة قانونية للتحرك السياسى، لتجديد نفسه. انظر المصدر السابق، ص ١٥٨-١٥٩.

"الاحتضان القاتل" بين الوافدين الجدد على الجامعة والممثلين المتمرسين للتشكيلات الماركسية المنظمة^(١).

وينبغي احترام تحليلات القادة السابقين للهيئات الطلابية بالذات نظرا إلى خبرتهم المباشرة بالأحداث. ومع ذلك يبدو لي أنه يمكن أن نؤكد أن الحد الرئيسى للحركة الطلابية يتسق بشكل ما مع قوتها الأصلية، أى حقيقة أنها كانت رد فعل تلقائي تماما على عجز الحكومة عن حل مسألة التحرر الوطنى بعد هزيمة يونيو. صحيح أن النشاط الطلابى سيصبح من خصائص الجامعات المصرية حتى نهاية السبعينيات غير أنه لا يمكن إنكار أنه بعد نصر ١٩٧٣ والدعاية التى تلتها والتى قامت بتقييس للرئيس تناقصت المشاركة السياسية للجماهير إلى جانب الطلاب، وفى الوقت نفسه خسرت حلقات اليسار وبشكل مطرد احتكارها للجامعة لصالح التنظيمات الإسلامية.

قد تم النصر الأول لحاملى لواء الأيديولوجية الإسلامية على المعارضة العلمانية فى الجامعة ذاتها فى النصف الثانى من العقد. ويعتبر الدعم الواسع الذى أمناه النظام الساداتى للمنظمات الإسلامية لأهداف ضد ماركسية، سواء بوسائل اقتصادية أو بحرية الحركة، تفسيراً بديهياً، لكنه لا يستطيع أن يفسر بشكل كامل الانسحاب التدريجى لليسر من السياسة الجامعية. وللمرة الثانية يمكننا أن نحدد مفتاحاً لقراءة الأحداث بالتوازي مع تحليلات خبرة اليسار الراديكالى فى إصراره على مواضيع راديكالية بشكل أو بآخر إلا أنها تمثل تراثاً ناصرياً واضحاً فى إعطائها الأولوية لشعارات وبرامج قومية، وترتب على ذلك إهمال القضية الاجتماعية مما قلل من تقدير قيمة التغيرات العميقة التى مرت بها البلاد مع فشل الانفتاح وازدياد الفجوة بين الطبقات جنبا إلى جنب مع القرار السياسى بإعادة الأسلمة من أعلى وهى التى استخدمها النظام أولاً بأسلوب مستقل ثم بهدف عدم

(١) نُشر الكتاب فيما بعد فى دار نشر: "دار النهر"، القاهرة، ١٩٩٦، بعد لتحرير المؤلفة.

السماح للمجموعات الإسلامية السائرة في طريق الراديكالية باستغلال العنصر الدينى كعامل من عوامل معارضة السلطة.

وفى التحليل الأخير لا يوجد شك أن الفضل يعود إلى الحركة الطلابية فى أوائل السبعينيات فى أنه أتيج لنا أن نبحث اليوم فى إعادة بناء وتحليل مسيرة "الحركة الشيوعية الثالثة" المصرية وليس لحقات دراسية مغلقة متركزة فى العواصم دون طموح إلى الحركة السياسية المباشرة ومفتقدة بالمعنى الحرفى إلى أى اتصال مع الواقع الخارجى^(١).

٢- اليسار الرسمى والسلطة: تقييم لفجوة

أ- السياسة الثقافية الجديدة للسادات و"الطلبة" بعد حرب ١٩٧٣

أعلن السادات فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣ بشكل مفاجئ إلغاء المرسوم بالطرد من الاتحاد الاشتراكى الذى ضم الجانب الأكبر من الإنتلجنسيا المصرية فى فبراير السابق، وأصدر فى الوقت نفسه قرارا بالإفراج عن الطلاب المعتقلين. ولم يكن بمقدور "المغفور عنهم" تصوّر أن هذه القرارات مرتبطة ببداية ما سيكون الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة التى قامت فى السادس من أكتوبر بمبادرة الرئيس.

(١) يؤكد صلاح العمرسى، أحد مؤسسى ح. ع. ش. م، عن حق "أنه بدون الفتح للناصرى للجامعة أمام الطبقات الشعبية والذى ترتب عليه مولد حركة طلابية أكثر تمثيلا لواقع البلاد (بدءًا من الواقع الريفى) لم تكن فترة السبعينيات لتشهد سوى "انتشار دوائر ماركسية صغيرة فى القاهرة مكونة من متقنين راديكاليين نوى أصول برچولازية" (المقابلة الشخصية مع المؤلف، القاهرة ٩ مايو ٢٠٠١).

بدا اندهاش للمتقين - فى الأسابيع التالية "العبور العظيم"^(١) لقناة السويس - من أداء الجيش أعلى من دهشتهم من انفجار الحرب بعد سبع سنوات من حالة "اللاسلم ولاحرب".

ولم يتردد ماركسيو الدولة، وإن بنوع من الحذر، فى قبول الطبيعة الساداتية عن النصر، وإن كان الموقف على الأرض لحظة وقف إطلاق النار يشهد وجود الجيش الإسرائيلى على بعد مائة كيلومتر من القاهرة وأقرب من ذلك حتى من دمشق على الجبهة السورية، ولكن حتى إذا كانت عدة مجموعات من اليسار الراديكالى استطاعت فى ذلك الوقت أن تتحدث عن حرب محدودة وعن خدعة^(٢)، فما لا يثير الدهشة أن مجموعة "الطليلة" سعت إلى أن تنسب إلى نفسها بشكل ما وإن جزئى، انتصار الجيوش العربية.

وبالإضافة إلى كون حرب أكتوبر تمثل خطأ فاصلا نمونجيا فى التاريخ المصرى الساداتى، حيث كانت الحدث الذى منح الرئيس الجديد شرعيته، فقد أسهمت أيضا بشكل أساسى فى إقحامنا الخط الذى سيعيد الحرس الماركسى القديم إلى صفوف المعارضة.

ولم تر "الطليلة" فى الحرب المحدودة تحققا للمشروع الساداتى بإعادة بناء السياسة الخارجية المصرية، بل وأعطينا تفسيرا "يسحب الثقة" من التفسير الرسمى. ويضع "النصر" المفترض كقاعدة لإحياء الوطنية المصرية حيث قرر النظام فى الشهور التالية وضع المعنى الوحوى العربى فى الظل بالتدريج حتى بعد الانتقادات الأولى المتتالية لاتفاقية فض الاشتباك "سيناء ١" فى عام ١٩٧٤.

(١) "العبور الكبير" نقرأه فى صفحة ٣ من "الطليلة" فى نوفمبر ١٩٧٣ فى عنوان موجّه إلى القراء.
(٢) انظر أدناه.

ومن جهة أخرى يوضح التحليل للكتابات المنشورة في "المنبر الماركسي" في الشهور التالية للحرب كيف سعت مجموعة "الطلبة" إلى تقديم وجهة نظر بديلة للموقف فيما بعد الحرب تتسق مع مواقفهم الوجودية العربية والمؤيدة بوضوح للفلسطينيين. ومنذ أول مقال لرئيس التحرير نُشر بعد الحرب، أكد لطفى الخولي بعد عرضه لفشل عنصرية العقيدة العسكرية الإسرائيلية، ومدحه "لأولاد مصر" على أهمية الحركة العربية المشتركة سواء على المستوى العسكري أو الدبلوماسي. كما أكد رئيس التحرير على الدعم الأساسي للحليف السوفييتي عن طريق الأسلحة أو تدريب الجيش المصري في تناقضه مع الخطوات التي قام بها السادات في اتجاه الولايات المتحدة الأمريكية كما أكد التضاد غير القابل للحل بين "حركة التحرر العربية" والتحالف بين الصهيونية وإمبريالية الولايات المتحدة الأمريكية^(١).

ولم يكن ممكنا للتغيرات الدرامية في السياسة الخارجية للنظام مع التقارب السياسي والدبلوماسي الحاسم مع الولايات المتحدة أن تترك الماركسيين لامبالين. ومن ناحية أخرى كرست "الطلبة" دائما مساحة كبيرة للمسائل السياسية العالمية عارضة دراسات وأبحاث عن البلدان التي تسير في طريق التنمية، وعن حركات التحرر في العالم بأكمله. ومن هذا المنطلق بقي موقف "الحرس القديم" حازما في إدانة إمبريالية الولايات المتحدة وتدخلاتها في العالم. ولتؤكد ذلك، بالإضافة إلى كثرة المقالات المكرسة للتطور السياسي والاقتصادي والبلدان الاشتراكية، يكفي أن نسجل المساجلة المكرسة لانقلاب الجنرال أوجستو بينوشيه Augusto Pinochet في شيلي على الحكومة الشرعية والتنمية لـ سلبادور ألييندي Salvador Allende^(٢). وانطلاقا من حضور ألييندي و كيمسجر شخصيا وراء كواليس التراجيديا التشيلية، أكد الماركسيون بوضوح خطر الوثوق بالولايات المتحدة

(١) انظر لطفى الخولي، "٦ أكتوبر: المفاجأة والحقيقة"، "الطلبة"، العدد ١١ (نوفمبر ١٩٧٣)، ص ٥-١٣.

(٢) انظر الملف المنشور في العدد ٢ (فبراير ١٩٧٤)، ص ١٠٨-١٤١.

الأمريكية في حل مسألة الشرق الأوسط واستبعاد الاتحاد السوفيتي من كل اتفاقية^(١).

وإذا كانت هذه النقطة الأخيرة هي الأكثر حساسية بالنسبة للماركسيين وكان من الصعب أن يلتقوا بشأنها مع مسار "مصر الجديدة" الساداتية فقد كان من الأسهل للماركسيين أن يؤكدوا بقوة على السمات "العربية" للصراع الذي يجب قراءته كحرب تحرر وطني فعلية، أي بداية حرب تعيد الاستقرار إلى الشرعية الدولية وللحقوق العربية التي اغتصبتها إسرائيل^(٢).

وختاماً، فبينما تبنى النظام منذ البداية تمجيد ورد اعتبار الجيش كـ "طبقة مغلفة"، سعت الكتابات الماركسية إلى تأكيد الطابع الشعبي للقوات المسلحة المكونة من نفس الشباب الذين طالبوا قبلها بأشهر في الجامعات والمعاهد العليا بإعادة بدء الحرب وإنهاء شلل الحكومة^(٣).

وفي استطلاع رأى شعبي مثير نشرته "الطلیعة" في ديسمبر ١٩٧٣ ظهرت الخصائص الشعبية للحرب وحقيقة أن جزءاً كبيراً من المصريين لم تأخذهم الدهشة من الحرب والأهم من ذلك حصول السادات أخيراً على الشرعية فقد أصبح الآن

(١) انظر طارق عزيز، "الليندي ودروس الإخفاق في شيلي"، نفس المصدر، ص ٩٨-١٠٨؛ عادل حسين، "الموقف الأمريكي من الصراع العربي الإسرائيلي"، "الطلیعة" العدد ١ (يناير ١٩٧٤) ص ٤١-٥٠.

(٢) انظر "٣ كلمات حب من هيئة التحرير إلى الجنود المصريين والسوريين والفلسطينيين" (ص ١٤-١٧) والمقالات الموجودة في الملف الضخم "الحرب الرابعة" الذي احتل الجزء الأوسط من عدد نوفمبر ٧٣ (ص ١٨-٦٢). وبين المشاركات تشير إلى مشاركة فؤاد مرسى من منظور تاريخي (ص ٢٠-٣٣) ومحمود عجلان حول استخدام "سلاح النفط" ص ٣٨-٤٦.

(٣) نفس المصدر.

بطل العبور^(١). وبشكل ما باستخدام التشبيه اللطيف للناقد غالى شكرى منح الشعب المصرى مع انتصار أكتوبر البيعة للخليفة الجديد^(٢).

وعرف الماركسيون جيدا أن الحرب منحت الرئيس للشرعية الشعبية التى طالما اشتاق إليها إلا أنهم أصرروا على طرح وجهة نظرهم البديلة لمستقبل البلاد، معتبرين أنفسهم فى كل الأحوال جزءا من المؤسسات. ويمكننا بهذا الشكل أن نفهم المائدة المستديرة التى نظمها "الطلبة" عن مستقبل "حركة التحرر الوطنى العربية" منطلقين من افتراض أن حرب أكتوبر ما هى إلا المعركة الأولى على طريق تحرير "الوطن العربى" فى نفس الوقت الذى تفاوض فيه السادات اتفاقية فك الارتباط الأولى مع إسرائيل "سيناء ١" متخليا فى حقيقة الأمر عن الخيار الحربى^(٣). وبهذا الشكل فبينما حدى اليسار الراديكالى فى مصر وأماكن أخرى فى العالم العربى^(٤) تحول القاهرة نحو الولايات المتحدة بدا أن الحرس القديم الماركسى استمر فى افتراض وجود برنامج وحدة عربية وعالم ثالث لدى نظام السادات.

اختار الرئيس السادات بحسم فى عام ١٩٧٤ أن يخلع نفسه من الدوران فى الفلك السوفييتى ليدور فى الفلك الغربى، وبالتالي احتاج إلى صحافة جديدة تحضر رأى العام لتغيرات راديكالية فى رؤيته. واستطاع السادات على المستوى

(١) "رؤية شعبية لحرب أكتوبر"، "الطلبة"، العدد ١٢ (ديسمبر ١٩٧٣)، ص ١٨-٥٤. افتتح استطلاع رأى بخصوص الحرب مجالا جديدا اعترمت المجلة تخصيصه لمزاج "ال جماهير المصرية".

(٢) انظر Shukri, Egypt..., cit., p. 156.

(٣) انظر "حركات التحرر الوطنى العربية بعد ٦ أكتوبر: المشاكل والآفاق"، "الطلبة"، العدد ١ (يناير ١٩٧٤) ص ١١-٣٥. بخصوص المائدة المستديرة، انظر أيضا التعليق النقدى لـ غالى شكرى (الذى كان قد ترك المجلة فى ذلك الوقت) Shukri, Egypt..., cit., p. 171.

(٤) انظر على الصعيد العربى إلياس فرح، "تشرين الأول بين للتصفية والتحرير"، بيروت، دار الطلبة، ١٩٧٤.

المؤسسى أن يعتمد على الدعم غير المشروط لأحد رجال النظام الأكثر إخلاصا ألا وهو يوسف السباعى صانع احتكار الدولة لدنيا الثقافة الذى تحقق فى العهد الناصرى^(١). ومع ذلك وحتى تتمكن "مصر السادات" من أن تتخذ شكلا محددا، بعيدا عن الشعارات الناصرية وفى أحوال عديدة متعارضة معها، كان ينبغى أن يتجه الرئيس إلى نوع من المثقفين مختلف عن النموذج الاشتراكى الذى مثله "الطلبة" وصحف أخرى ذات اتجاه وحدوى عربى مثل الدورية الشهرية السياسية - الأدبية "الكاتب" والأسبوعية الشعبية "روزاليوسف" التى رأس تحريرها الكاتب الماركسى عبد الرحمن الشرقاوى.

وأشارت حملة للتبديلات فى عالم الصحافة إلى بداية عملية "تصفية الناصرية" سواء بإزالة العناصر المرتبطة بشدة بالنظام السابق أو أساسا بفتح جمل لا تحده رقابة عن التجربة الناصرية^(٢). كان محمد حسنين هيكل أول ضحايا هذه الحملة، حيث كان رئيس تحرير جريدة الأهرام، الجريدة اليومية الرئيسية للبلاد. ويمكن أن يبدو طبيعيا اعتبار هيكل رمزا لتركبة عبد الناصر، ولكن لا ينبغى أن ننسى أنه كان من أقرب حلفاء السادات قبل وبعد انقلاب ١٩٧١. وبالإضافة إلى ذلك كان هيكل أحد صناع التقارب مع الولايات المتحدة الأمريكية، ولم يُعرف عنه أبدا كونه من المتعاطفين مع الاتحاد السوفيتى إلا أن قرار استبعاده أتى بالرغم من ذلك بعد سلسلة من مقالات بقلم رئيس تحرير الأهرام تلفت نظر البلاد إلى تحفظه على ترك كل أوراق الحرب والسلام فى ملعب الولايات المتحدة الأمريكية دون الحصول على أى شىء مؤكد فى المقابل^(٣). ومن للمفارقات أن يحدث عزل هيكل متزامنا مع إلغاء الرقابة على الصحافة فى ٩ فبراير ١٩٧٤^(٤). هذا الخيار الذى

(١) انظر Jacquemond, R., op. cit., p. 34-37. ويصف الباحث الفرنسى بدقة يوسف السباعى بأنه "جنرال جيش الألب".

(٢) انظر أيضا ما سبق فى الفصل الأول القسم ٣.

(٣) انظر الفصل الأول القسم ٤ - ج.

(٤) انظر OM, LIV (1974), p. 102.

حمل ميزة لا تقبل الشك لكل الاتجاهات السياسية الممثلة في وسائل الإعلام المصري^(١)، ختم في المقام الأول إضفاء شرعية على حملة تصفية الناصرية التي كان مقدرًا لها أن تبدأ بعد قليل. وكما ذكرنا من قبل، أوكل السادات هذه المهمة التي بدأت فعلاً بنشر "عودة الوعي" للكاتب المسرحي توفيق الحكيم وكتابات الأخوين علي أمين ومصطفى أمين المؤيدين للصحافة الليبرالية في عهد ما قبل الثورة والذين أُعتقلا وتم نفيهما من جانب النظام الناصري. وبعد سقوط هيكل، تعجل يوسف السباعي في استبعاد الأصوات الأكثر نشاطًا في كورال الصحف والمجلات التي كان ينبغي عليها أن تقوم بالدعاية لنشر قيم "مصر الجديدة" بعد الحرب. ومثلت الحملة التي أثارت ضد "الكاتب" الدورية الشهرية المحترمة التي كانت تنشرها وزارة الثقافة بكل المقاييس بداية عهد جديد من العلاقة بين النظام والمؤسسات الثقافية يختلف تمامًا عن "التسامح" الذي كان يؤمنه هيكل وفريقه للمواقف المختلفة والأقل التزامًا بخط الدولة^(٢).

ويمكن الجزم مع صلاح عيسى بأن هجوم يوسف السباعي على "الكاتب" والذي تم تبريره رسميًا باقتطاعات من أجل ضبط الميزانية الوزارية، كان يمثل بكل المعاني بداية تصفية "الحسابات" مع الإنتلجنسيا التقدمية من قبل النظام وقادته الجدد^(٣).

اتخذ ماركسيو "الطليعة" في جدالهم مع الوزارة موقفًا تضامنيًا واضحًا مع المجلة التقدمية. فقد كان واضحًا لهم أن موقفهم داخل المؤسسات أصبح أقل أمنًا باختفاء "رعاية" هيكل^(٤). وتعتبر المساحة الممنوحة على صفحات "الطليعة" لهيئة

(١) انظر ليلي عبد المجيد، المصدر السابق للذكر.

(٢) انظر Jacquemond, R., op. cit., p. 40-41؛ صلاح عيسى، "متفقون..."، المصدر السابق للذكر، ص ٣٦٣ و ٣٧٨.

(٣) انظر صلاح عيسى و لطفى الخولي، المصدر السابق للذكر، ص ٨٠-٨١.

(٤) المقابلتان الشخصيتان السابقتان الذكر مع محمد سيد أحمد و فاروق عبد القادر.

تحرير "الكاتب"، بعد استقالة كل محرري هذه الأخيرة في أكتوبر ١٩٧٤ دليلاً على احتجاجهم، الترجمة العملية لموقف "الطلبة"^(١).

في تقديم لطفى الخولى لهذه المبادرة إلى القراء هاجم يوسف السباعي وإن بلهجة معتدلة مستكراً الصبغة السياسية لقمع "الكاتب" وإساءة استخدام السلطة التي ارتكبتها وزارة الثقافة في حق المحررين الممتازين للدورية السياسية الثقافية^(٢).

واعترف رئيس التحرير وهو يعلق على مسيرة الدورية بعد هذه الأحداث أن ماركسيي هيئة التحرير رغم فهمهم أن الرياح تهب تجاه اليمين داخل النظام بعد حرب ٦ أكتوبر لم يعتقدوا أنه ينبغي عليهم تعديل خطهم السياسي والأيدولوجي^(٣). وإذا كان لطفى الخولى نفسه قد اعترف بوجود قصر نظر في هذا الموقف تجاه التغيرات الكبرى التي تحدث في المنطقة وفي العالم في منتصف السبعينيات^(٤)، فإننا نلاحظ، من ناحية أخرى، معرفة عميقة بالمشاكل التي تخلقها توازنات السلطة الجديدة في مصر في مواجهة وجود "الطلبة". والحقيقة أن الماركسيين كانوا يدركون أنه بمجيئ يوسف السباعي إلى وزارة الثقافة وبتصفية الصبغة الناصرية من وسائل الإعلام الجماهيرية سيبدو منبرهم دائماً كصوت نشار^(٥). ولتأكيد ذلك سجل لطفى الخولى الضغوط التي مارسها السادات على محرري الأهرام الذين

(١) انظر "الطلبة تستضيف الكاتب"، "الطلبة"، العدد ١١ (نوفمبر ١٩٧٤)، ص ١٣١-١٤٦. داخل الصفحات المخصصة لمجلة "الكاتب" وبالتحديد مقال صلاح عيسى وعنوانه الشديد الدلالة "مستقبل الرجعية في مصر" ص ١٤١-١٤٤.

(٢) انظر لطفى الخولى "الكاتب والطلبة!"، "الطلبة"، العدد ١١ (نوفمبر ١٩٧٤) ص ١٣٢-١٣١.

(٣) انظر كارم يحيى، المصدر السابق للذكر، ١٩-٢١.

(٤) للمصدر السابق، ص ٢٠.

(٥) أكد رفعت السعيد ومحمد سيد أحمد وفاروق عبد القادر في سياق المقابلات الشخصية السابقة الذكر (وكانوا جميعاً أعضاء في هيئة تحرير المجلة في السبعينيات) الشعور الذي كان سائداً داخل المجلة بقرب مصالحتها بعد نهاية "الكاتب" (أكتوبر ١٩٧٤).

خلفوا هيكل بهدف تغيير اتجاه التحرير في المجلة، دون قبول أولئك الصحفيين لهذه الضغوط مهما كانت العواقب^(١). وكان من المعروف أن عملاء "تصفية الناصرية" الذين اختارهم السادات ومعاونوه احترموا دائما استقلال الصحف الماركسية على الأقل إلى أن قام الرئيس بشكل مباشر بمواجهة هذه المسألة بعد انتفاضة يناير ١٩٧٧^(٢).

ومن هذا المنطلق شارك كارم يحيى حكمه المتعلق بأن "الطلیعة" أصبحت منذ ١٩٧٤ وما بعدها "منبرا سياسيا أكثر منه أيديولوجيا"^(٣)، وكانت مجالا واسعا لجانب مهم من الجدل حول الإصلاح السياسى والاقتصادى الذى قام به السادات منذ "ورقة أكتوبر" التى تم نشرها فى أبريل ١٩٧٤^(٤).

وينبغى أن نحدد - بالنظر إلى موقع الماركسيين فى الجدل حول الإصلاحات الاقتصادية التى سيقوم بها النظام فيما بعد بتسميتها بالانتفاخ الاقتصادى - أن عضوين بارزين من هيئة تحرير "الطلیعة" والأحزاب الشيوعية القديمة، شكلا جزءا من فريق الاقتصاديين الذين قاموا بإعداد "ورقة أكتوبر". وبكلمات إسماعيل صبرى عبدالله وزير التخطيط "لم تهدف الورقة إلى خصخصة الاقتصاد بشكل عشوائى، حيث حافظت على القطاعات التى اعتبرت إستراتيجية، بل كانت تهدف إلى جذب الاستثمارات العربية بالذات"^(٥).

(١) ينكر الخولى على وجه الخصوص الضغوط التى ذكرها له خلفاء هيكل بين عام ١٩٧٤ و ١٩٧٦ (على أمين، وأحمد بهاء الدين، وإحسان عبد القدوس) ولكنه ينكر أيضا شجاعتهم فى رفض الرقابة وإغلاق المجلة دون تدخل مباشر من السادات ، انظر كارم يحيى، المصدر السابق للذكر ، ص ١٩.

(٢) انظر: أنناه.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠.

(٤) انظر: أعلاه.

(٥) إسماعيل صبرى، مقابلة شخصية مع المؤلف، القاهرة، ٢٥ يناير ٢٠٠٣.

ورغم أنه سيكون من الصعب ألا ننظر إلى ورقة أكتوبر على أنها خطوة ملموسة نحو توسيع القطاع الخاص^(١)، إلا أنه يمكننا أن نفهم موقف هذا المفكر الماركسي إذا نظرنا إليه في إطار حماسته القومية التي أصابت حتى الشيوعيين السابقين كما ذكرنا آنفاً، بعد نصر أكتوبر. فقد حفز التحالف الظاهري بين الممالك القبلية والدينية وبين الجميوريات "العلمانية والتقدمية"، نقاؤل فئات واسعة من الشعب والمتقنين حتى لما هو أبعد من حدود اليسار المصري والعربي^(٢). ووفقاً لهذا المنطق كان من المتوقع أنه يمكن استخدام سلاح البترول سواء كوسيلة ضغط على الدول الغربية لتحقيق أهداف مضادة للمصالح الإسرائيلية أو استخدام الفائض النقدي للدول العربية المنتجة للبترول لإعطاء التضامن العربي الجديد الناتج عن حرب أكتوبر شكلاً ملموساً^(٣). وباستخدام كلمات إسماعيل صبرى عبدالله "يجب أن ننكر أن الجزء الأكبر من اقتصادي الدولة كانوا يعتقدون تماماً في توجيه الدولة للاقتصاد ولم يرغبوا في بيع القطاع العام بأسعار بخسة للشركات المتعددة الجنسيات الغربية الكبرى"^(٤).

(١) انظر: أعلاه، الفصل الأول.

(٢) انظر، على سبيل المثال، المصدر السابق للذكر Husein, M., Les arabes..., cit.

(٣) انظر، على سبيل المثال، ملف "البترول العربي"، "الطليعة"، العدد ٤ (أبريل ١٩٧٤)

ص ٤٩-٩٠. في هذا الملف تجدر الإشارة إلى مساهمات فؤاد مرسى وإبراهيم سعد

الذين كمقاربة نقدية للمسألة، وعبر الخولي عن موقف مثير في الافتتاحية "التفسير

القطري لتاريخ البترول العربي"، "الطليعة"، العدد ١ (يناير ١٩٧٥) ص ٥-١٣

الذي يقترح فيه رئيس التحرير تخصيص ٢٠ % من أرباح البترول العربي لإنشاء

سلطة وطنية فلسطينية. ويوجد عرض لخلاصة فكر الخولي حول المسألة في

مساهمته في المؤتمر المنظم في روما من قبل ICIPEC في ١٩٦٧. انظر: al-

Khuli, Lutfi, "Il petrolio, la Palestina e il Medio Oriente", in La sinistra

egiziana e le prospettive del socialismo nel mondo arabo, Roma,

ICIPEC, 4-5/5/1977

(٤) إسماعيل صبرى عبدالله، مقابلة خاصة مع المؤلف.

إلا أن كلا من وصول رجال أعمال من الولايات المتحدة الأمريكية والأعراض الجانبية للانفتاح المتمثلة في نشأة طبقة من الرأسماليين الفلسطينيين المسماة "بالقطط السمان" والاتساع المترادف للفجوة بين الطبقات الاجتماعية، وضع الحرس القديم الماركسي في مواقف أكثر حرجاً، ومما زاد من ذلك إبعاد كل من إسماعيل صبرى عبدالله وفؤاد مرسى من المجموعة الحكومية في الفترة ما بين نهاية عام ١٩٧٤ وبداية عام ١٩٧٥. وبصورة خاصة قام فؤاد مرسى بشرح الدلالة الفعلية للانفتاح الساداتى في ثلاثة مقالات تم جمعها في كتاب فيما بعد^(١). فقد تكون هذا الانفتاح من وجهة نظر هذا الخبير الاقتصادى، من خطوة "انفتاح" أوسع بكثير من التى رمت إليها "وثيقة أكتوبر" وكان يجب أن يتم إدراج هذه الخطوة فى إستراتيجية النظام الساداتى فى الداخل كما فى السياسة الخارجية، ولهذا فمهما استطعنا أن نسجل ميزة ما لصالح الرأسمالية الوطنية غير الطفيلية، فمن المؤكد أن الانفتاح كان موجها لتفضيل استثمارات الشركات المتعددة الجنسية الغربية الكبرى، مما يقلص بشكل فادح الحجم الإستراتيجى للقطاع العام. ويساوى هذا من وجهة نظر اليسار المصرى، "التخلي عن الاستقلال القومى"، بالإضافة إلى إدارة الظهر إلى الدول الحليفة، التى دعمت للجهد المصرى باتجاه تحقيق التنمية المستقلة.

(١) ظهرت المقالات الثلاثة بعنوان "تقييم أداء لسياسة الانفتاح الاقتصادى"، "الطليعة"، الأعداد ١٠، ١١، ١٢ (أكتوبر ونوفمبر وديسمبر ١٩٧٥) وقد جمعت هذه المقالات بعد التنقيح والإضافة فى كتاب "هذا الانفتاح"، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٦، الذى يلخص مواقف اليسار الرسمى من الانفتاح، كما يجب أن نذكر وجود تعليقات نقدية على الإصلاحات الاقتصادية ظهرت فى المجلة قبل مقالات مرسى. انظر، على سبيل المثال، عادل حسين "تقد للخطة والانفتاح الاقتصادى"، "الطليعة"، العدد ١ يناير ١٩٧٥ ص ١٠-٢٣ وخاصة اتخاذ الموقف الواضح لصالح للقطاع العام فى كلمة "الطليعة" لماذا نريد بيع أسهم للقطاع العام"، "الطليعة"، عدد ٦ يونيو ١٩٧٥، ص ١٤-١٧.

وينبغي أن نحدد أن هذه التحليلات للسياسة الاقتصادية الحكومية ظهرت عندما كانت مواقف ماركسيي الحرس القديم قد تبلورت كقوة معارضة لخيارات الرئيس الجديد التي لم يكن لها أى علاقة بالمبادئ التي نشأ منها الصراع أو الهدنة بين الماركسية والسلطة في العهد الناصري.

ولهذا فإذا حددنا أن "سيناء ٢" في سبتمبر ١٩٧٥ هي الخط الفاصل الحقيقي بين مرحلتى تصفية للناصرية الأولى والثانية، يمكننا أن نقول إنه حتى تلك اللحظة وكذلك بعدها جزئياً، بدت مجموعة "الطلیعة" وكأنها "مجموعة ضغط" تبحث عن الإبقاء على خط اشتراكي داخل المؤسسات باقتناع - ثبت خطؤه موضوعياً - بأن هناك مكاناً داخل النظام لمكوّن ماركسي له توجهات وحدوية عربية واضحة^(١).

ب: الجدل الداخلى والقطیعة مع السلطة وميلاد حزب التجمع

أوضح كيرك بيتي في مقاله عن التجربة الساداتية، أن عام ١٩٧٥ هو العام الذى تم فيه العبور الرمزى بين جيل يوليو وجيل أكتوبر^(٢)، وقد رأى المؤرخ هذا المسار فى التعديل الوزارى الحكومى فى عام ١٩٧٥ الذى خرج فيه من الحكومة آخر "بقايا" نظام العهد الناصري مثل الماركسي إسماعيل صبرى عبد الله لإخلاء مكان لأنصار النخبة البرجوازية الجديدة التي تشكلت أو أعيد تشكيلها بفضل الانفتاح.

وقد ذكرنا سابقاً أن رمز هذا الانتقال العام فى صفوف السلطة هو تعيين حسنى مبارك نائباً للرئيس، وهو رجل المؤسسة الساداتية الجديد حقاً، حيث تمت ترقيته إلى منصب الرجل الثانى فى النظام بعد قيادته للقوات الجوية أثناء "الأيام المجيدة" لأكتوبر ١٩٧٣.

(١) شهادة محمد سيد أحمد المقابلة السابقة الذكر.

(٢) انظر Beattie, K. J., op. cit., p. 173-176.

وإذا كان تعيين مبارك نائبا للرئيس يبدو وكأنه إعادة تأكيد للحق التقليدي لرتب الجيش العليا في الحياة السياسية المصرية، فإن علينا رغم ذلك، أن نذكر أن السادات اختار أن يضع ثقته في الرجال الأكثر إخلاصا في قوات الأمن باننا بالحد من تأثير الجيش الذي بقى دائما المؤسسة الأقوى مع مؤسسة رئاسة الجمهورية، وقد راعى الشرعية الثورية للنظام والتي منحتة حرب ١٩٧٣ المزيد من القوة، ومع ذلك فضل الرئيس البحث عن حلفاء جدد في مؤسسات أخرى. وفي محاولته لهذا أوكل كما ذكرنا آنفا الحكومة لـ ممدوح سالم، وزير الداخلية، ويتمثل أحد أهداف هذا الاختيار بالإضافة إلى الخوف من خلق "مركز قوة" في صفوف الجيش - كما حدث مع المشير عامر في الستينيات - في رغبته في موازنة الانفتاحات للديموقراطية الجزئية في فترة ما بعد الحرب بسيطرة كبرى على الأرض. وعلينا ألا ننسى في هذا السياق أن عام ١٩٧٥ شهد إعادة ميلاد للحركة العمالية وعودة للمنظمات السياسية والنقابية المستقلة عن النظام للظهور كثمرة لأعراض الفشل الأولى للانفتاح^(١).

وإذا صح أن للتغيير في القمة يمثل عرضا واضحا من أعراض التحول الحادث في النظام فإن الأمر الذي لا يمكن إنكاره هو أن علينا أن نبحث عن العلامات الملموسة أكثر للتغيير في السياسة الخارجية كما هو الحال دائما في السياسة المصرية. وبالتوازي مع الطفرات السابقة الذكر حقق الرئيس بالفعل انفصاله عن الاتحاد السوفييتي^(٢)، وذلك رغم عدم إلغائه بشكل رسمي لمعاهدة التحالف في ١٩٧١، واضعا كل الأوراق في يد كيسنجر ودبلوماسية الخطوات الصغيرة رغم التصلب الإسرائيلي الواضح، وعلى مستوى العلاقات بين العرب

(١) انظر "Baker, R. W., Sadat..., cit., p. 127-؛ Shukri, Egypt..., cit.; p. 239-242؛ و عبد الغفار شكر في "عمل وطلبة في الحركة"، المصدر السابق الذكر، ص ١٥١-١٥٤. بخصوص دور اليسار للرايكي في الحركة العمالية انظر القسم التالي.

(٢) انظر "Donini, P. G., Sulla crisi..., cit"، وانظر أعلاه.

اختار السادات بشكل حاسم "سياسة السقف المنخفض" في الحرب الأهلية اللبنانية مقتربا بخطى حثيثة من السعودية والكويت ومبتعدا عن ليبيا وسوريا. وكان لهذه التغييرات في الإستراتيجية الحكومية تأثير كبير على ماركسيي "الطلیعة"، حيث كانت الصداقة المصرية السوفيتية الدافع وراء دخولهم في المؤسسات الحكومية في ١٩٦٥ وهي التي بقت كركن أساسي في الخط السياسي "لشيوعيين السابقين"^(١).

ومع ذلك كانت نقطة التحول الحقيقية بين اليسار الرسمي والسلطة هي توقيع اتفاقية فك الارتباط "سيناء ٢" في سبتمبر ١٩٧٥. وربما مثل مقال رئيس التحرير في عدد أكتوبر ١٩٧٥ في مجلة "الطلیعة" للنص الوحيد الذي انتقد الاتفاقية بصراحة وظهر في الصحافة المصرية^(٢). احتوى المقال غير المنيل بتوقيع على نقد صريح وتفصيلي للاتفاقية وإن كان ببعض الحذر. وقد افتتح المقال بدفاع باسل عن النظام ضد اتهامه بالخيانة، هذا الاتهام الذي وجهته إليه بعض الدول العربية حيث اعتبر هذا الاتهام لـ السادات غير حقيقى بالنسبة لماركسيي هيئة التحرير، فبتوقيعه للمعاهدة لم ينسحب السادات من الحرب وهو ما يقتضيه بقاء جزء من البلاد تحت الاحتلال "الإمبريالى الإسرائيلى"^(٣). وقد هاجمت "الطلیعة" الرئيس

(١) انظر أُنناه. ويوجد موقف نقدى بحث إزاء الخطوات الأولى التي اتخذتها حكومة ممدوح سالم في مقال عادل حسين، "رؤية نقدية لبيان الحكومة"، "الطلیعة"، العدد ٦ (يونيو ١٩٧٥)، ص ٣٩-٤٩ الذى طالب فيه المثقف للمجلة الماركسية بالحق في نقد السياسات الحكومية خاصة في المجال الاقتصادى..

(٢) انظر المقدمة (غير الموقعة) "عن اتفاقية سيناء"، "الطلیعة"، العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٧٥) ص ٥-١١. حول التكهّنات حول أسباب عدم توقيع الخولى على الافتتاحية، انظر Shukri, Egypt..., cit., p. 246. كما تضمنت افتتاحيات "روز اليوسف" في ٨ و ١٥ و ٢٢ سبتمبر ١٩٧٥ بعض العناصر النقدية للاتفاقية لكنه نقد تم تخفيفه جدا بالثقة في "بطل العیور". وختاماً، بالنسبة للدعم الجوهري للمبادرة من قبل ما سمي "باليسار الوطنى"، انظر عبد العظيم رمضان، "اتفاقيات سيناء"، "الجمهورية"، ١٠ سبتمبر ١٩٧٥ والمعاد طبعه في "مصر في عصر..". المصدر السابق الذكر، ص ١١٢-١١٨. وبالنسبة لرد فعل اليسار الراديكالى، انظر القسم التالى.

(٣) "عن اتفاقيات سيناء"، انظر المصدر السابق الذكر، ص ٥.

أساساً بسبب بنود المعاهدة التى أعطت حكومة الولايات المتحدة دور الحكم على الأطراف مستبعدة منظمة الأمم المتحدة و"الحليف الوفى" السوفييتى. وبدا لقيادة الحرس الماركسى القديم والعديد من المصريين أن إعطاء الولايات المتحدة هذا الدور كان من الأمور المثيرة للجدل، على أقل تقدير، حيث شرح الرئيس لهم أكثر من مرة أن وراء القوات المسلحة الإسرائيلية، يقف جيش الولايات المتحدة الإمبريالى وذلك منذ اعتداءات ١٩٦٧ ومنذ حملة أكتوبر المجيدة. وبالإضافة إلى هذا النقد الذى جاء كثمرة للنظرة التى فرضتها الحرب الباردة أو لبعض الأحداث التاريخية، ألقت "الطلیعة" الضوء على الحدود الإستراتيجية التى تضعها الاتفاقية على مصر فى المواجهات مع إسرائيل.

ومن المؤكد أن المعارضة لاتفاقية "سيناء ٢" لم تشكل الانقسام الواضح بين اليسار والنظام، إلا أنها مست الوتر الحساس لدى مجموعة "الماركسيين المستقلين" وهو وتر التضامن العربى والصداقة مع الاتحاد السوفييتى، وفى هذا السياق يبرز مقالاً لطفى الخولى اللذان ظهرا فى نفس الملف فى أكتوبر ١٩٧٥ بهدف توضيح مواقف اليسار المصرى تجاه الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى^(١). ورغم أن هذين المقالين جرى التفكير فيهما قبل الاتفاقية المصرية الإسرائيلية إلا أنهما كانا مهمين، حيث قلما بتوضيح رغبة اليسار المصرى الرسمى فى مناقشة النظام والناطقين باسمه فى الصحافة على الرؤية الصحيحة لموقف مصر فى السياسة الدولية، وهما يرسمان موقف اليسار فى مسألة مفصلية، فبالتحديد أكد لطفى الخولى فيما يخص الولايات المتحدة الأمريكية أن اتخاذ قرار بعدم وضع إحدى القوتين العظميين فى الاعتبار كطرف فى الحوار كما تم فى أعقاب النكسة، سيكون خطأ لا يغتفر. وبالإضافة إلى أن معارضة إستراتيجية حكومة جيرالد فورد لا تعنى وصم كل المجتمع الأمريكى الذى لحتوى على الملايين من مؤيدى السلام

(١) انظر لطفى الخولى، "موقف اليسار المصرى من قضيتين. ١- الموقف من أمريكا ٢- الموقف من الاتحاد السوفييتى، "الطلیعة"، العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٧٥)، ص ٢٢-٣١.

للذين تظاهروا ضد الحرب في فييتنام بأنه مجتمع إمبريالي، إلا أن اليسار المصري لا يستطيع إلا أن يعيد التأكيد على المعارضة المطلقة لما يسمى بالدور الأمريكي في حل عادل وسلمي للأزمة الشرق أوسطية كما استنتج رئيس التحرير لأن الطبيعة الإمبريالية والرجعية لحكومة واشنطن لم تتغير، كما لم يتغير دعمها غير المشروط لسياسة إسرائيل التوسعية^(١). وفي المقال الثاني قدم رئيس التحرير وصفا واقعا جدا للصعوبات التي ستتشأ في الجبهة المصرية السوفيتية بسبب تدخل الولايات المتحدة الأمريكية. لكن إذا صح الاعتراف بوجود صعوبة تاريخية في العلاقات بين البلدين بسبب الاختلافات في الطبيعة الطبقة للنظامين إلا أن رئيس التحرير بدا وكأنه يقلل من أهمية الخيار الإستراتيجي الذي اتخذته السادات لصالح المعسكر الغربي وفي تضاد متزايد مع المعسكر الاشتراكي. وتدفعنا المطالبة بإعادة تنشيط معاهدة الصداقة المصرية السوفيتية الموقعة في ١٩٧١ إلى الاعتقاد بأن للمقالين سبقا توقيع "سيناء ٢" حيث أصبح من الصعب موضوعيا عدم رؤية التحول النوعي في الإستراتيجية الساداتية الرامية إلى عودة حاسمة إلى الفلك الغربي، وهو الأمر الذي سيتجسد في التخلي المؤثر - ومن طرف واحد - عن معاهدة الصداقة من جانب الرئيس في مارس ١٩٧٦.

ورغم هذه العزيمة والثبات في مواقع من أسموا أنفسهم "باليسار المصري" يبقى عام ١٩٧٥ عاما أساسيا في مسيرة "ماركسية الدولة" من وجهات نظر متعددة، فبغض النظر عن الحقيقة المجردة المتمثلة في اقتراب السادات من واشنطن أجبرت حرب ١٩٧٣ ونتائجها المنطقية على المستوى العربي والدولي الحرس القديم على إعادة تحديد العديد من مواقفهم. فإذا نظرنا إلى المحور الذي تدور حوله "النظرة إلى العالم" weltanschauung لدى "الطليعة"، وهو محور القضية الفلسطينية لا يمكننا أن ننفي أن المشاركين تأثروا بالمجادلات والأحداث التي تلت الحرب، وبالتحديد كان هناك إلى جانب شعار القائل بـ "تولة واحدة

(١) المصدر السابق، ص ٢٦-٢٧.

ديموقراطية علمانية للعرب واليهود" في كل فلسطين، خيار "ثلاثين لشعبين" الذي دعمته منظمة التحرير الفلسطينية لإعلان سلطة وطنية مؤقتة على كل شبر من الأرض المحررة (١٩٧٤). وقد احتفظ هؤلاء الماركسيون برفضهم التام للصهيونية باعتبارها أيديولوجية عنصرية توسعية. وهكذا كرست المجلة كجزء من اليسار العربي الشهور التي تلت حرب ١٩٧٣ في البحث عن قوى غير صهيونية يمكن التعامل معها داخل إسرائيل من الفهود السود حتى الحزب الشيوعي الإسرائيلي "ركاح"^(١). ولم يكن الجدل حول المسألة الفلسطينية أمرا نظريا بحتا ولا ينبغي التقليل من شأنه وإن لم يكن تطوره موازيا تماما للتغيرات الحادثة في واقع العلاقات بين الدول العربية وإسرائيل. ففي تحليل لتطور رؤية الحرس الماركسي للقديم في هذا الموضوع ينبغي أن نذكر أنه منذ تمصير الحركة الشيوعية بعد هزيمة فلسطين في ١٩٤٨-١٩٤٩^(٢)، اتفق إلى هذا الحد أو ذلك موقف الماركسية المصرية والعربية مع الموقف القومي للعربي الذي رفض تماما "الكيان الصهيوني" لصالح حقوق الشعب الفلسطيني داخل لمة عربية موحدة^(٣). ولتقييم هذا التوافق مع

(١) انظر ملف "إسرائيل من الداخل بعد ٦ أكتوبر"، "الطلیعة"، العدد ١ (يناير ١٩٧٤)، ص ٧٢-٩٧؛ وانظر على وجه التحديد المقال الافتتاحي لـ لطفى الخولي "إسرائيل 'معراخ' و إسرائيل 'ركاح'"، ص ٧٣-٧٦، والملف "إسرائيليون يتحدثون عن إسرائيل"، العدد ٢ (فبراير ١٩٧٤)، ص ٨١-٩٧، والذي ترجمت فيه إلى العربية ثلاث مقالات لمفكرين إسرائيليين ونشرة "لفهود السود" عن حرب أكتوبر. انظر أيضا الملف المخصص لليسر الإسرائيلي المعادي للصهيونية "اليسار الإسرائيلي للمعادي للصهيونية يحدد موقفه من مؤتمر جنيف ويكشف أزمة الإنتاج العسكري والمدني في إسرائيل"، "الطلیعة"، العدد ٣ (مارس ١٩٧٤)، ص ١٣-٤١. وأخيرا، من الجدير بالذكر أن الجريدة نشرت عشية حرب ٦٧ مداخلة للمستشرق الفرنسي الشهير مكسيم رودنسون يؤكد فيها أن إسرائيل يمكنها التعايش في المنطقة العربية فقط في حالة "تحررها من الصهيونية" انظر مكسيم رودنسون، "أحلام الصهيونية"، "الطلیعة"، العدد ٨ (أغسطس ١٩٦٧)، ص ١٢-١٧.

(٢) انظر أعلاه.

(٣) بخصوص هذه القضية انظر أحمد شرف، "الشيوعيون المصريون والقضية الفلسطينية" في العالم (إشراف)، المصدر السابق للذكر، ص ٢٥٤-٢٦٥.

المواقف البعثية والناصرية فيما بعد يجب أن نذكر أن الجزء الأكبر من المنظمات الشيوعية في مصر وفي باقي العالم العربي أعلنت تفضيلها لخطة تقسيم فلسطين التي قررتها الأمم المتحدة في ١٩٤٧ وذلك انسجاماً مع تعليمات الاتحاد السوفيتي.

ولوقت طويل تم استغلال هذا الموقف لاتهام الشيوعيين العرب بنقص الوطنية وبعمالتهم للاتحاد السوفيتي سواء من جانب الأنظمة القومية أو من جانب الأحزاب القومية العربية والإسلامية. ومما لا شك فيه أن نشر كتاب "بعد أن تسكت المدافع"^(١) في عام ١٩٧٥ نفسه للكاتب محمد سيد أحمد محرر بالأهرام و"الطليعة" نو الانتماء السابق في "حدثو" يمثل نقطة الانطلاق لمناقشة الجدل الداخلي في اليسار حول المسألة العربية الإسرائيلية. ففي وقت قصير حقق هذا الكتاب أعلى المبيعات على المستوى الدولي وتمت ترجمته إلى عدة لغات فلفت الانتباه - أكثر مما حدث حتى في وطنه أو في العالم العربي^(٢). والأمر الذي أثار هذا القدر من الضجة، هو تأكيد متقف مصري غير مرتبط بمؤسسة الحكم ولكنه كان يعمل كمحرر في الجريدة اليومية الرئيسية للدولة على مبدأ قبول إسرائيل في الشرق الأوسط، بشرط تخليها عن سياستها التوسعية، وعن نفيها لوجود الشعب الفلسطيني. ويجب أن نؤكد أن هذا الموقف لم يعبر بالتأكيد عن فكر كل اليسار المصري ولا حتى الرسمي، لكن كتاب محمد سيد أحمد يحتل مكانة مهمة، سواء لتوضيح سيولة الجدل داخل الإنتلجنسيا الماركسية في منتصف السبعينيات، أو لتقدير أهمية الاحتفاظ بمنبر شرعي مثل "الطليعة" ليمنح صوتاً للمعارضة وإن لم تكن راديكالية^(٣).

-
- (١) انظر محمد سيد أحمد، "بعد أن تسكت المدافع"، بيروت، دار القضاء، ١٩٧٥.
(٢) انظر محمد سيد أحمد، المقابلة الشخصية السابقة الذكر. في أقل من عام من نشر الأصل العربي ترجم الكتاب إلى الإنجليزية والفرنسية والعبرية في الطبعة غير المصرح بترجمتها (بعنوان Be-hidom ha-tatahim, Tel Aviv, 1976).
(٣) تجدر هنا الإشارة إلى أن كتاب محمد سيد أحمد عومل من قبل اليسار الراديكالي على أنه "برهان ختامي على الموقف الاستسلامي" للحرس القديم. انظر حسنين كاشك، المقابلة السابقة الذكر.

وللتأكيد على أهمية مناقشة وجهات النظر حول الصراع العربى الإسرائيلى وحول إعادة تعريف مواقف جزء من الماركسية المصرية ينبغى أن نشير إلى اختيار المجلة أن تنشر وثائق الحركة الماركسية فى أعوام الأربعينيات حول القضية الفلسطينية^(١)، وذلك لتوضيح "أوراق الاعتماد" المضادة للصهيونية للحركة الشيوعية المصرية مرة أخرى. وليس من باب المصادفة أن لطفى الخولى رد على انتقادات اليمين المصرى للمقاومة الفلسطينية المسلحة باسم "الوطنية المصرية" غير المحددة المعالم ردا قاسيا فى افتتاحية لم يتهم فيها رئيس التحرير اليمين بالتخلف فقط بل وحدد استحالة تصور أى خط تحرك مصرى لا يحتوى على بُعد عربى وفلسطينى بالذات وذلك أيضا لدوافع إستراتيجية^(٢).

وينبغى أن نؤكد على حقيقة أن جزءا من هيئة تحرير "الطلیعة" شاركت بالتأكيد فى قرار إعادة تأسيس الحزب الشيوعى المصرى فى ربيع ١٩٧٥^(٣) فى السر، لكنهم أعلنوا ذلك لكل الحركات الماركسية فى العالم عبر الصحافة اللبنانية. وبالتحديد كان المؤرخ رفعت السعيد فى أسرة تحرير "الطلیعة" وفى أمانة الحزب محققا تدخلا بين خيار السرية التنظيمية الحتمى وبين ميزة امتلاك منبر شرعى كتكريم لعقيدة "العضوية المزبوجة". تتضح نقطة الالتقاء بين جزء من هيئة التحرير والحزب الشيوعى المصرى الذى انضم إليه العديد من عناصر الحرس القديم الذين تعاونوا فى الماضى مع المجلة فى احتواء أول تقرير سياسى أصدره الحزب فى أغسطس ١٩٧٥ على إعلان لنية السلطة تفكيك "الطلیعة" لإخراص كل

(١) انظر "اليسار المصرى و القضية الفلسطينية"، "الطلیعة"، العدد ١٢ (ديسمبر ١٩٧٤)، ص ١٢١-١٢٨.

(٢) انظر لطفى الخولى، "اليمين المتخلف الذى طفح على جلد الأمة"، "الطلیعة"، العدد ١١ (نوفمبر ١٩٧٤)، ص ٥-١٠. ومن المهم أن نلفت النظر إلى اختيار رئيس التحرير تخصيص الافتتاحية طوال الوقت تقريبا للقضية الفلسطينية فى عام ١٩٧٥، حتى فى الأعداد المخصصة للجدل حول المستقبل السياسى لمصر. انظر، على سبيل المثال، "قيتناميات فلسطينية"، "الطلیعة" للعدد ٧ (يوليو ١٩٧٥)، ص ٥-١٠.

(٣) بالنسبة للتفاصيل انظر القسم التالى.

صوت مناقض لتوجيهات الحكومة المسيطرة^(١). وترمز هذه الصلة الصعبة بين الحزب الشيوعي المصري الذي جرى إحياءه والمجلة التي كانت تقترب من نهايتها إلى الوضع الذي وجد جزء من الماركسيين في مصر نفسه فيه في منتصف السبعينيات، وتصلح أيضا كتمهيد لتحليل مشاركة الماركسيين في الجدل حول إصلاحات الاتحاد الاشتراكي. فمن جانب يوضح انضمام أصوات من "الحرس القديم" إلى الحزب الشيوعي المصري السري، الرغبة في اعتبار تجربة الوجود الماركسي داخل المؤسسة أمرا منتهيا، ومن جانب آخر يبدو اختيار جزء كبير من "الطليعة" الاشتراك بشكل نشيط في الجدل حول التعدد الحزبي من خلال منبر اليسار في الاتحاد الاشتراكي الذي سينشأ منه حزب التجمع تأكيدا لرغبة الإنتلجنسيا اليسارية في إعادة تعريف نفسها "كمعارضة" دون التخلي عن الحوار مع السلطة. ويجب أن نؤكد مرة أخرى أن وجود المناضلين في كلا الصنفين يوضح أن الجدل كان مفتوحا وحيويا، وأن الحدود بين المعارضة للشرعية وغير الشرعية لم تكن محددة تماما، وهو الأمر الذي سيستفيد منه النظام بعد انتفاضة ١٩٧٧.

وباختصار، يمكننا القول بأن اليسار غير الراديكالي الذي قدم نفسه منذ نهاية عام ١٩٧٥ في شكل "التجمع"^(٢)، الذي تم فيه تمثيل عدة اتجاهات يجمع بينها جميعا وجود فجوة متزايدة الاتساع مع السلطة قدر لها أن تصبح في وقت قصير غير قابلة للترجع.

(١) انظر الحزب الشيوعي المصري، التقرير السياسي، يوليو ١٩٧٥. تم نشر النص الأصلي، الصادر بتوقيع الأمانة العامة، في الجريدة اليومية البيروتية "السفير"، في ٤ أغسطس ١٩٧٥. وتوجد ترجمة إنجليزية في ملحق للمصدر السابق الذكر - Ismael . El-Sa'id, op. cit., p. 169-181. وينبغي توضيح أنه لم يتم نشر أي وثيقة من وثائق ح. ش. م. في المجلة بسبب الرقابة طبعا.

(٢) التجمع هو الاسم الأصلي والرسمي كذلك لحزب التجمع الوطني التقدمي حيث نشأ كتجمع لتيارات مختلفة من اليسار الماركسي والوطني ضد السياسات الساداتية. واشتهر الحزب بهذا الاسم في مصر والعالم العربي.

وما من شك أن ماركسيّ "الطلّعة" شعروا بوجوب اتخاذ موقف في حملة "تصفية الناصرية" التي حركتها الصحافة الرسمية سابقة الذكر قبل تقرير مشاركتهم النشطة في الجدل حول مصير الحزب الواحد الذي تشأ في منتصف عام ١٩٧٥ حتى خريف العام التالى. فمن جانب يمكن تفسير الموقف الذى اتخذه الحرس الماركسي القديم بدرايتهم بحقيقة كونهم يشكلون جزءا من هذه الإنتلجنسيا العضوية التي يرغب النظام الآن في التخلص منها، وبالتالي كان من الطبيعى أن تدافع المجلة المعبرة عن الماركسية للرسمية عن التجربة الناصرية ضد هجمات اليمين القديم والجديد. ومن جانب آخر يجب أن نسجل التزام محررى "الطلّعة" بالحفاظ على خط الاستقلال داخل المؤسسات مفضلين ابتعادهم التدريجى تجاه المعارضة على تكيفهم مع تعليمات النظام الجديدة، كما فعل العديد من المثقفين للناصريين والتقدميين.

وتجسدت محاولة الماركسيين للتفاعل مع الحملة المضادة للناصرية بالتحديد فى "الحوار بين توفيق الحكيم واليسار" المنشور فى "الطلّعة" بين ديسمبر ١٩٧٤ وسبتمبر ١٩٧٥^(١).

ولم يكن اختيار "عميد المسرح العربى المعاصر" كمحاور أمرا عارضا، حيث بدأ الجدل حول حدود التجربة الناصرية بنشر كتابه "عودة الوعى". وبالإضافة إلى ذلك، فبينما كانت هناك علاقة تقدير بين الماركسيين و"الشيخ الكبير" فى الأدب العربى، لم يكن من الممكن فتح أى حوار مع "المثقفين الجدد" الساداتيين الذين أتوا من اليمين الليبرالى القديم أو من اليمين الرجعى الجديد^(٢). وعلى أى

(١) المقالات المنشورة من قبل تم جمعها ونشرها فى كتاب "ملف عبد الناصر بين اليسار المصرى وتوفيق الحكيم"، بيروت، دار القضايا، ١٩٧٦، والذي اقتطعت منه كل الاستشهادات إلا عندما يُنكر غير ذلك.

(٢) تجدر كذلك الإشارة إلى محاولة حوار مع اليمين الليبرالى فى شخص العضو الوفدى القديم والمعادى للناصرية أحمد عبد الفتاح فى "مصر أكتوبر إلى أين؟"، "الطلّعة"، العدد ٥ (مايو ١٩٧٤)، ص ٤٣-٥٦.

حال كان لطفى الخولى نفسه هو الذى أراد المواجهة مع الحكيم بشدة^(١)، كما يبدو من نشره المراسلة الأولى بين الكاتب المسرحى والمجلة محل نشر افتتاحيته كرئيس تحرير فى عدد ديسمبر ١٩٧٤^(٢).

ويمكن النظر إلى تكريس الحوار "للتجربة" بدلا من الإشارة بشكل واضح إلى التجربة الناصرية كمحاولة من الماركسيين لإعادة التفكير فى مسيرتهم نفسها خلال عشرة أعوام بالضبط، منذ نشر أول عدد من "الطلیعة". وفى الواقع، كما أشار غالى شكرى فى صفحات الحوار مع الحكيم، يمكننا أن نرى أساس برنامج اليسار السياسى الاجتماعى المعتدل كبديل للنظام^(٣).

ويعرض هذا الجدل تنوع المواقف الموجودة داخل الحرس الماركسى القديم فى مصر. ومن اللافت للنظر أن نسجل مداخلة خالد محيى الدين الذى سيصبح فيما بعد رئيس التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى عام ١٩٧٦، فوقفا لهذا الضابط الحر السابق ينبغى ألا نخلط بين "الديموقراطية الليبرالية" التى تخدم الطبقات الموسرة، والتى وضعها قيد الممارسة الوفد والبلاط منذ عام ١٩٢٢ حتى الثورة، وبين "الديموقراطية الاشتراكية" التى ينبغى أن تطمح إليها مصر. وهكذا تحول النقاش إلى الجدل حول المعنى الواقعى للتحول الاشتراكى، وحول وجود خلية قيادية فى البلاد ما زالت مهتمة بالتحول الاشتراكى للدولة من عنده. ورغم عدة مداخلات ذات نغمة متفائلة^(٤)، والمفهمة قبل التعديل الوزارى فى ١٩٧٥، عبّر أحمد عباس صالح - رئيس التحرير المطرود من مجلة "الكاتب" - عن شكوك قوية حول رغبة المجموعة القيادية فى السلطة الاستمرار فى برنامج إصلاحات

(١) فى هذا السياق هناك شهادة محمد سيد أحمد فى المقابلة الشخصية السابقة للذكر.
(٢) انظر "الطلیعة" تفتح مع توفيق الحكيم ملف العروبة، "الطلیعة"، العدد ١٢ (ديسمبر ١٩٧٤)، ص ٥-١١.

(٣) انظر Shukri, Egypt..., cit., p. 252-254.

(٤) انظر، على سبيل المثال، مداخلة الاقتصادى الماركسى ووزير التخطيط السابق فؤاد مرسى فى ملف "عبد الناصر..." المصدر السابق للذكر، ص ١٧٤-١٧٥.

راديكالية. بل على العكس لم يستطع هذا الصحفي إلا أن يلاحظ تقدم القوى الرجعية في البلاد" داخل المؤسسات^(١). ويمكن أن نشير إلى نقاط البرنامج الذي سيتبناه اليسار التاريخي فيما بعد في الجدل المترام بخصوص تطوير الحزب الواحد في الملاحظات الختامية لرئيس التحرير لطفي الخولي. فقد أحدث الخولي قطيعة مع عقيدة الحزب الواحد منطلقاً من احترام ومن إحياء التحالف بين القوى التقدمية الذي كرسه الميثاق، وأعلن ضرورة تأسيس منظمات سياسية مستقلة للقوى السياسية الاجتماعية المتحالفة^(٢). بكلمات أخرى، اقترح المحرر تأسيس حزب شرعي لليسار المصري داخل المؤسسات غير خاضع للسيطرة الحكومية.

وربما أشار الجدل حول مستقبل العمل السياسي في مصر إلى حلقة أكثر خصوبة من التفاعل السياسي والثقافي في تاريخ مصر في فترة ما بعد الثورة بسبب امتلاك المجموعات المختلفة في غياب التوجيه الواضح من النظام إمكانية التعبير عن آرائها وبرامجها مستغلة مساحة واسعة في وسائل الإعلام الشرعية. وليس من الدقيق القول بأن "الطلیعة" كانت مركزاً لهذا النشاط المتألق^(٣)، إلا أنه يمكننا تأكيد أن المجلة الماركسية لعبت دوراً من الدرجة الأولى في تحريك كافة الطاقات لصالح "المقرطة". والحقيقة أن "الطلیعة" لم تقف عند حد الاستضافة والمساهمة في الجدل بين تيارات اليسار التي سينشأ منها التجمع فيما بعد، بل على العكس من ذلك ففي الباب المسمى بـ "الرأى والرأى الآخر" في المجلة استطاع ممثلو كل المجموعات عرض برامجهم على القراء المتقنين في العالم العربي كله.

(١) للمصدر السابق ص ١٨٠-١٨١.

(٢) المصدر السابق ص ٤٣٩ وما يليها.

(٣) تعتبر الجريدة اليومية شبه الرسمية الأهرام بلا شك الساحة الرئيسية للجدال حول الإصلاح السياسي. وليس من باب المصادفة أنه حتى الماركسيين من أمثال الخولي أو خالد محيى الدين زعيم منبر اليسار كانوا يكتبون فيها.

وقد بدأ النقاش حول "المقرطة" بمبادرة الرئيس بـ "ورقة تطوير الاتحاد الاشتراكي" الصادرة في أغسطس ١٩٧٤^(١). وهو الموضوع الذي جذب فورا انتباه ماركسيي "الطلیعة"، وذلك أيضا لأنه غطى على الجدل حول "تصفية الناصرية"، وعلى أي حال فقد ظهر ملف أول حول المناقشات بخصوص الاتحاد الاشتراكي في نوفمبر ١٩٧٤^(٢). طرح شوقي جلال في أحد هذه المقالات سؤالا أساسيا حول خلق واحترام "مناخ ديموقراطي" قبل الجدل حول التعريف الشكلي للديموقراطية، وعمليا حذر المثقف اليساري من خطر التركيز الزائد على الخطاب النظري مع الخطر المحتمل للافتقار إلى رؤية لللب المسألة، وهو الأمر الأساسي والخاص بضرورة تخطي تجربة الحزب الواحد دون التخلي عن "الضمانات الاجتماعية"^(٣).

وطوال عام ١٩٧٥ تابعت المجلة التطور غير الخطي للنقاش حول الإصلاحات^(٤)، وبالذات بعد قرارات المؤتمر العام للاتحاد الاشتراكي والتي تقرر فيها السماح بتأسيس منابر للرأي داخل الحزب. وتم تخصيص عدد ديسمبر ١٩٧٥ تقريرا بأكمله للتعبير عن الشكوك حول الإصلاح، ومن هذا المنطلق أجرت أسرة التحرير مقابلات سواء مع أمين الاتحاد الاشتراكي سيد مرعي، أو وهو الأهم من ذلك مع مؤسسي المنابر الأربعة التي كان قد تمت الموافقة عليها حتى ذلك الوقت طالبين منهم عرض برامجهم^(٥). وبعيدا عن الأهمية التوثيقية للتوضيحات من

(١) انظر: Asfahany, N., op. cit., p. 57. من أجل إعادة بناء مسار عملية الإصلاحات انظر: أعلاه الفصل الأول القسم ٤-ج.

(٢) انظر: صراع المصالح في مناقشات الاتحاد الاشتراكي، "الطلیعة"، العدد ١١ (نوفمبر ١٩٧٤)، ص ١١-٢٩.

(٣) انظر: شوقي جلال، "الديموقراطية: المضمون أولا أم الشكل؟"، "الطلیعة"، العدد ١١ (نوفمبر ١٩٧٤)، ص ١٢-١٦.

(٤) انظر: على سبيل المثال، ملف "تعدد الأحزاب أم تعدد المنابر؟"، "الطلیعة"، العدد ٧ (يوليو ١٩٧٥)، ص ١٦-٣٩.

(٥) انظر: "الاتحاد الاشتراكي ومنابر"، "الطلیعة"، العدد ١٢ (ديسمبر ١٩٧٥)، ص ٦-٩١. بالإضافة إلى المنابر الثلاثة التي شاركت في انتخابات ٧٦ ظهر أيضا المنبر الاشتراكي الناصري الذي أجبر على الانضمام إلى التجمع بسبب رفض الرئيس السماح بوجود تيار سياسي آخر يعلن أنه أكثر ناصرية من تياره.

جانب ممثلى المنابر الأربعة، كان الهم الأساسى للماركسيين بلا شك هو إمكانية نشر برنامج منبرهم نفسه والتعليق عليه، ويعتبر هذا النشر مهماً لأنه يرسم الخطوط الأساسية لحزب التجمع القادم حتى مؤتمر عام ١٩٨٠^(١). وقد نشأت المواضيع الأساسية التى استند إليها برنامج منبر اليسار بشكل واضح على التوجيهات والتحليلات التى أنضجتها مجموعة "الطلبة" منذ حرب أكتوبر إلى ما بعدها. ففى السياسة الداخلية طرح المنبر أن هدفه الرئيسى هو "إنشاء مجتمع اشتراكى يستطيع تحرير أفرادهِ من الاستغلال". وتمت مهاجمة أخطاء ونواحي فشل الانفتاح مطالبين بضرورة "اقتصاد وطنى مستقل" حيث يجب أن يكون للقطاع الخاص دور داعم دون إلغاء هيمنة المبادرات الحكومية. وبالنسبة للإصلاحات السياسية أعلن اليسار بوضوح أنه يجب النضال من أجل تحقيق "الديموقراطية الحقيقية"، ومن أجل الحفاظ على التمثيل الخاص الذى منحه الميثاق للطبقات الشعبية. وطالب البرنامج أيضاً فى هذا السياق وبشكل مشاغب باحترام معيار أوضح لتحديد فئة العمال وفئة الفلاحين. ملاحظاً أن هذه "الألقاب" تم اغتصابها من قبل ملاك الأراضي والمنفتحين الجدد مع الموافقة الصامتة للنظام. وبالنسبة للسياسة الخارجية اعتبر البرنامج أن الوحدة العربية هى مرجعيته، وبالذات لصالح حركة التحرر الوطنى الفلسطينية وضد أى محاولة سلام منفرد من جانب النظام السادى، إلى جانب أهمية التحالف الإستراتيجى مع دول المعسكر الاشتراكى بما فى ذلك الصين ويوغوسلافيا.

(١) المصدر السابق ص ٧٥-٨٦. تم توسيع برنامج التجمع بشكل طفيف فيما بعد ونشره فى عشية انتخابات ١٩٧٦ فى دار الشعب القاهرية. انظر أيضاً تحليل برتوس هنريكس فى Bertus Hendriks in "The Legal Left in Egypt", Arab Studies Quarterly, 5, no. 3, 1983, p. 260-275. وأخيراً، انظر الدراسة الموثقة لـ إيمان محمد حسن "وظائف الأحزاب السياسية فى نظم التعددية المقعدية. دراسة حالة حزب التجمع فى مصر ١٩٧٦-١٩٩١"، القاهرة، الأهلى، ١٩٩٥، ص ١٨٩-٢١٨.

وقد سهل وجود عناصر وحدوية عربية بارزة وإشارات متعددة إلى الميثاق - وإن كانت قد تمت تغطيتها بصيغة أكثر ماركسية - انضمام اليسار الناصري بقيادة كمال الدين رفعت في منبر اليسار بعد رفض الحكومة الاعتراف بمنبره في المنافسة الانتخابية^(١). واستقبل هذا الاندماج للعناصر الناصرية في منبر يتمتع بغالبية ماركسية بترحاب من قبل النظام الذي تمنى أن تقوم التناقضات التقليدية بين الناصريين والشيوعيين بشل حركة "التجمع" الوليد. ودون أن ننفي وجود جدل داخل التجمع الناشئ عائد إلى رغبة كمال رفعت المشروعة في الحصول على "مساحة ناصرية" داخل هذا التشكيل السياسي، يجب أن نلاحظ قدرة قيادة المنبر الواقع في قبضة الماركسيين في استخدام وجود عناصر غير ماركسية لإفضال دعاية للنظام^(٢)، التي تقدم منبر اليسار على أنه "وكر للشيوعيين الملحدون والعملاء لموسكو". وكان استخدام هذه التعبيرات التي بدأها الوفد في العشرينيات، ولم تتخل عنها بعد ذلك الحكومات المتعاقبة ضخما للغاية خاصة من جانب صحيفة الأخبار اليومية بقيادة الكاتب موسى صبرى المخلص لـ السادات^(٣)، لدرجة أنه تسبب في رد ساخط "ضد الإرهاب الثقافي" من جانب "الطلیعة"^(٤) التي دعمت هيئة تحريرها بوضوح هذا المنبر الواقع تحت قيادة خالد محيى الدين صديق لطفي الخولى منذ أيام جريدة المساء.

(١) فضل ناصريون آخرون الترشح كمستقلين انظر إيمان محمد حسن، المصدر السابق الذكر، ص ١٢٦-١٢٧.

(٢) لم يستطع خالد محيى الدين وهو يتحدث في مؤتمر في روما بعد الانتخابات بستة أشهر إلا أن يتذكر برضى نجاح التجمع سواء في إدماش "المتربصين" به الذين توقعوا تناقضات غير معقولة بين الحلفاء المختلفين أو مواجهة دعاية النظام التي أرادت له أن يكون حزب الشيوعيين. انظر Mohie el-Din, Khaled, "Recenti sviluppi democratici in Egitto e l'Assemblea Nazionale Progressista Unitaria", in La sinistra egiziana..., cit., p. 10-ss.

(٣) انظر أعلاه.

(٤) انظر "ضد الإرهاب الفكرى"، "الطلیعة"، العدد ٩ (سبتمبر ١٩٧٦)، ص ١٣٣-١٣٤.

وكان من الممكن التنبؤ بنصر ساحق لحزب الوسط "حزب مصر العربى الاشتراكى" الذى سيصبح فيما بعد حزب الرئيس باحتكاره لوسائل الإعلام الجماهيرية وكذلك بسبب القرار بتبنى نظام انتخابى قائم على التمثيل بالدوائر الانتخابية وفى جولتين دون أى تصحيح قائم على نسبة الأفراد الموجودين فى كل دائرة، وقد أدى هذا الخيار فى كل الأحوال إلى تفضيل الآليات التى كانت مستخدمة أصلاً فى تبادل الخدمات الانتخابية، بالذات فى الريف والمراكز الصغيرة، والتحالف بين المرشحين الحكوميين واليمين فى حالة التعادل مع مرشحى التجمع.

ورغم الأداء الضعيف اليسار الذى نجح فقط فى الحصول على ٠,٦ % من الأصوات وثلاثة مقاعد فقط من أصل ٣٥٠ مقعد برلمانى^(١)، فقد قامت "الطلیعة" بتحيته برضاً آخذة فى الاعتبار طريق المخاض الشاق الذى خاضه التجمع ومحاولات النظام المتكررة لمقاطعته^(٢). وبالإضافة إلى ذلك كان مجرد قيام الرئيس الذى كان قد تم انتخابه وقتها لفترة رئاسية تالية باتخاذ قرار تحويل المنابر إلى أحزاب حقيقية مستقلة تماماً عن الاتحاد الاشتراكى يمثل فى حد ذاته دافعا للرضا من قبل هذا الجزء من الحرس القديم الماركسى الذى قرر أن ينخرط بشكل نشيط فى المعركة الانتخابية^(٣).

ولا شك فى أن القرار التاريخى الذى اتخذه السادات بالعودة إلى التعدد الحزبى المعلن على الأمة فى ١١ نوفمبر ١٩٧٦ - رغم أنه لم يزد إلا قليلا عن مجرد واجهة بالنظر إلى الهيمنة غير القابلة للنقاش لحزب الحكومة - قد شكل حقيقة أن ما كان يسارا حكوميا تحول بشكل تام إلى المعارضة كيسار شرعى. ومن الواضح أن مجموعة "الطلیعة" وعلى رأسها رئيس التحرير قبلت مزايا

(١) الذين تم انتخابهم هم زعيم الحزب خالد محى الدين فى مسقط رأسه القليوبية وزعيمان عماليان هما أبو العز الحريرى فى الإسكندرية وقبلى عبد الله فى القاهرة.

(٢) انظر تعليق "اليسار فى المعركة"، "الطلیعة"، العدد ١٢ (ديسمبر ١٩٧٦)، ص ٥٩-٦١.

(٣) انظر لطفى الخولى، "اليسار بعد الانتخابات وبعد الأحزاب"، "الطلیعة"، العدد ١٢ (ديسمبر ١٩٧٦)، ص ٥-١٢.

ومخاطر هذا الموقف الجديد وبالتالي أصبحت المجلة "لسان حال" حزب التجمع أكثر مما سبق.

ولا ينبغي أن ننسى أن وضع المجلة في المواجهات مع السلطة ساء بشكل ملحوظ في ١٩٧٦، بمجيئ وزير الثقافة يوسف السباعي إلى رئاسة تحرير الأهرام، وهو المسئول عن مصادرة "الكاتب" والعدو الرسمي للماركسيين. فبينما احترم خلفاء هيكل بشكل جوهري استقلال منبر اليسار، وقاوموا ضغوط السادات من أجل إغلاقه كما سبق ورأينا، فقد بدأ السباعي يمارس "رقابة أكثر مباشرة وخائفة" على هذا المنبر^(١).

وإذا كانت إجراءات الطلاق بين "اليسار الرسمي" والنظام قد تمت مع الانتخابات ووضعت منظور "التعايش المتنافس" بينهما، فقد أثر رد فعل النظام على الانتفاضة الشعبية في ١٨، ١٩ يناير عام ١٩٧٧ بعمق في تطور العلاقة بين الحكومة وهذا الجزء من اليسار الذي اختار الحوار مع مؤسسات الدولة.

وأدى اختيار الرئيس لوصف هذه الحركة التي كانت بكل المقاييس هبة تلقائية للشعب المصري ضد الانفتاح والسياسات الحكومية على أنها مؤامرة شيوعية إلى إطلاق القمع البوليسي ضد أعضاء حزب التجمع التقدمي الوحدوي. ويوجد إجماع واسع على تأكيد قيام مناضلي اليسار سواء الرسميين أو السريين منهم بدور مهم في توجيه الانتفاضة، غير أن من المؤكد أن هذه الأدوار لم تكن مجهزة ولم تكن هناك أي خطة لهبة ثورية، وهو الأمر الذي أسف له بشدة بعض المناضلين^(٢). ويمكننا أن نتذكر تحليلات غالي شكرى التي كانت الانتفاضة وفقا

(١) شهادتا فاروق عبد القادر ورفعت السعيد في المقابلتين الشخصيتين السابقتي الذكر، وكذلك شهادة الخولي في كارم يحيى، المصدر السابق الذكر، ص ٢٠-٢١.

(٢) يوجد اتفاق واسع بين الشخصيات اليسارية المختلفة بخصوص هذا الموضوع على سبيل المثال شهادات حسنين كشك (ح. ع. ش. م) وحسين عبد الرزاق في مقابلة شخصية مع المؤلف (القاهرة، ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٢).

لها ذات "إلهام يسارى" بمعنى أن "الشارع المصرى" كان فى هذه اللحظة يسارا تلقائيا" دون تدخلات إسلامية^(١).

وفى الأيام التالية للمظاهرات تم اعتقال حوالى مائتين من مناضلى التجمع بتهمة قيادة "محاولة ثورية" محرضين المتظاهرين على أعمال عنف وتخريب للممتلكات الخاصة^(٢). وقد نجا زعيم الحزب والعضو السابق فى الضباط الأحرار خالد محيى الدين من الاعتقال، فقط بسبب وجوده خارج البلاد فى هذه الأثناء.

وفى مواجهة عنف القمع وكورال وسائل الإعلام الذى دعمه أيضا الإخوان المسلمون^(٣)، وشيخ الأزهر متفقين فى اتهام اليسار بالتآمر، وفى غياب أى وسيلة أخرى للتعبير، أخذت "الطلیعة" على عاتقها ولجب تقديم رؤية مغايرة للرأى العام عن أحداث الشارع، وفى الافتتاحية الطويلة والموثقة الصادرة فى فبراير ١٩٧٧ نفى لطفى الخولى تماما وجود مؤامرة شيوعية، متهما النظام بسياساته الفاتكة الليبرالية والمعادية للشعب بكونه المسئول الحقيقى^(٤). وبالإضافة إلى ذلك رد رئيس التحرير على اتهام الحكومة الذى يشكل اليسار سواء للرسمى أو السرى وفقا له جزءا من مؤامرة إجرامية، مؤكدا أن المجرمين الحقيقيين هم السلطات الحكومية نفسها التى أمرت الجيش بإطلاق الأسلحة على الشعب المصرى مخلفة عددا من القتلى فى الشوارع. وباختصار احتوت الافتتاحية على رد مفصل على كل الاتهامات التى صدرت من الحكومة فى الأيام التالية للانتفاضة، مع هجوم

(٣) انظر Shukri, Egypt..., cit., p. 331-332.

(١) انظر حسين عبد الرزاق، "مصر..."، المصدر السابق للذكر. ويُعتبر هذا الكتاب الدراسة الأشمل والأكثر توثيقا عن انتفاضة يناير.

(٢) انظر افتتاحية مرشد الإخوان عمر التلمسانى، "ليست الجولة الأخيرة"، "الدعوة"، العدد ١١، أبريل ١٩٧٧، ص ٢ ومليها.

(٣) انظر لطفى الخولى، "جماهير يناير بين الحكومة واليسار"، "الطلیعة"، العدد ٢ (فبراير ١٩٧٧)، ص ٥-١٩. انظر أيضا تعليقات أبو سيف يوسف، ومحمد سيد أحمد، وعادل حسين (ضمن القلائل الذين نجوا من الاعتقال)، نفس المصدر، ص ٣٢-٣٩.

عنيف على رئيس الوزراء ممدوح سالم العاجز والذي ليس أهلا للثقة. وأشار الخولى فى اتهامه لـ ممدوح سالم بأصابع الاتهام إلى الطبقة الحاكمة الساداتية بأكملها وخياراتها السياسية الاقتصادية التى أدت إلى نكبة اجتماعية خطيرة، كما أوضحت الانتفاضة بشكل درامى. ويجب ملاحظة أنه بالتوازي مع اختيار أن يكون الحزب شرعيا، أدان رئيس التحرير العنف كوسيلة للصراع السياسى، إلا أنه قبل كل شئ حكم باستحالة أن تستطيع أى منظمة سياسية سواء كانت سرية أو علنية أن تنظم مظاهرات حاشدة^(١) ومتزامنة فى المدن الكبرى للبلاد^(٢). واختتم الخولى مقاله فى النهاية - مفترضا المصادرة الوشيكة للمجلة - داعيا اليسار إلى تكوين معارضة حقيقية شجاعة واعية ومسئولة "مدركا" أن البلاد ستجد نفسها بعد الانتفاضة "على أبواب مرحلة جديدة"^(٣).

أما بالنسبة لـ "الطليعة" فرغم الاتصالات المستمرة بين رئيس التحرير والحكومة^(٤)، فقد وقعت المجلة ضحية قمع النظام اليسار فى الأسابيع التالية للانتفاضة، وكذلك لأنها بدت فى نظر النظام ناطقة باسم التجمع المتهم بتبنيه للانتفاضة. وقد صدرت عدة أعداد تحت نفس الاسم منذ أبريل ١٩٧٧^(٥)، تحت رئاسة الكاتب ذى التوجه الإسلامى صلاح جلال إلى أن قام لطفى الخولى بتفعيل استخدامه لحقوق المؤلف على الجريدة موقفا نشرها^(٦).

(١) انظر تحليلات ر. و. بيكر R. W. Baker, Sadat and After, cit., p. 123-127.

(٢) انظر "الطليعة"، جماهير يناير...، المصدر السابق الذكر ص ١٩.

(٣) انظر كارم يحيى، المصدر السابق الذكر، ص ٢٢.

(٤) صدر عدد مارس ١٩٧٧ من "الطليعة"، رغم إعفاء لطفى الخولى من منصبه فى الشهر السابق، فى شكل مختصر بافتتاحية موجزة جدا وبدون توقيع، وثلاثة مقالات غير مرتبطة بالأحداث الجارية، ومف مف مخصص لحركة التحرر الوطنى فى إريتريا، بالإضافة إلى الأبواب الثابتة.

(٥) فى هذا السياق ينبغى أن نذكر شهادة الناقد فاروق عبد القادر الذى تم طرده أيضا من المجلة. فقد ذكر فى مقابلة شخصية معه فى ملاحظة لا تخلو من المرارة أنه بينما فضل العديد من المحررين أن يصبحوا كتابا بالقطعة منذ هذه اللحظة مساهمين فى المجلات والصحف العربية ومكرسين أنفسهم للعمل السياسى داخل التجمع اختار الخولى المخلص لنظرية "تغيير النظام من الداخل" أن يبقى مع قلة أخرى داخل

ومثلت انتفاضة يناير قمة التأثير الماركسي في مصر العبادات كبديل سياسي وإمكانية ثورية. ولكن في نفس الوقت، مثل القمع الشديد الذي تلا الثورة بداية انحدار اليسار في مصر بسبب التأثير المركب للتضييق الحكومي وعجز اليسار عن طرح نفسه كبديل واقعي للسلطة والحركة الإسلامية الناشئة، عندما كانت البلاد تمر بأزمة سياسية واجتماعية طاحنة.

ج- بين القمع والمقاومة

مثل "بيان للجماهير" الذي أوضحت من خلاله أمانة الحزب لكتاب "الطلیعة" موقفها من "أحداث يناير"^(١)، والذي اتهمت فيه "العلاء المدعوسين من المباحث" بتجهيز العنف الشهادة الرسمية الأخيرة للنشاط المنشور من قبل الحزب في مصر لمدة عام كامل. والحقيقة أنه بعد مصادرة "الطلیعة" تم إيقاف هيئة تحرير المجلة الأسبوعية "اليسارية" روز اليوسف^(٢) بقيادة الكاتب الماركسي عبد الرحمن الشرقاوي في بداية ربيع ١٩٧٧ وأخذت الصحافة الموالية للنظام في تضخيم صورة "المؤامرة الماركسية" والاتهامات ضد أعضاء التجمع. وكمثال صارخ على الرقابة المفروضة على الحزب من قبل النظام في وسائل الإعلام ينكر حسين عبد

الأهرام رغم عدم السماح له لفترة طويلة بنشر أي شيء (المقابلة الشخصية مع فاروق عبد القادر).

(١) انظر بيان من التجمع الوطني التقدمي الوحدوي إلى جماهير الشعب المصري (المؤرخ ١٩ يناير ١٩٧٧) في "الطلیعة" العدد ٢ (فبراير ١٩٧٧)، ص ١٥١-١٥٢. وقد أعيد نشر هذا البيان والعديد من البيانات الأخرى المتعلقة بالانتفاضة وتبعاتها في الكتاب القيم لحسين عبد الرزاق، "مصر..."، المصدر السابق الذكر، ص ١٢٧-١٨١.

(٢) نجح الشرقاوي قبل عزله في نشر لقاء مع خالد محيي الدين في مجلته الأسبوعية مزودًا للتجمع بإمكانية عرض نظريته للأحداث على جمهور أوسع. ظهر اللقاء لأول مرة في العدد ٢٥٤٣ من "روز اليوسف" ٧ مارس ١٩٧٧، وأعيد نشره في كتاب حسين عبد الرزاق، "مصر..."، المصدر السابق الذكر، ص ١٨٨-١٩٥.

الرازق أن البيان المذكور والذي أرسل إلى كل الصحف اليومية في البلاد في ١٩ يناير نفسه^(١) لم يظهر بالفعل سوى بعد عدة أيام، وفي "الطلیعة" فقط.

وبعد تحليل محاولة النظام محاكمة اليسار بأكمله على تهيج العنف الشعبى فى يومى الانتفاضة أمرا أساسيا من عدة وجهات للنظر. فمن وجهة النظر القانونية، ورغم تأكيد محققى مباحث أمن الدولة أثناء الانتفاضة نفسها على حيازتهم لأدلة كافية لتجريم العديد من أعضاء اللجنة التنفيذية للتجمع، إلا أن المحاكمة استمرت عامين آخرين وانتهت بإطلاق سراح المتهمين لعدم كفاية الأدلة. وبينما أكد شهود العيان المزعمون رؤيتهم لزعماء التجمع يحضون الجماهير على العنف ضد رموز النظام، لم يحدث تقريبا إلقاء القبض على أى من المناضلين فى الشوارع، بل إن الشرطة سعت إلى إلقاء القبض على أعضاء للحزب يعيشون خارج البلاد وحتى على مناضل مات قبل الأحداث بعدة أيام. ويوضح هذا الدليل البسيط بشكل درامى نوايا للنظام وراء سماحه وتشجيعه لقيام منبر ثم حزب ذى توجه ماركسى معن. ومن الناحية العملية لم يكن منظور السادات هو عزل اليسار لتحبيده فقط، بل كذلك وبشكل ما لكى تجد الشرطة قائمة جاهزة من "المتآمرين" تستخدمها كلما لزم الأمر بمساعدة بطاقات العضوية الجماعية التى أصدرها التجمع عشية الانتخابات^(٢)، وهكذا كان واضحا أن عمليات الاعتقال كانت تتم بناء على قوائم اتهام جاهزة بدلا من أى دليل أو فى حالة تلبس^(٣).

(١) نفس المصدر.

(٢) كان الحزب قد أعلن فى ذلك الحين عن قوة عددية تبلغ حوالى ١٥٠٠٠٠ عضو. انظر Hinnebusch, Raymond A., "The Nationalist Progressive Unionist Party: The Nationalist-Left Opposition In Post-Populist Egypt", Arab Studies Quarterly, Vol. 3, n. 4, p. 339.

(٣) بالنسبة لحزب التجمع الذى اعتقل منه ١٧٦ شخص قدم البوليس أدلة على ٨٤ عضوا فقط من الحزب، انظر حسين عبد الرزاق، "مصر.."، المصدر السابق الذكر، ص ١٢٤.

وكان حقيقة أن يجد اليساريون أنفسهم في معتقلات الدولة من جديد رغم اختيارهم للشرعية وقع كبير على "اليسار الشرعي". وكان من الواضح أن النظام لا يميز بين المنظمات السرية وممثلي حزب شرعي له ممثلون في البرلمان، مما أدى إلى تجنير الغالبية العظمى من كوادر التجمع. وعلى أي حال كان الخط الرسمي للحزب بعد الانتفاضة، واعتقال عدة أعضاء بارزين من الأمانة العامة مثل رفعت السعيد وحسين عبد الرزاق، هو "مقاومة" مضايقات الأجهزة القمعية للدولة كي لا يخسروا "المزايا" التي حصلوا عليها من خلال إعلان الحزب كحزب شرعي قبل هذه الأحداث بعدة شهور.

ومع ذلك سعى التجمع إلى إسماع صوته كمعارض وحيد لكرال النظام^(١)، بادئاً باعتراض خالد محيي الدين ضد القانون القامع لحرية الأنشطة السياسية الذي أصدره الرئيس في عام ١٩٧٧ وتم التصديق عليه باستفتاء شعبي^(٢).

ودفعت معرفة الحزب بكونه قوة معارضة مهمة من الحكومة ووسائل الإعلام إلى إصداره لنشرة دورية داخلية، على الأقل، يجمع فيها وثائقه ويتناولها في المقار بين الأعضاء والاجتماعات العامة. وقد صدر العدد الأول من النشرة التنظيمية التي لا يمكن تمييزها عن النشرات السرية التي أصدرتها المنظمات الشيوعية غير الشرعية في ٥ مارس ١٩٧٧، وبقي هو الإصدار الوحيد المنشور من جانب التجمع حتى صدور الجريدة الأسبوعية "الأهالي" في فبراير ١٩٧٨^(٣). وقد جعلت ضالة أهمية الثلاثة أعضاء من التجمع وسط الثلاثمائة وخمسين عضواً في البرلمان، وضرورة أن يحافظ السادات على قناع التحدي ليرضى الرئيس

(١) انظر حسين عبد الرزاق، المقابلة السابقة الذكر.

(٢) انظر أعلاه.

(٣) كانت الورقة عبارة عن مستسخ من الطباعة الرديئة المستوى من حوالي ١٠ صفحات على غرار الحديد من المجلات المدعوة بالـ "ماستر" التي أنتجتها الحركة الطلابية في عام ١٩٧٢ وما تلاه.

الجديد جيمى كارتر المدافع عن "حقوق الانسان"، من وجود المعارضة اليسارية أمرا يستطيع النظام تحمله، وهكذا أطلق سراح أعضاء الحزب الذين كانوا رهن الاعتقال فى بداية يونيو ١٩٧٧، كإشارة إلى المصالحة نسبيا. ولم يكن هذا التاريخ صدفة، ولا كان مرتبطا بأي موعِد قضائى، حيث كانت القضية قد انتهت منذ مدة، لكنه تزامن مع قانون الأحزاب الجديد رقم ٤٠ لسنة ١٩٧٧ الذى جاء ليحد من إمكانية تكوين أحزاب جديدة، واضعا القرار النهائى فى يد لجنة هي (اللجنة العليا للأحزاب السياسية) التى تتحكم فيها السلطة التنفيذية، وفى هذا السياق أيضا حاول الحزب معارضة مشروع قانون يلغى عمليا التعددية التى تمت الموافقة عليها منذ أشهر قليلة وصولا إلى قرار خالد محيى الدين بالانسحاب من أعمال مجلس الشعب احتجاجا على المناخ "غير الديمقراطي للمناقشات"^(١). ولم يعارض الحزب قرار السادات بحل الاتحاد الاشتراكي فى يوليو ١٩٧٧ حيث رأى أن الحزب الواحد كان الأداة الرئيسية التى يستخدمها النظام ضد الديمقراطية، ومع ذلك استغل اليسار فرصة الذكرى الخامسة والعشرين لثورة يوليو من أجل تقديم تقييم بديل للاتحاد الاشتراكي مبرزاً كم كانت تجربة التعددية التى تم تنشيتها فى عام ١٩٧٦ تجربة جزئية^(٢).

ويمكننا أن نؤكد بالنسبة للجدل الداخلى فى الحزب أن موقف المواجهة مع السلطة وضع الخلافات بين الشخصيات المتنوعة فى التجمع فى المقام الثانى، وحافظ ليس فقط على التعايش بين الماركسيين والناصريين بل كذلك على التعايش بين التيارات المختلفة والمتناقضة فيما بينها تقليديا.

(١) انظر: للتجمع، "بيان انسحاب المعارضة من مناقشة عن مشروع قانون الأحزاب السياسية"، ٥ يونيو ١٩٧٧، (٣ صفحات).

(٢) انظر: خطاب خالد محيى الدين بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين من ثورة الضباط الأحرار، ٢١ يوليو ١٩٧٧، (٩ صفحات).

ولا نرغب في التقليل من شأن أهمية المواقف التي اتخذها التجمع قبل وبعد انتفاضة يناير لكن من المستحيل أن لا نرجع الدافع وراء الانفصال النهائي بين اليسار القانوني والسلطة إلى قرار السادات ببدء الحوار مع إسرائيل بدءًا من زيارة القدس في نوفمبر ١٩٧٧. ولم يكن برنامج التجمع مناهضا بشكل مبدئي لعملية سلام عربية إسرائيلية تنتهي بانسحاب الدولة العبرية من الأراضي المحتلة ومولد دولة فلسطينية مستقلة، ولكن هذه الديناميات كان يجب أن تتم في مجال اتفاقية عربية موحدة ودون أن تؤدي إلى تطبيع العلاقات بين أطراف الصراع.

ولم تلق خطوة الرئيس المثيرة بالذهاب إلى الكنيسة دون استشارة "الإخوة العرب" حماس اليسار للمصري رغم وعد السادات بعدم رغبته في سلام منفرد. ولم يحتو تعليق بيان التجمع على "مبادرة" السادات على أى أحكام إدانة نهائية، فقد أخذ هذا الاختيار في حسابه وزن الاستقبال الأكثر من جيد الذي استقبلت به الجموع الرئيس عند عودته من المدينة المقدسة^(١). بالإضافة إلى أسطورة غم المساس بشخصية الرئيس. ويجب أيضا أن نذكر أن أعضاء التجمع قاموا بتوقيع بيان آخر أصدره البرلمانيون "المستقلون" المنتمون إلى الاتجاه الناصري والإسلامي الذين يرفضون بشكل صريح زيارة فلسطين المحتلة^(٢). وتعد هذه الوثيقة مهمة لأنها تسلط الضوء على أن العامل الوحيد الجامع للمعارضة تمثل في إدانتها لسياسة الرئيس الخارجية، وهو العامل الذي ظهرت له حدود عند التحرك السياسي المنسق ضد الحكومة في السنوات التالية، وصب ذلك في صالح النظام في نهاية الأمر. وفي الوقت نفسه يجب أن نبرز أن مهاجمة الحكومة في سياستها

(١) التجمع "بيان الأمانة العامة عن زيارة الرئيس السادات إلى القدس وخطابه أمام مجلس الشعب"، ٢٨ نوفمبر ١٩٧٧، (٤ صفحات)، وكذلك النشرة التنظيمية، العدد ٩ (ديسمبر ١٩٧٧) والذي احتوى على إعادة نشر لمساهمة خالد محي الدين في النقاش للبرلماني في ٢٨ نوفمبر ١٩٧٧ حول مبادرة السادات للسلام.

(٢) انظر بيان من الهيئة البرلمانية المستقلة حول مبادرة الرئيس السادات لحل الصراع العربي الإسرائيلي، ٢٧ نوفمبر ١٩٧٧، (٣ صفحات).

الخارجية تعنى بشكل غير مباشر انتقاد الرئيس منذ اللحظة التى صرح فيها عند تكوين المنابر فى عام ١٩٧٦ بأن السياسة الخارجية تدخل فى إطار صلاحياته المطلقة^(١).

أتى عام ١٩٧٨ بأخبار مهمة بدت كأنها تؤكد بوضوح على صحة اختيار مقاومة ضغوط وتهديدات النظام من جانب اليسار الشرعى. فبدائية، رغم أنه كان آخر الأحزاب الشرعية التى تحصل على جريدة^(٢)، إلا أن التجمع زود بجريدة أسبوعية مدعومة من الدولة هى "الأهالى". وتوضح حقيقة بيع ١٥٠٠٠٠ نسخة من العدد الأول من الأهالى المنشور فى فبراير ١٩٧٨ الذى نفذ بعد ساعات من صدوره، كيف كان للرأى العام المصرى مرهقا من "الحوار من طرف واحد" الذى أجرته الصحافة ووسائل الإعلام فى خدمة النظام^(٣).

وبعد ذلك بثلاثة أيام، حصل الوفد الذى ساد الساحة السياسية المصرية بين عام ١٩٢٢ و ١٩٥٢ على تصريح بإعادة تكوينه بصورة قانونية باسم حزب "الوفد الجديد" مع عضوية عشرين من أعضاء المجلس المنتخب الذى دخله معظمهم كمستقلين فى عام ١٩٧٦^(٤). وقد غير هذا الحدث بشكل لاقت منظور المعارضة الشرعية التى أصبحت تستطيع منذ ذلك الوقت الاعتماد على عدد كبير، رغم أنه كان يمثل أقل من أقلية، لإعطاء صوت للاعتراضات على السياسات الساداتية.

(١) انظر أعلاه.

(٢) أصدر حزب الحكومة جريدة "مصر" حتى يونيو ١٩٧٧ والاشتراكيون الليبراليون "الأحرار" من ديسمبر التالى، انظر Beattie, op. cit., p. 243.

(٣) حول أهمية جريدة "الأهالى" فى تطور الجدل الديموقراطى فى مصر، انظر كتاب حسين عبد الرزق التنكرى: "الأهالى: صحيفة تحت الحصار"، دارالعالم الثالث، ١٩٩٤. انظر أيضا رمزى ميخائيل جبار، "أزمة الديموقراطية ومأزق الثقافة القومية" ١٩٥٢-١٩٨٤، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٦؛ و إيمان محمد حسن، المصدر السابق للذكر.

(٤) بخصوص إعادة تأسيس الوفد انظر الفصل الأول القسم ٥-ج.

ومن وجهة نظر اجتماعية كان هناك القليل أو لم يكن هناك تقريبا ما يجمع بين مؤيدى اليمين الليبرالى القديم المرتبطين بالرأسمالية الزراعية والرأسمالية المنتجة والمعادين بشدة للناصرية وبين اليسار الماركسى والناصرى للتجمع، ومع ذلك كان يمكن الالتقاء ليس فقط فى معارضة عملية سلام منفرد مع الدولة العبرية ولكن أيضا فى الدفاع عن الحريات الديمقراطية المنقوصة التى كان النظام يتراجع عنها تدريجيا. وبهذا المعنى يمكن القول إن الجزء الأول من سنة ١٩٧٨ كان يمثل حيوية متجددة من جانب المعارضة التى ركز نقادها على عملية السلام التى واصلها الرئيس رغم تحفظات الدول العربية الأخرى والجمود الإسرائيلى. وأصبحت "الأهالى" حاملة لواء هذه الرؤية والتى بدأ من خلالها جمع جزء لا بأس به من المجتمع المدنى المصرى الذى اشتمل كذلك على أعضاء من النخبة فى السلطة الذين لم ترق لهم العزلة المصرية المتزايدة عن الأمة العربية^(١). إلا أن النجاح الشعبى المتزايد للسان حال التجمع هذا وبسبب تحديده لمواقف حاسمة اتفقت مع قطاعات من رأى العام خارج اليسار بشكل واضح أثار مشاكل جديدة. فبينما تم بيع وتوزيع الأعداد الستة عشر الأولى من الأهالى دون مشاكل، فقد أمر النائب العام منذ مايو وما بعده بمصادرة الجزء الأكبر من الأعداد المنشورة^(٢) وفقا للقانون الجديد عن "الوحدة الوطنية" الذى كان يصدق عليه البرلمان فى نفس الأسابيع التى صدرت فيها هذه الأعداد. وكان هذه القانون الذى تم إعداده فجأة لضرب الليبراليين واليسار خطوة مهمة لـ "إضفاء الشرعية على نظام ديكتاتورى" يمكن أن يجر البلاد إلى موقف أكثر إظلاما. واشتمل رد الفعل على هذه الخطوة الجديدة المقيدة للحريات التى تم التصديق عليها بواسطة الاستفتاءات المعتادة التى تتم الموافقة عليها بالإجماع، ردئ فعل متناقضين من الجهتين المقصودتين. فبينما اعتبر حزب الوفد أنه من المستحيل الاستمرار فى العمل فى موقف إرهاب مستمر

(١) حسين عبد الرازق، المقابلة السابقة للذكر.

(٢) Shukri, Egypt..., cit. p. 372.

من قبل النظام، اعتبرت قيادة التجمع أنه من الأهم الاستمرار في إعطاء صوت للمعارضة، وبالذات لعملية السلام التي باعدت بين مصر والعالم العربي^(١).

وهنا ينبغي أن نذكر أنه إلى جانب منشورات التجمع والأحزاب الراديكالية وغير الشرعية، نشر متقو اليسار المصري تحليلاتهم في جرائد ومجلات عربية أو غربية تصدر خارج مصر. فقد دفع القمع الذي تلا انتفاضة يناير العديد من متقو ومناضلي اليسار إلى "المنفى" فنشروا في البلاد التي استضافتهم وخاصة في لبنان. وإلى جانب هذه المجموعة من "الماركسيين في الشتات"، التي مثل ميشيل كامل وغالي شكرى المحرران السابقان في "الطليعة" اللذان كانا في بيروت رمزها الأكثر وضوحاً، أجبر العديد من المصريين الذين بقوا في مصر على التوجه إلى الصحافة البيروتية والأوروبية حتى يستمروا في النشر^(٢). وبفضل السلطات المخولة للمدعى العام الاشتراكي^(٣) من خلال القانون الجديد لإنقاذ الوحدة الوطنية أمر في نهاية مايو ١٩٧٨ بإيقاف ٣٤ صحفياً وإخضاعهم لتحقيقات مطولة. وكان ضمن المتحرى عنهم العديد من أشهر "الأقلام" في البلاد ومنتقدي النظام بينهم محمد سيد أحمد، وصلاح عيسى، وفريدة النقاش، وحتى الرمز الناصري محمد حسنين هيكل^(٤). وفي نهاية التحقيق منع المدعى العام الاشتراكي كافة المشتبه فيهم

(١) شهادة رفعت السعيد السابقة الذكر.

(٢) من الجدير بالذكر أن المقالات في "الأهالي" كانت تنشر غالباً بدون توقيع لتجنب حدوث مشاكل للكتاب الأفراد.

(٣) استغل السادات القوانين الجديدة المقيدة للحريات من أجل إعادة إحياء منصب "المدعى العام الاشتراكي" الذي ورد في دستور ٧١ على غرار نظيره السوفييتي الستاليني لكن لم يتم تطبيقه في مصر فعليا حتى نهاية عام ١٩٧٨. وكان يمثل نوعاً من نائب عام يمتلك سلطات ضخمة للتدخلات العاجلة والتي عادة ما تحدث مع المعارضة لكل سياسة حكومية أو كل مخالفة "ضد الشريعة".

(٤) يذكر هيكل في كتابه "خريف الغضب"، Haykal, Autumn of Fury, cit., p. 109 أنه، في غياب أي دليل، كان يتم استجوابه حتى على المقالات التي كتبها عندما كان وزيراً للإعلام ورئيس تحرير للأهرام. انظر أيضاً = al-Naqqash, Farida,

من المغادرة إلى خارج البلاد، أي أن النظام احتفظ عملياً بجزء كبير من المتقنين الذين رفضوا الالتزام بأوامر النظام الجديدة - أي مهاجمة الحكومات العربية و"الدعاية" للتحالف الجديد المصري الإسرائيلي الأمريكي - كرهائن^(١).

وبالإضافة إلى ذلك نكر الناقد غالى شكرى أن السادات طلب بشكل شخصى من السلطات اللبنانية تسليم عدة صحفيين مصريين إلى مصر وذلك "لتلوينهم سمعة بلادهم" عبر الصحافة البيروتية^(٢).

وتحولت البداية المبشرة لعام ١٩٧٨ فى نظر اليسار الشرعى على مرّ الشهور إلى موقف تتزايد صعوبته. فأولاً قلل قرار السادات بالتخلى عن دوره الزائف كرئيس لكل الطوائف ورئاسته لحزبه الجديد "الحزب الوطنى الديموقراطى"^(٣) بشكل كبير من إمكانية انتقاد أفعال الحكومة فى البرلمان، حيث اعتبر كل هجوم إهانة لـ "رب الأسرة المصرية" وبالإضافة إلى ذلك أكدت تنازلات الرئيس لبيجين فى كامب ديفيد فى سبتمبر ١٩٧٨ أسوأ هواجس اليسار. وقد تمت مصادرة عدد ١٧ أكتوبر من "الأهالى" الذى احتوى على اتهام واضح للمعاهدة، لكنه لم يصل إلى أكشاك الجرائد حيث تمت مصادرته فى المطبعة، وبقي هو العدد

= "Barred from Writing in Egypt: the Experience of a Journalist Who Was Critical of the Government", Index on Censorship, 12, III, 1983, p. 20-22.

- (١) شهادة محمد سيد أحمد فى مقابلة شخصية معه سبق نكرها.
- (٢) انظر Shukri, Egypt..., cit., p. 372-373. وينكر هذا الناقد على سبيل الجدل أن الصحافة الغربية لم تبدأ تتبّه إلى الوجه القمعى والسلطوى للرئيس إلا عندما بدأ النظام يضطهد المتقنين على المقالات التى تظهر فى صحف أوروبية (كما فى حالة محمد سيد أحمد المتهم بانتقاد عملية السلام على صفحات "اللوموند")، بعد تقديمها للرئيس فى صورة البطل عبر وسائل الإعلام العالمية بعد زيارته للقدس.
- (٣) انظر أعلام.

الأخير "المنشور" في الفترة الساداتية^(١). واحتوت المجلة كذلك على البيان الرسمي للتجمع في معارضة اتفاقية كامب ديفيد، والتي شرح فيها الحزب أسباب اعتراضه^(٢). وبالإضافة إلى الانتقادات بسبب ضعف الضمانات التي كان يفترض أن تحل القضية الفلسطينية، أعلن البيان أن الاتفاقية المصرية - الإسرائيلية ستؤدي إلى مشكلة خطيرة على الأمن القومي بسبب نزع السلاح الفعلي في سيناء بالإضافة إلى حقيقة أن النظام سينشغل بتطبيع العلاقات مع إسرائيل على كافة المستويات بينما لم تُحل الدولة العبرية شبه جزيرة سيناء قبل أبريل ١٩٨٢. وفي النهاية أبدى اليسار ملاحظة حادة ونبوءة مرة، عندما أكد أن توقيع معاهدة سلام منفردة ستطلق يد إسرائيل في مهاجمة الدول العربية الأخرى ومصر مشلولة "بابتزاز" الانسحاب الممتد على مدى ثلاث سنوات.

وبمصادرة الأهالي فقد اليسار الشرعي أداة رائعة للضغط ولتنشر أفكاره، ومع ذلك قررت قيادة التجمع عدم تجميد نشاط الحزب بشكل رسمي كما فعل حزب الوفد، واستمرت في "المقاومة" في البرلمان وفي المجتمع بالتوافق مع باقي المعارضة، ومن ضمنها حتى الإخوان المسلمون مبتعدة بشكل متزايد عن النظام بسبب سياسته الخارجية^(٣).

(١) انظر حسين عبد الرزاق، "الأهالي" المصدر السابق للذكر؛ إيمان محمد حسن، المصدر السابق للذكر.

(٢) التجمع بيان حول مواقف الحزب من اتفاقية كامب ديفيد، ٢٥ سبتمبر ١٩٧٨. وتوجد كذلك ترجمة فرنسية للوثيقة انظر (PNUP (Secrétariat Général), "Communiqué su la position du parti quant aux accords du Camp David", in 2nd Conference for Progressive Socialist Organizations and Parties of the Mediterranean, Malta, 20-25 June 1979.

(٣) انظر أعلاه.

وكما لاحظ فوزى نجار Fawzi Najjar فإن نظرة على الصحافة المصرية في نهاية عام ١٩٧٨ ستعطى انطباعاً بأن الراى العام كله ومتقى البلاد يدعمون السلام المنفرد، وعزلة مصر عن العالم العربى^(١).

ومع قمع منبر اليسار، وموقف الانتظار الحذر من جانب صحافة الإخوان، نجح النظام فى الحصول على "الحوار من طرف واحد" الذى أمل فيه الرئيس الذى أصبح أقل تسامحاً مع الانتقادات بمرور الوقت. وفى خضم هذه الأحداث قرر التجمع تحويل نشرته النظرية للتوزيع الداخلى "التقدم" إلى "الأهالى الصغيرة"^(٢). ورغم الجودة الطباعية المنخفضة نجح الحزب بنفسه فى طباعة ١٠٠٠٠ نسخة من النشرة التى أصبحت للصوت الوحيد لذلك الجزء الكبير من الراى العام الذى لا يجد نفسه فى سياسات النظام سواء فى السياسة الخارجية أو الداخلية. وفى ظل عدم قدرتهم على الاعتماد على التوزيع الطبيعى، التزم مناضلو التجمع بتوزيع النسخ بشكل يدوى على قوى المعارضة، بالإضافة إلى المراسلين والطلاب الأجانب فى مصر حتى يوضحوا الفرق بين "البلد الشرعى" و"البلد الحقيقى". ولتأكيد أهمية النشرة يكفى أن نذكر أنه فى ديسمبر ١٩٧٨ نشر بيان ماسمى "بمجموعة المائة" التى وحدت متقى وسياسيى كل الاتجاهات من الماركسيين حتى الناصريين وصولاً إلى الوفديين ضد التوقيع الوشيك لمعاهدة السلام مع إسرائيل^(٣). وقد شكّل توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية فى مارس ١٩٧٩ صدمة حقيقية للعديد من متقى ومناضلى اليسار من الاتجاهات المختلفة، وقد أمل بعض أولئك أن يرجع الرئيس عن ذلك فى اللحظة الأخيرة على الأقل للحصول

(١) انظر F., op. cit., p. 351-ss. Najjar.

(٢) حلت "التقدم" محل "الأهالى" بشكل ما كلسان حال للتجمع منذ العدد رقم ١٠ (٨ نوفمبر ١٩٧٧) حتى العدد ٨٦ (٤ مايو ١٩٨٢) انظر إيمان محمد حسن، المصدر السابق الذكر، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٣) انظر Beattie, op. cit., p. 235.

على ضمانات كبرى على الجبهة الفلسطينية^(١). ومع ذلك ورغم أن شعبه قد منحه استقبال المنتصرين عند عودته إلى الوطن، أثارت المعارضة على صغر حجمها جدلاً حيويًا لم تتردد فيه عن إعلان "الخيانة الوطنية" التي قامت بها الحكومة ضد مصالح مصر والأمة العربية بأكملها. لم يوضح رد فعل السادات على هذا الجدل - الذي انتهى بمعارضة ١٧ عضواً من ٣٥٠ عضو صوتوا ضد المعاهدة - فقط عدم التسامح الذي وصل إليه السادات بل وضح كذلك عدم قدرته على التمييز بين نفسه وبين النظام، فقد ترجم في ذلك الحين كل معارضة للسياسات الحكومية على أنه إهانة شخصية موجهة إليه. وبالإضافة إلى ذلك استمر السادات، محاطاً بثلة من المنافقين والمتماقنين، في رؤية الشيوعيين "عملاء السوفييت" على أنهم الخطر الأكبر على نظامه مقللاً من التهديد المحتمل للمنظمات الإسلامية الشرعية أو السرية التي اعتقد قدرته على مجابهتها بسياسة "أسلمة من أعلى"^(٢).

واتباعاً لهذا المنطق لم يرض الرئيس بإجماع لا ٩٩,٩ % الذي وافق به الشعب المصري على معاهدة السلام^(٣) وأراد "أن ينتقم من" الأصوات المعارضة ويطيّر المجلس من مجموعة "الملحنيين". وقرر الرئيس حل البرلمان وتنظيم انتخابات جديدة في انتهاك واضح للقوانين الانتخابية التي أعدها بنفسه.

وشهدت انتخابات شهر يونيو ١٩٧٩ التي اعتبرت أقل انتخابات يمكن الوثوق بها في تاريخ البلاد^(٤)، بداية الطرد المتوقع لليسار من البرلمان. ورغم الإرهاب والعنف الذي وجهه النظام إلى التجمع والذي وصل إلى حد اعتقال مرشح في القاهرة في حي شبرا الخيمة هو أحمد طه بتهمة كونه جاسوساً سوفيتياً^(٥)، نجح الحزب في تقديم ٣٤ مرشحاً ومع ذلك لم يُنتخب أيٌّ منهم. وحتى خالد محيي

(١) انظر، على سبيل المثال، شهادة محمد سيد أحمد (المقابلة الشخصية السابقة الذكر).

(٢) انظر أعلاه.

(٣) انظر Martin Muñoz, G., op. cit., p. 344.

(٤) انظر أعلاه. انظر أيضاً محمد سيد أحمد، مستقبل النظام...، المصدر السابق؛ و Tomita, H., op. cit.

(٥) انظر Hinnebusch, Egyptian Politics..., cit., p. 173-174.

الدين رئيس حزب التجمع والمدعم بقاعدته الشعبية المحلية في محافظة القليوبية هزمه مرشح الحزب الوطنى الديموقراطى بسبب "منع رجال مسلحين منتخبيه من دخول اللجان"^(١).

ومثل طرد اليسار والمعارضة من المجلس باستثناء عضوين مستقلين ناصريين تأكيداً درامياً للتطور الديكتاتورى للنظام الساداتى، والتخلى الواضح عن التعددية رغم محدوديتها. ومن وجهة نظر الرئيس فإنه لم يكن بحاجة إلى تجميل نظامه فى عيون جيمى كارتر وأوروبا الغربية "بمعارضة سياسية حقيقية" من اللحظة التى قام فيها بنفسه بالمشاركة فى إنشاء حزب العمل الاشتراكى فى ديسمبر ١٩٧٨. وقد تأسس هذا الحزب على أيديولوجية الحركة الشوقينية والفاشية "لمصر الفتاة" فى عهد الملكية وتحت قيادة الزعيم القومى القديم إبراهيم شكرى، وحصل على ٢٩ مقعداً كمقابل لقبوله لعب دور "المعارضة المخصصة" التى تعنى فى المقام الأول دعم معاهدة السلام مع إسرائيل^(٢).

ولندرك هزيمة التجمع إلى جانب التزوير الانتخابى السابق الذكر ينبغى أن نذكر أن جزءاً من ناخبى يسار الوسط ابتلع طعم الدعاية الحكومية الضخمة ضد الحزب وفى الوقت نفسه لعب القمع ضد مناضلى حزب التجمع بالتأكيد دوراً كبيراً للوزن فى إبعاد العديد من المتعاطفين الذين لا يرغبون فى المخاطرة بالاعتقال لمجرد اشتراكهم فى اجتماع أو جمعية^(٣). وباختفاء أعضاء اليسار الرسمى من البرلمان ومنع مثقفيه قسراً من النشر تلاشى اليسار الرسمى منذ منتصف عام

(١) انظر شهادة خالد محيى الدين، فى سيرته الذاتية "والآن أتكلم"، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٢.

(٢) عن نشأة حزب العمل الاشتراكى، انظر أعلاه فى الفصل الأول وعن موقفه من عملية السلام، انظر إبراهيم شكرى، "رأى حزب العمل الاشتراكى فى معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية" ٢ أبريل ١٩٧٩، (٤ صفحات).

(٣) شهادتا حسين عبد الرزاق و رفعت السعيد، المقابلاتان الشخصيتان السابقتان الذكر، انظر أيضاً، Hendricks, B., The Legal..., op. cit.

١٩٧٩ من الحياة المصرية السياسية الرسمية مما جعل لاختيار تأسيس حزب شرعى فى عام ١٩٧٦ أمرا لا قيمة له، إلا أن الرغبة فى البقاء مخلصين لهذا الاختيار، بجانب الوعى بالأزمة التى يمر بها النظام الذى تخلص تقريبا من كل صوت معارض دفعا قيادة التجمع إلى عقد المؤتمر الأول فى عام ١٩٨٠. ومثل هذا الخيار تحديا مفتوحا لقمع النظام الذى بلغ أشده مع الموافقة على ما سمي "بقانون العيب" وتولى السادات منصب رئيس الوزراء إلى جانب رئاسة الجمهورية^(١).

ولكن بالإضافة لاستعراض الوجود والمقاومة للنظام بقوة، مثل عقد المؤتمر العام رغم أنه كان فى حالة حصار تقريبا، الرغبة فى كسر "التقليد الستالينى" لليسر المصرى، وإيداء استعداد المناضلين من القاعدة إلى القمة للاستمرار فى تجربة "التجمع". وقد انعقد المؤتمر فى القاهرة فى ١٠ و ١١ أبريل ١٩٨٠ بمشاركة ٤٠١ عضواً من كل أنحاء البلاد الذين جاعوا رغم إرهاب الشرطة وقوات الأمن^(٢). وجندت الجمعية الثقة فى خالد محيى الدين كرئيس للحزب، وتم توسيع لجنته المركزية مع الإبقاء على الأغلبية الماركسية فى المواقع المؤثرة. وتمت مناقشة برنامج الحزب بالإضافة إلى المسائل التنظيمية، والتى تمخض عنها تقوية الثقة فى الخيار الاشتراكى، والصداقة مع الاتحاد السوفيتى، والقرار بالامتناع عن أى محاولة "للتطبيع" مع الدولة الإسرائيلية الذى يعاقب عليه بالإيقاف من الحزب. ورغم تكريس جزء من المناقشات لمشكلة إفقار الريف والمواطنين ولمعارضة "تصفية" القطاع العام وبيعه للرأسمالية الطفيلية، للمرة الثانية ركز حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحى اهتمامه على المسألة الوطنية^(٣).

(١) انظر: أعلام.

(٢) انظر: إيمان محمد حسن، المصدر السابق للذكر؛ Hinnebusch, The National..., cit. p. 337-ss.

(٣) انظر: التجمع، وثائق المؤتمر الأول، بيروت، بدون اسم الناشر، ١٩٨٠.

ومن هذا المنطلق بدأ اليسار مناقشة احتمال إنشاء "جبهة وطنية" ضد النظام. والواقع أنه على مدى شهور عديدة كان الشاهد الوحيد على نشاط التجمع هو نشرة "التقدم" التي مثلت صوت المجتمع المدني "العلماني" أو "غير الأصولي" أكثر من كونها لسانا لليسار. بدأت تبرز إمكانية "جبهة مقاومة وطنية" ضد السياسات الحكومية في نهاية عام ١٩٧٩ مع استثناء الأزمة الاقتصادية والاجتماعية للبلاد، التي اشتدت بسبب تعليق المساعدات الاقتصادية من نظم الخليج الملكية العربية بسبب السلام المنفرد. وبدأت الثورة الإيرانية وكأنها توضح في عيون المتقنين التقدميين إمكانية التعاون بين الإسلام السياسي والماركسية والقوى الليبرالية بمنظور معارض للحكومة والإمبريالية^(١). وقد زاد بشدة من جماهيرية الإخوان بين الجماهير الانشقاق المعلن بشكل أو بآخر بين الإخوان المسلمين والنظام بعد التوقيع على المعاهدة مع إسرائيل، وتقاربهم في الوقت نفسه مع المعارضة الماركسية والناصرية والليبرالية. وشجعت الخلافات العديدة والمتزايدة بين السادات وجزء من مؤيديه على هذه الروح المتجددة من المعارضة، حيث بدأ بعض هؤلاء المؤيدين في الانفصال عن سياساته سواء في النطاق الدولي الذي شوهد فيه التطابق التام بين النظام ومواقف الولايات المتحدة الأمريكية، أو في النطاق الداخلي بتكوين نظام ديكتاتوري أصبح مدى الحياة باستبعاد منع الرئيس من الحصول على أكثر من فترتين الذي وافق عليه البرلمان. وبدأ الموقف الأكثر إثارة للاهتمام في انقلاب الموقف في المواجهات مع "الراعي"، هو تحول حزب العمل الاشتراكي من المعارضة "المخالصة" إلى المعارضة الحقيقية للنظام. فبالتحديد بدأت جريدة "الشعب"، لسان حال الحزب، في استضافة مقالات للماركسيين والناصريين والإسلاميين منتقدين فيها بالتحديد فساد وعجز أقطاب النظام عن مواجهة الأزمة

(١) انظر العديد من الشهادات السابقة الذكر من بينها فلروق عيد القادر ومحمد سيد أحمد. انظر أيضا تحليلات Beattie, op. cit., p. 259-260.

الاقتصادية، بالإضافة إلى التراجع في موقفه بخصوص السلام مع إسرائيل بسبب فشل الاتفاقيات بخصوص الحكم الذاتي الفلسطيني^(١).

ومثلت النقابات المهنية المنتدى الذي اتخذت فيه فكرة "الجبهة الوطنية" المعارضة لـ السادات شكلا. وتباهى بعضها مثل نقابة الصحفيين والمحامين بتراث قديم من الاستقلال في المواجهات مع النظام، خاصة نقابة المحامين التي أصبحت مركز المجتمع المدني المعارض للسلطة. وحتى في هذا الموقف كما حدث مع حزب العمل، وضع النظام في عام ١٩٧٨ أحمد الخواجة كرجل مخلص في مركز النقيب إلا أن الخواجة بدأ في "السماح" لأغلبية المحامين الذين كانوا تقليديا نوى انتماء وفدى بعقد "ندوات" بخصوص الوضع الراهن بعد توقيع معاهدة السلام، ووضع القوانين القمعية المتنوعة محل التنفيذ. كذلك استضافت نقابة المحامين في أكتوبر ١٩٨٠ ندوة أسبوعية يديرها بالتناوب الوفديون والعلمانيون والإخوان المسلمون^(٢). ومرة أخرى أصبح رفض السلام والتطبيع مع إسرائيل الرابط الرئيسي لهذه القوى المختلفة فيما بينها، وبدأ كذلك طلب "استعادة" التعددية والديموقراطية أثناء مناقشة القوانين الأكثر تعرضا للرفض. واستمرت الندوات مجتنبه ما يقارب الألف مستمع حتى إغلاق النقابة بأمر السادات في شهر يوليو ١٩٨١^(٣).

أما بالنسبة للماركسيين فقد كانوا ممثلين بين المحامين في شخصية تتمتع بتقدير كبير هو نبيل الهلالي رائد الدفاع عن حقوق الإنسان في مصر وعضو الحزب الشيوعي المصري في نفس الوقت. ومع ذلك كان الوزن الرئيسي لليسار

(١) من الجدير بالذكر، على سبيل المثال، أنه مما أثر بشدة على للرأي العام اختيار "الشعب" طباعة العلم الفلسطيني على الصفحة الأخيرة لعدد ٢٦ فبراير ١٩٨١ يوم افتتاح السفارة الإسرائيلية في القاهرة. انظر Singer, H. F., op. cit., p. 73.

(٢) انظر Beattie, op. cit. p. 251-252.

(٣) Ibidem.

في نقابة الصحفيين، ورغم انخفاض عدد الماركسيين بشكل لافت بسبب الهجرة الهائلة إلى الخارج، تم انتخاب لطفى الخولى رئيس التحرير السابق للطليعة نقيا للصحفيين بتأييد المعارضة بأكملها في خلاف واضح مع الحكومة.

ورغم نشاط اليسار وحزب العمل الاشتراكي فقد فشل ولأسباب عديدة مشروع إنشاء "جبهة وطنية" قادرة على وضع نفسها كبديل للنظام وتنظيم عمل ثوري. وأصبح الرئيس في الفترة بين عامي ١٩٨٠ و ١٩٨١ أكثر عزلة ودفاعية مع للخسارة المستمرة لإجماع الطبقات الشعبية التي نصبته في الماضي "بطلا للحرب والسلام"، وهكذا أصبح من الممكن التأكيد على أن المعارضة بمختلف أطرافها مثلت "البلد الحقيقي". ولكن وفقا للمنطق السابق الذكر نفسه، ابتعدت القوى العلمانية عن النموذج الإيراني حيث تخلص آية الله الخوميني بعد تمكنه من السلطة من حلفائه اليساريين القدامى^(١). كذلك دفع استقطاب الإخوان بعد الانشقاق "الرسمي" عن النظام في ١٩٨٠ للاقترب من المجموعات الأصولية المتطرفة التي ارتكبت صدامات يومية مع الأقلية القبطية باسم الجهاد. ومن جانبهم تابع الإخوان بحذر المعارضة الناصرية بالذات خشية أن تمثل "العودة إلى مبادئ يوليو" تهمة لهم ثانية عن الحياة السياسية. وبالإضافة إلى ذلك أجب الاحتلال السوفييتي لأفغانستان في ديسمبر ١٩٧٩ العداء الإخواني العميق للماركسية مقللا بشدة من إمكانية إنشاء جبهة موحدة تضم وتنظم كل قوى المعارضة لانتزاع السلطة.

ورغم الحذر المفهوم من جانب الليبراليين والماركسيين في تنظيم محاولة ثورية بصحبة القوى الإسلامية، استمر الحوار بين المعارضة، وانعقدت عدة

(١) انظر Beattie, op. cit., p. 272-273. طالب العديد من المثقفين الماركسيين أثناء المقابلات معهم بخيار عدم التحالف مع الحركة الإسلامية قائلين باقتناع بأنه في حالة حصولها على السلطة ستتقلب عليهم فوراً كما ظهر في أعوام التسعينيات من الدعاية الإسلامية ضد المثقفين العلمانيين والتي بلغت أوجها في اغتيال فرج فودة في عام ١٩٩٢ على يد الجماعة الإسلامية.

لقاءات مشتركة. أما في السياسة الخارجية، فقد أكد القصف الإسرائيلي لمطار بيروت ولمفاعل نووي عراقي بين يونيو ويوليو ١٩٨١ اللذين حدثا بعد عدة أيام من لقاءات القمة بين السادات وبيجن أسوأ توقعات الماركسيين أيام الرحلة إلى القدس. وفي الجبهة الداخلية وقفت سياسة النظام في الأسلمة واضطهاد الأقباط وراء الفتنة الطائفية التي انفجرت بشكل درامي فيما سمي بـ "مذبحة الزاوية الحمراء" في القاهرة في يونيو ١٩٨١^(١). وبهذه المناسبة اتفقت المعارضة على الإعلان - حتى على منابر المساجد - عن أن النظام أجج فتنة بين الطائفتين الدينيتين في البلاد التي تنبأها بتراث من التعايش بقي على مدى أكثر من ألف عام^(٢).

ورغم عدم وجود أي اتفاق دائم بين قوى المعارضة المختلفة كما رأينا، ولا أي خطوة للحصول على السلطة من جانبهم، فقد أقع مجرد واقع التقاء قادة التيارات المختلفة أحيانا لإعلان سياساتهم، الرئيس وبعض معاونيه بأن هذه القوى تمثل خطرا جادا على وجود النظام. وقد خشوا ضمن أشياء أخرى أن تستخدم إسرائيل وجود قوى معارضة مضادة للصهيونية في مصر كنزيرة لتأجيل إعادة سيناء المتوقعة في ٢٥ سبتمبر ١٩٨٢^(٣).

وأصبحت هذه الخشية في أغسطس ١٩٨١ بارانويا واضحة وكانت ماثلة وراء قرار الرئيس في ٢ سبتمبر ١٩٨١ باعتقال كل قوى المجتمع المدني للمصري تقريبا متهمين بعدم قبول سياساته جزئيا أو كليا^(٤). وكما قلنا فقد كان من بين المعتقلين كل قياديي التجمع، والعديد من "الماركسيين المستقلين" مثل الكاتبة

(١) سقط ٣٥ قتيلا و ٥٠ جريحا في المواجهات بين المسلمين والمسيحيين. انظر أعلاه.

(٢) انظر أيضا Shukri, Egypt..., cit., p. 271-305.

(٣) بهذا الخصوص، انظر شهادة سيدة مصر الأولى في كتاب أحمد منصور، "جيهان السادات

شاهدة على عصر السادات"، القاهرة، سلسلة كتب "الجزيرة"، دار الشروق، ٢٠٠٢.

(٤) انظر أعلاه.

النسوية نوال السعداوى، والعديد من مناضلى اليسار الراديكالى من بين القلائل الذين ظلوا مطلقى السراح إلى ذلك الحين.

مثلت اعتقالات سبتمبر ضربة قاسية لهذا الجزء من اليسار الذى اختار العمل داخل المؤسسات حيث أظهرت بجلاء السمات الاستبدادية للنظام الذى حاول الماركسيون بكل الطرق التحاور معه. ولهذا السبب استقبل موت السادات بقر غير قليل من الراحة من قبل اليسار الشرعى الذى أطلق سراح مناضليه فى خريف ١٩٨٢ بعد إعادة سيناء لمصر من جانب إسرائيل.

ومثل خيار قيادة التجمع بقبول دعوة للمصالحة مع الرئيس الجديد حسنى مبارك بعد إطلاق سراحهم واستعادة موقعهم فى الحياة السياسية للبلاد آملين فى تطور ديموقراطى للنظام بعد موت "المستبد" استمرارا لخيار الشرعية الذى تم فى عام ١٩٧٦ وإيماننا بإمكانية تغيير النظام من الداخل.

٣- الحركة الشيوعية الثالثة: الميلاد الجديد والقمع والأزمة

يهدف هذا القسم من البحث إلى مناقشة وتحليل تطور الجدل داخل اليسار الراديكالى منذ بداية السبعينيات حتى بداية الثمانينيات. وفى الجزء التالى ستم مناقشة نشاط المجموعات المتنوعة بشكل منفصل أما فى الجزء الذى سيليه فسندعم خلاصة لمواقفها من القضايا الأساسية فى إنتاجها النظرى.

وينبغى هنا أن نذكر أننا فى الصفحات التالية سنخوض فى محاولة، ربما كانت الأولى من نوعها لإعادة بناء جزء مهم ورغم ذلك "منسى" فى التاريخ المصرى المعاصر. مع ذلك وبتعاملنا مع منظمات سرية يصبح تكوين الصورة أمرا فى غاية التعقيد، ويعود ذلك إلى تشرنم المنظمات والسيولة الزائدة لبعضها من حيث تنقل المناضلين أو مجموعاتهم من حزب إلى آخر. ولا ندعى اكتمال هذا العمل، وذلك لاعتماده على الرواية التاريخية المقدمة فى اللقاءات مع المنظرين

الرئيسيين للأحزاب المعنية بالإضافة إلى هذا الجزء الضئيل من المصادر المتاحة. وبهذه المناسبة ينبغي تحديد أن بعض المصادر المذكورة، والجرائد، والبيانات، والنشرات لم تستخدم حتى الآن بهدف البحث، ولا يوجد بالنسبة "للحركة الشيوعية الثالثة" أى أرشيف إلا لجزء من وثائق الحزب الشيوعى المصرى. ولهذا يزعم هذا العمل أنه يمثل بين ما يمثل بداية محتملة لأرشيف اليسار الراديكالى المصرى.

أ- تطور اليسار الراديكالى: مولد وأزمة الأحزاب

يتضح من خلال استعراض نشوء الحركة الثالثة السابق الذكر، أن تجربة المنظمات الشيوعية أيضا بدأت بنفس "الخطيئة الأصلية" للماركسية المصرية، أى الميل إلى الانقسام والصراعات الداخلية على حساب النتائج. ولا نستطيع - بشكل ما - أن ننكر أن هذا الميل كان "متأصلا" فى اليسار فى العالم كله، لكنه تزايد فى الفترة التى نتناولها بالتحليل من خلال نجاح نماذج بديلة للنموذج السوفييتى ما بعد الستالينى، سواء "المؤسسية" منها مثل الماوية أو الحرب الشعبية الفيتنامية، أو البدائل الراديكالية مثل الكفاح الجيغارى، دون إغفال طليعة اليسار الجديد الأوروبى الذى نشأ من خلال حركة ١٩٦٨ فى دول أوروبية غربية مختلفة بدءًا بفرنسا.

وكان لهذه المجادلات صدى واضح فى صفوف الإنتلجنسيا الماركسية المصرية والعربية بوجه عام، غير أنه كما سبق أن رأينا فقد أدت "القضية الوطنية" التى أصبحت أمرا عاجلا بعد نكسة ١٩٦٧ إلى "تقليص" الجدل فى اليسار الراديكالى، الذى أعاد وإن بطرق مختلفة تماما نفس مسار "اليسار الرسمى".

وسيتّم تقديم المجموعات التى ستصبح أحزابا فيما بعد بشكل منفصل لسهولة العرض. ويجب تحديد أن المساحة الممنوحة لكل مجموعة منفصلة، تعتمد على أهميتها فى الحركة، أو على الوثائق المتاحة، أو المناضلين الذين كان من الممكن لقاءهم.

أ- ١- الحزب الشيوعي المصري

أعلنت على الأحزاب الشيوعية والتقدمية في العالم كله إعادة تأسيس الحزب الشيوعي المصري في منتصف عام ١٩٧٥ بعد عشر سنوات من الحل. ورغم أنه مع نهاية عام ١٩٧٢، وبتوحيد ثلاثة من حلقات المتقنين "المحيطين" من تحول النظام الساداتي نحو اليمين، كان الحزب الشيوعي المصري متواجدا بشكل أولي، ويتم إثراؤه بمناضلين جدد قادمين من الحركة الطلابية، وهو الأمر الذي كان يمثل مشكلة للقيادة القديمة القادمة من الحركة الثانية^(١).

وكان الاستمرار مع الحزب الشيوعي المصري القديم، وبالذات مع الخط "اليميني" لـ "حدثو" واضحا من خلال الوثائق الأولى للمكتوبة في ١٩٧٢، والمنشورة في بيروت في ١٩٧٣. وقد مثل مقالٌ مميّزٌ بالإمضاء المستعار ت. ث. شاكر بعنوان "قضايا التحرر الوطني والثورة الاشتراكية"^(٢) عمليا البرنامج غير الرسمي للحزب المستقبلي رغم عدم ظهور توقيع أي منظمة. والواقع أن الاسم المكتوب على الغلاف^(٣) كان اسم قلم ميشيل كامل الذي كان المنظر الوحيد للشروق في هذه اللحظة^(٤)، وكان قد ابتعد تماما عن خبرة "الطليعة" التي كان أحد مؤسسيها وسكرتير تحريرها منذ ١٩٦٥. احتوت الوثيقة أولا على "الفكرة القديمة" التي ترى في ثورة ١٩٥٢ "ثورة وطنية ديموقراطية" واعتبرت هذه الثورة المرحلة الأولى نحو الثورة الاشتراكية وفقا لنظرية ستالين التي تبنتها "حدثو". ثانيا، حدد

(١) يجدر بنا أن نكرر هنا أنه بينما سمي رفعت السعيد وطارق إسماعيل هذه المجموعة "جماعة بلا اسم" استخدم أغلب المناضلين السابقين أثناء مقابلاتي معهم اسم "الشروق" كاسم لمجموعة الأغلبية حتى عام ١٩٧٥.

(٢) انظر ط. ث. شاكر، "قضايا التحرر الوطني والثورة الاشتراكية"، بيروت، دار الفارابي، ١٩٧٣.

(٣) كان هذا الاسم بدوره رمزا حيث يرمز ط. ث. إلى (طليعة ثورية).

(٤) انظر يوسف درويش، المقابلة السابقة الذكر.

ميشيل كامل؛ رغم أنه قام بذلك بشكل تقريبي، ما سيصبح فيما بعد لفترة طويلة موقف الحزب الشيوعي المصري في المواجهات مع النظام الساداتى - وعلى العكس من زملائه فى "الطلبة" - فقد رأى فى انقلاب الرئيس بداية "الثورة المضادة" التى ينبغى على الشيوعيين "تزع القناع" عنها أمام أعين القوى الديمقراطية والتقدمية الموجودة فى النظام. وقد ربطت هذه النقطة الأخيرة؛ أى الاقتناع بوجود جزء من القوى التقدمية والاشتراكية فى قمة الدولة، بين "الشروق" و"اليسار الرسمى"، جاعلة من الممكن وجود تواصل مع هذا الأخير بشكل منظم حتى بعد مولد التجمع فى ١٩٧٦. وقد تسبب هذا الموقف نفسه فى استنكار المجموعات الشيوعية الأكثر راديكالية للصفات اليمينية والمهادنة للحزب الشيوعي المصري، وهو الأمر الذى تسبب فى صعوبة كبيرة فى إمكانية إجراء أى حوار منذ البداية، وبالتحديد بسبب رفض المنظمات الأخرى، وخاصة "ح. ع. ش. م"، الاعتراف بأى شرعية للنظام الحاكم^(١). ومن الجدير بالذكر أن كتابة ميشيل كامل تركزت فى جزء كبير منها حول مسألة استعادة الأراضى المحتلة فى ١٩٦٧ والتسويق بين قوى "حركة التحرر الوطنى العربية"، وهى كلها مواضيع مستمدة من مجلة "الطلبة". وختاماً، ورغم حقيقة أن الحزب الشيوعي المصري سيعلن فيما بعد، مثل باقى المجموعات أيضاً أنه حزب الطبقة العاملة^(٢)، فقد كانت الإشارات إلى القضية الاجتماعية فى هذا البرنامج الأول شبه منعدمة بسبب وضعها فى مرتبة تالية "لإزالة آثار العدوان الصهيونى".

(١) قوبل كتاب ميشيل كامل بنقد شديد من جانب صالح محمد صالح (خليل كلفت) المنظر الرئيسى لحزب العمال الشيوعي المصري بعد إبراهيم فتحى فى مقال "البرجوازية البيروقراطية: بين الفهم الماركسى وشعوذة المتمركسين: مناظرة موجزة مع الرفيق ط. ث. شاكرو وآخرين"، (١٩٧٥)، والتى أعيد طبعها فى "الطريق" (كتب غير دورية) العدد ٥ (أغسطس ١٩٨١)، ص ١-١٥.

(٢) كما ينص مستهل مقدمة لائحة الحزب الشيوعي المصري. انظر لائحة الحزب الشيوعي المصري، سبتمبر ١٩٨٠، ص ١.

وكما رأينا لا تمثل هذه المواضيع أى تجديد جوهري بالنظر للتقليد الماركسي المصري، ولا استطاعت أن تقف في مواجهة الكتابات التي قام بها إبراهيم فتحى فى "ت. ش. م" مما جعل تنظيمه ممثلاً للطليعة المثقفة اليسار الجديد فى مصر^(١).

وهنا ينبغي أن نذكر أن انضمام مجموعة (السمر) بقيادة زكى مراد - المنظر الكاريزمى للجناح العمالى للحزب الشيوعى المصرى القديم بعد وحدة المنظمات الثلاث فى منتصف عام ١٩٧٢^(٢)، جذب انتباه المناضلين جزئياً على الأقل إلى القضية الاجتماعية، بالذات فى اللحظة التى أجبت فيها الأزمة الاقتصادية؛ بسبب اقتصاد الحرب وإفلاس النظام الناصرى، صراع الطبقات. ولكن بينما كان تواجد الحزب فى المصانع محدوداً للغاية وشبه منعدم عملياً فى الريف^(٣)، فقد شرع فى تبشير مبدئى فى صفوف طلاب الجامعة: المساحة الوحيدة المتاحة للنقاش الديموقراطى فى البلاد. وكان لتزايد عدد المناضلين نتائج مختلفة، فعلى المستوى النظرى أدى ذلك إلى تحول أكثر لميول المجموعة نحو المسألة القومية والوطنية، التى كانت للجامعة طليعة لها، ولكن ممهداً الأرض أمام "صراع بين الأجيال" فى المنظمة السرية. أما الأثر الآخر لانتشار نصوص "الشروق" الأولى فى الجامعة خاصة جامعة القاهرة فهو جذب انتباه الشرطة، التى ألقت القبض على عدة مناضلين فى بداية عام ١٩٧٣، سواء ضمن الأعضاء القدامى أو الجدد^(٤). وقد دفعت هذه الموجة الأولى من الاعتقالات سواء بـ ميشيل كامل أو

(١) انظر: أئناه.

(٢) انظر: أعلاه فى هذا الفصل.

(٣) كمال خليل، مقابلة شخصية مع المؤلف، القاهرة، ٢٣ ديسمبر ٢٠٠٢.

(٤) المصدر السابق، وكذلك شهادتا نبيل صبحى ويوسف درويش فى المقابلتين السابقتين للذكر.

يوسف درويش، الذي كان أيضا في أمانة المنظمة، إلى اختيار المنفى، الأمر الذي ساعد على هذا النحو على تأسيس ما سوف يصبح "ح. ش. م في الخارج"^(١).

وبجانب موافقها من طبيعة النظام في المسألة القومية، أصدرت "الشروق" نشرة تدعم السادات في الأيام الأولى "لحرب التحرير" في عام ١٩٧٣. وقد شهد هذا الموقف الظهور الأول لنشرة "الانتصار" التي ستصبح الإصدار الحامل لصوت الحزب الشيوعي المصري^(٢)، لكنه شهد أيضا أول انقسام في التشكيل الماركسي. وقد دفع موقف الدعم الكامل للنظام، حتى عندما كان من الواضح أن "حرب تحرير الوطن" لم تكن سوى حملة محدودة بهدف الحصول على سلام تفاوضي، عدة مناضلين من الجناح الطلابي إلى استنكار السمات الإصلاحية للشروق. فدخل بعضهم مثل كمال خليل في "الاستمرار" التي كانت تحت قيادة الرموز القديمة اليسار الراديكالي مثل رجاء الطنطاوي وفوزي جرجس، بينما شكل آخرون مجموعة باسم "المطرقة" تشكلت كليا من الطلاب واستمرت لأجل قصير جدا فقط في ساحات جامعة عين شمس القاهرية^(٣).

بعد الحرب ومع قدوم زكي مراد لقيادة الحزب من داخل الوطن، صدرت وثائق تنظيمية أو تنظيرية، وبينما طبعت "الانتصار" مرات فقط في لبنان، ثم

(١) ينكر يوسف درويش أن رفاقه هم الذين اقنعوه بمغادرة مصر "لبعض الوقت" إلى الجزائر "من أجل أمانه الشخصي" حيث جعلته خبرته الطويلة للغاية منذ الثلاثينيات محط أنظار الجهات الأمنية لكن على العكس من ذلك كان على المنفى أن يمتد حتى عام ١٩٨٤. وينكر المناضل الكبير أن الرغبة في التخلص من المعارضة الداخلية اليسارية التي كان هو من يمثلها كانت وراء هذا الحدث على مغادرته من جانب مجموعة الشروق ثم من جانب الحزب الشيوعي المصري فيما بعد (المقابلة السابقة الذكر).

(٢) من الجدير بالذكر أنه حتى إعلان تأسيس الحزب في ١٩٧٥ لم تعلن "الانتصار" شأنها في هذا شأن الوثائق الأخرى التي صدرت في مصر والخارج أي انتماء ولم يظهر اسم أي مجموعة عدا الحزب الشيوعي المصري.

(٣) فريد زهران، المقابلة السابقة الذكر.

نشرت بعد ذلك بشكل غير شرعى، أو طبعت فى الوقت نفسه فى فرع الحزب فى الخارج وفى مصر، فقد ألقت الوثيقة الأولى التى يمكن فيها ملاحظة تأثير زكى مراد الضوء على المراحل الواجبة من أجل إعلان تأسيس حزب حقيقى^(١)؛ وقد أكد فى هذين النصين أن منظور الدمج بين المجموعات كان بالتأكيد بهدف تكوين حزب، ولكن كان من الضروري إنشاء قاعدة جيدة من المناضلين، وإعداد منطلق سياسى مناسب، وتشكيل خلايا داخل المصانع والريف، قبل أن يصبح من الممكن الحديث بشأن "حزب شيوعى حقيقى". تلا ذلك نشر "الشروق" نسخة منقحة من برنامجها فى أغسطس ١٩٧٤، ومع ذلك تكررت فيه نفس للمواضيع التى تم التركيز عليها فى وثيقة ١٩٧٢^(٢). فقد كانت النقطة الأولى من العشر نقاط التى تكون منها البرنامج، هى "تحرير سيناء" والأراضى العربية الأخرى التى احتلتها إسرائيل، بينما نجد فى النقطة الرابعة أهمية الإصلاح الديموقراطى، وفى الخامسة الدفاع عن المكاسب التقدمية لثورة يوليو، وفى العاشرة الدفاع عن التحالف مع الاتحاد السوفيتى، فى لحظة كان السادات قد انحاز فيها بالفعل لـ كيسنجر ودبلوماسية الخطوات الصغيرة.

وقد جلب موسم الحركة العمالية، الذى بدأ بالإضرابات الكبيرة فى حلوان فى أول يناير ١٩٧٥، موجة جديدة من الاعتقالات، شملت فى هذه المرة للقيادة العليا للقسم المصرى للحزب رغم وجوده المحدود بين العمال^(٣). لكن سواء بسبب موجة النشاط العمالى، أو كإشارة تحذّر للنظام، نُشر فى أول مايو بيان فى عدة صحف يومية عربية معلنة "أن رايات الماركسية اللينينية عانت لترفرف فى مصر، تلبية لضرورات نضال الطبقة العاملة"^(٤). وقد أعلن التصريح النقاط الأهم فى

(١) انظر "من تجميع إلى بناء الحزب"، يناير ١٩٧٤.

(٢) انظر مشروع برنامج عمل للقوات الشعبية المصرية، فى المصدر السابق الذكر

Ismael-El Sa'id, op. cit., p. 130-131.

(٣) المقابلات مع نبيل صبحى ويوسف برويش وأحمد كامل.

(٤) إعلان تأسيس الحزب الشيوعى المصرى (١ مايو ١٩٧٥).

برنامج الحزب وأكدها، وهي "تحرير الأراضي العربية المحتلة" و"استعادة الحقوق السليبة للشعب الفلسطيني" ووضعها في المرتبة الأولى، وهو أمر مفهوم إذا وضعنا في الاعتبار أنه خلال هذه الشهور، كان النظام يتفاوض مع إسرائيل بشأن "اتفاق سيناء ٢". وقد تحدث العديد من المناضلين وأغلبهم من تشكيلات أخرى، معلقين على هذه الوثيقة الأولى المنشورة عن الحزب، عن "انتهازية" الحزب الشيوعي المصري في ربط إعادة تأسيسه بإضرابات خريف عام ١٩٧٥، رغم وجوده البالغ الضالة في الساحات العمالية. ومن الممكن فهم هذا التقييم، رغم أن الحركات الأخرى أنشأت أحزابا في الفترة نفسها راكبة أيضا نفس موجة النشاط العمالي التي لعبت فيها بشكل عام دورا غير قيادي، رغم أنه كان أهم من دور الحزب الشيوعي المصري. ولكي نحدد القيمة التاريخية لنشر هذه الوثائق المؤسسة للحزب الشيوعي المصري الجديد، لا ينبغي أن نستعين باتصالات بعض أعضاء الحزب مع "اليسار الرسمي". ومن هذا المنطلق لا ينبغي أن نخفل أن قرار نشر وثائق يعيد فيها اليسار الماركسي الرفض "الرسمي" للاتفاق أو الهدنة التي تمت مع النظام منذ ١٠ سنوات سابقة لذلك، قد جاء بعد التعديل الوزاري الذي تم في أبريل ١٩٧٥، والذي تم فيه استبعاد الماركسيين والناصريين من السلطة التنفيذية كما سبق ورأينا.

وبعد العودة المعلنة للحزب إلى الحياة السياسية، نُشر تقريره السياسي الأول الذي توسع في القضايا التي تطورت خلال التحليلات التي تمت حتى هذه اللحظة، وأكد في جداله مع الجماعات الراديكالية أن الصراع من أجل هدم النظام، سيكون "تهورا يساريا" لأن النظام لا يتكون كليا من عملاء للإمبريالية، وعلى العكس من ذلك ينبغي الصراع من أجل "استنهاض" للقوى التقدمية داخل السلطة^(١).

(١) انظر الحزب الشيوعي المصري، التقرير السياسي ٤ أغسطس ١٩٧٥ المذكور في الترجمة الإنجليزية في المصدر السابق الذكر، -Ismael-El-Sa'id, op. cit., p. 175- 176. حول مفهوم طبيعة الدولة لدى الحزب الشيوعي المصري انظر أدناه.

لم يتغير خط الحزب حتى عام ١٩٧٧-١٩٧٨ رغم الأعراس الأولى لسوء التفاهم والتناقضات، بين القسم الموجود في الخارج بقيادة ميشيل كامل في بيروت، وأمانة الحزب في مصر تحت قيادة مجموعة "حنتو" القديمة. وخلال وقت قصير، وكذلك في النقاشات بين المناضلين، تمثل الجناح الموجود في الخارج دور "يسار" الحزب^(١). وبالتوازي مع هذا الانفصال داخل القمة، شهد الحزب الشيوعي المصري توترات داخلية خطيرة تمثلت جزئيا في "صراع الأجيال"، بين القيادة التي يهيمن عليها الحرس القديم، والشباب الذين دخلوا الحزب عبر الجامعة، وجزئيا وإن بشكل أقل بين نقابات المصانع. وشهد عام ١٩٧٦ انفجار هذا الصراع داخل الحزب الشيوعي المصري، وكذلك داخل المنظمات الأخرى كما سنرى. وفي الحقيقة ومن وجهة نظر جيلية، طالب الطلاب الذين دخلوا الحزب كطلبة في عام ١٩٧٢-١٩٧٣، في هذا الوقت بدور أهم في عملية اتخاذ القرار داخل الحزب، الذي تأسس بقوة على نمط ستاليني لسيطرة اللجنة المركزية. كما لا ينبغي أن ننسى بالإضافة إلى ذلك، من وجهة نظر سياسية، أنه بين نهاية عام ١٩٧٥ وعام ١٩٧٦، أطلق النظام الجدل حول "مقرطة" النظام السياسي، الذي صب في المنابر والانتخابات البرلمانية التعددية الأولى في مصر الجمهورية. وقد ابتلعت القيادة الموجودة في الوطن، على الأقل، "الطعم"، في خطاب النظام الديموقراطي، حيث رأت فيه تأكيدا لنظريتها، عن وجود قوى ديموقراطية وتقدمية داخل الحكومة، قررت المشاركة على الأقل جزئيا في تأسيس منبر اليسار. وعلى العكس من ذلك كان الجناح الطلابي للحزب أقل حماسا للحوار مع "القوى الناصرية"، أو "قوى اليسار المعتدل"، ويرجع ذلك أيضا إلى إعادة اشتعال النشاط العمالي في "البلاد الحقيقي" على يد الانفتاح. ومن المفارقات أن حضور الحزب الشيوعي المصري في تحريك العمال، كان حضورا ضعيفا، وتمت هذه التحركات أساسا بشكل عشوائي وغير منظم. وتركزت مطالب شباب المناضلين في الدعوة إلى تنظيم

(١) على سبيل المثال، شهادة يوسف درويش، المقابلة الشخصية السابقة الذكر.

مؤتمر عام للحزب بهدف تقرير ما ينبغي أن يكون الخط السياسي للحزب الشيوعي المصري بشكل ديموقراطي "وشفاف". وقررت مجموعة كبيرة إلى حد ما التخلي عن الحزب الشيوعي المصري، وكونت حزب "المؤتمر" (الحزب الشيوعي المصري - المؤتمر) واتخذت هذا الاسم من الطلب الذي نتج عنه الانقسام في مواجهة رفض القيادات التي قدمت حجة مبررة جزئيا هي أن ظروف السرية والتخفي الشديد لا تسمح بتحضير مؤتمر في وقت قصير^(١).

وإذا كان الأداء الانتخابي الضعيف للتجمع قد أكد شكوك شباب المجموعة الانفصالية، فقد أكدت انتفاضة يناير ١٩٧٧ الدور الثانوي للحزب الشيوعي المصري بالمقارنة بدور حزب "المؤتمر" وحزب "التجمع". وسجلت الملفات القضائية وجود ٣٨ معتقلا ينتمون إلى الحزب الشيوعي المصري^(٢)، وإن كان بعضهم يحمل "العضوية المزبوجة" للحزب الشيوعي المصري والتجمع. وبعيدا عن هذا الرقم، تبقى الصدمة التي أصابت قيادة ومناضلي الحزب، والتي تؤكد بعدهم عن "الجماهير" التي ادعوا رغبتهم في تمثيلها. وإذا صح أن الثورة كانت ظاهرة تلقائية تنشأ من إحباط الجماهير، فلا يمكن إنكار أن الأغلبية العظمى من شعاراتها كانت ذات خلفية ماركسية وناصرية، مستوردة من الحركة الطلابية. وفي هذا المجال كان الحزب الشيوعي المصري بالتأكيد، القوة الصغرى في اليسار، بعد حزب المؤتمر، والحزب الشيوعي "٨ يناير"، واليسار الناصري. ويمكننا تفسير ذلك جزئيا بالأولوية التي منحها القيادة، للتركيز على التنظيم الداخلي، والسرية الجامدة التي حدثت من فاعلية للدعاية، بسبب الخوف من الاختراق من قبل قوات

(١) بخصوص نشاط هذه المجموعة الانفصالية انظر ما يلي في هذا القسم. ويعتمد السرد السابق على المقابلة السابقة للذكر مع أحمد كامل أحد مؤسسي الانقسام.

(٢) انظر حسين عبد الرزاق، "مصر..."، المصدر السابق للذكر، ص ١٢٤. أعيد نشر وتحليل الوثائق الخاصة بمحاكمة مناضلي الحزب الشيوعي المصري في كتاب أحمد نبيل الهلالي، "حرية الفكر والعقيدة.. تلك هي القضية"، القاهرة، دار المصري الجديد، ١٩٨٩.

الأمن القوية للحكومة. ورغم الحدود التي اتضحت في الأيام التالية للانتفاضة، وعنف القمع الذي تلاها، استمرت القضية الوطنية تمثل النقطة الرئيسية في برنامج الحزب الشيوعي المصري جنباً إلى جنب مع مشكلة إصلاح المؤسسات داخل الدولة، دافعة بالقضية الاجتماعية التي انفجرت بعنف في ١٨ و ١٩ يناير إلى الظل. وفي هذا السياق من الجدير بالذكر، أنه خلال المناقشات بشأن الدعوى القضائية اتضح بجلاء أن الحزب الشيوعي المصري، كان "معارضاً للعنف كوسيلة للعمل السياسي"، رغم أن هدفه المعلن هو دفع للفعل الثوري للجماهير والطبقة العاملة. وليس من قبيل المصادفة أن العديد من المناضلين من كل مجموعة، حين أعادوا النظر في انتفاضة يناير بأثر رجعي صرحوا بأنها يمكن أن تعتبر "الفرصة الكبيرة الضائعة" لليسار الراديكالي لهزيمة النظام. وفي الواقع أنه لا يمكننا إلا أن نتفق مع رفعت السعيد، الذي يرى أنه كان من المستحيل عملياً أن يصمد المناضلون الماركسيون، في المواجهة العسكرية مع الجيش، الذي خرج إلى الشارع في ١٩ يناير^(١)؛ إلا أنه يبدو من الممكن أن نتحدث على أي حال عن فرصة مفقودة، بمعنى عجز الماركسيين عن أن ينطلقوا من الانتفاضة وبدعم الجماهير لينشئوا بديلاً حقيقياً للنظام في أزمتة الاقتصادية، وأزمة الإجماع الشعبي.

على أي حال، فقد كان الحدث الرئيسي في تحديد الخط السياسي للحزب الشيوعي، الذي اتبع مساراً موازياً لليسار الرسمي، هو مبادرة السادات في عام ١٩٧٧ والتي أدت إلى معاهدة سلام كامب ديفيد. ويظهر تعبير "الخيانة الوطنية" في البيان الذي أصدره الحزب، بمناسبة زيارة الرئيس للقدس وهي التي يمكننا اعتبارها الكلمة الرئيسية الحقيقية لليسار المصري المعتدل والراديكالي، من عام ١٩٧٧ إلى عام ١٩٨١^(٢). وقد مثلت مبادرة السادات، والدعم الذي اكتسبه سواء

(١) رفعت السعيد، المقابلة السابقة الذكر.

(٢) انظر الحزب الشيوعي المصري، "لن تمر الخيانة، لن يمر الاستسلام"، ٢٢ نوفمبر ١٩٧٧ (٦ صفحات).

من قبل الشعب، أو الغالبية العظمى من أعضاء النظام الحكومى إنكاراً خطيراً وواضحاً للنظرية المفضلة للحزب الشيوعى المصرى القائلة بوجود عنصر تقدمى فى النخبة الحاكمة بالذات فى توجهاتها نحو السياسة الخارجية. وهكذا كانت حقيقة السلطة مناقضة بجلاء للتحليلات التى صاغها "حزب الطبقة العاملة" حتى تلك اللحظة إلى درجة أنه أصبح من الضرورى فى عام ١٩٧٨ وجود جدل بخصوص إعادة صياغة برنامج الحزب. وفى هذه اللحظة، والحكومة على وشك توقيع معاهدة السلام، طالب الحزب الشيوعى المصرى لأول مرة بإسقاط النظام، من اللحظة التى انتصرت فيها "طائفة عملاء الإمبريالية" فى الصراع المفترض وجوده فى قمة الدولة. وينبغى أن نلاحظ أن قيادة ومنظرى الحزب الذى انتصر فيه "الحرس القديم" على أى معارضة داخلية، استمروا فى رؤية عنصر "تقدمى" فى النظام الساداتى رغم أن هذا النظام تكون، إلى جانب البرجوازية البيروقراطية، من تحالف جزء من الرأسمالية القديمة قبل الثورة التى أعادها الرئيس إلى الحياة، وطبقة ممن سُموا بالمستفيدين من الانفتاح استمرت فى التوسع وبين بدايات ماسمى بالبرجوازية "السلفية" التى تكونت ممن عملوا وأثروا فى بلدان الخليج الملكية ثم عادوا إلى أرض الوطن. ورغم محدودية هذه التحليلات النظرية^(١)، كان البرنامج الذى خرج فى عام ١٩٧٨^(٢) مهماً، لأنه يشير إلى ضرورة اختراق واسع لجماهير العمال مينا هكذا بشكل ضمنى الفشل الجوهري للحزب فى أن يتغلغل داخل هذه

(١) من الجدير بالملاحظة هنا أن كلا من السعيد وإسماعيل قد تغاضى تماماً عن ذكر هذا التغيير فى تحليلاتهم عن السلطة أثناء تحليلهم لنشأة الحزب الشيوعى المصرى كما لزموا الصمت بخصوص خلافاتها مع مجموعة أحمد كامل.

(٢) لم أفلح فى الحصول على نسخة من مشروع البرنامج المشار إليه ولا يوجد له أى أثر فى الأرشيف الجزئى للحزب الشيوعى المصرى المحفوظ لدى المعهد الدولى للتاريخ الاشتراكى بأمستردام. ولهذا بنيت القصة على شهادة إسماعيل والسعيد فى الصحافة الدورية التى كان يصدرها الحزب فى تلك الفترة ("الانتصار" و "الوعى") وعلى شهادات بعض المناضلين من بينهم رفعت السعيد، ويوسف درويش، ونيل صبحى، وصلاح على، فى المقابلات السابقة الذكر.

للطبقة العاملة التي يدعى تمثيلها رغم ذلك. ولإثبات ذلك يكفي أن نذكر أن عدد "الوعي" في سبتمبر ١٩٧٨ (وهي النشرة الداخلية المخصصة للحوار بين الأعضاء حول المسائل النظرية والتنظيمية) افتتحت بنداء لكل الرفاق من قبل أمانة الحزب بأن يجتهدوا من أجل نشر فكر الحزب الشيوعي المصري بين الجماهير، وتجديد أعضاء جدد في المصانع والريف من أجل مواجهة اللحظة الخطيرة التي ستشهدتها البلاد^(١). ومن الواضح أن النداء لا يكفي لتغيير التكوين الطبقي للحزب، لكنه مثل علامة مهمة على النقد الذاتي على الأقل. وقد سلط الجدل الدائر في عام ١٩٧٨ الضوء لأول مرة بشكل واضح على للمواجهة بين جناح الحزب في الخارج والقيادة في مصر^(٢)، رغم تقدم الحزب في عدة مواقع. ويمكن أن نرى مثالا بسيطا لهذه المسافة على سبيل المثال في مقال منشور في نفس الفترة بقلم ميشيل كامل في مجلة "السياسة الدولية" *Politica Internazionale* في روما قام فيها هذا المتقف بالإضافة إلى توضيح "الروابط الضعيفة مع الطبقة العاملة" بوصم الماركسيين للرسميين بكونهم "تحريفيين" وبأنهم "أقلية انتهازية"^(٣). ولتقييم الأهمية السجالية لهذه التأكيدات، ينبغي ملاحظة أن الحزب الشيوعي المصري عمل سواء في النظرية أو في التطبيق بعقيدة "تسلل" مناضليه داخل التجمع كلما أمكن ذلك، خاصة منذ مارس هذا الحزب الشرعي معارضة صريحة وكلية في للمواجهات مع السلاطات مع بداية عملية السلام.

(١) انظر "الوعي"، العدد التاسع (سبتمبر ١٩٧٨)، ص ٢.

(٢) حتى عام ١٩٧٨ كان المكتب السياسي للحزب الشيوعي المصري بالخارج يتكون من ميشيل كامل في بيروت، ويوسف درويش في الجزائر، ومحمود أمين العالم في باريس.

(٣) انظر ميشيل كامل *Kamel, Michel, "Quale classe per quale rivoluzione", in L'Egitto da Nasser a Sadat: una transizione permanente, Dossier di* *Politica internazionale*, n. 3 (1978), p. 51-53.

يجب أن نضع في هذا السياق نشأة مجلة "اليسار العربى" أولا في بيروت ثم باريس، بقيادة ميشيل كامل، ومحمود أمين العالم، وإذا كان الهدف المعلن هو توفير منبر شرعى للماركسيين المصريين والعرب لنشر تحليلاتهم المحصورة حتى ذلك الوقت فى المنشورات السرية^(١)، ينبغي أن نعترف بأن مجلة "اليسار العربى" خدمت أيضا هدف إعطاء مساحة كبيرة للجناح اليسارى للحزب وخلصته بذلك من "وصاية" القاهرة.

وعلى أى حال، ورغم التحفظات السابقة الذكر، ينبغي أن نرجع الفضل إلى مناضلى الحزب الشيوعى المصرى لتواجدهم فى الصف الأول لتحريك المعارضة ضد "الخيانة الوطنية" لـ السادات قبل وبعد التصديق على معاهدة السلام فى مارس ١٩٧٩. كما نشط أعضاء الحزب الشيوعى المصرى بشدة فى صفوف الإنتلجنسيا والنقابات السالفة الذكر من أجل تكوين جبهة وطنية لمقاومة النظام الذى تقلص من الآن فصاعدا، وفقا لـ "الانتصار"، إلى "ديكتاتورية الرأسمالية الطفيلية"^(٢).

ودفعت ضرورة إعادة مناقشة دور الحزب الشيوعى المصرى - فى سياق متغير حيث بدا "المجتمع المدنى" جاهزا لتغيير راديكالى بشكل أو بآخر للنظام والأزمة الاقتصادية التى حرمت السلطة من دعم جموع الشعب بعد الفسخ للرسمى للعقد الاجتماعى بين الحكومة والشعب الذى عقد فى العهد الناصرى^(٣) - قيادة الحزب إلى الدعوة إلى المؤتمر الأول فى سبتمبر ١٩٨٠. ختاماً، ينبغي ألا ننسى بين أسباب الدعوة إلى المؤتمر ذلك الصراع بين الفرع المصرى وفرع الحزب بالخارج، والأزمة الجيلية فى أعقاب وفاة زكى مراد العضو البارز للجنة المركزية

(١) محمود أمين العالم، المقابلة السابقة للذكر.

(٢) انظر "حزب السادات الجديد أو ديكتاتورية الرأسمالية الطفيلية"، "الانتصار"، العدد ٣٦ (يوليو-أغسطس ١٩٧٨) ص ١-٢. انظر أيضا البيان ضد معاهدة السلام التى تدعى "المؤامرة الأمريكية-الإسرائيلية" ضد الشعوب العربية، لتسقط المؤامرة الأمريكية الإسرائيلية، سبتمبر، ١٩٧٩ (٥ صفحات).

(٣) هانى شكرالله، مقابلة شخصية مع المؤلف، القاهرة، ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٢.

فى القاهرة فى ديسمبر ١٩٧٩. ورغم أن الكولار فقط وجزءًا من الأعضاء استطاعوا المشاركة فى فعاليات المؤتمر بسبب الخوف المبرر من اقتحام الشرطة حيث كان الحزب سرىا، ينبغى أن نلاحظ الأهمية الرمزية أيضا للحدث حيث يعتبر المؤتمر للماركسى الأول فى مصر بعد مؤتمر ١٩٦٤ الذى أصدر "القرار المشؤوم" بالحل الذاتى للحزب الشيوعى المصرى. وتبين نظرة خاطفة على التقارير التى كتبت للإعداد للمؤتمر العام، والوثائق التى تم التصديق عليها فى المؤتمر، أكثر من أى شئ استعدادا جديدا فى "ح. ش. م" للنقد الذاتى، والحوار مع منظمات اليسار الراديكالى الأخرى. وللمرة الأولى يتم التأكيد رسميا على خطأ اختيار حل الحزب فى ١٩٦٤-١٩٦٥، وهو الخطأ الذى نتج عنه أقصى تشرنم للحركة، وخضوعها للبرامج الناصرية^(١). أما بالنسبة للعلاقات مع الأحزاب الشيوعية المصرية الأخرى، فقد اعترف الحزب الشيوعى للمصرى بوجودها إلا أنه نصب نفسه "الحزب الشيوعى المصرى الحقيقى" حيث وُصف هكذا فى الخارج، وخاصة فى موسكو. وأعلنت القيادة استعدادها للحوار مع المجموعات الأخرى فى طريق وحدة الشيوعيين المصريين، ولتبادل المنشورات فيما بينها، رغم احتواء مطبوعات المجموعات الأخرى فى العديد من المرات على هجمات قاسية ضد الحزب الشيوعى المصرى نفسه^(٢). أما بالنسبة للموقف الداخلى فقد جدد المؤتمر الدعوة للتبشير بين الجماهير بهدف هزيمة نظام السادات "المعادى للثورة" والمتهم بالخيانة. ومرة أخرى جرى إفراد المساحة الكبرى "للقضية الوطنية"، كما ينبغى أن نذكر أن تلك كانت كلمة السر التى وحتت كل المعارضة من الوفد حتى الإخوان المسلمين فى تلك اللحظة بالذات. وكما هو واضح لم يصدر المؤتمر أى مواقف جديدة أو مبتكرة، لكن تكمن الأهمية الكبرى فى حقيقة انعقاده فى حد ذاتها، وكذلك بسبب أنه بنشر هذه الحقيقة المجردة فى الصحافة العربية، انجذب اهتمام

(١) انظر وثيقة "حزبنا يمتلك إمكانيات بنائه كحزب جماهيرى"، يوليو ١٩٨٠.

(٢) انظر الرواية المذكورة فى المؤتمر، تقرير "الوحدة"، سبتمبر ١٩٨٠.

الرأى العام للمعارضة العلمانية والثورية فى مصر، فى اللحظة التى قمت فيها الراديكالية الإسلامية نفسها بعد الثورة الإيرانية كشكل لمعارضة أوضح للنظام. ينبغى أن نذكر فى النهاية أن المؤتمر لم يحل مشكلة التناقضات بين قسمى الحزب، بل على العكس من ذلك عقدت مجموعة المنفى المتركزة فى باريس بالذات مؤتمرا موازيا لختلفت نتائجه فى تحليل بعض المسائل التى تم التصويت عليها فى الجمعية العامة فى القاهرة، أولها بخصوص التحليلات بطبيعة ثورة يوليو التى استمر المؤتمر فى إعطائها صبغة ثورية، وبخصوص بعض الشخصيات فى مصر التى سعى للتحالف معها ضد السادات. وهذه النقطة بالذات مثيرة للتأمل؛ حيث تشكك المنفيون فى إمكانية الاتفاق البرنامجى مع الحركات الإسلامية مستثنين كذلك إلى الخبرة المباشرة للحرب الأهلية اللبنانية، مقترضين أن أقصى ما يمكن الحصول عليه هو "نقاط التقاء تكتيكية" عرضية ومؤقتة^(١). ورغم أن اللجنة المركزية للحزب تجاهلت عمليا مناقشة مواقف مجموعة المنفى، فقد قررت هذه الأخيرة البقاء "كمعارضة داخلية" لتجنب انقسام جديد فى لحظة خطيرة كهذه بالنسبة للبلاد وقواها الديموقراطية^(٢).

وشرع أعضاء "ح. ش. م" بعد المؤتمر فى تعزيز وجودهم فى الجبهة الوطنية الناشئة والمعارضة للحكومة رغم عوائق القمع البوليسى التى تفجرت من جديد ضد الشيوعيين، بينما تغاضى النظام عن أنشطة المجموعات الإسلامية الأكثر تطرفا فى مناسبات مختلفة فى عام ١٩٨٠. وعلى وجه التحديد أدان "قانون العيب" غيابيا عددا من أعضاء فرع "ح. ش. م" فى الخارج وعددا غير قليل من

(١) يوسف درويش، المقابلة السابقة الذكر.

(٢) فى مقابلته معى اتهم رفعت السعيد معارضه ميشيل كامل مؤكدا أنه استطاع طرح وهم تبني "مواقف متشددة" حيث لم يعد يقيم بمصر منذ عام ١٩٧٢ وبالتالى فقد اتصاله بالواقع اليومى للصراع داخل البلاد. وعلى أى حال بمجئ عام ١٩٨٩ سيكون ميشيل كامل قد خرج من الحزب الشيوعى المصرى ليؤسس مع الهلالي، ودرويش، والعالم، وصبحى، حزب الشعب الاشتراكى.

للمناضلين على أرض الوطن. ورغم ذلك كرس متقو الحزب أنفسهم للترويج لشعار جديد للمعارضة، وكان رفض تطبيع العلاقات مع إسرائيل وتعزيز "مقاطعة" الدولة العبرية التي أصبح مسموحا لمواطنيها لأول مرة بالمجيء إلى مصر التي أصبح علم السفارة الإسرائيلية يرفرف على أرضها بشكل شرعي^(١). ورغم هذه الجهود التي بُذلت أيضا عبر مشاركة الشيوعيين في ندوات نقابية للمحامين، لم تتخذ "الجبهة الوطنية" أبدا شكلا محددا ومنظما كما رأينا، وذلك لأن معارضة "الخيانة الوطنية" و"التطبيع" لم تكن قاسما مشتركا كافيا.

ووفقا لبعض الشهادات حول فترة التحرك الكبرى تلك وصل عدد أعضاء الحزب إلى حوالي ١٥٠٠ عضو كان بعضهم متفرغين بفضل تمويل موسكو السخي من باب معاداة السادات^(٢).

ولم تستثنِ اعتقالات ٢ سبتمبر ١٩٨٢ الجماعية التي كانت مقدمة لاعتقال السادات، الحزب الشيوعي المصري وأعضاءه، وكذلك أعضاء حزب التجمع، والذين أطلق سراحهم بعد استعادة سيناء في أبريل ١٩٨٢.

وبدا أن اختفاء الرئيس، الذي استقبله المناضلون بنوع من الارتياح، يفتح الباب لنهاية "تصالحية" داخل الحزب الذي أطلق في تحليلاته الأولى المنشورة بعد "انتخاب" مبارك، نداء إلى "البرجوازية المنتجة" داخل النظام كي تسيطر على السلطة وتهمش الجزء الطفيلي داخلها^(٣).

(١) انظر، على سبيل المثال، بيان "للقاطع الوجود الإسرائيلي"، "الانتصار"، العدد ٥٦ (٥ يناير ١٩٨٠)، ص ١، وكذلك الافتتاحية "من أجل إقامة سلطة الجبهة الوطنية الديمقراطية"، نفس المصدر، ص ٢-٣.

(٢) رفعت السعيد، المقابلة السابقة الذكر.

(٣) انظر "الانتصار"، عدد خاص (نوفمبر ١٩٨١). انظر أيضا البيان القصير "ماذا بعد اغتيال السادات"، ١٧ أكتوبر ١٩٨١.

وبالتوازي مع هذه التحليلات واستغلالا لاحتياج الرئيس الجديد للتحالف مع القوى العلمانية ضد "الخطر الإسلامى" رشح الحزب الشيوعى المصرى ٣ من قاداته كمستقلين فى صفوف التجمع فى انتخابات ١٩٨٧ العامة^(١).

ومع ذلك ألفت الحدود التى فرضها النظام على التطور السياسى للبلاد استكمالا للتجربة الساداتية الحزب الشيوعى المصرى فى أعراف "عدم الشرعية المحتملة" فاستمر فى التواجد ونشر دورية شهرية على الأقل حتى الآن.

أ - ٢ - الحزب الشيوعى المصرى "٨ يناير"^(٢)

يقال فى وصف نسب هذه المجموعة أنها نبتت من هذا الجزء من الحرس القديم الذى عارض قرار حل المنظمات الشيوعية فى عام ١٩٦٥، لكنه بقى "كامنا" حتى حدوث النكسة.

ومع تجذر السياق السياسى بعد الهزيمة، والأهم من ذلك بعد وفاة عبد الناصر؛ تحولت المجموعة إلى نادى متقنين حمل اسم "الاستمرار" للتدليل على رفض قرار ١٩٦٥ وضرورة تأسيس للحركة الماركسية المستقلة عن النظام. وكان مسار الحزب الشيوعى "٨ يناير" - بشكل ما - مشابها وموازيا لنظيره (حزب العمال الشيوعى المصرى) مع الفارق المتمثل فى أن هذا الأخير ستتخطى تأثيراته

(١) المرشحون الثلاثة هم نبيل الهللى، ومحمود أمين العالم، ومحمد على عامر، وهم جميعا من الحرس القديم ولم ينتخب أى منهم فى النهاية. انظر Ismael-El-Sa'id, op. cit., p. 143-144؛ محمود أمين العالم، المقابلة الشخصية.

(٢) المساحة المخصصة هنا لهذه المجموعة لا تتناسب بشكل مباشر مع تأثيرها فى الحركة الثالثة رغم أنه أقل من الحزب الشيوعى للمصرى وحزب العمال الشيوعى المصرى إلا أن هذا نتج عن الاستحالة الموضوعية لتتبع آثار الصحافة الدورية للحزب بسبب الطريقة الخاصة التى انتهى بها وهى الانقلاب الداخلى. ولهذا تعتمد القصة هنا على الوثائق القليلة المتاحة واللقاءات مع بعض قيادى الحزب.

الحدود الضيقة لتنظيمه ولا عجب في هذا فقد استند إلى فكر مُنظر رفيع الشأن هو إبراهيم فتحى.

وعوضاً عن تواضع الإعداد النظرى السياسى للمؤسسين كانت قدرتهم الدعائية كبيرة فى إبداع شعارات بسيطة ومؤثرة، كما كانت عزيمة المناضلين قوية. وعلاوة على هذا منحتها حقيقة رفض رجاء طنطاوى وفوزى جرجس زعيماً "الاستمرار" حل الأحزاب الشيوعية فى ١٩٦٤-١٩٦٥، ورفضها دخول المؤسسات الناصرية، فى أعين الشباب احتراماً أعلى بلا شك من المجموعات المكوّنة من مثقفى الحرس القديم الذين دخلوا بلا تردد فى الاتحاد الاشتراكى.

وبسبب هذه الدوافع وبالذات بسبب اختيار التوجه إلى الشعارات الوطنية بينما أتت الشعارات الماركسية فقط فى المرتبة الثانية حصلت "الاستمرار" على دور بارز فى الحركة الطلابية بين عام ١٩٧١ وحرب أكتوبر. والواقع أن التنظيم الشيوعى المصرى استطاع وحده أن يتنافس مع شعبية مجموعة الحزب الشيوعى "٨ يناير" المستقبلية فى جامعته للقاهرة والإسكندرية^(١). ومن جانبهم، كان لطلاب "الاستمرار" دور بارز فى "جماعة أنصار الثورة الفلسطينية" التى كانت بلا شك للمجموعة الطلابية المنظمة الأكثر تأثيراً فى جامعة القاهرة فى فترة ما قبل الحرب^(٢).

واجتنب موقف "الشروق" الداعم لـ السادات بمناسبة "الحرب المحدودة" كما سبق وذكرنا جزءاً من المناضلين الشبان نحو مجموعة "الاستمرار" التى بدأت فى إبراز السمات اليمينية والتحريفية للشروق - "الوريث المناسب" للماركسيين المتهمين بحل الحزب الشيوعى المصرى فى ١٩٦٤-١٩٦٥ - فى نشراتها، ورغم أن المجموعة لم تصبح حزباً "بشكل رسمى" حتى نهاية ١٩٧٥ فقد اتخذت اسم "٨

(١) من شهادات أحمد بهاء شعبان (٨ يناير) وهانى شكرالله (حزب العمال الشيوعى المصرى)، المقابلاتان السابقتان للذكر.

(٢) نفس المصدر.

يناير" على الأقل منذ عام ١٩٧٤^(١). وقد أتى التاريخ المختار لتسمية الحزب كفال وتكريم لتكري ٨ يناير ١٩٥٨، وهو اليوم الذى اتحدت فيه كل القوى الماركسية فى مصر فى حزب واحد للمرة الأولى والوحيدة فى تاريخها^(٢).

وضع الجزر الجزئى للحركة الطلابية بعد "انتصار" ١٩٧٣، والقمع المترامن معه للحركة العمالية مجموعة رجاء الطنطاوى فى مواجهة أزمة برنامجية، وفى هذا الموقف أيضا تفوق الصراع بين الأجيال على الصراع السياسى، كما حدث فى منظمات اليسار الراديكالى الكبرى الأخرى. وبدلية، من المعروف أنه رغم الوجود الضئيل للعمال داخل الحزب، إلا أنه لعب دورا أكيدا فى تنظيم وإدارة إضرابات حلوان والإسكندرية فى النصف الأول من عام ١٩٧٥ بصحبة حزب العمال الشيوعى المصرى والتروتسكيين^(٣). ولا شك فى أن المجلة للناطق باسم الحزب، "اتحاد الشعب"^(٤)، كانت أكثر انتشارا فى المصانع من مجلة الحزب الشيوعى المصرى، وكانت فى الوقت نفسه "ملائمة" أكثر لجمهور من العمال حيث كانت المسائل النظرية ضئيلة للغاية مقارنة بالأخبار الخاصة بالقمع البوليسى للأنشطة النقابية، والخاصة بالجبهة العربية-الإسرائيلية. وعلى أى حال، استغلت هذه المجموعة شأنها شأن حزب العمال الشيوعى المصرى، والحزب الشيوعى المصرى، مرحلة النشاط العمالى لإعلان وجودها باسم الحزب الشيوعى "٨ يناير" بشكل رسمى فى منتصف عام ١٩٧٥^(٥).

(١) كمال خليل، المقابلة السابقة الذكر.

(٢) انظر الفصل الثالث.

(٣) شهادات كمال خليل، وحسين كشك، وهانى شكر الله، فى المقابلات السابقة للذكر.

(٤) بالإضافة إلى هذه الجريدة المخصصة للنشر العام كان لدى الحزب الشيوعى (٨ يناير) نشرة داخلية نظرية تنظيمية باسم "الصراع".

(٥) ينبغى أن نذكر أن إسماعيل والسعيد فى المنحى المتمركز حول الحزب الشيوعى المصرى يذكران (ص ١٤٥) أن حزب ٨ يناير أعلن تأسيسه كمجرد رد فعل على تأسيس الحزب الشيوعى المصرى فى عام ١٩٧٥ بينما ظهرت الوثائق الأولى الموقعة باسم "٨ يناير" كذلك قبل هذا التاريخ وعليه فقد جرت بالتأكيد عملية إنشاء المجموعة فى سياق مستقل عن الحزب الشيوعى المصرى.

وأدى الاشتراك الفعال لبعض المناضلين، ومن بينهم طلاب سابقون في الحركة العمالية إلى إبراز التناقض داخل الحزب منذ نهاية نفس العام. فقد تلا التأسيس الرسمي للحزب تأسيس لجنة مركزية "يمثل فيها الشباب نصف عدد الحرس القديم" الذين ضمنوا على هذا النحو السيطرة على الخط السياسى^(١). وكانت الأولوية المستقرة للجنة المركزية، كما فى المجموعات الأخرى تتمثل فى نشاط "توعية الجماهير" عبر نشر صحافة الحزب فى المصانع والريف والجامعة أكثر من الحركة المباشرة. وبالإضافة إلى ذلك قررت القيادة تفضيل النشاط السياسى فى الجامعة مستندة على النجاحات الماضية. وبالتحديد أدار "٨ يناير" و"حزب العمال الشيوعى المصرى" سويا منذ عام ١٩٧٥ نادى الفكر الاشتراكى داخل حرم جامعة القاهرة والذى أصبح الجمعية الطلابية الأكثر أهمية لليسار فى مصر والوحيدة التى تستطيع، إلى حد ما، مقاومة توسع المجموعات الطلابية الإسلامية الممولة من النظام^(٢). ومن وجهة نظر الشباب لم يكن من الممكن أن تنحصر للحركة بين الطلاب متجاهلة الطبقة العاملة والمواطنين فى اللحظة التى يضخم فيها الانفتاح من الفوارق الاجتماعية مزيلا "قناع المساواة" فى الفترة الناصرية. وعلى أى حال وعلى العكس مما جرى داخل "الحزب الشيوعى المصرى" و"حزب العمال الشيوعى المصرى" قررت مجموعة الطلاب السابقين اتخاذ دور "الأقلية الداخلية" ممثلة عمليا "خطا بديلا" للخط الرسمى. وقد صعدت انتفاضة يناير ١٩٧٧ وقمعها هذا الصراع فتم بعدها إلقاء القبض على العديد من الطلاب بينما فر آخرون ومن

(١) من المقابلة السابقة الذكر مع كمال خليل الذى كان هو نفسه عضوا فى اللجنة المركزية للحزب نعلم أنه حتى فى أقصى لحظات التوسع لم تصل عضوية حزب "٨ يناير" إلى مائتى عضو عامل.

(٢) من شهادات أحمد بهاء شعبان وفريد زهران وهانى شكر الله، المقابلات سابقة الذكر. وموقف المجموعة القيادية يتضمنه مقال رجاء طنطاوى، "بعض القضايا من المرحلة الإستراتيجية" (بدون تاريخ).

بينهم أحمد بهاء الدين شعبان إلى الخارج ليتجنبوا الاعتقال^(١). والواقع أن شباب الحزب، ورغم تأكيداتهم، كانوا بعيدين عن اتخاذ دور قيادي في المظاهرات كما أراد النظام أن يتهمهم، ومع ذلك أقنعت الهبة الشعبية عدة مناضلين بإمكانية تحقيق إستراتيجية "الكفاح المسلح" في مصر وفلسطين على غرار النموذج الصيني والفيتنامي.

مثلت قيادة الحزب في سنوات حكم السادات الأخيرة دورا هامشيا في محاولة توحيد قوى المعارضة سواء لعدم ثقتها في مواجهة اليسار الشرعي والحزب الشيوعي المصري أو بسبب ثقتها الضئيلة في التحالف مع نفس الجماعات الإسلامية التي حاربت التواجد الماركسي في الجامعات بالسلاح الأبيض لتسيطر عليها. وفي الوقت نفسه، قرر الجناح "الطلابي" رغم كونه أقلية في حرم الجامعة، أن يدرس فرصة تطبيق الكفاح الشعبي المسلح في السياق المصري والشرق أوسطي. وفي هذا العرض لا ينبغي أن ننسى أنه إذا كانت التجربة في الحركة الطلابية قد جعلت المناضلين الشباب أكثر ضجرا من الأرثوذكسية السوفييتية التي مارسها اللجنة المركزية وأكثر انفتاحا على "مستجدات" الماوية والجيفارية من جانب آخر وأكثر تركيزا بشكل مطلق تقريبا على "القضية الوطنية" إلى درجة أن بعضهم من بين المتواجدين في بيروت دخلوا في منظمات اليسار الفلسطيني.

ورغم أن نهاية حزب "٨ يناير" ستتم في فترة تالية للفترة التي نقوم بعرضها إلا أنها تستحق الذكر بسبب القيمة الرمزية والنموذجية التي تمثلها للمجموعات الأكثر راديكالية، والأكثر إثارة للاهتمام أيضا في الحركة الشيوعية الثالثة في مصر. ففي الحقيقة انتهى الحزب، بعد تحمله للقهر البوليسي الذي أهلك القسم

(١) لا توجد معلومات مؤكدة عن عدد أعضاء "٨ يناير" الذين أُلقي القبض عليهم أو اتهموا بسبب الانتفاضة إذ إن الادعاء خلط بينهم وبين ناشطي حزب العمال الشيوعي المصري إلى درجة الإشارة إلى عضوين من اللجنة المركزية لـ "٨ يناير" ضمن اللجنة المركزية للمجموعة الأخرى. ويمكن مراجعة الوثيقة، في كتاب حسين عبد الرزق، "مصر.."، المصدر السابق الذكر، ص ٢١٤-٢١٥.

الأعظم من الأحزاب الصغرى الأخرى بين عامى ١٩٨٠ و ١٩٨١، بسبب قرار الأقلية من الطلاب السابقين الذين ازداد عددهم بأعضاء شباب جدد، أن يبلغوا البوليس عن قانتهم السابقين مما أدى إلى اعتقال وتفجير الحزب^(١).

وتلخص نهاية الحزب الشيوعى "٨ يناير" بعض سمات الحركة، ليس فقط بالنسبة لنقص الجدل الديموقراطى لدخل المنظمات، لكنها تشهد أيضا على النقص التام "للتربية الديموقراطية" لجيل المناضلين الجدد الذين نشأوا فى مجتمع شمولى قمعى، وأبنية سياسية سرية ومنظمة على نمط ستالينى، أى وسواس المركزية. وبهذا الشكل يمكننا أن نشارك هؤلاء المناضلين من المجموعات المختلفة فى استنتاجهم المبرر الذى يرى أن حركة اليسار الراديكالى فى السبعينيات "قضت على نفسها" أكثر من كونها قد تم تدميرها على يد البوليس^(٢).

أ- ٣- حزب العمال الشيوعى المصرى

مثل حزب العمال الشيوعى المصرى "أقصى يسار" الحركة الشيوعية المصرية الثالثة^(٣) حيث كانت المجموعة الأولى من اليسار الجديد، التى ترى النور فى شكل سلفه "ت. ش. م" وبالتأكيد المجموعة الأهم بالنسبة لتأثيرها الفكرى فى المرحلة التى تتناولها هذه الدراسة بأكملها، رغم أنها الثانية بعد "ح. ش. م" بمقياس عدد الأعضاء والعاطفين.

(١) اتحدت بقايا الحزب بعد عدة انقسامات مع حزب العمال الشيوعى المصرى فى عام ١٩٨٩ منشئة "حزب العمال المصرى الموحد".

(٢) بشكل خاص من الشهادات السالفة الذكر لـ كمال خليل وأحمد بهاء شعبان "٨ يناير" ومحمد الوردانى "حزب العمال الشيوعى المصرى"، مقابلة شخصية معه فى (القاهرة ٢ مايو ٢٠٠٢) وبشير السباعى "العصبة التروتسكية"، مقابلة شخصية، (القاهرة ٦ يونيو ٢٠٠١).

(٣) قام إسماعيل والسعيد بهدف التقليل من دور حزب العمال الشيوعى المصرى فى إطار الحركة الشيوعية الثالثة بمحاولة شطبه بزعم أنه "مجموعة من الشباب المتطرف" وتخصيص صفحة واحدة فقط له فى كتابهما.

وقد تخطى تأثير هذه المجموعة على الساحة الثقافية المصرية بكثير أداءه كحزب سياسى فى المعارضة غير الشرعية، ودخل الساحة الثقافية من جانبها الفنى والأدبى. والحققة أنه كان من بين المثقفين النشيطين فى حزب العمال الشيوعى المصرى عدد من الكتاب البارزين فى مصر منذ الستينيات وإلى الآن. ويكفى أن نذكر أن ملهم هذه المجموعة كان المنظر والناقد الأدبى إبراهيم فتحى، وأن من بين الأعضاء كان للممثلون الأكثر لمعانا للطليعة الأدبية العربية مثل الشعاعين محمد سيف، وزين العابدين فؤاد، والناقد الأدبى خليل كلفت، وكتاب القصة محمود الوردانى، وجار النبى الحلو، وخالد جويلى، وآخرين عديدين، وبهذا المعنى لا يمكننا إلا أن نتفق مع فريد زهران الذى كان هو نفسه عضوا فى الحزب حتى عام ١٩٧٦، والذى يرى أن تأثير ونجاحات الحزب فى الحياة الثقافية ذاتها تفوق بكثير ما حققه فى الساحة السياسية بمعناها المعروف^(١). على أنه لا ينبغي أن ننسى أن بعض كتاب الصحافة السياسية والمحررين الكبار "المستقلين" فى مصر أتوا أيضا من مدرسة حزب العمال الشيوعى المصرى. وبالإضافة إلى ذلك وحتى لو لم نحسب تأثير هذه المجموعة على المدى الطويل، فمما لا يمكن إنكاره أنها قادت بشكل واضح الجدل الماركسى فى السبعينيات لاتخاذها موقف "القطيعة" مع تراث الماركسية المصرية.

وكما قلنا من قبل، لم تكن نقطة انطلاق تحليلات "ت. ش. م" التى كتبها إبراهيم فتحى، هى فقط إدانة حل الحزب الشيوعى المصرى و"حدثوا" فى عام ١٩٦٥، بل كانت أيضا رفض قراءة الحركة الشيوعية الثانية لنظام يوليو. فقد رأت الأحزاب الماركسية المختلفة، فى أشكال وأوقات متنوعة، سمة من سمات "الثورة الوطنية والديموقراطية" فى النظام الناصرى تبعا للنظرية الستالينية للمراحل الثورية، متمرين إلى أقصى حد من انسياقه السلطوى، بينما رأى "ت. ش. م" فى الناصرية على العكس من ذلك "الأيديولوجية الديماجوجية" التى تعبّر عن سلطة

(١) من المقابلة السابقة الذكر مع فريد زهران.

"البرجوازية البيروقراطية"، تلك الأيديولوجية التي استحوذت على الجماهير بلا أى ملامح تقدمية سوى تحالف انتهازي ومؤقت مع المعسكر الاشتراكي^(١).

لم يكن هذا الموقف هو القطيعة الوحيدة التي قام بها إبراهيم فتحى ومجموعته التي تكونت بداية من حوالى عشرة من المثقفين المقيمين بالقاهرة فمن المحاور الأساسية كذلك، نقد المراجعة السوفييتية والاتحاد السوفييتي والحقيقة أن "ت. ش. م" تأسس بعد المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي الصيني (١٩٦٩)، الذي بلور فيه ماو رؤيته للنظام السوفييتي بوصفه "إمبريالية اشتراكية". ولم يصل مثقفو حزب العمال الشيوعي المصري أبداً إلى نقد جذري إلى هذا الحد في مواجهة الحزب الشيوعي السوفييتي، إلا أنهم كانوا منذ البداية متأثرين للغاية بالنقد للصيني للمراجعة السوفييتية^(٢). ومن هذا المنطلق، يرجع هذا التفرد في حزب العمال الشيوعي المصري مقارنة بالتكوينات الشيوعية الأخرى، باستثناء التروتسكيين، بشكل كبير إلى الرؤية الأممية لإبراهيم فتحى، وقد مثل ذلك استثناءً نادراً على النهج القومي العربي الذي سيطر على الماركسية المصرية في أعوام الأربعينيات وما بعدها مما سهل عليها التفاعل مع النظام الناصري^(٣).

وإذا تحدثنا عن نشأة هذا التكوين فنستذكر انتشاره السريع في صفوف الطلبة في الحركة، في الأعوام ما بين ١٩٧١ و ١٩٧٣، والتي لم يكن يضاهيها سوى "الاستمرار" (٨ يناير)، وهنا ينبغي أن نتذكر أن هذا النجاح في الجامعات

(١) الكتابات الأولى ل. ت. ش. م. المذكورة هنا وكلها تقريباً من أعمال إبراهيم فتحى نشرت في بيروت في الأعوام الأولى للبعينيات بالاسم المستعار (شيوعي مصري)، ثم أعيد نشرها عدة مرات سواء في بيروت أو في الصحافة السرية لحزب العمال الشيوعي المصري. انظر ما يلي بخصوص تطور نظريات ح. ع. ش. م عن طبيعة الدولة الناصرية والساداتية وقضايا نظرية أخرى وكذلك المقابلة السابقة الذكر مع إبراهيم فتحى ومع صالح محمد صالح (خليل كلفت) في مقابلة شخصية معه، للقاهرة ٢٢ يناير ٢٠٠٣.

(٢) صالح محمد صالح (خليل كلفت)، المقابلة السالفة الذكر.

(٣) هاتى شكر الله، المقابلة السابقة الذكر.

المصرية يعود إلى أن أغلبية أعضاء الحزب كانوا من الشباب. بالإضافة إلى أن إمكانية استخدام جمعية "جبهوية" معروفة بشكل شرعي، ومؤثرة مثل "كتاب الغد"، جعلت عملية الدعاية والتجنيد أسهل بكثير حيث لم تتواجد هذه الفجوة الجيلية الكبيرة الموجودة في "الحزب الشيوعي المصري" وحزب "٨ يناير". وكان حزب العمال الشيوعي المصري بالتأكيد هو التكوين الأقدم في الحركة الثالثة من حيث نشر الأفكار، لأنه بدأ في طباعة نشرة "الانتفاضة" منذ عام ١٩٧٢، بالتزامن مع الحركة الطلابية.

وإلى جانب الروح الأممية التي حملتها الإصدارات النظرية لـ إبراهيم فتحى، ينبغي أن نذكر أنه منذ البداية داومت "الانتفاضة" على إعطاء اهتمام رئيسي للـ "القضية الوطنية" حيث لم يكن من الممكن وجود رؤية أخرى للموقف بعد النكسة، مطلقة شعار "حرب شعبية لتحرير الأراضي العربية المحتلة"^(١). وبإلقاء نظرة على الإنتاج "التشيماوى" في الفترة ما بين عام ١٩٧٠ وحرب ١٩٧٣ ندرك الاتجاه للغالب للمجموعة في مواجهة "المسألة الشرق أوسطية" بجانب للتجليات النظرية حول طبيعة النظام الحاكم، وتكوينه الاجتماعي، والتحالف الطبقي، وطبيعة الثورة المقبلة. ويمكننا تقريبا أن نؤكد أن متقى "ت. ش. م" مثلوا طبعة أكثر راديكالية "وبديلة" لمجموعة "الطلبة"، رغم الاشتراك في إيلاء الانتباه والتوجه إلى المسيرة الفلسطينية، وبالذات يسار منظمة التحرير الفلسطينية^(٢).

وباختصار يظهر من كتابات هذه المرحلة الأولى اقتناع المجموعة بأن النظام الساداتى لن يستأنف أبدا العداء مع الدولة العبرية، لأن سماته الطبقيّة تستدعى "عودة مصر إلى معسكر الإمبريالية الدولية" والذي مثلت إسرائيل حصنه في الشرق الأوسط^(٣).

(١) صلاح العمروسى، المقابلة السالفة الذكر. لكن لم يتح لى تتبّع أى نسخ من "الانتفاض" المنشورة قبل ١٩٧٥.

(٢) انظر، على سبيل المثال، الدراسات المجمعّة "ح. ع. ش. م: مسار الخيانة..."، المصدر السابق الذكر، ٢٠-٤١.

(٣) انظر على سبيل المثال، مرسى مصطفى على (اسم قلم لـ إبراهيم فتحى)، كيف تحل....، المصدر السابق للذكر.

وبناء على هذا الموقف الذى ينفى أى شرعية عن حكومة عاجزة عن الاستعادة بالقوة لما تم انتزاعه بالعنف، تعززت قدرة "ت. ش. م" على اجتذاب الجماهير الطلابية مقارنة بالمجموعات الأخرى الأقل جذرية، التى انتظرت أن يتحرك "الوجه الوطنى والاشتراكى" للنظام ضد الإمبريالية المحلية والعالمية.

وعلى العكس من ذلك يعتبر "نصر أكتوبر" رغم محدوديته، وبالذات الدعاية المسيحة لبطل العبور، نقىضين واضحين لتنبؤات المجموعة. لكن قبل تحليل رد فعل قيادة التنظيم على النصر الكبير السياسى والدبلوماسى لـ السادات، ينبغى أن ننكر أن قسما مهما من قيادة الحزب كانت فى هذه اللحظة فى السجن منذ يونيو عام ١٩٧٣. وتعتبر الدينامية التى أدت إلى الاعتقالات مهمة من أجل فهم الاتجاه السياسى المستقبلى للحزب. فقد أدركت مجموعة المتقنين فورا، وقبل الأحزاب الأخرى أيضا، خطر البقاء كنادٍ مغلق للمتقنين الحضرين. وهكذا فى نهاية عام ١٩٧١ بينما كان "ت. ش. م" ينمو فى الجامعات، فقد استطاع أن يدمج بداخله حلقة ماركسية تتكون بصفة رئيسية من مجموعة من عمال الإسكندرية ممثلة "الطبقة للعاملة" التى كانت غائبة حتى ذلك الوقت^(١).

وبالنسبة لحزب أكتوبر، حذر صالح محمد صالح (خليل كلفت)، مترجما للأحداث بشكل صحيح، أن "ليس كل ما يلمع ذهباً"، بمعنى أنه رغم ضجيج دعاية وسائل إعلام النظام التى انضم إليها إصلاحيو "الشروق" لم تكن الحرب سوى مبادرة محدودة لتحريك التسوية مع إسرائيل^(٢).

ولكن حتى إذا صح أن هذا للموقف كان "توريا"، كما رأت صحافة الحزب^(٣)، وتتبا بشكل فعال بالتطورات المستقبلية، إلا أن اعتقاد الحزب بأن النظام

(١) صالح محمد صالح، "ليس كل ما يلمع ذهباً"، أبريل ١٩٧٤، أعيد نشره فى "ح. ع. ش. م" مسار الخيانة...."، المصدر السابق للذكر، ص ٥٥-٧٧.

(٢) المصدر السابق ص ٣٧-٤١.

(٣) انظر أعلاه.

كان عاجزا عن أى مبادرة عسكرية، بسبب سيطرة القوى الرجعية القديمة والجديدة عليه، أنتج تحليلات ميكانيكية جدا لم تضع فى اعتبارها شخصية السادات والدور الخاص الذى تركته التجربة الناصرية فى ميراث مؤسسات رئاسة الجمهورية^(١) كما كان من شأن ذلك أن يُضعف نسبياً تأثير الحزب جماهيريا (والحقيقة كما أكد لى خليل كلفت فى لقاء معه أن اللجنة المركزية للحزب أصدرت توجيهها شفويا لكل الأعضاء لشرح احتمال قيام النظام بعمل عسكرى محدود وذلك قبيل اعتقال عدد من قادة الحزب فى يونيو ١٩٧٣، الأمر الذى أدى إلى أن ذلك التوجيه لم يتخذ شكلا مكتوبا على الإطلاق).

ومن جهة أخرى تطور لدى الحزب لفتناع بأن النظام كان يتخذ من البداية خطأ "انهزامياً" تجاه الصراع العربى الإسرائيلى كما أظهرت كل الخطى التى قام بها عبد الناصر أولا ثم السادات من بعده منذ عام ١٩٦٧ وما تلاه فى سياق السبعينيات وقد ثبتت صحة هذا الافتناع فيما بعد. وعلى أى حال فقد مثلت التحليلات بتطورات الجبهة العربية الإسرائيلية منذ عام ١٩٧٣ وما بعدها بجانب الاهتمام البارز بمسائل السياسة الدولية، المحور الرئيسى للإنتاج الأساسى لمتقنى "ت. ش. م" حتى أثناء فترة اعتقال المجموعة القيادية.

وبالتوازي مع الأحزاب الأخرى حملت موجة الإضرابات - التى حدثت فى النصف الأول من عام ١٩٧٥، وتزايدت باحتلال مصانع المحطة الكبرى فى شهر مارس - إلى المناضلين تحديات جديدة واختيارات جديدة. وكان للمجموعة دور فى اضطرابات حلوان والإسكندرية حيث تواجد عمليا العنصر الماركسى المنظم الوحيد بين العمال. ومع ذلك بدا أن تدهور الظروف الاقتصادية، وبداية انحسار الحركة الطلابية المفرغة جزئيا بسبب نصر ١٩٧٣، والخطوات للحاسمة التى قام بها الرئيس على طريق "الخيانة" قد وفرت الشروط الأنسب فى أعين المناضلين

(١) انظر افتتاحية "الصراع"، العدد ١١ (٣٠ نوفمبر ١٩٧٥)، ص ١ وما يليها.

الشبان لتعبئة الجماهير بشعارات الحرب الشعبية ضد الاحتلال الإسرائيلي^(١). وفي حالة "ت. ش. م" الذي أعلن في سبتمبر ١٩٧٥ "تحوله" إلى "حزب العمال الشيوعي المصري" لا يمكننا أن نتحدث بالفعل عن صدام بين الأجيال. وكان وراء الدوافع التي دفعت اللجنة المركزية إلى نشر "تقرير ٩ مايو ١٩٧٥" بداية للخروج من التدهور الذي كان قد وصل إليه الحزب خلال عامين من وجود عدد من أهم أعضاء اللجنة المركزية في السجن، حيث ركز التقرير على نشاط الحزب في كافة المجالات السياسية والجماهيرية والتنظيمية والأمنية مع تركيز خاص على الصحافة الحزبية المنتظمة التي لم يكن لها وجود في "ت. ش. م" إلى ذلك التاريخ^(٢).

وقد أصدر الحزب أربعة إصدارات شهرية ونصف شهرية منذ إعادة تسميته في سبتمبر ١٩٧٥، اثنان منها هما "الانتفاضة" التي تم نشرها منذ عام ١٩٧٢ (وكانت في الأصل مبادرة فردية لعضو بارز في الحزب هو جلال الجميعة ثم تم تبنيه كإصدار حزبي)، و"الشيوعي المصري" التي رأت الضوء في سبتمبر ١٩٧٥. ومن بين الدوريات الحزبية الداخلية نشرة "الصراع" التي كانت منبرا للمناقشات بين الأعضاء بشأن القضايا النظرية والتنظيمية للحزب في حين تم تخصيص نشرة "الأمن" للمسائل المتعلقة بالأمن. وإذا فكرنا أنه حتى في فترات التوسع للقوى، لم يصل حزب العمال الشيوعي المصري إلى ٢٠٠ عضو "عامل"^(٣)، يمكننا أن نقدر

(١) المصدر السابق.

(٢) بعض المناضلين الذين تمت مقابلتهم تحدثوا عن عدد أقصى لأعضاء الحزب يبلغ ٥٠٠ عضو بينما يحصر أغلبهم العدد في "ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠" الذي يبدو التقريب الأقرب للصحة.

(٣) بالإضافة إلى هذه المطبوعة الدورية توفر لدى العديد من "التقارير" و"المنكرات" التي كتبها مناضلون أفراد يبرر حجم هذا الإنتاج والتعقيد للنظري لبعض الكتابات في حد ذاته بحثًا خاصًا عن مسيرة ح. ع. ش. م.

تقديرًا عاليًا حجم ومستوى الجدل الفكرى الذى أنتجه هذا الحزب^(١). وللتلليل على ذلك ينبغي أن نذكر أن مجلة "الشيوعى المصرى" اعتبرت من جانب مناضلى المجموعات الراديكالية الأخرى باستثناء "كبار" الحزب الشيوعى المصرى، المجلة الطليعية بالنسبة للحركة الماركسية بأكملها. ومن هذا المنطلق لا يعد مجافيا للصواب أن نعتبر أن مجلة "الشيوعى المصرى" كانت تمثل بالنسبة لليسر الراديكالى ما كانت تمثله مجلة "الطليعة" بالنسبة لليسر الرسمى.

وقد حقق "حزب العمال الشيوعى المصرى" الهيمنة الفكرية على التيار اليسارى فى النوادى الجامعية، وكانت الأنشطة الكبرى ينظمها "نادى الفكر الاشتراكى" داخل جامعة القاهرة والتي كان يقودها حزب العمال بالتعاون مع حزب "٨ يناير" كما سبق وأن ذكرنا، إلا أن هذه الهيمنة ستؤول إلى الزوال فى مواجهة عجز المناضلين الماركسيين عن مواجهة التوسع الشديد للتأسلم الراديكالى فى الجامعات. ومن الواضح أن هذا النجاح لا يعتمد فقط على أخطاء اليسار، رغم أنه لا يمكن إنكار أن تفضيل "القضية الوطنية" مع تسطيح إعلان خيانة السادات، والتقليل من التوترات الاجتماعية الداخلية فى المجتمع المصرى والمرئية داخل الجامعات، هى سبب آخر لعجز اليسار الماركسى، فى تقديم نفسه كبديل حقيقى للسلطة والجماعات الإسلامية. وإذا كان تنمر بعض الأعضاء فى مواجهة الخط التنظيمى والجهاميرى الذى حددته القيادة قد تم لحتواؤه باعتباره معارضة داخلية لبعض الوقت فقد انفجر بشكل غير قابل للعلاج بنهاية عام ١٩٧٦ بانقسامين عُرف أحدهما باسم "الانشقاق" والآخر باسم "التكتل" قام بهما عدد كبير من المناضلين^(٢). وفضلت المجموعة التى عُرفت باسم "التكتل" تقديم أعضاء الحزب كمرشدين مستقلين فى الأحياء الشعبية. ولم يكن ذلك لمجرد الرغبة فى النجاح فى أن ينتخبوا

(١) انظر "قرار" اللجنة المركزية لـ "ج. ع. ش. م": "قرار من اللجنة المركزية بشأن نشأة التكتل"، ١٥ أكتوبر ١٩٧٦، (٢٠ صفحة).

(٢) عن فريد زهران (من محررى الانقسام)، المقابلة السابقة الذكر.

كأعضاء في البرلمان، بل كان الأهم من ذلك القدرة على تنمية حركة دعاية أكثر تأثيراً، مستغلين "التهاون" المؤقت لأجهزة قمع النظام، بحثاً عن تأسيس نوع من "السوفييتات" داخل الأحياء الشعبية^(١). ومن اللقاءات التي أجريناها يتضح أن عدد المناضلين المعارضين "الساخطين" على الخط الرسمي للجنة المركزية، كان أكبر من عدد الذين تركوا فعلاً حزب العمال الشيوعي المصري في عام ١٩٧٦، إلا أن هؤلاء فضلوا البقاء باسم المركزية الديموقراطية، مثيرين النقاش الداخلي عبر صفحات "الصراع"^(٢).

ولا شك في أن خروج المجموعة أضعف حزب العمال الشيوعي المصري، في الوقت الذي قام فيه النظام بعمل أكبر دعاية ممكنة له باتهامه بأنه كان وراء كواليس انتفاضة يناير ١٩٧٧. ففي أيام معدودة تم نشر اسم الحزب، وبعض الأعضاء المعتقلين^(٣) في العديد من الصحف اليومية، والدوريات داخل مصر، وفي كل أرجاء العالم العربي، رغم أن الحركة الشيوعية، كما سبق وأوضحنا، لم تكن هي التي نظمت الانتفاضة التي تفجرت بشكل تلقائي. ورغم ذلك وكما حدث في حالة "٨ يناير" لم ينجح "ح. ع. ش. م" في استخدام التوتر الاجتماعي، وأزمة شرعية النظام من أجل زيادة عدد أعضائه، واستمر في التمسك "بالصحافة

(١) بخصوص مسار هذه المجموعة بعد الخروج من ح. ع. ش. م، انظر أدناه.
(٢) شهادة صلاح العمروسي السابقة الذكر. لتتبع الآثار في صحافة الحزب، انظر على سبيل المثال "الصراع"، العدد ٢٦ (سبتمبر ١٩٧٦). ويوجد تقرير تحليلي ومفصل عن الجدل الداخلي في ح. ع. ش. م خلال السبعينيات في المخطوطة غير المنشورة لـ سمير كامل، "خلافتنا: ضد الانحراف البيروقراطي الاتعزالي التصفوي" (٤٣١ صفحة، بدون تاريخ) الذي يعيد فيها أحد أعضاء الحزب صياغة طبيعة الخلافات الداخلية ويبحث في نفس الوقت عن طرح حل يقوى للديموقراطية الداخلية ويتجنب المزيد من الانقسامات.

(٣) اتهم ٨٤ مواطناً بأنهم أعضاء في ح. ع. ش. م، لكن ينبغي أن ننكر أن الاتهام تضمن العديد من أعضاء الحزب الشيوعي "٨ يناير"، انظر حسين عبد الرازق، "مصر... المصدر السابق الذكر، ص ١٢٤.

الثورية". وبنظرة عابرة حتى على الإنتاج الصادر بين عام ١٩٧٧ ووفاة الرئيس^(١)، يتضح أن انتباه الأعضاء تركز على "القضية الوطنية" خاصة بعد رحلة السادات إلى القدس^(٢). ومن جانب، يظهر قرار الرئيس بالانطلاق في سلام منفرد عازلاً مصر عن "مجالها العربي"، أن التحليلات التي أنتجها "ح. ع. ش. م" منذ ١٩٦٩ وما بعد ذلك كانت صحيحة، ولكن على الصعيد العملي، لم تتجح المجموعة الأكثر راديكالية في "الحركة الشيوعية الثالثة" في أن تذهب أبعد من إدانة "الخيانة الوطنية" حتى إذا كان ذلك قد تم بنغمات أكثر حدة وبتحليلات أكفاً وأكثر تعقيداً عن الوضع الدولي. والأمر المثير للانتباه في قراءة إنتاج "ح. ع. ش. م" في آخر العهد الساداتي بأثر رجعي، وهو الإنتاج الذي استمر بكمية كبيرة كما سبق، هو في المقام الأول العجز عن تقديم دافع للحركة الاجتماعية للجماهير سوى معارضة "الخيانة" ثم "التطبيع" وهي المواضيع المفضلة للإنلجنسيا المصرية بشكل عام. وبالإضافة إلى ذلك من المهم الإشارة إلى الغياب المقلق لتأمل تحليلي لظاهرة تقدم الإسلام السياسي في البلاد إلا من منطلق المقارنة بين الموقف الإيراني والمصري، بعد انتصار الخميني في عام ١٩٧٩^(٣).

وهكذا لم يضارع انشغال السادات بـ "الوسواس الشيوعي" إلا قصر نظره أمام "التحديات الإسلامية" الأكثر واقعية، مما جعل اليسار الراديكالي الهدف

(١) يؤكد إسماعيل والسعيد بشكل خاطئ (p. 147) أن ح. ع. ش. م قد تقلص بعد الإنتفاضة إلى "حلقات مبعثرة". وتوقف عن إصدار صحفه الدورية بينما تمكنت أنا بنفسى من تتبع نسخ من "الشيوعي المصري" حتى نهاية عام ١٩٨١ ومن "الانتفاض" حتى الاتحاد مع ٨ يناير في عام ١٩٨٩.

(٢) انظر البيان بخصوص زيارة الرئيس إلى القدس "موقف حزب العمال الشيوعي المصري من خطوة السادات للخيانة"، ٣٠ نوفمبر ١٩٧٧ وكذلك البيان الذى تلاه بخصوص القمة المصرية الإسرائيلية بالإسماعيلية، "موقف حزب العمال الشيوعي المصري من قمة الإسماعيلية"، ديسمبر ١٩٧٧.

(٣) انظر "بيان من حزب العمال الشيوعي المصري حول سقوط نظام الشاه"، "الشيوعي المصري"، العدد ٤٣ (مارس ١٩٧٩)، ص ٦-١٠.

للمفضل للقمع الذي أصاب ح. ع. ش. م. أولاً في عام ١٩٨٠، وبشكل أقل مع الاعتقالات الجماعية في سبتمبر ١٩٨١^(١).

وتقدم رواية "ليال أخرى"^(٢) للكاتب محمد البساطي الوصف الأفضل لحالة إحباط وعجز الإنتلجنسيا العلمانية والراдикаلية المصرية أمام القمع الحكومي، والجمود الجماهيري، وإعادة أسلمة المجتمع من أعلى أكثر من الوثائق والصحافة السرية للحزب. وقد اتخذ هذا الكاتب مساراً بالقرب من تجربة الماركسية الراديكالية، وكتب هذه الرواية بعد عشرين عاماً من وقوع أحداثها بواقعية السيرة الذاتية، مصوراً روح اليسار الراديكالي في مصر في نهاية العهد الساداتي. ويتضح من هذا العمل أكثر من أي شيء آخر اغتراب المثقفين عن مجتمعهم الذي كان يشهد عملية أسلمة تتعمق باستمرار وقف أمامها الماركسيون عاجزين حتى عن إصدار تحليل لها.

وعلى عكس ما يؤكد طارق إسماعيل ورفعت السعيد^(٣)، لم يختف "ح. ع. ش. م." من الوجود بعد القمع الحكومي الذي استمر حتى في الثمانينيات، إلا أنه تقلص من حيث عدد الأعضاء، واتحد مع العناصر المتبقية من ح. ش. م. ٨ يناير في عام ١٩٨٩ مكونين "حزب العمال الشيوعي الموحد" واستمر في التواجد خاصة في

(١) "ما العمل؟"، العدد ٣٠ (فبراير ١٩٨١)، ص ١.

(٢) محمد البساطي، ليالٍ أخرى، بيروت، دار الآداب، ٢٠٠٠؛ الترجمة الإيطالية لـ باتريزيا ترانيللي Patrizia Zanelli, Roma, Jouvence, 2003. وتظهر أيضاً في الرواية "شخصيات مقنعة" لكتاب ومثقفين متنوعين من اليسار وتروى اعتقال إبراهيم فتحى في عام ١٩٨٠. ولا شك في أن ليالٍ أخرى ليست العمل الأدبي الوحيد الذي يتناول بشكل واقعي موقف المثقفين الماركسيين في السبعينيات. ويكفى أن نذكر أعمال محمود الورداني الذي كان لفترة طويلة عضواً مهماً في ح. ع. ش. م. منذ منتصف السبعينيات وحتى بداية الثمانينيات.

(٣) انظر Ismael – El-Sa'id, op. cit., p. 147.

الجامعة ممثلاً اليسار بجوار حزب التجمع والمجموعات "التروتسكية الجديدة" الحديثة التكوين^(١).

أ - ٤ - الحزب الشيوعي المصري "المؤتمر"، "ح. ش. م. م"

كان الحزب الشيوعي المصري "المؤتمر"، "ح. ش. م. م"^(٢) تنظيم أقلية من حيث عدد المناضلين ومن حيث التأثير في الحركة الشيوعية الثالثة إلا أن مسيرته مثيرة للاهتمام، وتمثل نموذجا من عدة نواحٍ لجوانب من تجربة اليسار الراديكالي في السبعينيات.

وبدلية نشأ "ح. ش. م. م" من انقسام عن "ح. ش. م" في عام ١٩٧٦ السابق الذكر، بسبب صراع بين القيادة المهيمنة وبين الكوادر الماركسية للقيمة، وبعض الأعضاء القاميين من التجربة الجامعية، والذين قرروا تحريك "حركة ثورية بين الجماهير العاملة" وبالإضافة إلى ذلك كان في خلفية انقسام المجموعة التي كونت لاحقا "ح. ش. م. م" انتقاد نظرية "ح. ش. م" القائلة باحتفاظ النظام الساداتي ببعض العناصر للديموقراطية والتقدمية التي ينبغي البحث عن إجراء حوار معها.

ويعتبر مجرد وجود تشكيل ناشئ عن انقسام حزب أكبر الشهادة الأكثر وضوحا عن غياب الديموقراطية داخل المنظمات اليسارية الراديكالية التي وقعت ضحية "أسطورة" مركزية الحزب الستاليني، مع المفارقة في تطبيق الشروط التنظيمية المتصورة لحزب جماهيري في الاتحاد السوفييتي على عشرات قليلة من

(١) من خلال المناقشات مع الأعضاء الفعليين للحزب يبدو أن عدد الأعضاء لا يزيد عن بضع عشرات حتى وإن كانت التطورات الأخيرة للأزمة الفلسطينية والعراقية زادت من عدد "العاطفين" على الحزب داخل الجامعات المصرية.

(٢) لا يبرر الدور الذي لا يمكن إنكار محدوديته لهذا الحزب على أي حال اختيار إسماعيل والسعيد تجاهل وجوده تماما كما فعلا مع العصابة التروتسكية في معالجتهم "الحركة الثالثة".

المناضلين في مصر مما نتج عنه سحق للجدل بتقل البيروقراطية غير المحتمل^(١). وبالإضافة إلى ذلك يوضح الإنتاج النظرى والممارسات السياسية للجناح الأكثر شبابا وتطرفا من الحركة والذي تمرد سابقا على "حماية" البيروقراطيين الماركسيين "القدامى والجدد، أن العوائق التى حدثت من قدرة الحركة على التحريك الاجتماعى للطبقات المقهورة لا تتمثل فقط فى "الحذر" من جانب اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى و "ح. ع. ش. م".

وفور إيضاح هذه للعوائق، ستقدم لنا مسيرة "ح. ش. م. م" عدة جوانب مثيرة للاهتمام. صحيح أن الحزب ولد من انقسام عن "ح. ش. م" فى نهاية عام ١٩٧٦، ولكن من الجدير بالذكر أن هذه المسيرة تسجل الحالة للوحيدة "خطوة توحيدية" بين الماركسيين فى السبعينيات. وفى الواقع أنه، بعد اتفاقيات عقدت على أسس من الاتصالات الشخصية فى بداية عام ١٩٧٨، انضم التكتل الخارج من "ح. ع. ش. م" فى عام ١٩٧٦ إلى "ح. ش. م. م"، محمّلا بالخبرة والإعداد النظرى لمجموعته التى انشق عنها^(٢). ومن الجدير بالذكر أن أعضاء الحزب شاركوا بشكل نشيط فى انتفاضة يناير ١٩٧٧، حيث نشروا أعدادا قليلة من المجلة غير الدورية "لجان يناير الشعبية" التى كانت ذات انتشار معقول سواء بين المثقفين أو بين العمال لأنها استهدفت استغلال الموجة الطويلة للانتفاضة من أجل إعادة تنظيم الحركة العمالية ضد النظام^(٣). إلا أن العدد المحدود للأعضاء جعل من النشر الثابت لمجلة نظرية أمرا صعبا^(٤)، وكان هذا هو السبب الذى جعل المجموعة الأصلية تستقبل بترحاب القادمين من "ح. ع. ش. م" فى منظماتها. وبالتحديد حصل

(١) يصح هذا الحديث سواء بالنسبة للحزب الشيوعى المصرى الذى اعتمد على حوالى ألف مناضل فى السبعينيات أو بالنسبة للأحزاب الأخرى التى تراوح عددها ما بين خمسين إلى أربعمئة عضو، حسب الحزب، فى أقصى درجات التعبئة.

(٢) فريد زهران، المقابلة السابقة للذكر.

(٣) أحمد كامل، المقابلة السابقة للذكر.

(٤) أصدرت المجموعة أيضا خمس أعداد فقط من المجلة النظرية "الأفق الأحمر".

فريد زهران القائم بتجربة "مجلات الحائط" الجامعية على مهمة "رئيس تحرير" المجلة الجديدة المسماة بـ "العامل" التي قدمت نفسها على أنها "جريدة كل فصائل العمال الثوريين" والتي صدر منها ٤١ عددا منذ بداية عام ١٩٧٨ حتى نهاية عام ١٩٨٠.

وكانت النقطتان الأساسيتان لبرنامج "ح. ش. م. م" ملخصتين على غلاف كل عدد من "العامل" هما بالترتيب، "رفض أى حل انهزامى وخائن" لقضية الشرق الأوسط، ورفض سياسات الانفتاح والدولة الاستبدادية والبوليسية بقيادة السادات. وبالإضافة إلى ذلك، أعلن الحزب أنه يناضل من أجل "إسقاط النظام الرأسمالي وكل مجموعات اللصوص في السلطة" وتطبيق "ديمقراطية شعبية"^(١).

وإذا ألقينا نظرة على برنامجهم، وعلى المقالات المنشورة في المجلة، يتضح أنه بعد "مبادرة" السلام التي قام بها السادات، ظلت القضية الوطنية، ومعارضة "الخيانة الوطنية" بالنسبة لصحافة الحزب الشيوعي المصري المؤتمر تمثل أولوية أيضا على حساب القضية الاجتماعية، رغم الاهتمام الكبير للحزب في نشاطه للفعل بالحركة العمالية^(٢).

وأراد "ح. ش. م. م" بالإضافة إلى ذلك تجريب الإمكانيات المحدودة التي قدمها النظام الساداتي وهكذا قدم بعض المرشحين كمستقلين في الانتخابات المنتظرة لتجديد مجلس الشعب في عام ١٩٧٩^(٣). ورغم خداع وإرهاب النظام، حصل الحزب على نتائج لافتة في عدة قرى كبرى في محافظة أسيوط في صعيد

(١) الاقتباس مأخوذ من غلاف "العامل"، العدد ٥ (٢٥ أغسطس ١٩٧٨).

(٢) انظر، على سبيل المثال، افتتاحية "قافلة الخيانة تحط الرحال في كامب ديفيد"، "العامل"، العدد ٩ (٣١ أكتوبر ١٩٧٨)، ص ٢-٣.

(٣) بخصوص أداء وبرنامج الحزب، انظر كتيب شهادي حداد، "المعارضة اليسارية في مصر وبرلمان ١٩٧٩، (بدون اسم الناشر)، ١٩٧٩.

مصر^(١)، بفضل نشاط خلية للحزب في الجامعة المحلية، رغم أنها كانت المسرح الذي شهد أحداث المواجهات الدامية بين المسلمين والمسيحيين في تلك الأعوام^(٢). وربما أمكن لهذه التجربة أن تشير إلى مسار جديد لليسار الراديكالي، ولكن في هذه اللحظة كان البحث عن تقديم علني لبرنامج ماركسي بشكل واضح يعنى استفزاز النظام الذي كان يجمع معارضي عملية السلام^(٣).

ومن التجارب الأخرى اللافتة للاتجاه إلى الصحافة للشرعية جزئيا من قبل "ح. ش. م. م"، تجربة مجلة "الثقافة الوطنية" التي أسسها فريد زهران مع الصحفي اليساري "المستقل" صلاح عيسى. ولا تعود أهمية تجربة هذه المجلة التي صدر منها عدنان فقط بين نهاية عام ١٩٨٠ وبداية عام ١٩٨١ فقط إلى كونها واحدة من الشهادات النادرة على التفاعل بين "اليساريين" المصريين، بل أيضا إلى أنها توضح رغبة بعض المناضلين في الخروج من "جيتو" النشر السري^(٤).

غير أن قمع النظام بالإضافة إلى انحسار حركة الجماهير قد وضع حداً بالتأكيد لنشاط "ح. ش. م. م" في عام ١٩٨٠ عندما ألقي القبض على كل قياداته^(٥).

(١) نفس المصدر.

(٢) أحمد كامل، المقابلة السابقة الذكر.

(٣) حسنين كشك، المقابلة السابقة الذكر.

(٤) من الجدير بالذكر أن الجريدة ذات الاتجاه الماركسي-القومي العربي احتوت على قسم أدبي ممتاز أيضا. ونشير كذلك وليس فقط "كأمر مثير للفضول" أنه في العدد رقم ٢ (يناير ١٩٨١) تم نشر مقال للباحث الإيطالي جوسيبي كونتو Giuseppe Contu عن سلامة موسى "جوزيف (هكذا) كونتو، سلامة موسى المنسوب السامي للفكر الاستعماري"، في الصفحات ٧٦-٨٢.

(٥) ذكرت المجلة التروتسكية "ما العمل" أن الشرطة ألقت القبض في ٢٨ سبتمبر ١٩٨٠ على ٥٢ عضوا في الحزب الشيوعي المصري "المؤتمر" وهو العدد الذي يولزى تقريبا أقصى عدد وصلت إليه عضوية هذا الحزب. انظر "ما العمل"، العدد ٣٠ (فبراير ١٩٨١)، ص ١. عن اعتقال فريد زهران ومتقنين شيوعيين آخرين، انظر كذلك "الثقافة الوطنية"، عدد ٢ (يناير ١٩٨١)، ص ١٠٠. وفي النهاية انظر الشهادات السابقة الذكر والمتناقضة جزئيا لفريد زهران وأحمد كامل.

أ- هـ - عصابة التروتسكيين^(١)

تعتبر عصابة التروتسكيين بلا شك أصغر مجموعة في الحركة الشيوعية الثالثة خاصة بسبب انعدام تواجدها تقريبا بين العمال إلا أن هذه هي المجموعة الوحيدة التي يمكنها "التباهي" بعدم وجود أى صلة مع مرحلة سابقة للحركة الماركسية المصرية.

جاءت نشأة "عصابة التروتسكيين" من مجموعة من طلاب اللغة الروسية في المركز الثقافي السوفييتي في القاهرة في عامي ١٩٧١-١٩٧٢، وكان النشاط الأساسي لهذه المجموعة - التي بقيت لفترة طويلة "حلقة" لمتقنين متحدثين بعدة لغات، والذين يمتلكون ثقافة واسعة - يتمثل في نشر نصوص ترجمها إلى العربية الأعضاء أنفسهم، وكانت هذه النصوص تقدم رؤية للشيوعية مختلفة عن الرؤية الستالينية السوفييتية، وقد تم إعادة إنتاجها في كتابات الماركسيين المصريين والعرب. ومن هذا المنطلق رأى بشير السباعي المحرك الرئيسي للمجموعة في الحلقة التروتسكية السيريالية بقيادة الشاعر جورج حنين التي نشطت في القاهرة في نهاية الثلاثينيات ومنتصف الأربعينيات "سافا لامعا" للعصابة، ويعود ذلك بالذات إلى بحث تروتسكيي السبعينيات عن استعادة السمات الأممية، والروح الكوزموبوليتانية عند حلقة جورج حنين، والتركيز على الجدل النظري على نطاق واسع، وهو الأمر الذي كان ممكنا بسبب إجادتهم للغات أوروبية^(٢).

(١) إلى جانب الاقتباس من المصادر المكتوبة، استندت إعادة الصياغة هذه إلى مقابلة شخصية مع بشير السباعي المؤسس والمنظر الرئيسي للعصابة (القاهرة ٦ يونيو ٢٠٠١).

(٢) انظر الفصل الثاني، على سبيل المثال، انظر بشير السباعي، المصدر السابق الذكر، ص ٩-٣١.

تواجد للثروتسكيون أيضا في الحركة الطلابية في الأعوام ١٩٧١-١٩٧٣ خاصة في جامعات العاصمة والإسكندرية رغم قلة عدد المناضلين. وفي هذه الحالة استطاع الثروتسكيون عرض مقاربة مختلفة، وإن كانت محدودة النجاح "القضية الوطنية" التي كانت القضية الكبرى في هذه السنوات.

ولم يكن لدى المتقنين الثروتسكيين أي برنامج لتأسيس بنية تنظيمية، ولم يفكروا في الحركة المباشرة بين الطبقات العاملة، بل كرسوا أنفسهم فقط لمهمة نشر وثائق "الأممية الرابعة" وتاريخ الحركة الشيوعية العالمية بالإضافة إلى دراساتهم عن القضايا المحلية والدولية عبر نصوص مكتوبة بخط اليد ومصورة كما أسلفنا الذكر. وصبت نتائج دراسات الأعوام بين عام ١٩٧٢ وعام ١٩٧٥ في المجلة غير الدورية "الثورة الدائمة" التي ظهرت فيها كتابات المناضلين، وفي ملحقاتها المخصصة لموضوع واحد "كراسات الثورة الدائمة" والمكرسة أساسا لترجمة الدراسات المنشورة بلغات أخرى، أو نشر تحليلات ثروتسكيين عرب آخرين. وقامت الكراسة المخصصة للثورة العربية، التي قامت بها مجموعة ثروتسكية لبنانية في عام ١٩٧٤ بالذات، تحليلًا مثيرًا للاهتمام وغير مسبوق لتوجهات اليسار الراديكالي في العالم العربي استطاع أن يجذب انتباه مناضلي الأحزاب الشيوعية الأخرى^(١).

وكانت هناك نقاط التقاء على المستوى النظري بين مجموعة الثروتسكيين و"ح. ع. ش. م"، الذي كانت لهم معه اتصالات وثيقة فيما يخص النشاط المشترك في الجامعة. وعلى أي حال تم تأسيس عصابة الثروتسكيين رسميا في يناير ١٩٧٥ تحت ضغط مجموعات الثروتسكيين في لبنان والعراق، وقد نشرت "تقريرها البرنامجي" الأول في ديسمبر من نفس العام^(٢). وكان البرنامج، كما سبق القول،

(١) انظر "الثورة العربية. طبيعتها ووضعها للراهن وآفاقها"، كراسات الثورة الدائمة، مارس ١٩٧٤، (٥٠ صفحة بخط اليد).

(٢) انظر "تقرير الوضع الراهن"، ديسمبر ١٩٧٥.

قريبا في بعض النقاط من موقف "ح. ع. ش. م"، وخاصة فيما يتعلق بتحليل النظام الحاكم والنظام الناصري اللذين رأى التروتسكيون استمرارا كبيرا بينهما. وأدى القبض على العديد من المناضلين بعد تواجد محدود للعصبة في الورش البحرية في الإسكندرية إلى تعليق مؤقت لنشاط المجموعة.

وقد أدت تجربة المعتقل إلى تجنيز مواقف التروتسكيين ودفعتهم إلى القيام بدعاية واسعة، والتركيز على قضايا اجتماعية، عادة بالتعاون مع تشكيلات أخرى من اليسار الشيوعي^(١). ومن هذا المنطلق اتخذت العصبة في عام ١٩٧٩ مجلة "ما العمل؟" أداة ذات محتوى مناسب للنشر بين الجماهير. غير أنه كان من الآثار الجانبية لهذا الاهتمام الجديد "بالقضايا الداخلية للبلاد" تركيز العصبة، كما حدث بالنسبة للأحزاب الأخرى، على "القضية الوطنية" ورفض كل التطبيع مع إسرائيل بعد توقيع معاهدة السلام^(٢).

وقد أدى نشر المجلة إلى جعل العصبة هدفا لقمع النظام الذي ألقى الجزء الأكبر من المناضلين في السجن في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٨٠ و ١٩٨١. وأخيرا وضعت موجة عالية من الاعتقالات في عام ١٩٨٥ حدا لمسيرة المجموعة التروتسكية التي نشأت في السبعينيات.

إلا أن التاريخ أعاد الاعتبار للحركة التروتسكية المصرية التي توسعت فلم تعد أقلية ضئيلة. فقد أثارت أزمة اليسار المصري التي ضخمها انهيار الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٩١ إلى إحياء اهتمام غير مسبوق تقريبا بالأفكار التروتسكية خاصة في المجال الجامعي حيث تخطى عدد الأعضاء والعاطفين لحقتين تروتسكيتين على الأقل - يغلب عليهما استلهام الفكر "النيو-تروتسكي" للمثقف

(١) يذكر بشير السباعي أن عدد أعضاء العصبة في لحظة توسعها القصوى في نهاية السبعينيات لم يتخط الأربعين فردا بينما كان يتم طبع حوالي ١٥٠ نسخة من مجلة "ما العمل؟".

(٢) انظر، على سبيل المثال، افتتاحية "ما العمل؟"، العدد ١٠ (١ فبراير ١٩٨٠)، ص ١.

والمناضل البريطاني تونى كليف Tony Cliff (١٩١٧-٢٠٠٠)^(١) - عمليا وبمسافة كبيرة عدد نظرائهم فى الأحزاب الشيوعية الأخرى المستمرة، وصاروا يتنافسون فى النشاط والعلنية مع شباب حزب التجمع.

ب- أيديولوجية الحركة الشيوعية الثالثة: نظرة عامة

تحدث المتق والمناضل حاتم المصرى فى عام ١٩٨٠ أثناء كتابته تحليلا نقديا للتجربة الشيوعية فى السبعينيات بينما كانت "الحركة الثالثة" تتحرك، وكانت الأحزاب المختلفة ما تزال تعمل، عن أزمة مزدوجة للحركة: أزمة أيديولوجية، وأزمة ممارسة^(٢). ووفقا لهذا الكاتب - الذى يعتبر نفسه بنقده ذلك، على يسار الحركة - تعتبر محدودية القدرة على تحريك جموع الجماهير، نتيجة مباشرة لأيديولوجية البورجوازية الصغيرة التى اتصفت بها كل الحركة الماركسية المصرية "الجديدة" من اليمين الذى يحدده حاتم المصرى على أنه "ح. ش. م"، إلى أقصى اليسار الذى يعيد تحديده على أنه "ح. ع. ش. م" وسلفه "ت. ش. م".

(١) يوجد تلخيص لفكر هذا الكاتب بخصوص قضية الشرق الأوسط ويستشهد به كثير من شباب المناضلين المصريين فى كتاب Cliff, Tony, "The Struggle in the Middle East (1967/1990)" in Idem, International Struggle and the Marxist Tradition, Selected Works Vol. 1, London, Bookmarks, 2001, p. 43-51.

(٢) انظر حاتم المصرى، "الحركة الشيوعية المصرية الثالثة. النشأة وطبيعة الأزمة. موقف نقدي" (بدون اسم الناشر)، ١ يوليو ١٩٨٠. والمقال فى شكل كتيب مطبوع بطريقة الماستر من ١٤٦ صفحة. واسم المؤلف هو اسم مستعار، ربما لمناضل سابق فى ج. ع. ش. م، لم أستطع التأكد من هويته. ورغم أن النص لم يتم نشره مطلقا فقد حقق انتشارا واسعا فى أوساط المناضلين فى أوائل الثمانينيات. وقد حصلت على نسخة منه بفضل أحمد بهاء شعبان الذى أهدانى إياها.

وبعيدا عن هذا النقد النضالي الذي تظهر فيه نفس الحدود التي يتهم المؤلف "متقفي البورجوازية الصغيرة" بها، يهدف مقال حاتم المصري إلى إلقاء الضوء على أن المسافة بين المجموعات المختلفة ليست واسعة إلى هذا الحد، كما توحى الانقسامات والانفصالات العديدة، إذا ما حللنا النقاط الأساسية لإنتاجهم النظري^(١). وسنقدم في هذا القسم الختامي وكتكملة لما تم عرضه في الصفحات السابقة مواقف الأحزاب المختلفة تجاه المسائل النظرية الأهم، منطلقين من "تحدي" حاتم المصري هذا، بهدف توضيح دوافع الانقسام ودوافع التلاقى العارضة. ومن هذا المنطلق، وكذلك بناء على شهادات المناضلين في اللقاءات، تم التعرف على ثلاثة مواضيع أساسية يمكن المقارنة على أساسها بين مواقف المجموعات المختلفة. وهذه الموضوعات هي مسألة طبيعة السلطة الناصرية وعلاقتها بالسلطة الساداتية، وطبيعة الثورة المقبلة، وأخيرا الطبقة الاجتماعية للاتحاد السوفييتي.

وكما سبق القول فإن "النصوص المؤسسة للنسار الجديد" الراديكالي هي تلك الخاصة بطبيعة السلطة التي كتبها إبراهيم فتحى في بداية السبعينيات. وقد اعترف حتى حاتم المصري بأهمية هذه المقالات^(٢)، التي مثلت قطيعة حقيقية مع موقف الماركسيين العرب بخصوص النظام الناصري. ويعد التجديد الأكبر الذي قدمه إبراهيم فتحى^(٣) هو التحديد الدقيق للطبقة الحاكمة باعتبارها "البرجوازية البيروقراطية" التي حلت محل للبرجوازية المصرية التقليدية نافيا كل مبالغة في

(١) نفس المصدر، ص ١٢٩ وما يليها.

(٢) نفس المصدر، ص ١١٧.

(٣) يظهر التحليل الأكثر اكتمالا للنظام الناصري في الكتابات التي صدرت في الفترة ما بين ١٩٧٠ و ١٩٧١ في مصطفى مرسى على (الاسم المستعار لـ إبراهيم فتحى)، "طبيعة السلطة الطبقية في مصر وطبيعة الثورة للقائمة والتحالف الطبقي في مصر" (١٩٧١)، والتي أعيد طبعها بصحبة مقامة لـ صالح محمد صالح (خليل كلفت) في كراسات "الطريق" الدورية، عدد ٤ (يوليو ١٩٨١)، ص ١-٢٧. وقد أخذت النقاط الأساسية في التحليل أيضا من الصفحات الأولى من "برنامج" ح. ع. ش. م، يوليو ١٩٨١.

أى طابع تقدمى لنظام عبد الناصر. وهكذا حل محل التصور الفضايف "عن طبقة جديدة" لدى مجموعة "الطليعة" كظاهرة لا تمثل جوهر النظام الناصري التحليل الذى قمنه إبراهيم فتحى للنظام الناصري باعتباره نظام "الطبقة البرجوازية البيروقراطية"، التى حلت محل البرجوازية التقليدية، بعد التدابير الاقتصادية التى بدأت بالتمصير وانتهت إلى التأميمات المسماة بالاشتراكية فى عام ١٩٦١. ولشرح عزلة "البرجوازية البيروقراطية" المصرية عن "مجالها الطبيعي" المتمثل فى النظام الرأسمالى الغربى، نظر إبراهيم فتحى إلى التقارب الوثيق للنظام الناصري مع الاتحاد السوفيتى و"المعسكر الاشتراكى" على أنه نو طبيعة اضطرارية بعد إخفاق كل محاولات النظام الجديد بعد حركة ٢٣ يوليو للتقارب مع الولايات المتحدة الأمريكية والاعتماد عليها خاصة فى تسليح الجيش وتمويل السد العالى. كما أن النظام الناصري عمل إلى جانب علاقاته الوثيقة مع الاتحاد السوفيتى على فتح الكثير من المجالات للتقارب من جديد مع الغرب والولايات المتحدة بوجه خاص ضمن السياق العام لاستعادة العلاقة الطبيعية مع للرأسمالية العالمية و"حل تناقضاته مع الإمبريالية" كما تنبأت وثائق "ح. ع. ش. م" (١). ووفقا لهذا المنطق يمكن تفسير "انقلاب" السادات على أنه نتيجة منطقية لهذا الاتجاه الإستراتيجى للبرجوازية البيروقراطية المتمثل فى العودة إلى "بيتها الدولية الطبيعية"، كما أوضح توسع القاعدة الاجتماعية للنظام بقيادة الرئيس الجديد بعد أحداث مايو ١٩٧١ (٢).

(١) كمثال على تأثير تحليلات إبراهيم فتحى، انظر: على سبيل المثال، مقال هانى شكرالله، المصدر السابق الذكر Hani Shukrallah, Political Crisis..., cit.

(٢) تطورت تحليلات العلاقات بين النظام الناصري والساداتى فى كتاب صالح محمد صالح "البرجوازية البيروقراطية: بين الفهم الماركسى وشعوذة المتمركسين. مناظرة موجزة مع الرفيق ط. ث. شاكى وآخرين (١٩٧٥)، وقد أعيد طبعه فى "الطريق" (كراسات دورية)، العدد ٥ (أغسطس ١٩٨١).

ومن الواضح أن نظرية "ح. ع. ش. م" التي سبق تلخيصها، تتعارض مع موقف "الحرس القديم" الماركسي الممثل في "ح. ش. م" ("الشروق" حتى عام ١٩٧٥). وكما سبق الذكر، أعاد منظرو هذه المجموعة طرح الرؤية الغالبة في فترة الخمسينيات التي أدت إلى اتخاذ القرار بحل الأحزاب الشيوعية في عام ١٩٦٥. فوفقا للحزب الشيوعي المصري، تمثل ثورة يوليو خطوة ضرورية، هي خطوة "الثورة الديمقراطية" في الطريق إلى نظام اشتراكي. ومن المهم التشديد على أن منظري "ح. ش. م" لم ينفوا وجود قوى رجعية داخل النظام، ولكن وفقا للنظرية المسماة بـ "ثلاثة أثلاث السلطة" كان النظام مكونا من ثلاثة أجزاء مختلفة، أحدها "عملاء الإمبريالية" والآخر "القوى الديمقراطية والتقدمية" والآخر هو "المتربدون". ومن هذا المنطلق يصبح دور الشيوعيين هو مساندة العناصر التقدمية داخل النظام لتهميش الرجعيين وجذب "المتربدين" إلى "الجهة الصحيحة"^(١). ومن هذا المنطلق، يمثل "انقلاب" السادات الذي تخلص من "اليسار الناصري" - وهو التعبير عن الجزء التقدمي للبورجوازية الوطنية و"المنتجة" تبعا لرؤية "ح. ش. م" - لصالح اليمين الرجعي "ثورة مضادة" بحق، وهو ما يجعل إعادة تشكيل حركة ماركسية مستقلة من الأمور الضرورية. فبعد "الخطوة الوطنية" التي تمت في أكتوبر ١٩٧٣. "انتصرت" الثورة المضادة مع بداية عملية السلام المنفصلة المصرية الإسرائيلية، والتي عززت ردة^(٢) النظام الساداتي ضد ثورة يوليو، و"عودة [مصر] الواضحة" إلى المعسكر الإمبريالي، وتكريس ديكتاتورية البورجوازية الطفيلية القديمة والجديدة داخل نظام السلطة^(٣).

(١) تعرفت على هذه النظرية التي طورها ميشيل كامل في بداية السبعينيات من خلال كمال خليل في المقابلة السابقة الذكر.

(٢) تدل هذه اللفظة التي استخدمت بتوسع في أدبيات الحزب على المعنى الكلاسيكي للردة وتشير أساسا إلى تمرد القبيلة العربية (أهل الردة) على أول الخلفاء الراشدين بعد وفاة الرسول.

(٣) تم استخلاص موقف ح. ش. م من برنامج الحزب في ١٩٨٠. انظر ح. ش. م، برنامج الحزب، سبتمبر ١٩٨٠، ص ١-١٠.

وتقع مواقف المجموعات الأخرى على طرفي النقيض هذين، إلا أن طرح موقف "ح. ع. ش. م" الذي ساندته الأسلوب واللغة الأقل "جفاقا" واصطلاحية من النصوص الماركسية للنظرية العربية، كان له تأثير كبير كما سبق وذكرنا على كل اليسار الراديكالي المصري. ويقدم استخدام مفهوم "البرجوازية البيروقراطية" من جانب منظري الأحزاب الأخرى أيضا النموذج الأوضح على هذا التأثير. أما بالنسبة للحزب الشيوعي "٨ يناير" فقد تبنى موقف "ح. ش. م" ولغة "ح. ع. ش. م" فقد رأى أيضا منظرو هذا التنظيم في النظام الناصري الذي شددوا على جانبه الديماجوجي والشعبي ثلاثة أجزاء متصارعة، ومع التخلص من "اليسار" من جانب ما سمي بالبرجوازية البيروقراطية في مايو ١٩٧١، تفوق يمين النظام على "الوسط المعتدل" فاتحا الطريق أمام البلاد صوب فلك المعسكر الإمبريالي الأمر الذي تعزز بعملية السلام مع إسرائيل^(١). هذا بينما يقدم موقف عصابة التروتسكيين تجاه هذه القضية عنصرا "غربيا" بالنسبة للمجموعات الأخرى، حيث كانت تنفي امتلاك برجوازية الدولة لهذه السيطرة الكاملة على الدولة. وعمليا نفى التروتسكيون التطابق بين البرجوازية والدولة، التي تعد الأخيرة تعبيرا عنها، مدللين على الخصائص "البونابرتية" للدولة المصرية، ونجد مفهوم "البونابرتية" أيضا في وثائق "ح. ع. ش. م"^(٢).

والنقطة الأساسية الثانية هي الخاصة بطبيعة "الثورة المقبلة"، وبعد نقد حاتم المصري قاسيا في هذه النقطة، حيث لا يمكن لأي من الأحزاب، وفقا لتحليله، أن يعتبر نفسه شيوعيا حقا، حيث لم يستطع أي منها تصور ثورة اشتراكية لانتزاع السلطة بالعنف من جانب البروليتاريا^(٣).

(١) انظر "الحزب الشيوعي ٨ يناير، الحلف الطبقي المصري الحاكم"، بدون تاريخ، ص ٢٥-٣٠.

(٢) انظر صلاح عزيز (بشير السباعي)، "عن طبيعة الدولة"، كراسات الثورة الدائمة، بدون تاريخ، ص ٣ وما يليها. بخصوص مفهوم الدولة البونابرتية، انظر الفصل الأول.

(٣) انظر حاتم المصري، المصدر السابق للذكر، ص ١٣٧ وما يليها.

وعلى أى حال، يعد موقف "ح. ش. م" متسقاً مع رؤيته للنظام، وإن كان قد خضع لتغيير مساره خلال هذا العقد مع مجئ "الثورة المضادة". وفقاً لبرنامج هذا الحزب، يجب أن تكون طبيعة الثورة "وطنية ديموقراطية" تبعا للنظرية الستالينية للمراحل الثورية "للدول النامية". وقد برر "ح. ش. م" هذه النظرية مدعماً ذلك بالقول بعدم وجود "الشروط الموضوعية" لتأسيس نظام اشتراكي حقيقى فى مصر. وهكذا كانت الإستراتيجية المختارة للحزب منذ الفترة الناصرية، تصبو إلى تحالف الطبقة العاملة مع الجزء للتقدمى من البورجوازية حتى يتم تأسيس نظام ديموقراطى، وهذه هى الخطوة الأولى الإلزامية نحو "التحول الاشتراكي" للدولة^(١). ووفقاً لهذا المنطق، يصبح من المفهوم كما سبق القول، دعوة الحزب إلى عدم "هم النظام"، ورفض العنف كوسيلة للصراع، ولكن كما سبق وقلنا أيضاً دفعت "خيانة" السادات المناضلين إلى المطالبة بالإطاحة به، رغم إدراكهم قيام "ديكتاتورية رأس المال الطفيلي" بتهميش العناصر التقدمية المقترضة داخل النظام^(٢).

كذلك يتميز "ح. ع. ش. م" بموقفه الإستراتيجى الحاسم عن طبيعة الثورة المقبلة باعتبارها الثورة الاشتراكية كما تؤكد وثائق "ت. ش. م" منذ البداية^(٣). على أن الأهداف التكتيكية للحزب تمثلت فى شعار "الجمهورية البرلمانية" ثم فى شعار "جمهورية ديموقراطية" يمكن للطبقة العاملة فيها أن تحصل على دور الطليعة كما جاء فى مقال صالح محمد صالح فى عام ١٩٧٥^(٤).

أما فيما يخص الحزب الشيوعى "٨ يناير" فإننا نجد أنفسنا أمام خطين سياسيين، وبرنامجين مختلفين، فبينما رفعت القيادة شعار "الجمهورية البرلمانية الديموقراطية" كخطوة أولى بعد هدم النظام القائم، كان الجناح "الطلابى" أقرب لموقف "ح. ع. ش. م".

(١) انظر ح. ش. م، "برنامج...."، المصدر السابق للذكر، ص ١٤ وما يليها.

(٢) انظر أعلاه فى هذا الفصل.

(٣) انظر مرسى مصطفى على، "طبيعة السلطة الطبقة.."، المصدر السابق للذكر.

(٤) انظر صالح محمد صالح، "حول شعار الجمهورية الديموقراطية"، "الشراع"، العدد ١٩ (مارس ١٩٧٧). أيضاً صالح محمد صالح، المقابلة السابقة للذكر.

وكان موقف عصابة التروتسكيين مرتبطا برفض النظرية الستالينية القائلة بالمراحل الثورية، إلى جانب رفض عقيدة "بناء اشتراكية في بلد واحد". ونجد صدى لهذه المواقف في إصدارات "الفترة الأولى" عندما لم يكن نادي المتقنين التروتسكيين قد أعلن بعد كعصابة ولا اهتم بتحليلات الموقف الداخلي في مصر. غير أنه في فترة النشاط الكبير المجسدة في مجلة "ما العمل؟" اقترح أعضاء العصابة مولد "جمعية تأسيسية"^(١).

وبالنسبة لموقف الأحزاب المختلفة تجاه الاتحاد السوفييتي، يجب القول بأن الاختلافات طفيفة، عدا الاستثناء المتوقع للعصابة التروتسكية. وبالتحديد أكد "ح. ش. م" و "ح. ش. ٨ يناير" في كل تحليلاتهم على أهمية الاتحاد السوفييتي، والمعسكر الاشتراكي كحليف لحركات التحرر الوطني ضد الإمبريالية وك "طليعة للاشتراكية" بينما اتخذ "ح. ع. ش. م" منذ البداية موقف الرفض الحاسم تجاه المراجعة السوفييتية والكثير من جوانب سياسات الاتحاد السوفييتي وبوجه خاص المهادنة تجاه الغرب وسياسته في الشرق الأوسط، لكن مع رفض النظرية الصينية عن "الإمبريالية الاشتراكية السوفييتية"^(٢). وانطلاقا من موقف "ح. ع. ش. م" إزاء الاتحاد السوفييتي والمتمثل في النظر إليه على أنه نظام اشتراكي رغم أن المراجعة تهدد على المدى الطويل باستعادة الرأسمالية هناك فقد أدان هذا الحزب إلغاء معاهدة الصداقة المصرية السوفييتية من طرف واحد على يد السادات في عام ١٩٧٦^(٣).

(١) انظر "حول الجماعة التأسيسية"، "ما العمل؟"، العدد ٣٢ (أبريل ١٩٨١)، ص ٢ وما يليها.

(٢) حسنين كشك و خليل كلفت، المقابلات السابقة الذكر.

(٣) انظر "تصفية العلاقات مع الاتحاد السوفييتي هو الوجه الآخر لتحالف سلطة الخيانة مع الاستعمار العالمي"، "الانتفاض"، السنة الرابعة، العدد ١٢ (٢٠ مارس ١٩٧٦)، ص ١-٩.

أما فيما يتعلق بالتروتسكيين فيبرز كتاباتهم التحليل المعروف الذى تبنته "الأممية الرابعة" للاتحاد السوفييتى الستالينى "كدولة عمالية متدهورة" بالإضافة إلى الجدل ضد النظام الستالينى وبعد الستالينى المائل دائما فى إنتاج العصبية لدرجة أننا كثيرا ما نعثر على تعبير "الدولة الستالينية" و"السلطة الستالينية" بدلا من الاتحاد السوفييتى^(١). وإنصافا لنقد حاتم المصرى، ينبغى أن نذكر أنه حتى عصبية التروتسكيين لم تنف أحيانا "الدور التقدمى" للسياسة الخارجية السوفييتية، متفقا على هذا النحو مع الموقف الأكثر انتشارا فى "الحركة الثالثة"^(٢).

ولكى نتتبع بعض الاعتبارات الختامية بخصوص اليسار الراديكالى، ربما كان علينا أن نعود إلى "الموقف النقدى" لحاتم المصرى. ففي خاتمة قراءته للحركة الشيوعية الثالثة، يحكم عليها الكاتب بأنها مصابة بما أسماه بـ "تهادن روى"^(٣). ووفقا لحاتم المصرى خانت الأحزاب الراديكالية فى السبعينيات "مهمتها" تجاه جماهير العمال بتبنيها نسخة "باهتة" للماركسية اللينينية قامت بإقصاء تلك الأحزاب عبر منظور ثورى بحت، عازلة لها عن الجماهير "بانسحاق بيروقراطى" بورجوازي صغير^(٤). ولا يمكننا بلا شك إلا أن نتفق مع حقيقة أن كل الأحزاب نبتت من منطيات مثقفين مدينين ممثلين للطبقة الوسطى ومعزولين تماما تقريبا عن الطبقة العاملة إلا أن "الخطأ الأكبر" للماركسية الراديكالية وفقا لرؤية حاتم المصرى تتمثل فى مراهنه هذه الأحزاب تماما على التبشير فى صفوف الطلبة على حساب العمال والفلاحين "مبررة" هذا الاختيار فى بعض الوثائق النظرية البرنامجية خاصة فى حالة "ح. ع. ش. م" ولا يمكننا فى هذا الصدد أن نلاحظ وجود قصور كبير فى النقد النضالى لحاتم المصرى. فهو يتبنى فى واقع الأمر وجهة النظر القائلة بأن الأيديولوجية "الإصلاحية" للحركة أدت إلى أزمته السريعة. ودون أن ننسى أن حاتم المصرى كتب فى نفس الفترة التى "انفجرت"

(١) انظر، على سبيل المثال، "الثورة العربية...."، المصدر السابق الذكر.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر حاتم المصرى، المصدر السابق الذكر، ص ١٣١-١٣٢.

(٤) المصدر السابق.

فيها أزمة الحركة في مواجهة عجزها عن طرح بديل شعبي للمشروع الساداتي والإسلامي، من الضروري أن نؤكد أن تحليلات إبراهيم فتحى فى الأعوام الأولى من السبعينيات لنظام عبد الناصر كانت تمثل الموقف الجذرى الوحيد المتوقع من أى اتجاه راديكالى. أما فيما يتعلق بعجز الماركسيين عن التغلغل داخل الطبقة العاملة فينبغى ألا نغفل أن الأبوية والديماجوجية الناصرية، المجسدة فى نموذج بدائى لـ "تولة رفاة" غير مسبوقة مطلقا فى تاريخ البلاد، جمدت الجماهير وجعلتها مستعصية على أى مبادرة سياسية تضع نفسها خارج النظام. ووفقا لهذا المنطق، لم يكن موقف التركيز على الجامعة والقضية الوطنية قبل عام ١٩٧٣ اختيارا حرا بقدر ما كان "اختيارا إجباريا" حيث وفرت الجامعة المساحة الوحيدة المتحررة جزئيا من الوجود الخائف للنظام، ومثلت القضية الوطنية والقومية على الأقل منذ بداية تزايد الأزمة الاقتصادية التى تسبب فيها الانفتاح قناة التحرك الوحيدة التى يمكنها تخطى الحدود التى وضعتها الحكومة. ولإثبات ذلك يكفى أن ننكر أنه حتى الحركة الإسلامية الأكثر نجاحا فى فترة لاحقة قامت بخطواتها الأولى فى الجامعات فقط بعد اليسار بأعوام قليلة.

وهكذا إذا كان علينا أن نوجه نقدا لليسر الراديكالى فى عموميه فسيتركز على إصراره على رؤية القضية الوطنية كصورة وحيدة للحركة حتى عندما أظهرت الجماهير، بشكل تلقائى، سخطها بعد تكثيف الانفتاح والتخلى المترديد عن الضمانات الاجتماعية، وقيام الدولة واقعا بفسخ "العقد الاجتماعى" الذى يربطها بالشعب.

وختاما لا يجب على أى تحليل لتجربة اليسار الراديكالى أن ينسى أن الأحزاب التى تم تحليلها هنا كانت جميعا سرية، وخاضعة لقمع قاس وثابت من قبل أجهزة الأمن. وهذا الواقع البسيط لا يمكنه تبرير عجز المثقفين "الثوريين" بأى حال عن مخاطبة الجماهير إلا أنه عامل ضرورى إذا أردنا أن نحكم بشكل موضوعى ومتوازن على الحركة والإنتاج الثقافى لهذا الجزء الهام من الماركسية المصرية.

استنتاجات

يمكن قراءة سيرة الماركسية المصرية في الفترة ما بين النكسة واغتيال السادات كتاريخ "هزيمة"، خاصة إذا حكمنا عليها من وجهة نظر الممارسة السياسية، وإذا نظرنا إليها من خلال فترة محدودة من الزمن. وتلقى التحليلات السابقة - التي تركزت على الإنتاج الثقافي أو تجربة الصراع الفعلى اليسار المصرى - الضوء على عدة عناصر تقدم شرحا لهذه الهزيمة التى يمكن رؤيتها كذلك فى صورة "انكفاء على الذات". وإذا كان جزء لا بأس به من المراقبين مثل بعض المناضلين يرى فى القمع الرهيب للنظام بمساعدة حركة الجماعات الإسلامية المضادة للماركسية سببا رئيسيا لخسوف "البديل الماركسى" فى نهاية السبعينيات، بعد أعوام من النجاح النسبى فى الحياة السياسية للبلاد، فعلى أن نوضح أن هذا الدافع لا يبدو مقنعا بالمرّة.

لقد شاهدنا أن القصور الأكبر لليسر كان عدم النجاح فى تحريك الجماهير. ومما لا يمكن إنكاره أن هذا الهدف لم تصل إليه الكوكبة التى ظلت على شكل جماعات من المثقفين نوى الأصول البورجوازية الصغيرة والمتوسطة المتركة فى المدن الكبيرة فى البلاد وخاصة العاصمة. إلا أن هذه الملاحظة لا يمكنها على الرغم من ذلك أن تفسر وحدها سبب ضالة قدرة الأفكار الماركسية على التغلغل داخل الطبقة العاملة خاصة إذا رأينا أن الحركة الشيوعية فى الأربعينيات، كانت ذات قيادات من أصول اجتماعية بورجوازية عليا، إن لم نقل أرستقراطية كما تصدى لقيادتها مناضلون من أصول أجنبية، نجحت فى توحيد الطلبة والمثقفين فى الطبقات الفقيرة مشكلين خطرا حقيقيا على الحكومة. غير أن من الممكن أن نجد إشارة ما إذا نظرنا بشكل مقارن على النشاط الماركسى فى الأربعينيات. فكنالك فى هذه الحالة ولدت الحركة الماركسية من أندية المثقفين الحضريين، ولكن مع الفارق

الكبير الذى يتمثل فى أن هذه اعتمدت على النشاط فى المصانع، وعلى نطاق أضيق فى الريف قبل تأسيس المنظمات السياسية بشكلها المكتمل. باختصار بحث هؤلاء عن القاعدة الاجتماعية الخاصة بهم، والتي عثروا عليها فى العمال المتخصصين لما سميت بـ "الصناعات الإستراتيجية" الأكثر حساسية للدعاية الثورية. وكثيرا ما تتم هذه المقارنة حتى الوقت الراهن، خاصة من جانب مناضلى "الحرس القديم" الماركسى لإيقاظ الحنين إلى "الفترة الذهبية" للشيوعية المصرية فى مواجهة أزمة الحركة التى انفجرت فى عهد السادات. إلا أن خيار تقديم ملخص لكل المسيرة الماركسية كمقدمة لدراسة الموضوع الرئيسى لهذا البحث يجب أن يختم هدف الابتعاد عن هذه التفسيرات التى تبدو ميكانيكية للغاية. فمما لا شك فيه أن اليسار وصل إلى القمة من حيث عدد المناضلين والوجود النشط فى الحياة السياسية للبلاد فى الأربعينيات، إلا أن من الواضح كذلك أن بعض نواحي القصور التى أصابت الماركسية المصرية اللاحقة جاءت من تجربة الحركة الثانية. وبالإضافة إلى ذلك لا ينبغي أن ننسى أنه بين مسيرة الحركة فى الأربعينيات و"الحركة الثالثة" فى السبعينيات والثمانينيات تقع "القطيعة" الأساسية للفترة الناصرية.

ولنلخص الأمر، يمكننا تأكيد أن نشأة الحدود البرامجية للمنظمات الماركسية التى تم تحليلها فى هذا البحث قد انبثقت جزئيا من تجربة "الحركة الثانية" بينما عاد جزء كبير من صعوبات الماركسيين وسط الجموع الشعبية إلى التجربة الناصرية؛ ومن الواضح أن هذا "التراث" نتج عن تفاعل بين هذين الأمرين وأضاف إلى التقلبات الاجتماعية-الاقتصادية قبل التقلبات السياسية فى الفترة الساداتية. وذلك حتى دون حساب ردود أفعال اليسار سواء فى المجال النظرى أو العملى على هذه التغيرات الجذرية؛ وهى ردود أفعال لم تكن دائما مناسبة، ولا تتلاءم مع السخط المتنامى للجماهير، كما رأينا سواء بسبب التحليلات غير الكافية أو بسبب الصعوبة الموضوعية للتواصل.

وتلقى تحليلات إنتاج الإنتلجنسيا الماركسية في فترة ما بعد النكسة، أي موضوع الصفحات السابقة، الضوء على أن "القضية الوطنية" كانت هي الموضوع المهيمن على الصفوف الماركسية كلها في الفترة الخاضعة للبحث، على حساب القضية الاجتماعية. وإذا كان من الممكن إدراك أن "الهزيمة" والأزمة التي تلتها كانت أمرا لا يمكن تجنبه بشكل ما نتيجة لهذا الاختيار، فلا ينبغي أن ننسى أن هذا لا يمثل أمرا جديدا بالنسبة لليسر المصري في جميع تجلياته. فقد خضعت حركة الأربعينيات، التي نشأت عالمية وكوزموبوليتانية، لتحول قومي بعد تكبة عام ١٩٤٨ مع هزيمة الجيوش العربية في حرب فلسطين التي شهدت أول انتصار إسرائيلي؛ ففي هذه الحالة ارتفع داخل الحركة الماركسية التي كان قد أضعفها القمع الحكومي شعار "تمصير القيادات" حيث كانت القيادات حتى تلك اللحظة مكونة من متقنين يهود متمصرين وعلى رأسهم هنري كورييل. وعلى المدى البعيد لم يكن ثقل هذا التحول "الشوقيني" لجزء من الحركة الماركسية هينا، ولا يعود ذلك إلى فقدان عدة منظرين لامعين أجبروا على النفي من قبل السلطة فقط، بل يرجع أساسا إلى الخلط بين الوحدة العربية والماركسية. ومن هذا المنطلق يمكننا أن نعيد وضع التأكيد المستقر لـ محمد سيد أحمد - الذي بدأ نضاله الماركسي الطويل في الأربعينيات - في مكانه الصحيح، إذ يرى أنه "لم تكن هناك أبدا حركة ماركسية مصرية حقيقية، لكن فقط حركة يهودية وحركة قومية يسارية"^(١). ولا يمكن أن نتبنى هذا الفرض كما هو، إلا أنه يدعونا للتأمل في "الجذور الأعماق" لحدود التجربة الماركسية في السبعينيات.

وإذا كانت هزيمة ١٩٤٨ قد وضعت الأرضية المناسبة لهذا الخلط بين الأفكار الماركسية ونظريات الوحدة العربية، فقد كان على النظام الناصري أن يستغل هذا الجانب من الحركة الماركسية لخدمته. ولكن تحليل النظام الناصري في سماته الديماجوجية والشمولية يعد أمرا أساسيا في المقام الأول لنصل إلى صعوبة،

(١) محمد سيد أحمد، المقابلة السابقة الذكر.

إن لم نقل استحالة، انتشار اليسار بين الطبقات الدنيا. وفي الواقع كانت "النتيجة" الأكثر وضوحاً للنظام الناصري، المؤسس على الكاريزما و"القبول الشخصي" بين الزعيم و"شعبه" هي تجميد الجماهير وتكريخها سياسياً. وعندما توصل النظام إلى هيمنة شاملة على المجتمع قامعا المعارضة المنظمة وموقعا "عقدا اجتماعيا" مع الطبقات الدنيا على أساسه قبلت هذه الأخيرة أن تصبح محايدة سياسياً، مقابل ضمانات اجتماعية غير مسبوقة من أي حكومة أخرى.

ولوصف هذا "التحالف" بين الطبقات في أساس النظام الناصري، قدم طارق البشري مفهوم "الجامع القومي"^(١)، هذا المبدأ الذي يجمع بين مصالح الطبقات المختلفة، الخاضعة للمجهود المشترك من أجل التقدم والاستقلال. ومما لا شك فيه أن هذا المفهوم يسهم في إيضاح اختيار النظام الناصري الاصطفاف الداخلي بعيداً عن فلك الرأسمالية العالمية مضطراً إلى ذلك ضد المقتضيات الطبيعية لترابطه مع الغرب.

وخضع الماركسيون بصحبة المعارضة الإسلامية لأشد قمع حكومي تجسد بالنسبة للغالبية العظمى من المثقفين والمناضلين الشيوعيين في اعتقال دام خمسة أعوام في الفترة بين عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٤، بينما قام الماركسيون أنفسهم بمساندة النظام حين وجد نفسه في أزمة بخصوص الإجماع الشعبي والهيمنة ثلاث فشل الجمهورية العربية المتحدة (١٩٦١) وبخصوص الصعوبات الأولى للحفاظ على سياسات اقتصادية شعبية في سياق محدودية الموارد، وهكذا نرى أن النظام أقر "اتفاقاً" مع اليسار طالبا منه أن يقوم بدور "الدعاية الثورية"، لكن يلاحظ أن الماركسيين أو على الأصح المتحمسين منهم لمعانقة النظام نجحوا في إيماء الناصرية في أفكارهم بسبب إصرارهم على رؤية الجانب المعادي للإمبريالية والمضاد للصهيونية (وبالتالي القومي العربي) للنظام.

(١) انظر طارق البشري، المصدر السابق الذكر.

ومن الواضح أن هزيمة ١٩٦٧ قد عجلت بإحياء هذه التركة الكامنة داخل الحركة الماركسية المصرية في علاقتها مع السلطة بادئة بتغييرات سيكون لها تأثيرها على المدى البعيد. فقد أظهرت الهزيمة قبل أى شىء أزمة السلطة داخل النظام التى حلتها حركة الجماهير فى ٩ و ١٠ يونيو ١٩٦٧، عندما طالب شعب مصر عبد الناصر بعدم التحدى. غير أن أول تحول حقيقى تمثل فى إعادة نشأة حركة الجماهير فى عام ١٩٦٨ التى جاءت "يسارية تلقائيا" كما أكد غالى شكرى^(١). وفى الواقع كانت شعارات الحركة فى ١٩٦٨، التى عارضت للمرة الأولى وبشكل مباشر هيمنة النظام على المجتمع، شعارات وطنية وقومية أكثر منها ماركسية. ومن هذا المنطلق يمكننا القول بأن الحركة الطلابية عكست كفاءة آلة الدعاية الماركسية التى نجحت فى خلق رداء "التقدم" و"الاشتراكية" على نظام سياسى يمر بأزمة مستخدمة بعض الشعارات ومبدعة لغة نضالية ذات نغمة تحمل أصداء الماركسية أكثر من الحركة العمالية.

يجب أن نتحدث عن وجود "يساريين" بعد النكسة بسبب نشأة مجموعات المثقفين الذين طرحوا رؤية أكثر راديكالية لمصر والعالم، وأعادوا تقييم الإنتاج النظرى والخيارات السياسية "لحركة الشيوعية الثانية" بشكل نقدي. ولكن بينما مهدت للكتابات الأولى المقدمة فى الصفحات السابقة الإعلان عن عودة أوسع للمذاق الأمي ابتعدت بشدة عن النظرة القومية الزائدة للوضع فى الشرق الأوسط، دفعت وفاة الرئيس وأزمة الشرعية الشديدة فى الأعوام الأولى لنظام السادات المثقفين الأكثر راديكالية إلى "تبنى" القضية الوطنية واضعين القضية الاجتماعية فى المقام الثانى. فبمفهوم ما، كان انخراط اليسار فى المقام الأول داخل الحركة الطلابية أمرا إجباريا من عدة منظورات، وإن كان ذلك ببرنامج يتلخص أساسا فى الضغط على الحكومة حتى تكسر الأزمة، وتعلن الحرب على العدو. فأولا، كانت الجامعات هى الأماكن الأولى - ولفترة طويلة الوحيدة - "المحررة" من وصاية

(١) انظر Shukri, Egypt..., cit., p. 331-332.

النظام، مع نشأة مساحات لمبادرات سياسية مستقلة للمرة الأولى بعد حوالى عشرين عاما. ثانيا، كانت القضية الوطنية تقوم فى أوائل السبعينيات بدور "الجامع" الاجتماعى، وكانت بلا شك القناة الوحيدة لتعبئة الجماهير.

وهكذا يجب أن نسجل أنه منذ البداية، لم تكن منظمات اليسار الجديد سوى أندية متقنين ذات صلة واهية بالطبقة العاملة التى وجدت سندًا لها فى الأنشطة الاجتماعية للإخوان المسلمين الذين بدأوا مستمدين قوتهم من تمويل دول الخليج والدولة إلى لحظة بعينها، فى إنشاء شبكة تساعد المحتاجين حتى على المستوى المادى. وعلى العكس من هذا يبدو أن المنظمات الماركسية كانت "أقرب" إلى الجدل فى بقية الدول العربية منها إلى الاهتمام بالتحويلات الاجتماعية لبلادهم.

وعلى النقيض من الرؤية السائدة لدى جزء من الماركسيين فى مصر يمكن تتبع بولار الانفتاح فى الثهور الأخيرة للحكومة الناصرية، ولا يجب أن ننسى أن قمع الحركة العمالية بدأ فى عام ١٩٧١ عندما أُنذرت الأزمة الاقتصادية التى فاقمها اقتصاد الحرب بغروب العقد الاجتماعى بين الحكومة والطبقات محدودة الدخل. واستشعر الجزء الأكثر حساسية من اليسار الراديكالى، كما سبق القول نبضات هذه الطبقات الخاضعة، مفضلا على الرغم من ذلك "تكريس" كل شئ لصالح القضية الوطنية فى مواجهة عجز النظام عن مواجهة التهديد الإسرائيلى.

وقد ظهر فشل هذا الاختيار رغم الأعذار سابقة الذكر بشكل واضح فى حرب أكتوبر التى أهدت الرئيس الجديد الشرعية، مما أضعف من احتجاجات الجامعات. وهكذا فى عشية "انتصار" ١٩٧٣ يمكننا أن نتحدث - كما أكد حاتم المصرى^(١) مجادلا - عن "أزمة" اليسار القديم والجديد، وظهرت هذه الأزمة؛ أى غياب اقتراح بديل لسياسات النظام، فى الدعم الذى أعطاه اليسار الرسمى عن اقتناع، بشكل أو آخر، للنظام فى ظروف الحرب.

(١) انظر حاتم المصرى، المصدر السابق الذكر، ص ٢٠.

ومثلت مبادرة السادات في نوفمبر ١٩٧٧ الاختبار الحاسم لليسر، لكن يبقى أن ننظر في الفترة بين الحرب وبداية عملية السلام لتقييم تطور الماركسيين. فقد كان عام ١٩٧٥ بالتحديد هو "عام الحسم" للنظام الساداتي مع توقيع اتفاقية "سيناء ١" التي سبقت مباشرة معاهدة كامب ديفيد وأولى "ثمار" الانفتاح الاقتصادي الذي انطلق قبل ذلك بعام. ولكن ربما كان التغيير الأوضح هو العودة الحاسمة للنظام الحاكم إلى الدوران في فلك الولايات المتحدة الأمريكية بدفع ودعم من البورجوازية القديمة لفترة ما قبل حركة ٢٣ يوليو، و"البرجوازية الليبروقراطية" التي نشأت في العهد الناصري، وأوائل "القطط السمان" للانفتاح، بالإضافة إلى إعادة تحديده لقاعدته الاجتماعية التي لم تعد مؤسسة على "تحالف قوى الشعب العاملة"، وضع النظام نفسه في يد "المتقنين الجدد" الذين تم تجنيدهم من بين أعداء الناصرية القدامى أو فريق جديد من المنافقين والمتملقين الجاهزين لوضع أنفسهم في خدمة سادتهم مقابل مشاركة ضئيلة في السلطة. وسارت عملية إعادة تحديد موقع مصر على الرقعة العربية والعالمية، عملياً، بخطى عملية إعادة رسم خريطة "الثقافة الرسمية" والتي تم دفع الماركسيين فيها إلى الهوامش وبشكل مطرد لاتخاذ موقع المعارضة.

وقبل وصف اختيارات اليسار وخاصة الراديكالي، أمام المتغيرات الحادثة، يجب أن ننسب إلى مجموعة الماركسيين الرسميين قيامهم بدور أساسي ومحترم في "حرب" الهوية المصرية.

في منتصف السبعينيات، وبينما انشغل "المتقنون الجدد" لنظام السادات بقيادة موسى صبرى والأخوين على أمين ومصطفى أمين بإعادة صياغة طبعة جديدة من الوطنية المصرية تقوم على الابتعاد عن الوحدة العربية والقضية الفلسطينية. نجح المتقنون الماركسيون، وربما كذلك اليسار الناصري في توضيح عدم التعارض بين "المصرية" و "العروبة" مترجمين للمشاعر الشعبية التي لم تر في تلك الوقت الهوية المصرية متعارضة مع هوية عربية أكبر، إلا أن تركيز

الانتباه على هذه الأسئلة الخاصة بالهوية التي أخفت وراءها الشكوى من "الخطوات الخطيرة" التي قام بها الرئيس تجاه إسرائيل، وصولاً إلى اتفاق "سيناء ١" في ١٩٧٥، حول أنظار الماركسيين في مجملهم عن التغيرات العميقة التي بدأ المجتمع المصري يعيشها في نفس هذه السنوات. والحقيقة أن العملية التي سميت "تصفية الناصرية" لم تستهدف أيديولوجية الدولة فقط، وهو المجال الذي كانت ربود أفعال الماركسية عليه مباشرة لأنها تمس دورهم نفسه عن قرب، بل شملت المجتمع بأسره. فإضرابات عامي ١٩٧٥-١٩٧٦ العمالية لم تشهد فقط بعث "الوعي الحقيقي" للطبقات الدنيا كما استقرأه العديد من المثقفين الماركسيين، بل مثلت كذلك رد الفعل الملموس والتلقائي للجماهير ضد "الفسخ أحادي الطرف" للعقد الاجتماعي من قبل النظام، ولكن هذا الأخير لم يعتمد فقط على القمع والإجراءات الشعبوية الممولة "بالمعونات" البترودولارية للتخفيف من هذه التوترات الاجتماعية. فقد تم فتح الحدود مما ساعد على الهجرة الهائلة للعمال المصريين إلى ليبيا والخليج العربي التي غيرت من التكوين الطبقي للمجتمع. والواقع أن موجة الهجرة التي تفجرت بعد أن "وعد الانفتاح الأولى التي لم تتحقق"، قد أبعدت العديد من "المعارضين" المحتملين عن الشوارع والمصانع، بل أدى إليها كذلك نشوء قطاع جديد من البورجوازية سُمّيَ "بالبرجوازية السلفية". فقد عاد العديد من التقنيين والعمال والمواطنين المصريين إلى أرض الوطن في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات متحولين بشكل عميق؛ سواء بسبب جمعهم "لثروة صغيرة" في أماكن هجرتهم أو بسبب تعرضهم للأفكار الوهابية التي جعلتهم أكثر قرباً لموقع الإخوان المسلمين. وهكذا صاروا على المدى البعيد متأرجحين بين الحياد والدعم الصريح للنظام السادتي، على الأقل حتى توقيع معاهدة السلام إن لم يكن إلى ما بعدها.

وفي فترة ما بعد الناصرية حلت "أسطورة الكسب السريع" في المجتمع المصري عملياً محل "الوحدة بين الطبقات" التي سادت في العقد السابق لها^(١).

(١) انظر Shukrallah, H., Political..., cit., p. 66-ss.

ويجب أن نؤكد من وجهة النظر هذه أن الإنتلجنسيا الماركسية فى طيفها للواسع كانت مهتمة بشكل زائد بتحليل تطورات "المسألة الشرق أوسطية" التى أدت إلى انفصال مصر بشكل مطرد عن الجبهة العربية، بدلا من إعطاء الاهتمام الكافى للديناميات التى سبق نكرها.

ويجب أن نذكر - تجنباً لسوء الفهم - أن للمعارضة للانفتاح وتأثيراته الاجتماعية كانت موجودة فى برامج كل المنظمات الماركسية. إلا أنها كانت موضوعة والأفضل أن نقول مدمجة فى القضية الوطنية. فقد دعا اليسار العمال إلى أن يتحركوا ضد "الخيانة الوطنية" معتمداً على القدرة "الثقافية" على التنظيم لدى الجماهير. والدليل على تأخر الماركسيين فى التفسير الواقعى يقدمه رد فعلهم المتمثل فى الدهشة الشديدة، بمناسبة انتفاضة يناير ١٩٧٧ والتى كانت رد الفعل الشعبى الثقافى والعنيف على السياسة الاقتصادية للنظام. وقد خدع اختيار السادات بالاعتماد على السياسة الخارجية لتخفيف الضغط فى الداخل بشكل ما اليسار نفسه الذى أبقى المواجهة دائماً على مستوى "خيانة" القضية العربية، رغم أن أحداث يناير كان من الممكن أن تبعث الأمل فى إعادة توجيه التوتر الاجتماعى بشكل ثورى.

ولا شك فى أن اختيار تفسير التوترات الداخلية - عبر منظور المعارضة - بعملية السلام مثل التحرك الذى حسم اغتراب الماركسيين عن كان من المفترض أن يمثلوا قاعدته. ولشرح دوافع ما حدث، فربما كانت هذه هى اللحظة المناسبة لتوضيح حالة اليسار المصرى فى سنوات كامب ديفيد. فبإبعاد الفكر الماركسى عن البرلمان ووسائل الإعلام الشرعية، اقتصر وجوده فى مصر فى عام ١٩٧٩ على النشر فى المجلات السرية للمجموعات الراديكالية التى كان قد أضعفها بدورها القمع الذى تلا انتفاضة يناير. وبالإضافة إلى ذلك دفعت القوانين المصادرة للحريات التى قدمها السادات فى فبراير ١٩٧٧ قبل أشهر قليلة من رحلته إلى القدس، بهدف تجنب هبة جديدة، عددا كبيرا من المثقفين الماركسيين إلى الهجرة

إلى أوروبا ودول عربية أخرى بهدف الاستمرار في نشر كتاباتهم. ورغم الحالة الثقافية لهذا "الشتات الماركسي" الذي استمر قائما عبر كتاباتهم إلا أن من الممكن أن نعتقد أن ابتعادهم عن أرض الصراع كان مسئولا جزئيا عن فقدان اتصال اليسار بالبلد الحقيقي.

ويمكن القول وفقا لهذا المنطق أن جزءا لا بأس به من المناضلين الذين بقوا على أرض الوطن استمروا في الانبهار بصورة مصر "كانعكاس لمرآة عربية"، وفقا للتشبيه الناجح لـ فؤاد عجمي. وباختصار استبدل العديد من المتقنين للماركسيين بالبلد الحقيقي الذي كان يتبدل بسرعة تحت أعينهم، مصر الأسطورية والتقدمية التي "أهداها" عبد الناصر للشعوب العربية في الستينيات. و"مصر" هذه التي كانت لم تعد موجودة في الواقع، هي التي أعلنوا خيانتها. وبالإضافة إلى ذلك لم يستطع حتى المناضلون الأكثر انتباها لفك شفرة التغيرات الحادثة، أن يجدوا لغتهم ولا "رموزها" المستقاة على أي حال من المعجم النضالي الذي صكه "اليسار الرسمي" في خدمة النظام في أعوام الستينيات وتعزز في سنوات الحركة الطلابية. ولكن هذه المفردات لم تكن فقط "موضة قديمة" بنهاية السبعينيات لأنها كانت مفرغة تماما من المعنى بواسطة دعاية النظام باستخدامها الواسع للموضوعات الإسلامية والفرعونية، بل الأهم من ذلك أنها لم تكن مناسبة لتحريك شعب تم حصره في الظروف الاقتصادية التي يتزايد بؤسها باستمرار. وهكذا بينما طالب الماركسيون بتأجيل المواجهة القائمة بمزيد من تجنير الجماهير عبر شعار "الشعب المسلح" اتبع الإخوان المسلمون على العكس من ذلك طرقا أكثر "سلمية" داعين إلى التوافق الاجتماعي، رغم رفضهم المتزايد للنظام، في مواجهة صراع الطبقات. باختصار كان "البلد الحقيقي" بعد فسخ "العقد الاجتماعي" محصورا في الانشغال بمجرد الاستمرار في البقاء على قيد الحياة. وبالإضافة إلى ذلك أدى تزايد التمييز بين الطبقات إلى خلق جنين طبقة متوسطة وقعت بسهولة كضحية للخطاب "المهادن" للإخوان المسلمين. ولا يجب أن ننسى في هذا الصدد أنه بينما انشغل

الإخوان والمنظمات الإسلامية الأخرى الأكثر أو الأقل راديكالية بعملية إعادة أسلمة من قاعدة المجتمع، في استجابة للأزمة الاجتماعية بتنشيط المرجعيات الأكثر تأثيراً وللخاصة بالهوية، روج النظام إعادة أسلمة موازية وفعالة من الأعلى^(١).

والحقيقة أن للنظام شجع المنظمات الإسلامية و"سمح" لها بالعمل، على حين انشغل في موجات من القمع ضد الماركسيين بشكل دورى بهدف الوقاية من "التهديد الشيوعى". وفي هذه المناسبة أيضاً دعم الإسلام الرسمى للممثل فى الأزهر بشكل قوى دعاية النظام فى تصوير القوى العلمانية كقوى "ملحدة" لا مكان لها فى المجتمع المصرى.

وعلى العكس مما يعتقد جزء كبير من المثقفين الماركسيين فى السبعينيات، فقد استمرت التغيرات الجذرية فى البنية الاجتماعية التى جلبها السادات خلال "عمره" حتى بعد وفاته، ولكن الأفكار الماركسية أيضاً نجت من القهر، خاصة إذا تأملنا الأمر على المدى البعيد. فبالإضافة إلى أن الأسماء الكبرى فى الثقافة المصرية اليوم نشأت، كما سبق القول، من تجربة اليسار، فإن أثر ميراث الحركة الماركسية على المجتمع المدنى واضح. والواقع أن العديد من المناضلين الشيوعيين السابقين استمروا فى تشكيل "البديل العلمانى" من خلال نشاطهم فى الصحافة والحياة الأكاديمية ومراكز المجتمع المدنى الجديدة، وبشكل لافت فى المنظمات الأهلية وما يسمى بالمراكز. وقد كرست هذه الأخيرة جهودها فى الحفاظ على حقوق الإنسان والنساء والعمال^(٢)، وأصبحت فى السنوات الأخيرة المراكز الوحيدة للنشاط السياسى الحقيقى البديل للنظام، بالنظر إلى التهميش المتزايد للأحزاب السياسية التى تم لجم أنشطتها بواسطة القوانين التى وافق عليها السادات وحكومة الطوارئ المستمرة منذ يوم اغتيال الرئيس فى عام ١٩٨١.

(١) عن هذين المستويين من إعادة الأسلمة، انظر: Kepel, Jihad..., cit.

(٢) تركّز نشاط اليسار، أو خيرة المنتمين السابقين إلى المنظمات الراديكالية، فى مجال الدفاع عن حقوق الإنسان وبصورة أكبر أيضاً، فى مجال الدفاع عن حقوق العمال.

وإذا أخذنا في الاعتبار "التهادن الصامت" الناشئ بين نظام مبارك والإخوان المسلمين بهدف مقاومة تأثير المجموعات الإسلامية الراديكالية، و"خيانة" العلمانية من جانب "الوفد" الذي تمركز في مواقف لا يمكن تمييزها عمليا عن مواقف الإخوان، واختناق الحوار السياسى المصرى؛ يمكن أن نشهد كيف يمكن لليسر، رغم "تفرقه" على عدة مراكز، أن يمثل البديل الوحيد العلمانى والتقدمى فى أهم البلدان العربية. و للدلالة على ما سبق تأكيده، وهو ما يمكن اعتباره هنا مجرد افتراض، يوجد جزء لا بأس به من الماركسيين المصريين يشارك فى تجربة "الحركة من أجل التغيير" والمعروفة باسم "كفاية" والتي تأسست فى ٢٠٠٤ على يد مناضلين بتوجهات سياسية متنوعة. غير أن هذا لم يصبح تاريخا بعد.

بيليو جرافيا

المقابلات

رفعت السعيد، مؤرخ اليسار المصرى، الأمين التنظيمى ثم الأمين العام لحزب التجمع منذ عام ١٩٧٦ وحتى عام ٢٠٠٣. وحاليا رئيس الحزب، (القاهرة، ٢ مايو ٢٠٠٠).

محمد سيد أحمد، صحفى، عضو سابق فى هيئة تحرير "الطلبة" وكان عضوا فى ح. ش.م حتى عام ١٩٦٥ وفى التجمع. ومحرر فى الأهرام، (القاهرة، ٤ مايو ٢٠٠٠)، توفى فى ٢٠٠٦.

فلروق عبد القادر، ناقد أدبى ، وسابقا عضو فى هيئة تحرير "الطلبة"، (القاهرة، ٧ مايو ٢٠٠٠).

محمود أمين العالم، ناقد أدبى، كان عضوا فى الحزب الشيوعى المصرى، نفاه السادات فى ١٩٧٢، مؤسس مجلة "اليسار العربى"، ومحرر مجلة "قضايا فكرية" (القاهرة، ١٠ مايو ٢٠٠٠). توفى فى 2009.

صلاح عدلى، عضو فى المكتب السياسى للحزب الشيوعى المصرى، (القاهرة، ١٠ مايو ٢٠٠٠).

بيل راف Bill Rugh، الملحق الإعلامى لسفارة الولايات المتحدة الأمريكية فى القاهرة من ١٩٧٦ حتى ١٩٨١ (وونز هول، الولايات المتحدة الأمريكية، ٢١ أغسطس ٢٠٠٠).

هاني شكر الله، صحفي، من قادة الحركة الطلابية في السبعينيات، المحرر في "الأهرام ويكلي" سابقا، حاليا محرر بجريدة "الشروق"، (القاهرة، ٦ مايو ٢٠٠١ و ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٢).

جمال الغيطاني، كاتب وناقد، كان من مناضلي وحدة الشيوعيين سابقا، رئيس تحرير الجريدة الأدبية الأسبوعية "أخبار الأدب" (القاهرة، ١٧ أبريل و ٢٩ مايو ٢٠٠١).

أحمد بهاء الدين شعبان، كاتب وناشط سياسي ومن قادة الحركة الطلابية في السبعينيات، (القاهرة، ١٢ مايو و ٧ يونيو ٢٠٠١).

محمود الورداني، كاتب وناقد أدبي وكان من مناضلي ح. ع. ش. م، محرر سابقا بجريدة "أخبار الأدب"، حاليا محرر في "الأخبار"، (القاهرة، ٢٥ أبريل و ٢ مايو ٢٠٠١).

أحمد عبد الله، قائد الحركة الطلابية بين ١٩٧١-١٩٧٤، توفي في عام ٢٠٠٦، (القاهرة، ٣ مايو ٢٠٠١).

مصطفى عبد القني، مفكر ومؤلف لعديد من المؤلفات عن المتقنين في مصر، حاليا محرر في الأهرام، (القاهرة، ٣ مايو ٢٠٠١).

صلاح العنبروسي، مفكر يساري وكان من مناضلي ح. ع. ش. م، (القاهرة، ٩ و ٣١ مايو ٢٠٠١).

صنع الله إبراهيم، كاتب ومناضل سابق في ح. ش. م، (القاهرة، ١١ مايو ٢٠٠١).

فريد زهران، كاتب وصحفي من قادة الحركة الطلابية، مدير مركز المحروسة، (القاهرة ١٤ و ٣٠ مايو ٢٠٠١).

منعد زهران، باحث سياسي ومترجم ومؤسس ح. ش. م "الرؤية" في الخمسينيات، (القاهرة ١٥ مايو ٢٠٠١).

أحمد كامل، محامٍ ومن قادة الحركة الطلابية في السبعينيات، (القاهرة ١٦ و ٢٩ مايو ٢٠٠١).

صلاح عيسى، صحفي مناضل سابق في وحدة الشيوعيين وحزب التجمع،
حالياً رئيس تحرير جريدة "القاهرة"، (القاهرة، ١٦ و ٢٣ مايو ٢٠٠١).

حسّين كشك، عالم اجتماع ومؤرخ للحركة العمالية والفلاحية المصرية
وكان من مؤسسي ح. ع. ش. م، (القاهرة، ١٧ مايو و ٢ يونيو ٢٠٠١).

يوسف درويش، محامٍ ومناضل شيوعي منذ الأربعينيات. توفي في ٢٠٠٦،
(القاهرة، ٢١ و ٢٨ مايو ٢٠٠١).

إبراهيم فتحي، ناقد أدبي ومفكر ماركسي ومؤسس كتاب الغد (القاهرة، ٣٠
مايو ٢٠٠١).

بشير السباعي، مفكر وكاتب ومترجم ومؤسس عصبة التروتسكيين،
(القاهرة، ٦ يونيو ٢٠٠١)

نبيل صبحي، محامٍ وعضو سابق في ح. ش. م، (القاهرة، ١٣ يونيو
٢٠٠١).

صادق جلال العظم، فيلسوف ماركسي سوري، أستاذ في جامعتي دمشق
وبيروت وشخصية بارزة في "اليسار العربي الجديد"، (روما، ١٨ أكتوبر
٢٠٠٢).

كمال خليل، مناضل في ح. ش. م "٨ يناير"، ومدير مركز الدراسات
الاشتراكية بالقاهرة، (القاهرة، ٢٣ ديسمبر ٢٠٠٢).

حسين عبد الرزاق، مناضل في ح. ش. م في الستينيات وأحد مؤسسي
حزب التجمع، كان رئيساً لتحرير جريدة "الأهالي" ثم الأمين العام لحزب
التجمع، (القاهرة، ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٢).

فؤاد علام، نائب وزير الداخلية منذ ١٩٧٧ حتى ١٩٨٢ ومستول عن "مكتب مكافحة الشيوعية" فى وزارة الداخلية، (القاهرة، ١٤ يناير ٢٠٠٣).

خليل كلفت، مفكر وكاتب ومترجم وكان من مؤسسى ومنظرى ح. ع. ش. م، (القاهرة، ٢٢ يناير ٢٠٠٣).

إسماعيل صبرى عبد الله، عالم اقتصاد ومناضل ماركسى منذ الخمسينيات وعضو فى هيئة تحرير "الطليعة" منذ ١٩٦٥ ووزير التخطيط من ١٩٧١ حتى ١٩٧٥. توفى فى عام ٢٠٠٦، (القاهرة، ٢٦ يناير ٢٠٠٣).

الوثائق

- أرشيف الحركة الطلابية المصرية ١٩٦٨-١٩٨٤، القاهرة، مركز الجيل.
- الأرشيف الصحفى للحركة الطلابية المصرية، ٣ مجلدات، القاهرة، مركز المحروسة، ١٩٩٩-٢٠٠٠.
- أرشيف أحمد عبدالله، (1978-1984) Archives of Ahmad Abdallah, inventory by Roel Mejer. (1997), Amsterdam, International Institute of Social History.
- أرشيف الحزب الشيوعى المصرى (١٩٧٥-) Archive of the Egyptian Communist Party (1975-), inventory by Roel Mejer (1998), Amsterdam, International Institute of Social History.
- مجموعة ميشيل كامل (١٩٢٥-١٩٩٣) ١٩٧٣-١٩٩٣ -) Collection of Michel Kamel (1925-1993) 1973-(١٩٩٤، ١٩٩٦ 1993 (-1994, 1996), inventory by Mohammed Abdulhamid (2003), Amsterdam, International Institute of Social History.

الدوريات

- الطلیعة (شهریة، ١٩٦٥-١٩٧٧).
- الأهرام (یومیة، ١٩٧٦-١٩٨١).
- روز للیوسف (أسبوعية، ١٩٧٣-١٩٧٧).
- الأهالی (أسبوعية، ١٩٧٨ و ١٩٨٢).
- الشعب (أسبوعية، ١٩٧٩-١٩٨١).

وثائق أحزاب شرعية

حزب التجمع الوطنى الوحدهى التقدمى

أ- النشرات

- ١- التقدم، ١٩٧٨-١٩٨١ (غير كاملة).
- ٢- النشرة التنظيمية (نشرة داخلية)، ١٩٧٧.
- ب- بيانات ومواقف ١٩٧٦-١٩٧٩.

حزب العمل الاشتراكى

بيانات متفرقة (١٩٧٩-١٩٨١).

الأحزاب غير الشرعية

الحزب الشيوعى المصرى (ح. ش. م)

أ- النشرات

- ١- الانتصار، ١٩٧٥-١٩٨٢ (غير كامل).
- ٢- الوعى (نشرة داخلية)، ١٩٧٦-١٩٨٢ (غير كامل).

ب- وثائق وقرارات وتقارير لا تحتويها الدوريات

- ١- من تجميع إلى بناء حزب، يناير ١٩٧٤.
- ٢- إعلان تأسيس الحزب الشيوعي المصري، ١ مايو ١٩٧٥.
- ٣- "التقرير السياسي"، في "السفير"، ٤ أغسطس ١٩٧٥، ص ٤.
- ٤- الشيوعيون المصريون ومهام المرحلة المقبلة في سبيل إحباط الثورة المضادة. في سبيل إنجاز مهام الثورة الوطنية الديمقراطية، يوليو ١٩٨٠.
- ٥- حزبنا يمتلك إمكانيات بنائه كحزب جماهيري، يوليو ١٩٨٠.
- ٦- لائحة الحزب الشيوعي المصري، سبتمبر ١٩٨٠.
- ٧- برنامج الحزب، سبتمبر ١٩٨٠.
- ٨- تقرير الوحدة، سبتمبر ١٩٨٠.
- ٩- وثائق المؤتمر الأول (سبتمبر ١٩٨٠)، بيروت، دار بن خلدون، ١٩٨١.

ج- وثائق متنوعة

١٩٧٥-١٩٨٤

ب. دراسات

- ط. ث. شاعر، قضايا التحرر الوطني والثورة الاشتراكية، بيروت، دار الفارابي، ١٩٧٣.

حزب العمال الشيوعي المصري (ح.ع.ش.م)

أ- دوريات

١- الصراع (نشرة داخلية) ١٩٧٦-١٩٨٢ (غير كاملة).

٢- الانتفاض، ١٩٧٦-١٩٨٥ (غير كاملة).

٣- الشيوعي المصري (غير كاملة) ١٩٧٥-١٩٨٠.

٤- كراسات غير دورية الطريق (٥ أعداد)، ١٩٨١.

ب- وثائق وقرارات اللجنة المركزية غير موجودة ضمن الدوريات

١- تقرير ٥/٩، مايو ١٩٧٥.

٢- قرار من اللجنة المركزية بشأن نشأة التكتل، ١٥ أكتوبر ١٩٧٦.

٣- برنامج الحزب، يوليو ١٩٨١.

ج- بيانات ومواقف

١٩٧٥-١٩٨٩

د. دراسات تم تجميعها من المفكرين، تم نشرها أو غير منشورة

١. ح.ع.ش.م، مسار الخيانة من الهزيمة إلى المبادرة، بيروت، دار للكاتب، ١٩٧٩.

٢. للكاتب مجهول، عوامل وحدود التغيير في النظام للحاكم وسياساته، ٢٠ صفحة بخط اليد، غير محدد التاريخ، ربما يكون بتاريخ ١٩٧٩-١٩٨٠.

٣. سمير كامل، خلافتنا: ضد الانحراف البيروقراطي الانعزالي التصفوي، ٤٣١ صفحة بخط اليد، بدون تاريخ.

الحزب الشيوعي المصري ٨ يناير، الحزب الشيوعي ٨ يناير (ح.ش. ٨ يناير)

أ. وثائق وقرارات اللجنة المركزية

التقرير السياسي للجنة المركزية، ١٩٧٨.

ب. دراسات

١- رجائي الطنطاوي، بعض القضايا من المرحلة الإستراتيجية، بدون تاريخ.

٢- الحلف الطبقي المصري الحاكم، بدون تاريخ.

جـ. بيانات متنوعة

١٩٧٨-١٩٨٤

الحزب الشيوعي المصري المؤتمر، الحزب الشيوعي المؤتمر (ح.ش. م.م)

أ- الدوريات

العامل، ١٩٧٨-١٩٨٠ (غير كاملة).

ب- بيانات متنوعة

١٩٧٧-١٩٧٩

عصبة التروتسكيين

أ- الدوريات

١- الثورة الدائمة، ١٩٧٤-١٩٧٦ (غير كاملة).

٢- كراسات الثورة الدائمة (كراسات غير دورية)، بدون تاريخ.

٣- ما العمل؟ ١٩٧٩-١٩٨١ (غير كاملة).

ب- وثائق وقرارات غير متضمنة في الدوريات

تقرير الوضع الراهن، ديسمبر ١٩٧٥.

كتب ومقالات

(أ) نصوص بلغات أوروبية

كتب:

AA.VV., The Arab Revolution: Its Character, Present State and Perspectives, London, The International Marxist Group Publications, 1978

AA. VV., The Cambridge History of Egypt, vol. 2, "From 1517 to the end of 20th century", ed. Daly, M. W., Cambridge, CUP, 1998

AA.VV., L'Egypte d'aujourd'hui. Permanence et changements 1805-1976, Paris, Editions du CNRS, 1977

AA. VV., La crisi del Medio Oriente. Dimensione regionale ed internazionale, Dossier CeSPI, Milano, Franco Angeli, 1984

AA. VV, Fuori degli argini. Racconti del '68 egiziano, traduzione e cura di L. Casini, Roma, Edizioni Lavoro, 2003

'Abdalla, A., The Student Movement and National Politics in Egypt 1923-1973, London, Al-Saqi Books, 1985

'Abd el-Aal, M., Les intellectuelles égyptiens et Israël. De 1967 à l'application des accords de Camp David, Thèse de Doctorat inedite, Univ. Paris X, 1983

‘Abdel Malek, A., Esercito e società in Egitto. 1952-1967, Torino, Einaudi, 1968

‘Abdel Malek, A., Il pensiero politico arabo contemporaneo, Roma, Editori Riuniti, 1973

‘Abdel-Malek A. et alii, La rinascita del mondo arabo, Roma, Editori Riuniti, 1973

Abdelrahman, M., Civil Society Exposed. The Politics of NGOs in Egypt, Cairo, AUC Press, 2004

Abed el-Jabri, M., La ragione araba, Milano, Feltrinelli, 1996

Adams, C. C., Islam and Modernism in Egypt: a Study of the Modern Reform Movement inaugurated by Muḥammad ‘Abduh, New York, Russel & Russel, 1968;

Agwani, M. S., Communism in the Arab East, London, Asia Publishing House, 1969

Ahmed, J. M., The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, London, Oxford University Press, 1960

Ajami, F., The Arab Predicament: Arab Political Thought and Practice Since 1967, Cambridge, CUP, 1992 (II edition)

Alatas, S.H., Intellectuals in Developing Societies, London, Cass, 1977

Amin, S., The Arab Nation. Nationalism and Class Struggles, London, Zed, 1978

Anghelescu, N., Linguaggio e cultura nella civiltà araba, Torino, Zamorani Editore, 1993

- Ansari, H., Egypt. The Stalled Society, Cairo, The AUC Press, 1987**
- Aron, R., The Opium of the Intellectuals, New York, Norton & Co., 1957**
- El-Awaisi, 'Abd al-Fattah, The Muslim Brothers and the Palestine Question 1928-1947, London, IB Tauris, 1998**
- Ayalon, A., Language and Change in the Arab Middle East, Oxford, OUP, 1987**
- Ayubi, N., Bureaucracy and Politics in Contemporary Egypt, London, Ithaca Press, 1980**
- Ayubi, Sh., Nasser and Sadat. Decision Making and Foreign Policy, Lanham, University Press of America, 1994**
- El- Badri, H.- El-Magdoub, T. -Zohdi, M., The Ramadan War, 1973, Dunn Loring (VA), T.N. Dupuy, 1978**
- Baffioni, C., I grandi pensatori dell'Islam, Roma, Edizioni Lavoro, 1996**
- Baker, R.W., Egypt's Uncertain Revolution under Nasser and Sadat, London, Harvard University Press, 1978**
- Baker, R.W., Sadat and After. Struggles for Egypt's Political Soul, London, Tauris, 1990**
- Ballas, S., La littérature arabe et le conflit au Proche-Orient 1948-1973, Paris, Anthropos, 1980**
- Barnett, M. K, Dialogues in Arab Politics. Negotiations in Regional Order, New York, Columbia University Press, 1998,**

- Bauman, Z., *La decadenza degli intellettuali. Da legislatori a interpreti*, Torino, Bollati Boringhieri, 1992
- Beattie, K. J., *Egypt During the Sadat Years*, New York, Palgrave, 2000
- Beinin, J. – Lockman, Z., *Workers on the Nile: Nationalism, Communism, Islam and the Egyptian Working Class*, Princeton, Princeton University Press, 1987
- Bengio, O. - Ben-Dor, G. (eds), *Minorities and the State in the Arab World*, Boulder, Lynne Rienner, 1999
- Berque, J., *Egypt: Imperialism and Revolution*, London, Faber & Faber, 1972
- Binder, L., *In a Moment of Enthusiasm. Political Power and the Second Stratum in Egypt*, Chicago, University of Chicago Press, 1978
- al-Bichri, T. et al., *Les intellectuels et le pouvoir: Syrie, Égypte, Tunisie, Algérie*, Le Caire, CEDEJ, 1986
- al-Bisati, M., *Altre notti (romanzo)*, trad. di P. Zanelli, Roma, Jouvence, 2003 (2000)
- Botman, S., *The Rise of Egyptian Communism 1939-1970*, Syracuse, Syracuse University Press, 1988
- Boutros Ghali, B., *Egypt's Road to Jerusalem*, New York, Random House, 1997

- Boyle, K.-Sherif, A.O. (eds), *Human Rights and Democracy: the Role of the Supreme Constitutional Court of Egypt*, London, Kluwer, 1996
- Branca, P. (a cura di), *Tradizione e modernizzazione in Egitto*, Milano, Franco Angeli, 2000
- Branca, P. (a cura di), *Voci dell'Islam moderno*, Genova, Marietti, 1997
- Brondino, M.-Labib, T. (eds), *Gramsci dans le monde arabe*, Tunis, Alif/Les Editions de la Méditerranée, 1994
- Bruzonsky, M.A., *The Middle East: US Policy, Israel, Oil and the Arabs*, Washington, DC, Congressional Quarterly, 1977
- Burns, W.J., *Economic Aid and American Policy Towards Egypt, 1955-1981*, Albany, State University of New York Press, 1985
- Burrell, R. M-Kelidar, A., *Egypt: the Dilemmas of a Nation*, London-Beverly Hills, Sage, 1977
- Camera d'Afflitto, I., *Letteratura araba contemporanea. Dalla nahyah ad oggi*, Roma, Carocci, 1998
- Campanini, M., *La teoria del socialismo in Egitto*, Palermo, Centro Culturale al-Farabi, 1987
- Carter, J., *Keeping Faith*, New York, Bantam Books, 1982
- Collotti Pischel E.- Robertazzi, C. (eds), *L'internationale communiste et les problèmes coloniaux 1919-1935*, Paris, Mouton, 1968

- Claudin, F., *The Communist Movement: from Comintern to Cominform*, London, Peregrine Books, 1975
- Confino, M.- Shamir, Sh., *The U.S.S.R. and the Middle East*, Jerusalem, Israel University Press, 1973
- Cooper, M.N., *The Transformation of Egypt*, London, Croom Helm, 1982
- Corrao, F.M., *La rinascita islamica. Il nazionalismo di Muhammad Farid*, Palermo, Quaderni del Laboratorio Antropologico Universitario, 1985
- Corsetti, R. (a cura di), *Lingua e politica*, Roma, Officina, 1977
- Daumal, J. – Leroy, M., *Nasser. La vita, il pensiero, i testi esemplari*, Milano, Sansoni, 1970
- Dawisha, A., *The Arab Radicals*, New York, Council on Foreign Relations, 1986
- Dawisha, K., *Soviet Foreign Policy Towards Egypt*, London, MacMillan, 1979
- Delporte, C., *Intellectuels et politique*, Firenze, Casterman-Giunti, 1995
- Dessouki, A.H.(ed.), *Democracy in Egypt: Problems and Prospects*, Cairo, A.U.C. Press, 1978
- Di Nolfo, E., *Storia delle relazioni internazionali 1918-1992*, Roma-Bari, Laterza, 1994

- Dirlik, A.- Bahl, V.- Gran, P. (eds), *History after the Three Worlds: post-Eurocentric Historiographies*, Lanham, Rowman & Littlefield, 2000
- Donini, P. G., *I paesi arabi*, Roma, Editori Riuniti, 1983
- Donini, P. G., *Le minoranze nel Vicino Oriente e nel Maghreb. Problemi metodologici e questioni generali*, Salerno, Laveglia, 1985
- Donini, P. G., *Le minoranze*, Milano, Jaca Book, 1998
- Donini, P. G., *Il mondo islamico. Breve storia dal Cinquecento ad oggi*, Roma – Bari, Laterza, 2003
- Egyptian Ministry of Foreign Affairs, *White Paper on the Peace Initiative Undertaken by President Anwar al-Sadat (1971-77)*, Cairo, State Information Service, 1978
- Eidelberg, P., *Sadat's Strategy*, Quebec, Dawn Books, 1979
- Erlich, H., *Students and University in the 20th century Egyptian Politics*, London, Cass, 1989
- Essam, M.H.-Harris, K. (eds), *Revitalisation of Political Thought through Democracy and Human Rights: Islamism, Marxism and Pan Arabism*, Cairo, Institute for Human Rights, 1996
- Farag, F., *The Third Stage of the Egyptian Communist Movement: 1965-present*, MA Unpublished thesis, Cairo, AUC, 1993
- Estier, C., *L'Égypte en révolution*, Paris, Julliard, 1965
- Fahmy, N., *The Politics of Egypt. State-Society Relationship*, London, RoutledgeCurzon, 2002

- Farah, N., *Religious Strife in Egypt: Crisis and Ideological Conflict in the Seventies*, NY, Cordon and Breach, 1986
- Finanios, Gh., *Islamistes, apologistes et libres penseurs*, Pessac, Presses Universitaires de Bordeaux, 2002
- Finklestone, J., *Anwar Sadat: Visionary Who Dared*, London, Cass, 1996
- Flory, M. et alii, *Les régimes politiques arabes*, Paris, PUF, 1991
- Frescobaldi, D., *La sfida di Sadat*, Milano, Rizzoli, 1977
- Friedlander, M. A., *Sadat and Begin: the Domestic Politics of Peace-making*, Boulder, Westview Press, 1983
- Gallissot, R. (ed.), *Mouvement ouvrier, communisme et nationalismes dans le monde arabe*, Paris, Ed. Ouvrières, 1978
- Gervasio, G., *Da Nasser a Sadat. Il dissenso laico in Egitto*, Roma, Jouvence, 2007
- Ginat, R., *Egypt's Incomplete Revolution: Lutfi al-Khuli and Nasser's Socialism in the 1960s*, London, Cass, 1997
- Golan, G., *Yom Kippur and After: The Soviet Union and the Middle East Crisis*, Cambridge, Cambridge University Press, 1977
- Gonzales-Quijano, Y., *Les gens du livre. Édition et champ intellectuel dans l'Égypte républicaine*, Paris, CNRS, 1998
- Gorman, A., *Historians, State and Politics in Twentieth Century Egypt. Contesting the Nation*, London, RoutledgeCurzon, 2003

- Gramsci, A., Gli intellettuali e l'organizzazione della cultura, Roma, Editori Riuniti, 1977**
- Guha, R. – Spivak, G. Ch. (a cura di), Subaltern Studies. Modernità e (post) colonialismo, Verona, Ombre Corte, 2002**
- Hanna, S. – Gardner, G.H., Arab Socialism. A Documentary Survey, Leiden, Brill, 1969**
- Hakim, K. A., Islam and Communism, Lahore, Institute of Islamic Culture, 1976**
- Halliday, F.-Alavi, H. (eds), State and Ideology in the Middle East and Pakistan, Basingstoke, Macmillan, 1988**
- Hegazy, S., Littérature et société en Egypte (de la guerre de 1967 a celle de 1973), Alger, Entreprise Nationale du Livre, 1986**
- Heikal, M., The Road to Ramadan, London, Fontana, 1976**
- Heikal, M., Sphinx and Commissar: the Rise and Fall of Soviet Influence in the Arab World, London, Collins, 1978**
- Heikal, M., Autumn of Fury: The Assassination of Sadat, London, Deutsch, 1983**
- Hill, E. (ed.), Discourses in Contemporary Egypt. Politics and Social Science, "Cairo Papers in Social Science", Vol. 22, n. 4, Cairo, The AUC Press, 2000**
- Hill, E. (ed.), New Frontiers in the Social History of the Middle East, "Cairo Papers in Social Science", Vol. 23 n. 2, Cairo, The AUC Press, 2001**

- Hinnebusch, R., *Egyptian Politics under Sadat*, Cambridge, Cambridge University Press, 1985
- Hirst, D.-Beeson, I., *Sadat*, London, Faber & Faber, 1981
- Hopwood, D., *Egypt: Politics and Society. 1945-1981*, London, Allen & Unwin, 1982
- Hosseinzadeh, E., *Soviet Non-capitalist Development. The Case of Nasser's Egypt*, New York, Praeger, 1989
- Hussein, M., *La lotta di classe in Egitto 1945-1970*, Torino, Einaudi, 1973
- Hussein, M., *Les Arabes au présent*, Paris, Editions de Seuil, 1974
- Hussein, M., *Versante sud della libertà. L'emergere dell'individuo nel Terzo mondo*, Roma, il Manifesto libri, 1994
- Ibrahim, S. E., *Egypt, Islam and Democracy. Twelve Critical Essays*, Cairo, The American University in Cairo Press, 1996
- Ibrahim, S. E.-Hopkins, N., *Arab Society: Social Science Perspectives*, Cairo, AUC Press, 1985
- Ismael, T. Y., *The Arab Left*, Syracuse, Syracuse University Press, 1976
- Ismael, T. Y. -El-Sa'id, R., *The Communist Movement in Egypt 1919-1988*, Syracuse, Syracuse University Press, 1990
- Israeli, R., *The Public Diary of President Sadat, 3 Vols.*, Leiden, Brill, 1978-79

Israeli, R., *Man of Defiance. A Political Biography of Anwar Sadat*, London, Weidenfeld and Nicolson, 1985

Istituto per la cooperazione politica economica e culturale internazionale, *La sinistra egiziana e le prospettive del socialismo nel mondo arabo*, Atti del convegno, Roma 4-5 maggio 1977

Jabar, F. A. (ed.), *Post-Marxism and the Middle East*, London, Saqi, 1997

Jacquemond, R., *Entre scribes et écrivains. Le champ littéraire dans l'Égypte contemporaine*, Paris, Sindbad/Actes Sud, 2003

Jankowski, James, *Egypt's Young Rebels "Young Egypt"*, Stanford, Hoover Institute Publications, 1975

Jennings, J.- Kemp-Weltch, A. (eds), *Intellectuals in politics. From the Dreyfus Affair to Salman Rushdie*, London and New York, Routledge, 1997

Kanowski, E., *The Economic Impact of the Six-Day War*, New York, Praeger, 1970

Karpas, Kamal H. (ed.), *Political and Social Thought in the Contemporary Middle East*, London, Pall Mall, 1968

Kassem, M., *Egyptian Politics: the Dynamics of Authoritarian Rule*, Boulder, Lynne Rienner, 2004

Kays, D., *Frogs and Scorpions: Egypt, Sadat and the Media*, London, Muller, 1984

Kedourie, E.- Haim, S. (eds), *Modern Egypt: Studies in Politics and Society*, London, Cass, 1980

Kennedy, M.C. (ed.), *Twenty years of Development in Egypt (1977-1997)*, Cairo Papers in Social Science, vol. 21, n° 3 (1998), Cairo, AUC Press

Kepel, G., *Le Prophete et Pharaon*, Paris, La Découverte, 1984

Kepel, G., *Jihad, ascesa e declino. Storia del fondamentalismo islamico*, Roma, Carocci, 2001

Kerr, M. H., *Islamic Reform: The Political and Legal theories of Muḥammad ‘Abduh and Rashīd Riḍā...*, Berkeley, University of California Press, 1966

Kerr, M. H., *The Arab Cold War. Gamal ‘Abd al-Nasir and his Rivals*, London-New York, Oxford University Press, 1971

Kerr, M. H.- Yasin, el-Sayed (eds), *Rich and Poor States in the Middle East: Egypt and the New Arab Order*, Boulder, Westview Press, 1983

Kienle, E., *A Grand Delusion: Democracy and Economic Reform in Egypt*; London, I. B. Tauris, 2001

Kimmerling, B. – Migdal, J., *I Palestinesi: la genesi di un popolo*, Firenze, La Nuova Italia, 1994

Korany, B. - Brynen, R. - Noble, P. (eds), *Political Liberalization and Democratization in the Arab World*, 2 vols., Boulder, Lynne Rienner, 1995, 1998

Krämer, G., *The Jews in Modern Egypt 1914-1952*, London, I. B. Tauris, 1989

- al-Kubeïssi, B., *Storia del Movimento dei Nazionalisti Arabi*, Milano, Jaca Book, 1978
- Labdaoui, A., *Les nouveaux intellectuels arabes*, Paris, L'Harmattan, 1993
- Labdaoui, A., *Intellectuels d'Orient, Intellectuels d'Occident*, Paris, L'Harmattan, 1996
- Landau, J., *Parliament and Parties in Egypt*, Tel Aviv, Israel Publishing House, 1953
- Laqueur, W. Z., *Comunismo e nazionalismo nel Medio Oriente*, Roma, Opere Nuove, 1959
- Laroui, A., *L'ideologia araba contemporanea*, Milano, Mondadori, 1969
- Laroui, A., *The Crisis of the Arab Intellectual: Traditionalism or Historicism?*, Berkeley, University of California Press, 1976 (1974)
- Lazitich, B. – Drachkovitch, M., *Lenin and the Comintern*, vol. 1, Stanford (CA), Hoover Institution Press, 1972
- Lesch, A.M.-Tessler, M., *Israel, Egypt and the Palestinians: from Camp David to Intifada*, Bloomington, Indiana University Press, 1989
- Lewis, B., *Il linguaggio politico dell'Islam*, Roma-Bari, Laterza, 1991
- Lippman, T. W., *Egypt after Nasser: Sadat, Peace and the Mirage of Prosperity*, New York, Paragon House, 1989

- Lockman, Z. (ed.), *Workers and Working Class in the Middle East: Struggles, Histories, Historiographies*, Albany, State University of New York, 1994
- Lockman, Z., *Comrades and Enemies*, Berkeley, University of California Press, 1996
- Macleane, I.- Montefiore, A.- Winch, P. (eds), *The Political Responsibility of Intellectuals*, Cambridge, Cambridge University Press, 1990
- Magrini, L. (a cura di), *La coscienza dell'altro*, Roma, Cultura Editrice, 1975
- Mahrez, S., *Egyptian Writers between History and Fiction*, Cairo, AUC Press, 1994
- Makarius, R., *La jeunesse intellectuelle d'Égypte au lendemain de la deuxième Guerre mondiale*, Paris, Ed. de l'EHESS, 1960
- Martin-Muñoz, G., *Política y elecciones en el Egipto contemporáneo, 1922-1990*, Madrid, Instituto de Cooperación con el mundo árabe, 1992
- Marr, Ph. (ed.), *Egypt at the Crossroads. Domestic Stability and Regional Role*, Washington DC, NDU Press, 1999
- Mc Dermott, A., *Egypt from Nasser to Mubarak: a Flawed Revolution*, London, Croom Helm, 1988
- Meijer, R., *The Quest for Modernity. Secular Liberal and Left-Wing Political Thought in Egypt, 1945-1958*, London, RoutledgeCurzon, 2002

- Meital, Y., *Egypt's Struggle for Peace: Continuity and Change, 1967-1977*, Gainesville, University Press of Florida, 1997
- Melotti, U., *Marx e il Terzo Mondo. Per uno schema multilaterale dello sviluppo storico*, Milano, Il Saggiatore, 1972
- Minganti, P., *I movimenti politici arabi*, Roma, Ubaldini, 1971
- Mirel, P., *L'Egypte des ruptures: l'ère Sadate, de Nasser à Moubarak*, Paris, Sindbad, 1982
- Mitchell, R. P., *The Society of the Muslim Brothers*, London- New York, Oxford University Press, 1969
- Morsy, M., *Lexique du monde arabe moderne*, Paris, Dalloz, 1986
- Narayan, B. K., *Anwar al-Sadat. Man with a Mission*, New Delhi, Vikes, 1977
- Nasser, M. K., *Press, Politics and Power: Egypt's Heikal and al-Ahram*, AMES, Iowa State University Press, 1979
- El-Nawawy, M., *The Israeli-Egyptian Peace Process in the Reporting of Western Journalists*, Westport (Conn.), Ablex, 2002
- Norton, A.R. (ed.), *Civil society in the Middle East*, 2 vols., Leiden, Brill, 1995-96
- Pajetta, G. C., *Socialismo e mondo arabo*, Roma, Editori Riuniti, 1970
- Pizzo, P., *L'Egitto agli egiziani!*, Torino, Zamorani, 2003
- Quandt, W. B. (ed.), *The Middle East: Ten Years after Camp David*, Washington DC, Brookings, 1988

- Quandt, W. B.(ed.), *Camp David. Peacemaking and Politics*, Washington DC, Bloomington, 1986
- Redjwan, N., *Nasserist Ideology. Its Exponents and Critics*, New York and Toronto, John Wiley & Sons, 1974
- Rodinson, M., *Marxism and the Muslim World*, London, Zed, 1979
- Roussillon, A., *Reforme sociale et identité : essai sur l'émergence de l'intellectuel et du champ politique modernes en Égypte*, Casablanca, Fennec, 1998
- Rubinstein, A. Z., *Red Star on the Nile. The Soviet Egyptian Influence Relationship since the June War*, Princeton, Princeton University Press, 1977
- Ruocco, M., *L'intellettuale arabo tra impegno e dissenso. Analisi della rivista libanese al-fd...b (1953-1994)*, Roma, Jouvence, 1999
- Ruocco, M. (a cura di), *Migrazioni. Idee, culture, identità in Medio Oriente e Nord Africa, numero monografico di Meridione. Sud e Nord nel Mondo*, III, n. 1-2 (2003)
- Sabour, M., *The Ontology and Status of Intellectuals in Arab Academia and Society*, Ashgate, Gower Publishing, 2000
- al-Sadat, A., *In cerca di un'identità*, Milano, Mondadori, 1978
- al-Sadat, J., *A Woman of Egypt*, London, Bloomsbury, 1987
- Sagiv, D., *Fundamentalism and Intellectuals in Egypt, 1973-1993*, London, Cass, 1995

- Salamé, Gh. (ed.), Democracy without Democrats? The Renewal of politics in the Muslim World, London, IB Tauris, 1994**
- Salem, P., Bitter Legacy: Ideology and Politics in the Arab World, Syracuse, Syracuse University Press, 1994**
- Said, E. W., Orientalismo, Milano, Feltrinelli, 2001 (1978)**
- Said, E. W., Dire la verità. Gli intellettuali e il potere, Milano, Feltrinelli, 1995**
- Said, E. W., Sempre nel posto sbagliato. Autobiografia, Milano, Feltrinelli, 2000**
- Salvatore, A., Ruolo egemonico e modernizzazione in "Medio Oriente". Il dilemma degli aiuti economici americani in Egitto, Napoli, Ferraro, 1991**
- Sanaugustin, F. (ed.), Les intellectuels en Orient musulman. Statut et fonction, Le Caire, IFAO, 1998**
- Scudder, L. R., Arab Intellectuals and the Defeat of 1967, Unpublished M.A. thesis, American University of Beirut, 1971**
- Schiff, Z., The Yom Kippur War, 1973, Boulder CO, Westview Press, 1977**
- Schultze, R., Il mondo islamico nel XX secolo. Politica e società civile, Milano, Feltrinelli, 2004 (1994)**
- Schwedler, J. (ed.), Toward a Civil Society in the Middle East? A Primer, Boulder, Rienner, 1995**

- Shaked, H.- Rabinovich, I., From June to October. The Middle East between 1967 and 1973, New Brunswick, NJ and London, Transaction Books, 1978**
- Shaked, H.- Rabinovich, I., The Middle East and the United States, Perceptions and Policies, New Brunswick, NJ and London, Transaction Books, 1980**
- Shayegan, D., Cultural Schizophrenia. Islamic Societies Confronting the West, London, Saqi Books, 1992**
- El-Shazli, S., The Crossing of Suez: the October War, 1973, London, Third World Centre for Research and Publishing, 1980**
- Shimoni, Y., Political Dictionary of the Arab World, N.Y., Mac Millan, 1987**
- Shoukri, Gh., Egypt: Portrait of a President, 1971-1981, London, Zed, 1981**
- Singer, H. F., The Socialist Labor Party: a Case Study of a Contemporary Egyptian Opposition Party, Cairo, AUC Press, 1993**
- Sonbol, A., The New Mamluks. Egyptian Society and Modern Feudalism, Syracuse, Syracuse University Press, 2000**
- Stagh, M., The Limits of Freedom of Speech: Prose Literature and Prose Writers under Nasser and Sadat, Stockholm, Almqvist and Wilksell, 1993**
- Tachau, F. (ed.), Political Parties of the Middle East and North Africa, London, Mansell, 1994**

- Tripp, Ch.- Owen, R. (eds), *Egypt Under Mubarak*, London, Routledge, 1989
- Tripp, Ch. (ed.), *Contemporary Egypt: Through Egyptian Eyes*, London, Routledge, 1993
- Turner, B. S., *Marx and the End of Orientalism*, London, Allen & Unwin, 1978
- Urvoy, D., *Les penseurs libres dans l'Islam classique*, Paris, Albin Michel, 1996
- Valabrega, G., *Il Medio Oriente dal primo dopoguerra ad oggi*, Firenze, Sansoni, 1978
- Vatikiotis, P.J. (ed.), *Egypt Since the Revolution*, London, Allen & Unwin, 1968
- Vatikiotis, P.J., *Nasser and his Generation*, London, Croom Helm, 1978
- Vatikiotis, P.J., *The History of Modern Egypt. From Muhammad Ali to Mubarak*, London, Weidenfeld and Nicolson, 1991
- Wahbah, M., *The Role of the State in Egyptian Economy, 1945-1981*, Reading, Ithaca Press, 1994
- Wahbah, M., *La politique culturelle en Egypte*, Paris, Unesco, 1972
- Waterbury, J., *Egypt: Burdens of the Past, Options for the Future*, Bloomington, Indiana University Press, 1978

- Waterbury, J., The Egypt of Nasser and Sadat: the Political Economy of two Regimes, Princeton, Princeton University Press, 1983**
- Weizman, E., The Battle for Peace, Toronto, Bantam Books, 1981**
- White, P. J. and Logan, W. S. (eds), Remaking the Middle East, Oxford-New York, Berg, 1997**
- Zaalouk, M., Power, Class and Foreign Capital in Egypt. The Rise of the New Bourgeoisie, London, Zed, 1989**
- Zaki, Kh. S., A Political Study of NPUP, Unpublished MA thesis, Cairo, AUC, 1989**
- Zanelli, P. (a cura di), Scritti arabi sulla globalizzazione, Roma, IPO "C. A. Nallino", 2003**
- Zeghal, M., Gardiens de l'Islam: les oulemas de l'Azhar dans l'Égypte contemporaine, Paris, Presses de la Fondation National de Sciences Politiques, 1996**
- al-Zayyat, L., Carte private di una femminista, Trad. di I. Camera d'Afflitto, Roma, Jouvencé, 1996**
- Zubaida, S., Islam, the People and the State: Essays on Political Ideas and Movements in the Middle East, London, Routledge, 1988**

'Abd al-Quddus, I., "The Crisis of the Intellectuals", Jerusalem Quarterly, 30, 1984, p. 50-56

Abdel-Khalek, G., "Looking Outside, or Turning Northwest? On the Meaning and External Dimension of Egypt's Infitah 1971-1980", Social Problems, Vol. 28, No. 4 (April 1981), p. 395-409

Abou-El-Haj, R. A., "Historiography in West Asian and North African Studies since Sa'id's Orientalism", in Dirlik, Bahl. Gran (eds), op. cit., p. 67-84.

Abu Bakr, T., "The Reduction of the Political Role of the Arab Intellectual", Arab Affairs, 1, v, 1987-88, p. 112-115

Abu Jaber, K. S., "Salamah Musa: Precursor of Arab Socialism", Middle East Journal, 20, 1966, p. 196-206

Abu-Lughod, I., "Arab Cultural Consolidation: a Response to European Colonialism", Arab Affairs, 1, iii, 1987, p. 93-104

Adunis, "De l'impasse de la modernité dans le société arabe", Qantara: cultures en mouvement, 14, 1995, p. 37-40

Akhavi, S., "Egypt's Socialism and Marxist Thought: Some Preliminary Observations on Social Theory and Metaphysics", Comparative Studies in Society and History, 17 (1975), p. 190-211

- Alberti, L., "Mondo arabo e democrazia: il caso dell'Egitto", in Collotti Pischel, E. (a cura di), *La democrazia degli altri*, Milano, F. Angeli, 1996, p. 328-346
- Allen, R., "Contemporary Egyptian Literature", *Middle East Journal*, 35, 1981, p. 25-39
- Amaldi, D., "La guerra dei sei giorni in "Al-Karnak" di Nagib Mahfuz", *Egitto e Vicino Oriente*, 4, 1981, p. 381-388
- Amin, G. A., "Some Economic and Cultural Aspects of Economic Liberalization in Egypt", *Social Problems*, Vol. 28, No. 4 (April 1981), p. 430-442
- Amin, S., "Islam, stato e società. Radiografia del mondo arabo", in *la rivista del manifesto*, n. 22, novembre 2001
- Aoudè, I., "From National Bourgeois Development to Infitah: Egypt 1952-1992", *Arab Studies Quarterly*, 16, I, 1994, p. 1-23
- Ansari, H., "Egypt: Repression and Liberalization", *Current History*, 86/517 (1987), p. 77-84
- Aulas, M.C., "State and Ideology in Republican Egypt, 1952-82", in Lesch, A.M.-Tessler, M., *Israel, Egypt...*, cit., p. 133-166
- Aulas, M.C., "Sadat's Egypt, a Balance Sheet", *MERIP*, n°107 (July-Aug. 1982), p.6-18
- Awad, L., "Contemporary Arab Culture: Motivations and Ends", *Cahiers d'histoire mondiale*, 14, 1972, p. 756-770
- Awad, L., "Freedoms and Ideology: the Current State of Political Thought in the Middle East", *MESA Bulletin*, 18, 1984, p. 11-21

Ayalon, A., "Egyptian Intellectuals versus Fascism and Nazism in the 1930s", in Dann, U. (ed.), *The Great Powers in the Middle East 1919-1939*, New York, Holmes & Meier, 1988, p. 391-404.

Ayalon, A., "From Fitna to Thawra", *Studia Islamica*, 66, 1987, p. 145-174

Ayalon, A., "Dimuqratiyya, hurriyya, jumhuriyya: The Modernization of the Arabic Political Vocabulary", *Asian and African Studies* (Haifa), 23, 1989, p. 23-42

Ayubi, N., "The Egyptian «Brain Drain»: a Multidimensional Problem", *IJMES*, 15, 1983, p. 431-450

Bahaeddine, A., "Israël vu par la Gauche Arabe", in AA.VV., *Le conflit israelo-arabe*, Paris, 1976, p. 256-266

Baker, R. W., "Sadat's Open Door: Opposition from Within", *Social Problems*, Vol. 28, No. 4 (April 1981), p. 378-384

Baldissera, E., "Sul recente progetto di unione fra Egitto e Siria", *Oriente Moderno*, LII (1972), p. 485-490

Barakat, H., "Arabic Novels and Social Transformation", in Ostle, R.C. (ed.), *Studies...*, cit., p. 126-139

Barakat, H., "Arab Intellectuals and the State", *Jerusalem Quarterly*, 4, 1977, p. 62-67

Barakat, H., "Alienation and Revolution in Arab Life", *Jerusalem Quarterly*, 4, 1977, p. 111-125

Barresi, C.F., "La narrativa egiziana contemporanea", *Oriente Moderno*, LVIII, 1978, p. 17-26

- Barresi, C.F., "Gli intellettuali fra consenso e disimpegno", *Politica Internazionale*, 3, 1978, p. 82-86
- Beinin, J., "The Communist Movement and the Nationalist Political Discourse in Nasirist Egypt", *Middle East Journal*, 41, 1987, p. 568-584
- Beinin, J., "The Egyptian Regime and the Left. Between Islamism and Secularism", *Middle East Report*, 185/23, VI, 1993, p. 25-26
- Ben 'Abdallah, R., "Communisme, nationalisme, islamisme: itinéraire d'un intellectuel égyptien, 'Adil Husayn ", *Egypte/Monde Arabe*, n°3, 3e trimestre, 1990
- BenSaïd, S., "Al-watan and al-umma in Contemporary Arab Use", in Salamé G. (ed.), *The fundation of the Arab State*, London, Croom Helm, 1987, p. 149-174
- Ben Salem, L., "L'influenza del pensiero marxista su movimenti, partiti, governi", *Politica Internazionale*, 1-2, 1989, p. 62-69
- Binder, L., "The Failure of Egyptian Left", *Asian and African Studies (Haifa)*, 14, 1980, p. 20-34
- Boisard, M., "Les accords de Camp David à l'épreuve du panarabisme et du sionisme", *Relations Internation.*, 20, 1979, p. 431-448
- Borthwick, B.M., "Religion and Politics in Israel and Egypt", *Middle East Journal*, 33 (1978), p. 145-163

- Botiveau, B., "Penser, dire, interdire: logiques et enjeux de la censure des écrits en Egypte, *Egypte/Monde Arabe*, 14, 1993, p. 133-162
- Botman, S., "The Egyptian Communist Movement in Historical Perspective", *Journal of South Asian and Middle Eastern studies*, 10, III, 1987, p. 78-94
- Boullata, I. J., "Challanges to the Arab Cultural Authenticity", in Sharabi H., *The next Arab decade: alternative futures*, London, Mansell, 1988, pp. 147-159
- Bozzo, A., "Sulla storiografia araba contemporanea: a proposito di un recente lavoro di Rif'at as-Sa'id", *Oriente Moderno*, LVII, 1977, pp. 391-403
- Bozzo, A., "Alle origini dell'identità nazionale algerina : Islàm e stato moderno (1900-1945)", in Bausani, A., Scarcia Amoretti, B. (a cura di), *Il mondo islamico tra interazione e acculturazione*, Roma, Istituto di Studi Islamici, Università di Roma, 1982, pp. 239-289.
- Bozzo, A., "La crisi libanese: dinamiche interne e condizionamenti esterni" in AA. VV., *La crisi del Medio Oriente*, cit., p. 103-128
- Branca, P., "Moderatismo e opposizione estrema in Egitto", *Politica Internazionale*, 22, II, 1994, pp. 157-169
- Calabrese, M. C., "La politica di pianificazione familiare in Egitto fino al 1977", *Oriente Moderno*, LVIII, 1978, pp. 97-107
- Camera d'Afflitto, I., "at-Takfir wa al-Higrah e l'integralismo musulmano in Egitto", *Oriente Moderno*, LVII, 1978, p. 145-153

- Camera d'Afflitto, I., "Traduzione e commento del comunicato emesso dagli 'ulama' di al-Azhar, relativo all'accordo di pace tra Egitto e Israele", *Oriente Moderno*, LX, 1980, p. 79-84
- Carré, O., "Pouvoir et idéologie dans l'Égypte de Nasser et Sadat (1952-1976)", in AA.VV., *L'Égypte d'aujourd'hui. Permanence et changements 1805-1976*, Paris, CNRS, 1977, pp. 243-263
- Chartier, M., "Le rencontre Orient-Occident dans la pensée de trois philosophes égyptiens contemporains: Hasan Hanafi, Fuad Zakariyya, Zaki Naguib Mahmoud", *Oriente Moderno*, LIII, 1973, pp. 605-642
- Cilardo, A., "The Evolution of Muslim Family Law in Egypt", *Oriente Moderno*, LXV, N.S. IV (1985), pp. 67-124
- Cliff, Tony, "The Struggle in the Middle East (1967/1990)" in *Idem, International Struggle and the Marxist Tradition, Selected Works Vol. 1*, London, Bookmarks, 2001, p. 43-51
- Contu, G., "Gli aspetti positivi e i limiti del laicismo in Salamah Musa (1887-1958)", *Napoli, Annali dell'Istituto Universitario Orientale*, vol.40, suppl. 24, fasc. 3, 1980
- Contu, G., "La situazione politica nell'Egitto degli anni '70 (uno schema di lettura)", *Annali della Facoltà di Scienze Politiche dell'Università di Cagliari*, vol. IX, 1983, pp. 233-249
- Cooper, M., "Egyptian State Capitalism in Crisis: Economic Policies and Political Interests 1967-71", *IJMES*, 10, 1979, pp. 481-516

Crabbs Jr., J., "Politics, History and Culture in Nasser's Egypt", *IJMES*, 6, 1975, pp. 386-405

Davis, E., "Ideology, Social Class and Islamic Radicalism in Modern Egypt", in Arjomand, S.E. (ed.), *From Nationalism to Revolutionary Islam*, London, Macmillan, 1984, pp. 137-157

Dessouki, A.H., "The Mass Political Culture of Egypt", *Muslim World*, 61 (1971), pp.13-20

Dessouki, Ali H., "Policy Making in Egypt: a Case Study of the Open Door Economic Policy", *Social Problems*, Vol. 28, No. 4 (April 1981), p. 410-416

Donini, P.G., "Sulla crisi dei rapporti tra Egitto e Unione Sovietica", *Oriente Moderno*, LV, 1975, pp. 473-482

El-Kharrat, E., "The Age of Ideology and Polarization Since 1950: the Mashriq", in Ostle R. (ed.), *Modern literature in the Near and Middle East 1850-1970*, London, Routledge, 1991, pp. 180-192

Ende, W., "The Palestine Conflict as Reflected in Contemporary Arabic Literature", in Stein G. – Steinbach U. (eds), *The Contemporary Middle Eastern Scene*, 1979, pp. 154-167

Ercolessi, M. C., "L'evoluzione dei rapporti inter-arabi, 1970-1983" in AA. VV., *La crisi del Medio Oriente*, cit., p. 17-51

Fawzi, H., "Continuity of the Egyptian Personality", *Jerusalem Quarterly*, 14 (1980), p. 3-7

Gabrieli F., "Taha Husayn, umanista egiziano", *OM*, XXX (1950), p. 81-83

Gervasio, G., "Tra repressione e autocensura. Intellettuali e politica in Egitto (1952-1967)", *Oriente Moderno*, XX n.s., (2001), p. 329-349.

Gobe, E., "Egypte: les hommes d'affaires et l'Etat dans le capitalisme del'infatih (1974-1994)", *Monde Arabe Maghreb-Machrek*, 156 (1997), pp. 49-59

Gonzales-Quijano, Y.-Leca, J., "L'Egypte au miroir de ses intellectuels", *Maghreb Machrek*, 113, 1986, pp. 5-12

Gorman, A., "In the Shadow of the Nation: the politics of Egyptian Historiography in the 20th Century", *Journal of Arabic, Islamic and Middle Eastern Studies*, 3, I (1996), pp. 117-126

Hafez, S., "The Egyptian Novel in the Sixties", *Journal of Arabic Literature*, VII, 1976, pp. 68-84

Hamed, O., "Egypt's Open Door Policy: an Attempt of Economic Integration in the Middle East", *IJMES*, 13, 1981, pp. 1-9

Hanafi, H., "Arab National Thought in the Balance", *Jerusalem Quarterly*, 25, 1982, pp. 54-67

Hanna, S.A., "Islam, Socialism and National Trials", *Muslim World*, 57, 4, 1968, pp. 284-294

Hanna, S.A., "al-Takaful al-ijtima'i and Islamic socialism", *Muslim World*, 1969, 3-4, pp. 275-286

Hatto, A. J., "The Semantics of Revolution", in Vatikiotis, P.J. (ed.), *Revolution in the Middle East*, London, Allen and Unwin, 1972, pp. 25-29

Heikal, M. H., "Egyptian Foreign Policy", *Foreign Affairs*, 56, 1978, p. 714-727

Hendriks, B., "The Legal Left and its Urban Activities: A Cairo Case Study", in AA.VV., *The Challenge of the Middle East*, Amsterdam, Amsterdam University, 1982, p. 43-55

Hendriks, B., "The Legal Left in Egypt", *Arab Studies Quarterly*, 5, no. 3, 1983, p. 260-275

Henry, J. R., "La crise du mythe de l'unité arabe", *Annuaire de l'Afrique du Nord*, 24, 1985, p. 19-25

Hinnebusch, R.A., "Egypt Under Sadat: Elites, Power Structure and Political Change in a Post-populist State", *Social Problems*, Vol. 28, No. 4 (April 1981), p. 443-464

Hinnebusch, R.A., "The Nationalist Progressive Unionist Party: the Nationalist Left Opposition in Post-populist Egypt", *Arab Studies Quarterly*, 3, 1981, pp. 325-351

Hinnebusch, R. A., "From Nasser to Sadat: Elite Transformation in Egypt", *Journal of Southern Asian and Middle Eastern Studies*, Vol. 7, n°1 (Fall 1983), p. 24-29

Hinnebusch, R. A., "The Reemergence of Wafd Party : Glimpses of the Liberal Opposition in Egypt", *IJMES*, 16, 1984, pp. 99-121

Hinnebusch, R.A., "Political Party in the Arab State: Lybia, Syria, Egypt", in Dawisha, A.-Zartman, I.W., (eds.), *Beyond the Coercion: the Durability of the Arab State*, London, Croom Helm, 1988, pp. 35-60

Hussein, 'A., "Islam and Marxism: the Absurd Polarization of Contemporary Egyptian Politics", *Review of Middle Eastern Studies*, 2, 1976, pp. 71-83

Hussein, M., "Nazionalismo invisibile e crisi dello Stato" in *L'Egitto da Nasser a Sadat: una transizione permanente*, Dossier di *Politica Internazionale*, 3 (1978), p. 41-44.

Ibrahim, Saad Eddin, "An Islamic Alternative in Egypt: the Muslim Brotherhood and Sadat", *Arab Studies Quarterly*, 4 (1982), pp. 75-93

Ismael, T. Y., "The Communist Movements in the Arab World", in Piscatori, J.-Harris, G.S. (eds), *Law, Personalities and Politics of the Middle East: Essays in honor of Majid Khadduri*, Boulder, Westview Press, 1987, pp. 169-204

Ismail, S., "New Trends in the Commitment of Arab Writers", *Lotus*, II, 16 (1973), pp. 47-63.

Israeli, R., "Islam in Egypt under Nasser and Sadat: some comparative notes", in Heper, M.-Israeli, R. (eds), *Islam and Politics in Modern Middle East*, London, Croom Helm, 1984, pp. 64-78

Israeli, R., "The Peasant-President: Sadat's World of Images and Metaphors", *Middle East Focus*, 7, II (1984), pp. 11-14

Jackson, H.F., "Sadat's Perils", *Foreign Policy*, n°42 (1981), p. 58-73

Jiryis, S., "The Arab World at the crossroads: an analysis of the Arab Opposition to the Sadat initiative", *Journal of Palestine Studies*, 7, II (1978), pp. 26-61

Joseph, R., "Towards a semiotics of Middle Eastern cultures", *International Journal of Middle East Studies*, 12, 1980, pp. 319-329

Kamel, M., "Quale classe per quale rivoluzione", *Politica Internazionale*, 3, 1978, pp. 45-53

Karawan, I. A., "Sadat and the Egyptian-Israeli Peace Revisited", *IJMES*, 26, II (1994), pp. 249-266

Kelidar, A., "The Political Press in Egypt, 1882-1914", in Tripp, Ch. (ed.), *op. cit.*, p. 1-21.

Kerr, M.H., "Egyptian Foreign Policy and the Revolution", in P.J. Vatikiotis (ed.), *Egypt...*, *cit.*, p. 114-134

Khalaf, S., "The Growing Pains of Arab intellectuals", *Diogenes*, 54, 1966, pp. 59-80

Khalidi, R. I., "Arab nationalism: historical problem in the literature", *American Historical Review*, 96, 1991, pp. 1363-1373

Khoury, E., "The Double Exile", *Rive: Review of Mediterranean Politics and Culture*, 3, 1997, pp. 49-52

Khoury, N. A., "The Pragmatic Trend in Inter-Arab Politics", *Middle East Journal*, XXXVI, n. 3 (1982), p. 374-387.

Korany, B., "La nation dans tous états: dialectique unité/diversité", in M. Flory et alii, *Les régimes politiques arabes*, Paris, PUF, 1991

Koubaa, M., "La critique de la religion par les Marxistes Arabes dans son rapport avec la justice", in *Gruppe de Recherches Islamo-Chretien, Foi et justice pour le Christianisme et pour l'Islam*, Paris, Centurion, 1993, pp. 163-168

Krämer, G., "The Change of Paradigm: Political Pluralism in Contemporary Egypt", *Peuples Méditerranéens*, 41-42, 1987-1988, pp. 283-302

Kreutz, A., "Marx and the Middle East", *Islamic Culture*, 58, 1984, pp. 263-288

Kudsi-Zadeh, A.A., "The Emergence of Political Journalism in Egypt", *Muslim World*, 80, 1980, pp. 47-55

Lachine, N., "Class Roots of the Sadat Regime: Reflections of an Egyptian Leftist", *MERIP*, n°56 (1977), p. 3-7

Laurens, H., "L'U.R.S.S. et l'Egypte de Nasser à Sadate", in Chevallier, D. (ed.), *Renouvellements du monde arabe 1952-1982: pensées politiques et confrontations internationales*, Paris, Colin, 1987, pp. 47-64

Legassick, T. J., "Some Recent War-related Arabic Fiction", *Middle East Journal*, 25, 1971, pp. 491-505

Lewis, B., "On Some Modern Arabic Political Terms", *Orientalia Hispanica*, 1974, pp. 465-472

Al-Mashat, 'Abd al-Moneim, "Egyptian attitudes towards Peace Process: views of an alert élite", *MEJ*, 37 (1983), pp. 394-411

- Mahmood, Z., "Sadat and Camp David Reappraised", *Journal of Palestine Studies*, 19, no. 4 (August 1985), p. 62-87
- Makram-Ebeid, M., "Le rôle de l'opposition officielle en Egypte", *Maghreb Machrek*, 119, 1988, p. 5-24
- Makram-Ebeid, M., "Political Opposition In Egypt: Democratic myth or reality?", *Middle East Journal*, 43, 1989, p. 423-436
- Milson, M., "Najib Mahfuz and Jamal 'Abd al-Nasir: the writer as political critic", *Asian and African Studies (Haifa)*, 23, 1989, p. 1-22
- Moghith, A., "Marxisme égyptien et marxisme occidental: traduction et ideologie", *Egypt/Monde Arabe*, nn.30-31 (1997), p. 71-91
- Mustapha, A., "History, change and Arab culture", *Cahiers d'histoire mondiale*, 14, 1972, pp. 691-701
- Najjar, F., "The Egyptian Press Under Nasser and al-Sadat", in Atiyeh, G-Oweiss, I. (eds.), *Arab Civilization: Challenges and Responses. Studies in honor of Constantine K. Zurayk*, Albany, State University of N.Y. Press, 1988, pp. 326-358
- al-Naqqash, F., "Barred from Writing in Egypt: the Experience of a Journalist Who Was Critical of the Government", *Index on Censorship*, 12, III, 1983, pp. 20-22
- Nasser, M. K., "Egyptian Mass Media Under Nasser and Sadat: Two Models of Press Management and Control", *Journalism Monographs*, n°124 (Dec. 1990), p.1-26

Pajetta, G.C., "Marxismo e socialismo nei paesi arabi", in Magrini, L. (a cura di), *La coscienza dell'altro*, cit., pp. 281-294

PNUP (Secrétariat Général) , "Communiqué su la position du parti quant aux accords du Camp David", in 2nd Conference for Progressive Socialist Organizations and Parties of the Mediterranean, Malta, 20-25 June 1979.

Pranger, R.J., "Ideology and Power in the Middle East", in Chelkowski, PJ-Pranger, RJ (eds.), *Ideology and Power in the M. East. Studies in honor of G. Lenczowski*, Durham, Duke UP, 198 ,pp. 14-28

Reid, D. M., "The Return of the Egyptian Wafd, 1978", *International Journal of African Historical Studies*, 12, n. 3 (1979), p. 389-415

Reissner, J., "Il dibattito intrailsamico sul moderno ordine socio-economico", in Ende, W. – Steinbach, U. (a cura di), *L'Islam oggi*, Bologna, Edizioni Dehoniane, 1993, pp. 238-259

Remaoun, H., "Le marxisme et l'étude du monde arabe", *Revue Algérienne des Sciences Juridiques, Économiques et Politiques*, Vol. 21, No. 3, (Sep 1984), pp.655-668

Rondot, P., "Anwar es Sadat: Un Style Nouveau pour l'Égypte", *Revue de Defense Nationale* (Juillet 1971), p. 1154-1166

Rondot, P., "Égyptianité and Panarabisme", *Politique Etrangère*, 46, 1981, pp. 813-822

Rouleau, E., " Who killed Sadat", *MERIP Reports*, n°103 (Feb. 1982), p. 3-5

Roussillon, A., "Trente ans de sciences sociales en Egypte: le bilan sociale de la société égyptienne 1952-1980", *Maghreb-Machrek*, 113 (1986), pp. 23-46

Roussillon, A., "Egyptianité, arabité, islamité: la recomposition des référents identitaires", *Egypte-Monde arabe*, 11, 1992, p. 77.
132

Roussillon, A., "Republican Egypt interpreted: revolution and beyond" in AA. VV., *The Cambridge History...*, cit., p. 334-393.

Safty, A., "Sadat's negotiations with the U.S. and Israel", *American Journal of Economics and Sociology*, Vol.50, n°3 (Oct. 1991), p. 471-484

Said, E.W., "A Changing World Order: the Arab Dimension", *Arab Studies Quarterly*, 3 (1981), p. 198-208

Sanbar, E., "La stella di Nasser nelle speranze frustrate dei palestinesi", in *Medio Oriente 1967-1987*, Dossier di Politica Internazionale, n. 6-7 (1987), p. 61-64.

Sardar, Z., "Muslim Marxists: Victims of Methodology", *Afkar*, 1, III, 1984, pp. 44-48

El-Sayed, M., "Egyptian Popular Attitudes Towards the Palestinians since 1977", *Journal of Palestine Studies*, 72/18 (1989), pp. 37-51

Sayegh, F., "The Camp David Agreement and the Palestine Problem", *Journal of Palestine Studies*, 30 (1979)

- Scarcia Amoretti, B.M., "Il ruolo degli intellettuali nel Terzo Mondo. Analogie fra Medio Oriente e America Latina", *Politica Internazionale*, 2, 1976, pp. 43-45
- Scarcia Amoretti, B.M., "Il ruolo politico e sociale dell'intellettuale", *Cultura e potere nel mondo arabo. Dossier di Politica Internazionale*, 1-2, 1989, pp. 33-39
- Scott, R., "An 'official' Islamic response to the Egyptian al-jihad movement", *Journal of Political Ideologies*, 8 (1), 2003, p. 39-61
- Sen, P., "Party System under Sadat: Change or Continuity?", *India Quarterly*, 37, 1981, pp. 414-427
- Sfakianakis, J., "A Loss for All. Tahseen Bashir (1925-2002)", *al-Ahram Weekly*, n. 591, 20-26 June 2002 (online edition)
- Sharabi, H., "Cultural critics of contemporary Arab society", *Arab Studies Quarterly*, 9, 1987, pp. 1-19
- Shamir, Sh., "The Marxists in Egypt: the «Licensed infiltration» Doctrine in Practice", in Confino, M.-Shamir, Sh., *The U.S.S.R. and the Middle East*, cit., pp. 293-319
- Shamir, Sh., "Marxism in the Arab World: the case of the Egyptian and Syrian regimes", in Avineri, S. (ed.), *Varieties of Marxism*, The Hague, 1977, pp. 279-292
- Shamir, Sh., "Radicalism in Egyptian Historiography", in Warburg, G.R.-Kupferschmidt, U.M. (ed s.), *Islam, Nationalism and Radicalism in Egypt and the Sudan*, New York, Praeger, 1983

Shivtiel, S. S., "Language and Political Change in Modern Egypt", *International Journal of the Sociology of Language*, 137 (1999), pp. 131-140

Shukrallah, H., "Political Crisis and Political Conflict in post 1967 Egypt", in Tripp-Owen (eds), *Egypt under Mubarak*, cit., pp. 53-101

Shukrallah, H., "Lo Stato egiziano dal bonapartismo all'oligarchia", in Zanelli, Patrizia (a cura di), op. cit., p. 210-236

Sid-Ahmed, M., "Le conflit israëlo-arabe: les chances d'une paix générale", *Politique Etrangère*, 46, 1981, pp. 795-812

Sid-Ahmed, M., "Auto-critique du soutien inconditionnel à Nasser", *Peuples Méditerranéens*, 74/75 (1996), pp. 67-75

Smith, C.D., "The Intellectual and Modernization: Definitions and Reconsiderations. The Egyptian Experience", *Comparative Studies in Social History*, 22, 1980, pp. 513-533

Smith, D., "Imagined identities, imagined nationalism: Print Culture and Egyptian Nationalism in Light of Recent Scholarship", *IJMES*, vol. 29, n. 4, November 1997, pp. 607-622.

Snir, R., "The Arab-Israeli Conflict as Reflected in the Writing of Najib Mahfouz", *Abr-Nahrain*, 27, 1989, pp. 120-153

Stewart, D., "Egyptian Culture since Camp David", *Azure*, 5, 1980, pp. 3-7

Stork, J., "Massive Arrests Precede Sadat's Assassination", *MERIP Reports*, 100-101, 1981, pp. 43-55

Suleiman, Y., "Nationalism and the Arabic Language: a Historical overview", in Suleiman Y. (ed.), *Arabic Sociolinguistics: Issues & Perspectives*, London, Curzon Press, 1994, pp. 227-234

Suleiman, Y., "Language and identity in Egyptian nationalism", in Suleiman, Y. (ed.), *Language and identity in the Middle East and North Africa*, London, Curzon Press, 1996, pp. 1-23

Tibi, B., "Structural and Ideological Change in the Arab subsystem since the Six-Day War", in Lukacs, Y. & Battah A., *The Arab-Israeli Conflict: two Decades of change*, Boulder, Westview Press, 1988, pp. 147-163

Tiana, M., "Note sulla riforma agraria in Egitto da Giamal 'Abd en-Nasser a Mohammed Anwar es-Sadat", *Oriente Moderno*, LVII, 1977, pp. 247-258

Tomiche, N., "Le roman égyptien après 1973...Sa place dans le monde arabe et l'image qui'en reçoit l'Occident", *Annales Islamologiques*, 15, 1979, pp. 399-419

Tomita, H., "The decline of Legitimacy in Sadat's Egypt, 1979-1981", *BriSMES, Proceedings of the 1986 International Conference on Middle Eastern Studies*, Oxford, BriSMES, 1986, pp. 253-267

Van Gelder, G. J., "The Conceit of Pen and Sword: on an Arabic literary debate", *Journal of Semitic Studies*, 32, 1987, pp. 329-360

Waterbury, J., "Corruption, Political Stability and Development: Comparative Evidence from Egypt and Morocco", *Government and Opposition*, 11, 1976, pp. 426-445

- Waterbury, J., "The «Soft State» and the Open Door: Egypt's Experience with Economic Liberalization, 1974-1984", *Comparative Politics*, 18 (1985), pp. 65-83
- Wild, S., "Social Problems in Contemporary Arab literature", in Stein G. – Steinbach U. (eds.), *The contemporary Middle Eastern scene*, 1979, pp. 150-153
- Wissa Wassef, C., "Le prolétariat et le sous-prolétariat industriel et agricole en République Arabe Unie", *Orient*, 51/52 (1969), pp. 87-112
- Wissa Wassef, C., "Le pouvoir et les étudiants en Egypte", *Maghreb Machrek*, 57 (1973), pp. 65-71
- Yadlin, R. -Baram, A., "Egypt's Changing Attitude Towards Israel", *Jerusalem Quarterly*, 14 (1980), pp. 68-87
- Zakariya, F., "Le racines culturelles de sous-développement intellectuel arabe", *Egypte/Monde Arabe*, n°5, le trimestre, 1991
- Zeghal, M., "La jeunesse intellectuelle cairote. Effets de generation et recomposition du champ intellectuel égyptien", in Zeghal, M., *Exils et royaumes: les appartenances au monde arabo-musulman aujourd'hui*, Paris, Fond. Nat. De Sciences Politiques, 1994, pp. 213-234.
- Zubaida, S., "Islam, Nationalism and the Left", *Review of Middle East Studies*, 4, 1988, pp. 1-32

ب) نصوص باللغة العربية

كتب:

عدد من المؤلفين، عبد الناصر واليسار المصري، القاهرة، مؤسسة روز اليوسف، ١٩٧٧.

عدد من المؤلفين، أشغال ندوة "الثورة في الفكر العربي المعاصر"، تونس، ٤-٩ ديسمبر ١٩٧٨، الجامعة التونسية، مركز الدراسات الاجتماعية والاقتصادية، ١٩٧٩.

عدد من المؤلفين، جرامشي وقضايا المجتمع المدني. ندوة للقاهرة، قبرص، دار عبال، ١٩٩١.

عدد من المؤلفين، ملف عبد الناصر بين اليسار للمصري وتوفيق الحكيم، بيروت، دار القضايا، ١٩٧٦.

عدد من المؤلفين، ميشيل كامل ١٩٢٥-١٩٩٣. ولادة جديدة، القاهرة، دار للفضيلة، ١٩٩٤.

عدد من المؤلفين، المتقف العربي: دوره وعلاقته بالسلطة والمجتمع، للرباط، المجلس القومي للثقافة العربية، ١٩٨٨.

عدد من المؤلفين، "الثقافة الوطنية"، عدد خاص من قضايا وشهادات، ربيع ١٩٩٢.

عدد من المؤلفين، اليسار المصري وتحولات الدول الاشتراكية، القاهرة، مركز البحوث العربية، ١٩٩٢.

عدد من المؤلفين، في الثقافة العربية، في التنمية العربية، بيروت، المؤسسة للعربية للبحوث والنشر، ١٩٩٣.

- أحمد عبد الله، أحمد بهاء الدين شعبان، الحركة الطلابية الحديثة في مصر: تجربة القرن، القاهرة، مركز الجيل، ١٩٩٣.
- أحمد عبد الله، الجامع والجامعة: نقد الإسلاميين والمتقنين في مصر، القاهرة، المركز المصري العربي، ١٩٩٤.
- إسماعيل صبرى عبد الله، مصر التي نريدها، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩١.
- محمد عبد العليم، الخطاب الساداتى، القاهرة، الأهالى، ١٩٩٠.
- فتحى عبد الفتاح، شيوعيون وناصريون، القاهرة، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٩٠.
- فتحى عبد الفتاح، ثنائيات السجن والغربة، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٨.
- مصطفى عبد الغنى، المتقنون وعبد الناصر، الكويت، دار سعاد الصباح، ١٩٩٣.
- مصطفى عبد الغنى، متقنون وجواسيس، القاهرة، دار الأمين، ١٩٩٧.
- ليلى عبد المجيد، تطور الصحافة المصرية من ١٩٥٢ إلى ١٩٨١، القاهرة، العربى للنشر والتوزيع، ١٩٨٨.
- جمال عبد الناصر، فلسفة الثورة، القاهرة، ١٩٥٥ (الطبعة الأولى ١٩٥٣).
- جمال عبد الناصر، خطب وتصاريح وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر، القاهرة، مصلحة الاستعلامات، ٤ أجزاء، بدون تاريخ.
- محمد عبد الرسول (إشراف)، جيل السبعينيات (ندوة)، القاهرة، مركز القسطاط للدراسات، ٢٠٠٠.
- حسين عبد الرازق، مصر في ١٧ و ١٨ يناير، القاهرة، دار شهدى، ١٩٨٤ (الطبعة الثالثة).
- حسين عبد الرازق، الأهالى: صحيفة تحت الحصار، القاهرة، دار العالم الثالث، ١٩٩٤.
- عبد المنعم عبد السميع، اليمين واليسار، حوارات على المستقبل، الكويت، سعاد الصباح، ١٩٩٣.

- توفيق أبو بكر (إشراف)، المتقنون والعرب والاستمالة السياسية، عمان، ١٩٩٨.
- حسن أبو باشا، مذكرات في الأمن والسياسة: يناير ١٩٧٧، أكتوبر ١٩٨١، رمضان ١٩٨٧، القاهرة، دار الهلال، ١٩٩٠.
- صوفى أبو طالب، اشتراكيتنا الديمقراطية، القاهرة، بدون اسم للنشر، ١٩٧٨.
- حسن أبو طالب، علاقات مصر للعربية ١٩٧٠-١٩٨١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨.
- فاروق أبو زيد، أزمة الديمقراطية في الصحافة المصرية، القاهرة، مكتبة مدبولي، بدون تاريخ.
- أدونيس، النظام والكلام، بيروت، دار العودة، ١٩٩٣.
- محمود أمين العالم، الوعي والوعي الزائف في الفكر العربى المعاصر، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٨٦.
- محمود أمين العالم (إشراف)، سبعون عاما على الحركة الشيوعية المصرية. رؤية تحليلية نقدية، القاهرة، كتب قضايا فكرية عدد ١٣، ١٩٩٢.
- فؤاد علام، الإخوان وأنا: من المنشية إلى المنصة، القاهرة، المكتب المصرى الحديث، ١٩٩٦.
- محمد علام، جمال حمدان: عبقرية ضد الانحياز، القاهرة، دار الغد العربى، ١٩٩٧.
- جلال أمين، المتقنون العرب وإسرائيل، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٨.
- مصطفى أمين، السنة الأولى في السجن، القاهرة، دار الأخبار، ١٩٧٤.
- رماح أسعد، سطور من يوميات الحركة الطلابية المصرية ١٩٦٨-١٩٧٣، القاهرة، الدار، ١٩٨٧.
- لويس عوض، الاشتراكية والأدب، القاهرة، ١٩٦٣.
- لويس عوض، ألقعة الناصرية السبعة، بيروت، دار القضايا، ١٩٧٥.

- صديق جلال العظم، النقد الذاتي بعد الهزيمة، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٨.
- صديق جلال العظم، زيارة السادات وبؤس السلام العادل، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٨.
- عزيز العظمة، التراث بين السلطان والتاريخ، الدار البيضاء، دار القرطبة للطباعة والنشر، ١٩٨٧.
- عبد الحكيم بدران، خيانة المتقنين، القاهرة، مركز الثقافة العربية، ٢٠٠٠.
- أحمد بهاء الدين، محاوراتي مع السادات، القاهرة، دار الهلال، ١٩٨٦.
- أحمد بهاء الدين، للمتقنون والسلطة في عالمنا العربي، الكويت، لغربي، ١٩٩٩.
- أحمد بهاء الدين شعبان، شهادة من جيل الغضب: ١٩٧٦-١٩٧٧، القاهرة، مركز المحروسة، ١٩٩٨.
- عبد الوهاب البياتي، سيرة ذاتية: القيثارة والذاكرة، لندن، البراز، ١٩٩٤.
- مصطفى بيومي، السادات في الرواية المصرية، المنيا، دار فرح، ٢٠٠٢.
- محمد باز، الشعراوي والسادات، القاهرة، مديولي للصغير، ١٩٩٨.
- ناجي بن نصر، أوهام المتقنين، تونس، بدون اسم الناشر، ١٩٨٦.
- سعيد بن سعيد، الأيدولوجيا والحداثة، مركز للتقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ١٩٨٧.
- طارق البشري، الحركة السياسية في مصر، ١٩٤٥-١٩٥٢، القاهرة، دار المستقبل العربي، ١٩٧٢.
- نديم البيطار، الأيدولوجيا الانقلابية، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٦.
- نديم البيطار، من النكسة إلى الثورة، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٨.
- نديم البيطار، للمتقنون والثورة، للرباط، المجلس القومي للثقافة العربية، ١٩٨٧.

فيصل دراج، الثقافة والديموقراطية، بيروت، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٨١.

عاصم النسوقي (تحرير)، شهادات ورؤى من تاريخ الحركة الشيوعية في مصر، القاهرة، مركز البحوث العربية، ٤ أجزاء، ١٩٩٨، ١٩٩٩، ٢٠٠٠، ٢٠٠١.

عاصم النسوقي (تحرير)، عمال وطلاب في الحركة الوطنية المصرية، القاهرة، دار المحروسة، ١٩٩٨.

إلياس فرح، تشرين الأول بين التصفية والتحرير، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٤.

محمود فوزي، السادات، القاهرة، مركز الراية، ١٩٩٧.

نعمات فؤاد، شخصية مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨.

رمزي ميخائيل جبار، أزمة الديمقراطية ومأزق الصحافة "القومية" ١٩٥٢-١٩٨٤، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٦.

محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٢.

محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٢.

عبد الغني الجمسي، منكرات الجمسي: حرب أكتوبر، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٩.

محمود جامعة، عرفت السادات، القاهرة، المكتب المصري الحديث، ١٩٩٨.

محمود يوسف الجندى، اليسار والحركة الوطنية في مصر (١٩٤٠-١٩٥٠)، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٩٦.

محمود الجولادى (تحرير)، الأمن القومى في مصر. منكرات، القاهرة، دار خيال، ١٩٩٩.

- شهدى حداد (تحرير)، المعارضة السياسية فى مصر وبرلمان ١٩٧٩، القاهرة، بدون اسم الناشر، ١٩٧٩.
- ياسين الحافظ، الهزيمة والأيدولوجيا المهزومة، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٩.
- توفيق الحكيم، عودة الوعي، بيروت، دار الشروق، ١٩٧٥.
- جمال حمدان، شخصية مصر. دراسة فى عبقرية المكان، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠.
- عادل حمودة، أزمة المثقفين وثورة يوليو، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٥.
- عادل حمودة، أيام السادات الأخيرة، القاهرة، دار فرسان، ٢٠٠١.
- إيمان محمد حسن، وظائف الأحزاب السياسية فى نظام التعددية. دراسة حالة التجمع فى مصر، ١٩٧٦-١٩٩١، القاهرة، الأهالى، ١٩٩٣.
- قافية خطاب، للمبدعين العرب وللنظام الجديد. حوارات، القاهرة، هاجر، ١٩٩٩.
- أحمد نبيل الهلالي، مرافعات أحمد نبيل الهلالي: الجناية رقم ٦٣٢، بيروت، دار الفارابي.
- أحمد نبيل الهلالي، حرية الفكر والعقيدة .. تلك هى القضية!، القاهرة، دار المصرى الجديد، ١٩٨٩.
- لطفى الخولى (إشراف)، حرب يونيو ١٩٦٧ بعد ٣٠ سنة، القاهرة، الأهرام، ١٩٩٧.
- سعد الدين إبراهيم، بين صانعى القرارات والمفكرين العرب، عمان، منتدى الفكر العربى، ١٩٨٨.
- سعد الدين إبراهيم، الأنجلجنسيا العربية. المثقفون والسلطة، عمان، منتدى الفكر العربى، ١٩٨٨.
- سعد الدين إبراهيم، رد الاعتبار للسادات، القاهرة، دار قباء، ١٩٩٩.

سماح إدريس، المتقف العربى والسلطة: بحث فى رواية التغريبية الناصرية، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٢.

يوسف إدريس، البحث عن السادات، طرابلس، المنشأة العامة للنشر، ١٩٨٤.

عبد الله إمام، الطريق إلى كرسى للرئاسة: أحداث مايو ١٩٧١، القاهرة، دار الخيال، ٢٠٠٠.

إيمان محمد حسن، وظائف الأحزاب السياسية فى نظم التعددية المقعدية. دراسة حالة حزب التجمع فى مصر ١٩٧٦-١٩٩١، القاهرة، الأهالى، ١٩٩٥.

صلاح عيسى، الثورة العرابية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢.

صلاح عيسى، متقفون وعسكر، القاهرة، مكتبة مدبولى، ١٩٨٦.

أمين إسكندر، اليمين واليسار فى الثقافة المصرية، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٨.

أمين إسكندر (إشراف)، تحالف كوبنهاجن: قراءة نقدية فى خطاب التطبيع، القاهرة، مركز للدراسات والأبحاث، ١٩٩٨.

عز الدين إسماعيل، الشعر العربى المعاصر، القاهرة، ١٩٨١.

أمين عز الدين، تاريخ الطبقة العاملة المصرية، ١٩١٩-١٩٢٩، القاهرة، دار الشعب، ١٩٧٠.

محمد جلال كشك، ماذا يريد الطلبة المصريون، بيروت، بدون اسم للنشر، ١٩٦٨.

محمد جلال كشك، النكسة والغزو الفكرى، الكويت، مكتبة الأمل، ١٩٦٩.

زهير محمد جميل كتنى، المتقف العربى والسلطة، مكة، ١٩٩٥.

سعيد لاوندى، متقفون فى مهمة رسمية، القاهرة، دار إيجى مصر، ١٩٩٩.

حنفى محلاوى، السادات بين هيكل وموسى، القاهرة، لدار العربية للكتاب، ١٩٩٤.

- زكى نجيب محمود، هموم المثقفين، بيروت، دار الشروق، ١٩٨١.
- زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربى، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧١.
- أحمد منصور، جيهان السادات شاهدة على عصر السادات، القاهرة، سلسلة كتب "الجزيرة"، دار الشروق، ٢٠٠٢.
- سليمان مظهر، قصة صراع السادات ورجال عبد الناصر، القاهرة، مديولى، ١٩٩٧.
- فؤاد مدحت، الليل والضباب: الوجه الآخر من تاريخ السادات، القاهرة، مديولى الصغير، ٢٠٠١.
- حاتم المصرى، الحركة الشيوعية المصرية الثالثة، النشأة وطبيعة الأزمة. موقف نقدى، بدون اسم الناشر، ١ يوليو ١٩٨٠ (ماستر).
- أنور محمد، شهود فى عصر السادات، القاهرة، دار إيجى مصر، ١٩٩٠.
- خالد محبى الدين، والآن نكلم، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٢.
- عبد الرحمن منيف، (حوار مع) الثقافة والمثقف فى المجتمع العربى، عمان، ١٩٩٨.
- إلياس مرقص، تاريخ الأحزاب الشيوعية فى الوطن العربى، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٤.
- مصطفى على مرتضى، المثقف والسلطة، دراسة تحليلية لوضع المثقف فى مصر فى فترة ١٩٧٠-١٩٩٥، القاهرة، دار قباء، ١٩٩٨.
- فؤاد مرسى، هذا الانفتاح الإقتصادى، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٦.
- محمد مورو، تنظيم الجهاد: أفكاره، جنوره، سياساته، القاهرة، الشركة العربية الدولية للنشر، ١٩٩٠.
- سلامة موسى، الاشتراكية، القاهرة، المصرية الأهلية، ١٩١٣.

نهى محمد نافع، الممارسة للديموقراطية في عصر السادات، القاهرة، بدون اسم الناشر، ١٩٩٤.

حبيب قهوجي، مسيرة السادات الاستسلامية من زيارة القدس حتى صفقة كامب ديفيد، دمشق، مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، ١٩٧٩.

تركي الربيعو، أزمة الخطاب التقدمي العربي: الخطاب الماركسي نموذجا ١٩٦٧-١٩٩٢، بيروت، دار المنتخب العربي، ١٩٩٥.

عبد العظيم رمضان، مصر في عصر السادات، جزءان، القاهرة، مدبولي، ١٩٨٦، ١٩٨٩.

عبد العظيم رمضان، عبد الناصر وأزمة مارس، القاهرة، روزاليوسف، ١٩٧٦.

عبد العظيم رمضان، حرب أكتوبر في محكمة التاريخ، القاهرة، روزاليوسف، ١٩٨٤.

عبد العظيم رمضان، صراع الطبقات في مصر، بيروت، المؤسسة العربية للنشر، ١٩٧٨.

أحمد صائق سعد (تحرير)، الإنتلجنسيا العربية (ندوة)، طرابلس، بدون تاريخ.

أحمد صائق سعد، دراسات في الثقافة العضوية، بيروت، دار الفارابي، ١٩٨٨.

رفعت السعيد، تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر ١٩٠٠-١٩٢٥، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٥.

رفعت السعيد، كتابات عن الماركسية، القاهرة، دار الأمل، ١٩٩٨.

رفعت السعيد، ماركسية المستقبل، القاهرة، دار الأمل، ١٩٩١.

رفعت السعيد، مجرد نكريات، جزءان، قبرص-دمشق، دار المدى، ١٩٩٩.

رفعت السعيد، (تحرير)، هكذا تكلم الشيوعيون، القاهرة، دار الأمل، ١٩٨٩.

رفعت السعيد، أرشيف اليسار. سيرة ذاتية لمناضلي اليسار، القاهرة، العربي، ١٩٩٩.

- رفعت السعيد، تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، ١٩٥٧-١٩٦٥، القاهرة، بدون اسم الناشر، ١٩٨٦.
- رفعت السعيد، تاريخ المنظمات اليسارية المصرية ١٩٤٠-١٩٥٠، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٧.
- رفعت السعيد، تاريخ منظمات اليسار المصرى ١٩٥٠-١٩٥٧، القاهرة، الأمل، ١٩٨٦.
- رفعت السعيد، والصمت.. لا!، القاهرة، دار التنوير، ١٩٩٥.
- هشام السلامونى، الجيل الذى واجه عبد الناصر والسادات، القاهرة، دار قباء، ١٩٩٩.
- أروى صالح، المبتسرون: دقاتر واحدة من جيل الحركة الطلابية، القاهرة، دار النهر، ١٩٩٦.
- ماجد سامرائى، سؤال الحرية، دمشق، الأهالى، ١٩٩٩.
- عبد المنعم الصاوى، وماذا بعد ٦ أكتوبر، القاهرة، روزاليوسف، ١٩٧٤.
- السيد ياسين ، الوعى القومى المعاصر، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، ١٩٩١.
- عبد القادر صاحب، ١٨ و ١٩ يناير. رؤية واقعية، القاهرة، دار مصر المحروسة، ٢٠٠٢.
- بشير السباعى، مرآيا الانتلجنتسيا، الأسكندرية، دار النيل، ١٩٩٥.
- محمد سيد أحمد، بعد أن تسكت المدافع، بيروت، دار القضايا، ١٩٧٥.
- محمد سيد أحمد، مستقبل النظام الحزبى فى مصر، القاهرة، دار المستقبل العربى، ١٩٨٤.
- فؤاد سراج الدين، لماذا الحزب الجديد، القاهرة، دار الشروق، ١٩٧٧.
- عبد الغفار شكر، اليسار العربى وقضايا المستقبل، القاهرة، مديولى، ١٩٩٨.

- أحمد شقيرى، الهزيمة الكبرى، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٣.
- غالى شكرى، المتقنون والسلطة فى مصر، القاهرة، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٩٠.
- جورج طرابيشى، لامتقنون العرب والتراث، لندن، رياض الرئيس، ١٩٩١.
- مرفت الطرابيشى، الصحافة العربية والصراع العربى الإسرائيلى ١٩٦٧-١٩٧٣، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، ١٩٩٤.
- عبد الستار الطويلة، السادات الذى عرفته، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.
- عبد الله التركمانى، الأحزاب الشيوعية فى المشرق العربى، بيروت، مركز الآن، ٢٠٠٢.
- يوسف أبو سيف، وثائق ومواقف من تاريخ اليسار المصرى، ١٩٤٢-١٩٥٧، القاهرة، دار الأمل، ٢٠٠٠.
- السيد يوسف، الإخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والإرهاب فى مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.
- جمال زهران، السياسة الخارجية لمصر ١٩٧٠-١٩٨١، القاهرة، مكتبة مدبولى، ١٩٨٧.
- مراد وهبة، الشباب والمتقنون والتغير الاجتماعى، القاهرة، بدون اسم للنشر، ١٩٨٨.
- سعد زهران، فى أصول السياسة المصرية، القاهرة، دار المستقبل العربى، ١٩٨٥.
- محمد الزيات، السادات: القناع والحقيقة: منكرات، القاهرة، الأهالى، ١٩٨٩.

مقالات:

مقالات الطلبة

الكاتب مجهول، "الثورة قائمة.. المعركة مستمرة والنصر حليفنا"، العدد ٧ (يوليو ١٩٦٧) ص ٥-٩.

الكاتب مجهول، "الشعب الفلسطيني يدافع عن ثورته"، العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٧٠)، ص ٥-٩.

الكاتب مجهول، "عن اتفاقية سيناء"، العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٧٥)، ص ٥-١١.
عبد الرؤوف أبو علام، "خمسة دروس من النكسة"، العدد ٨ (أغسطس ١٩٦٧).

خيرى عزيز، "الليندى .. ودروس الإخفاق فى شيلى"، العدد ٢ (فبراير ١٩٧٢)، ص ٩٨-١٠٨.

محمود درويش، "شيء من الوطن"، العدد ٢ (فبراير ١٩٧٠)، ص ٦-٨.
شوقى جلال، "الديموقراطية: المضمون أولا ثم الشكل"، العدد ١١ (نوفمبر ١٩٧٤)، ص ١٢-١٦.

عادل غانم، "ملاحظات حول القانون الأساسى للاتحاد الاشتراكى"، العدد ٥ (مايو ١٩٦٨)، ص ٣٧-٣٨.

عبد الرحيم غنيم، "حول قضية الطبقة الجديدة"، العدد ٢ (فبراير ١٩٦٨)، ص ٨٢-٩٣.

محمد الخفيف، "حتى البرنامج يتحول إلى الواقع"، العدد ٥ (مايو ١٩٦٨)، ص ١٤-١٨.

سامى خشبة، "جيلنا: نقد، حرية ومشاكل"، العدد ٩ (سبتمبر ١٩٦٩)، ص ٦٦-٦١.

لطيف الخولى، "عبد الناصر.. مناضل وزئيس للجمهورية"، العدد ٢ (فبراير ١٩٦٥)، ص ٥-١١.

لطفي الخولى، "تحو.. نقد ذاتي للشعب"، العدد ٥ (مايو ١٩٦٧)، ص ٨-١٠.

لطفي الخولى، "المتفكرون والعمل السياسي"، العدد ٥ (مايو ١٩٦٧)، ص ٣١-٣٨.

لطفي الخولى، "٥ يونيو: الحقيقة والمستقبل"، العدد ٨ (أغسطس ١٩٦٧)، ص ٥-١٢.

لطفي الخولى، "تحو مراكز ثورية للدفاع المشترك"، العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٦٧)، ص ٥-٩.

لطفي الخولى، "حسابات ستة شهور عن العدوان والمقاومة"، العدد ١٢ (ديسمبر ١٩٦٧)، ص ٥٦-٧١.

لطفي الخولى، "تحو جبهة عربية حول المقاومة الفلسطينية"، العدد ٥ (مايو ١٩٦٨)، ص ٥-٨.

لطفي الخولى، "يونيو ١٩٦٧. يونيو ١٩٦٨"، العدد ٦ (يونيو ١٩٦٨)، ص ٥-١٤.

لطفي الخولى، "جبهة عربية يهودية عالمية ضد الإمبريالية والعنصرية"، العدد ٤ (أبريل ١٩٦٩)، ص ٥-١٠.

لطفي الخولى، "أسئلة تطرحها السبعينيات"، العدد ١ (يناير ١٩٧٠)، ص ٥-١٠.

لطفي الخولى، "٦ أكتوبر: المفاجأة والحقيقة"، العدد ١١ (نوفمبر ١٩٧٣)، ص ٥-١٣.

لطفي الخولى، "إسرائيل 'معراخ' وإسرائيل 'ركاخ'"، العدد ١ (يناير ١٩٧٤)، ص ٧٣-٧٦.

لطفي الخولى، "الكتاب والطليعة!"، العدد ١١ (نوفمبر ١٩٧٤)، ص ١٣١-١٣٢.

لطفي الخولي، "التفسير الفلسطيني لتاريخ البترول العربي"، العدد ١ (يناير ١٩٧٥)، ص ٥-١٣.

لطفي الخولي، "علم الجهل"، العدد ٦ (يونيو ١٩٧٥)، ص ٥-١١.

لطفي الخولي، "قضايا فلسطينية"، العدد ٧ (يوليو ١٩٧٥)، ص ٥-١٠.

لطفي الخولي، "مواقف اليسار المصري من قضيتين. ١- الموقف من أمريكا ٢- الموقف مع الاتحاد السوفييتي"، العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٧٥)، ص ٢٢-٣١.

لطفي الخولي، "اليسار.. بعد الانتخابات وبعد الأحزاب"، العدد ١٢ (ديسمبر ١٩٧٦)، ص ٥-١٢.

لطفي الخولي، "جماهير يناير بين الحكومة واليسار"، العدد ٢ (فبراير ١٩٧٧)، ص ٥-١٩.

عادل حسين، "الموقف الأمريكي من الصراع العربي الإسرائيلي"، العدد ١ (يناير ١٩٧٤)، ص ٤١-٥٠.

عادل حسين، "تقد للخطة والانفتاح الاقتصادي"، العدد ١ (يناير ١٩٧٥)، ص ١٠-٢٣.

عادل حسين، "رؤية نقدية لبيان الحكومة"، العدد ٦ (يناير ١٩٧٥)، ص ٣٩-٤٩.

صلاح عيسى، "مستقبل الرجعية في مصر"، العدد ١١ (نوفمبر ١٩٧٤)، ص ١٤١-١٤٤.

ميشيل كامل، "مشاكل القوة الوطنية داخل التحالف الوطني"، العدد ٥ (مايو ١٩٦٩)، ص ٩-١٩.

زكي مراد، "ماذا قالت ثورة ٩ و ١٠ يونيو؟"، العدد ٨ (أغسطس ١٩٦٨)، ص ٢٢-٢٥.

مكسيم رونسون، "عالم الصهيونية"، العدد ٨ (أغسطس ١٩٦٧)، ص ١٢-١٧.

محمد سيد أحمد، "صحافة مصر فى حاجة إلى ثورة ثقافية"، العدد ١٢ (ديسمبر ١٩٧٤)، ص ٨٥-٩١.

مصطفى طيبة، "المعنى الجديد للوحدة الوطنية والوحدة القومية"، العدد ٨ (أغسطس ١٩٦٨)، ص ٥١-٥٣.

أبو سيف يوسف، "على طريق ٩ يونيو العظيم"، العدد ٧ (يوليو ١٩٦٧)، ص ٧-٩.

أبو سيف يوسف، "عبد الناصر: مناضل ضد الاستعمار الجديد"، العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٧٢)، ص ١٤-٢١.

لطيفة الزيات، "الجيل الجديد: بين رفض وانتماء"، العدد ٩ (سبتمبر ١٩٦٩)، ص ٧٤-٨٠.

مقالات من مراجع متنوعة

إسماعيل صبرى عبد الله، "الثورة وإمكانية المحال"، أدب ونقد، العدد ٣٩، أغسطس ١٩٨٨، ص ١٨-٢٨.

أدونيس، "بيان ٥ حزيران ١٩٦٧"، الآداب، العدد ٧-٨ (يوليو-أغسطس ١٩٦٧)، ص ٧-١٢.

أدونيس، "افتتاحية"، مواقف، العدد ١ (أكتوبر-نوفمبر ١٩٦٨)، ص ١-٤.

أدونيس، "افتتاحية"، مواقف، العدد ٢ (يناير-فبراير ١٩٦٩)، ص ١-٤.

ناجى علوش، "قضية الوحدة العربية بعد ١٠ سنوات على الانفصال"، دراسات عربية، السنة السابعة، العدد (١٢ أكتوبر ١٩٧١).

إبراهيم عامر، "الدعاية العربية فى الميزان"، الآداب، العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٦٧)، ص ٢-٤.

أحمد محمد عطية، "تجيب محفوظ وطريق الثورة"، الآداب، العدد ٤ (أبريل ١٩٦٧)، ص ٩-١١.

صلاح عيسى، "لطفى الخولى والطلبة والماركسيون. محاولة لتفسير وإنصاف التاريخ"، الطلبة، عدد تذكاري خاص (٢٠٠٠)، ص ٦٤-٨٥.

طاهر لبيب، "العالم والمتقف والإنتلجنسى"، فى عدد من المؤلفين، الثقافة والمتقف والوطن العربى، المصدر السابق الذكر، ص ١٧-٣٤.

أحمد شرف، "الشيوعيون المصريون والقضية الفلسطينية"، فى العالم (إشراف)، المصدر السابق الذكر، ص ٢٥٤-٢٦٥.

محمد سيد أحمد، "ثورة ٢٣ يوليو والمتقفون"، أدب ونقد، العدد ٤١ (أكتوبر ١٩٨٨)، ص ٤٥-٦٢.

بسام طيبي، "حول الفكر العربى المعاصر: كتابة وصفية وكتابة ثورية"، مواقف، العدد ٣ (مارس-أبريل ١٩٦٩)، ص ٩٦-٩٧.

عمر التلمعبانى، "ليست الجولة الأخيرة"، الدعوة، العدد ١١ (أبريل ١٩٧٧)، ص ٢-٤.

كارم يحيى (حوار تحت إشرافه)، "أبعاد سياسية فى تجربة 'الطلبة'"، عدد خاص (٢٠٠٠)، ص ٩-٢٢.

المؤلف فى سطور:

چينارو چيرقازيو

أستاذ مساعد فى تاريخ وسياسة الشرق الأوسط فى قسم السياسة والعلاقات الدولية والتاريخ المعاصر بجامعة ماكوارى فى سيدنى، أستراليا Macquarie University of Sydney، حيث يعمل أيضا مديرا لمركز دراسات الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. حصل على الدكتوراة فى جامعة نابولى "الأورينتالى" وقام بالتدريس فيها من عام ٢٠٠٥ وحتى ٢٠٠٨. كما درس أيضا فى جامعات المنصورة وميلانو وساليرنو وعمل كباحث مساعد فى جامعة بريستول. تركز أبحاثه ومقالاته المنشورة على الحركة الماركسية والمعارضة العلمانية بمصر والحركات الاجتماعية ودور المثقفين العرب وسياسات الإعلام العربى وعملية المقرطة فى العالم العربى ومجتمعات مسلمى المهجر فى الغرب.

المترجمان فى سطور:

١- بسمه محمد عبد الرحمن

طبيبة نفسية وقاصة ومترجمة. نشرت قصصها فى العديد من الدوريات
الأنبية، ولها مجموعة قصصية باسم "الطائر الأسود" - طبعة محدودة. نشر لها فى
المشروع القومى للترجمة كتاب "الكاتب وواقعه" لـ ماريو پارچاس يوسا. نشرت
لها سلسلة فى قصص الأطفال باسم "بينى وبينك" عن دار بردى.

٢- كارمينى كارتولانو

درس اللغة والأدب العربى فى معهد الأورينتالى بنابولى. مقيم فى القاهرة منذ عام ١٩٩٩ حيث يعمل بمهنة التدريس مدرسا للغة الإيطالية فى المركز الثقافى الإيطالى بالقاهرة. حصل على ماجستير فى تدريس وتطوير اللغة والثقافة الإيطالية للأجانب (ITALS). يتعاون مع دور نشر إيطالية كمستشار فى الأدب العربى المعاصر. نشرت له رواية مترجمة عن العربية إلى الإيطالية وهى رواية "أن تكون عباس العبد" لـ أحمد العايدى كما ترجم إلى العربية المسرحية الإيطالية "القربة" التى نشرتها دار ميريت.

التصحيح للغوى: أحمد حمودة
الإشراف الفنى: حسن كامل

يركز هذا الكتاب على تاريخ الأفكار والمنظمات الماركسية في مصر في الفترة الأخيرة من الحكم الناصري، وحتى اغتيال السادات في 1981.

والواقع أن أفكار اليسار تمثل جزءاً من التراث الفكري العربي المعاصر؛ إذ بدأت تنتشر قادمة من أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر، وتمثل الماركسية بالتالي جزءاً من الجدل الثقافي والسياسي المصري منذ العشرينيات، كما اكتسبت الحركة الماركسية انتشاراً كبيراً تحديداً بين المثقفين والطلاب والعمال في الأربعينيات، وشكلت أيضاً قوة مهمة منذ ثورة يوليو وما بعدها.

وقد قامت الناصرية بقمع الماركسية بشدة، حيث اعتبرتها قوة منافسة خطيرة ثم حاولت بعد ذلك ضمها تحت لوائها عن طريق ضم المناضلين الماركسيين الأفراد باعتبارهم كوادراً في الاتحاد الاشتراكي مقابل حل المنظمات الشيوعية، وحدث ذلك في 1965 ومن هذه النقطة تبدأ القصة الرئيسية لهذا الكتاب، الذي يتوقف أمام أهم الأحداث في تطور الأفكار والممارسات السياسية لليسار المصري، وأمام العلاقة المعقدة بين قوى اليسار والسلطة.

ومن هذا المنظور حلل الكتاب تأثير هزيمة 1967 وحركة الجماهير في عام 1968، وصعود السادات للسلطة والحركة الطلابية في السبعينيات وحرب أكتوبر عام 1973 والاختيارات الدراماتيكية، التي اتخذها السادات في السياسة الداخلية والخارجية حتى اغتياله في عام 1981.

ويميز المؤلف ما بين "يسار رسمي" و"يسار راديكالي" واصفاً تاريخهما والعلاقة فيما بينهما، وبين السلطة، ويبرز أيديولوجياتهما ونجاحاتهما وخصوصاً حدود كل منهما في محاولة لتفسير تهميش القوى الماركسية منذ بداية الثمانينيات.